كلمة الوزارة

العربيّة وطنُ الأمّة الرُّوحيُّ

محمد الأحمد
وزير الثقافة

أسعد الله صباح عشّاق العربيّة.

اللُّغة ألفاظ يُعَبِّرُ بها كلّ قومٍ عن أغراضهم كما عُرِّفت عند علماء العربية، ولمّا كانت أغراض كلّ قوم ومقاصدهم متغيّرة لا تستقرّ على هيئةٍ واحدةٍ كانت اللُّغة مطواعةً تواكب هذا التغيّر المستمرّ.

وقد أَوْلى المفكّرون اللُّغة أهميّة بالغة فيما كتبوه، إذ هي الحصن الحصين للهُويّة ووحدة الأمّة، فالفيلسوفُ الألمانيُّ هيدغر يرى أنّ لغتَه هي مسكنُه وموطنُه ومستقرُّه وحدود عالمه الحميم، ومِن خلال عيونها ينظر إلى بقيّة أرجاء الوطن الفسيح.

ويرى الفيلسوف الفرنسيّ كوند بلاك أَنَّ عمليّة التفكير مستحيلة بغير اللُّغة ورموزها، ولا معرفةَ بغير تحليلٍ، ولا تحليلَ بغيرِ رموز.

❀ كلمة السيد الوزير في حفل تكريم الفائزين في حفظ الشعر العربي، أُلقيت في مكتبة الأسد، بتاريخ: ١٥/١٠/٢٠١٨م.

ورأى ابن خلدون أنَّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة، ووضَّح الترابط القائم بينها وبين ثقافة المجتمع والفرد.

ومن يطالع التاريخ يجد أنَّ اللُّغة العربيّة أقدم اللُّغات المحكيّة وأكثرها أصالةً وغزارةً، وكانت منذ منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم والارتقاء للجنس البشري، حتى إنّ جامعة السوربون الفرنسية درّست العلوم الطّبّيّة وأعلامها (ابن سينا – الرازي – ابن النفيس) بالعربيّة حيناً من الدّهر.

إنَّ اللغة العربيّة جوهر الوجود العربيّ، والعلاقة عضويّة ووجوديّة بين اللغة والمواطنة المسؤولة، التي ينبغي أنْ يتّصف بها العربيّ لساناً وثقافةً وموقفاً علميّاً، وقد شهد علماء كبار بمنزلة العربيّة، فهذا المستشرق النمساويّ غوستاف غرونباوم يقول: «تمتاز العربيّة باليُسر في استعمال المجاز، وإنَّ ما بها من كنايات ومجازات وأشعار ليرفعُها كثيراً فوق أيِّ لغة بشريّة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أشدُّ اللُّغات اختصاراً في إيصال المعاني وفي النقل إليها»، ويقول المستشرق الإيطاليّ كارل نلينو: «إنّ اللغة العربيّة تفوق سائر اللُّغات رَوْنقاً، ويعجز اللِّسانُ عن وصف محاسنها».

ولمّا كانت العربيّة لغة الأمّة ولها هذه المنزلة المرموقة سعت الدولة السورية منذ تخلُّصها من براثن الاحتلال العثمانيّ إلى إعادة المكانة والألق الذي كان لها، فدرّست الطب والحقوق بالعربيّة، وأنشأت المجمع العلْميّ العربيّ عام (١٩١٩م) الذي يعَدّ الأب الرّوحيّ لمجامع اللغة العربيّة كلّها، ثمّ أصدرت قانوناً لحماية اللغة العربيّة في خمسينيات القرن الماضي، وصارت سورية المثال الصحيح في الحفاظ على اللغة العربيّة، وتدريس العلوم كلّها بها، وأصدر السّيّد الرئيس القائد المؤسِّس حافظ الأسد المرسومَ الرامي إلى تعليم اللغة العربيّة لغير المختصّين للنهوض باللغة العربيّة في المعاهد والجامعات السورية، ثمّ أصدر السيد الرئيس بشّار الأسد القرار الجمهوريّ المتضمّن تشكيل لجنة التمكين للغة العربيّة لوضع خطة عمل

وطنية للارتقاء باللغة العربيّة، وقدّم سيادته إلى مؤتمر القمّة العربيّ الذي عُقد في دمشق عام (٢٠٠٨م) مشروع النهوض باللُّغة العربيّة للتَّوَجُّهِ نحو مجتمع المعرفة.

أيُّها الحفل الكريم:

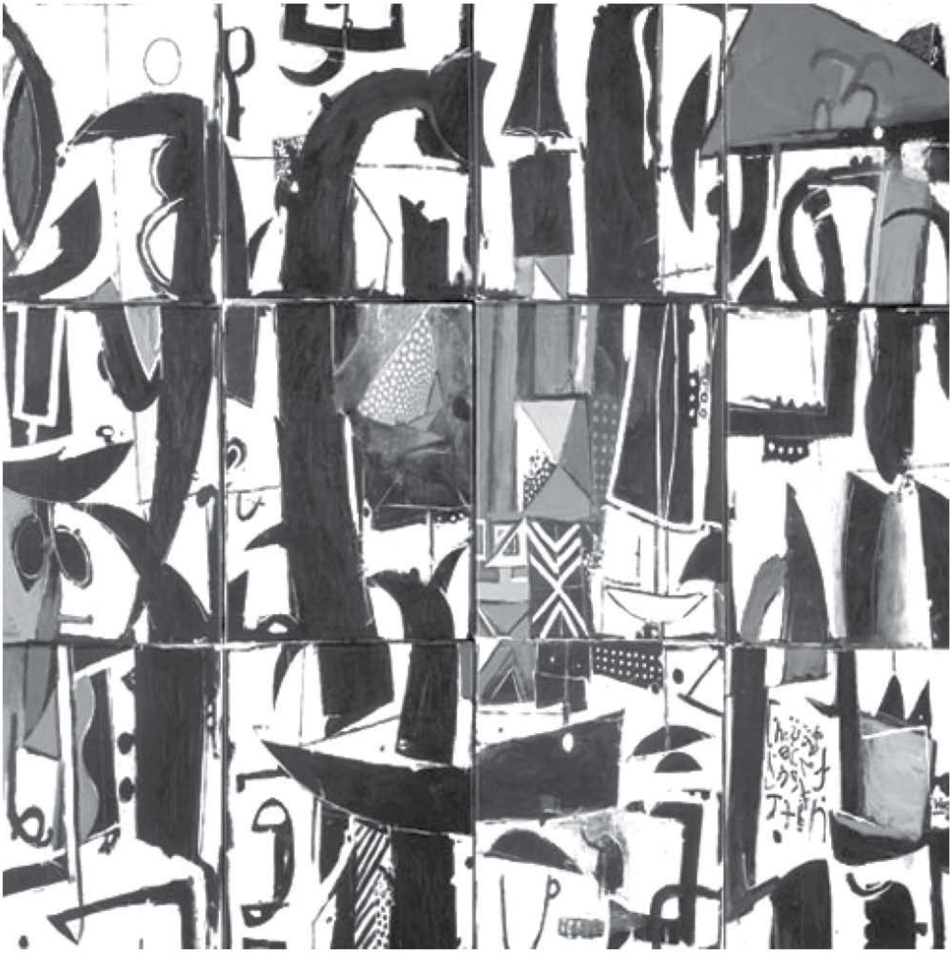
يأتي اجتماعنا هذا تكريماً للفائزين بمسابقة حفظ الشّعر العربيّ - الدورة الثّانية، التي تقيمها اللّجنة الفَرْعيّة للتمكين للغة العربيّة في وزارة الثقافة، وهذا إنجازٌ يصبُّ في صميم خدمة العربيّة والتمكينِ لها في نفوسِ أبنائنا، ولا يخفى ما في حفظ هذه الأشعار الجِياد الفِصَاح من آثارٍ طيبة محمودة في امتلاك حافظها لناصية البيان وانقياد اللُّغة له انقيادَ النَّسيم للأنفِ، فضلاً عمّا تحملُه مِنْ مَعَانٍ ساميةٍ راقيةٍ تُؤَجِّجُ الوجدان، وتغذو الرّوح بألوانٍ من القول بهيجة.

إن الشعر أجمل المخلوقات، وقد رافق العربيّ في عصوره كلّها من الجاهليّة حتّى الآن يحملُ مواجده، وينفث آهاته، ويعلن أفراحه وأمجاده، إنَّه أعظم سجلٍّ قَيَّدَ مآثر العربيّ ومواجعه وأحلامه وأمانيه، إنّه سائلٌ أخضرُ أبديُّ الحُسْنِ والتوهُّج لا ينفكُّ يسري في روح الإنسان العربيّ.

أُهَنِّئُ الفائزين في هذه المسابقة: غيث منصور، وضحى رضى، ويوشع ملحم، وياسر الخيّر، وأقول لهم: إنّكم فرسانُ العربيّة، وحَمْلُها والعنايةُ بها والغَيْرَةُ عليها أمانةٌ في أعناقكم، وأرجو لكم مزيداً من الألق والنّجاح.

وإنّ وزارة الثقافة لتشعر بالغبطة والسعادة إذ مَدَّت هذه المسابقة جسوراً من العمل بينها وبين الجامعة، إذ إنَّ أكثرَ الفائزين والمتقدِّمين هم من طُلّاب قسم اللُّغة العربيّة في جامعة دمشق، وهذا دليل على أَنَّ مقاصدنا واحدة في حبِّ هذه اللغة الشريفة والتمكين لها.

طابت أوقاتكم.



كلمة العدد

الإرهاب والميديا والعولمة

ناظم مهنا
رئيس التحرير

-١-

يمكننا القول بيقين وبصوت جهوري، إن الإرهاب قد هُزم على الأرض السورية، هذه حقيقة ساطعة، اعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء، ويترتّب على هذا الانتصار أشياء كثيرة.

كان مقرراً لهذا الإرهاب أن ينهي سورية، دولةً وشعباً وأرضاً، هكذا أرادت الولايات المتحدة الأمريكية وأتباعُها الاستعماريون والإقليميون، وجنّدوا لهذا العدوان ما لم يتخيّله خيال، في حرب لا مثيل لها في التاريخ، وانتصر السوريون، قيادةً وشعباً وحضارة ضاربة في أعماق التاريخ، انتصروا بفضل التضحيات العظيمة للشعب السوري، متمثلاً بجيشه العربي السوري، وبمساندة الحلفاء والأصدقاء الحقيقيين، الذين قدّموا معنا التضحيات الجسام، وكانوا شركاء في الانتصار الكاسح.

هزيمة الإرهـاب في سورية والعراق، يعني انحسار موجة الإرهـاب أو (زمن) الإرهاب عن المنطقة والعالم، ويعني هذا أننا دخلنا في عصر جديد، تُطوى فيه صفحة الحرب البشعة، ومع متطلبات الإعمار المطروحة بقوة، نجد أنفسنا أمام آفاق جديدة

مفتوحة على التجدُّد، والدخول في عصر جديد، يكون فيه إعمار الإنسان الجديد أولوية، وفي القلب من هذه العملية الشاملة، الحاضرة في ذهن قيادتنا، ونحن على ثقة من ذلك.

ينبغي في هذه المرحلة أن نحوّل ما جرى لنا من ويلات ومعاناة إلى فرصة عظيمة للنهوض، كما هي الشعوب الحية في التاريخ القديم والحديث، وهكذا نكون قد انتصرنا انتصاراً ناجزاً كاملاً، عميقاً لا شبهة فيه، وكما حققنا إعجازاً مبهراً في الانتصار على الإرهاب العالمي، نرسِّخ انتصارنا الحضاري وريادتنا في هذا العالم كشعب مبدع ذي ثقافة.

إذن، نحن أمام تحدٍّ مصيري، وفي صراع مع أنفسنا ومع قدرنا في أن نكون أو لا نكون، وهذا أيضاً يتوقَّف على مدى الاستجابة لهذا التحدي.

-٢-

لكن، لماذا جمعنا هذه العناوين معاً في محور واحد؟

للميديا الجديدة، علاقة بالإرهاب، لغة الميديا الجديدة متوحشة ولا أخلاقية، وهي تخريبية إلى حدود قصوى، وُظِّفت الميديا في عملية التضليل والخداع، والتهييج والتحريض، في تطبيقات غير مسبوقة من صناعة الأكاذيب والفبركات والصور المختلقة، بالإضافة إلى استثمار أدوات التواصل الجديدة، وتوظيف الثقافة عبر شراء مثقَّفين، في خدمة هذه الميديا.

فيما مضى، كان للإعلام دور تنويري، وكان الإعلام يقدِّم المعلومات، وتتنافس القوى على جذب أكبر عدد من المستهلكين للإعلام، عبر ادعاء المصداقية أو السعي إليها. الميديا اليوم تجاهر بالتضليل، وتتنافس فيما بينها، وهي في سباق من أجل التضليل.

الميديا اليوم غدت أكثر قوة وشراسة، وهي عامل شديد التأثير في عملية الهيمنة والتحكم وخلق الأزمات والحروب. وهذا النوع السائد حالياً من الميديا التي ربطت

نفسها بالإرهاب وبالعدوان، نقدِّر خطرها، ونتوجه بمحاولة فهم أعمق مما هو قائم، لهذا السلاح الجديد، الشديد الضراوة والضرر، ونأمل أن نتوصل كقرّاء عرب وسوريين بشكل خاص إلى فهم عميق للميديا الجديدة وأساليبها وأبعادها.

أما فيما يخص العنوان الآخر (العولمة) فنحن أيضاً بحاجة ماسة إلى دراسات معمّقة حول العولمة وتجلياتها وتموضعاتها وأبعادها وما هو سلبي وما هو إيجابي فيها، ويبدو لي أن للعولمة هذين الوجهين المتناقضين، ومن اللافت أن الرئيس الأمريكي الحالي «رونالد ترامب» شنَّ هجوماً ضارياً ضد العولمة وأعلن رفضه لها، وهذا إعلان موت حقبة العولمة، والعودة إلى حقبة العصبية الوطنية الأمريكية التي قد تذهب بالعالم إلى المزيد من الحروب الكبرى. ومن هنا تأتي الحاجة إلى فهم هذه العلاقات بين هذه العناوين، التي تشكل أمريكا (الإمبريالية) القاسم المشترك فيما بينها.

ونُذكّر، هنا، بقول جان جوريس: «الرأسمالية تحمل الحرب كالسحب العاصفة».

-٣-

محور هذا العدد: الميديا والإرهاب والعولمة، وتفكيك خطاب الإرهاب.

قد يبدو المحور مكوّناً من عناوين كثيرة وكبيرة، كل واحد منها يصلح أن يكون محوراً قائماً بذاته. رأينا أن نجمع العناوين في محور واحد، أولاً: للعلاقة التداخلية بين هذه العناوين في مضامينها وتطبيقاتها، وثانياً: لكي يكون أمام المشاركين في المحور، من الأساتذة الكرام، حرية أو مرونة في اختيار الجانب الذي يرونه مناسباً للبحث، ويمكن أن يقدِّموا من خلاله الفائدة للقرّاء الأعزّاء، وثالثاً: من أجل البعد عن التضييق والتكرار.

ربما كان من المناسب أن نغير ترتيب العناوين ونبدأ بالموضوع المركزي الذي واجهناه بجدارة (الإرهاب)، ويكون عنوان المحور أكثر منطقية على الشكل الآتي: «الإرهاب والعولمة والميديا، وتفكيك خطاب الإرهاب» والعنوان الأخير، قد يبدو تنطُّعاً، وربما أكبر من إمكانات مجلة شهرية، فخطاب الإرهاب متشعِّبٌ ومركب وكثير

التعقيد، وهو لذلك سيبقى مفتوحاً لإسهامات أخرى من الكُتّاب والمفكرين. لكن، الترتيب هنا لايحمل بُعْداً تفضيلياً، وإن كنت أرغب في أن يحتل نقد الميديا الجديدة وأبعادها حيزاً أوسع في هذا المحور، وهذا ما دفعني لجعل هذا العنوان في مقدمة العناوين، وليس لأنه أكثر منها أهمية أو تأثيراً، وكما قلنا فإن العناوين شديدة التعالق والتداخل فيما بينها.

أشعر بامتنان حيال الأساتذة الكبار الذين تجاوبوا معنا، وقدّموا بحوثهم وإسهاماتهم القيمة، وأغنوا هذا المحور من جوانب كثيرة، على الرغم من مشاغلهم البحثية والتدريسية، وهذا جهد ثقافي كريم يستحقون عليه جزيل الشكر، فالأبحاث كُتبت بجدية عالية وبروح تحليلية تليق بوضعنا الثقافي الوطني، أرجو أن يُقرأ هذا المحور، بالجدية نفسها، ومن المستويات الوطنية كلها، وبصحوة وروح نقدية، لتصويب ما يحتاج إلى التصويب، ونأمل أن يقدِّم هذا المحور فائدة حقيقية لقرّاء المجلة.

❀ ❀ ❀

داعش.. أدوات وأساليب

د. محمد نظام

داعش... اختصار (دولة الإسلام في العراق والشام) حركة إرهابية مسلّحة تتبنّى الفكر السلفي التكفيري، وقد وضعت هدفاً نهائياً لها يتمثل في تشكيل الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة في العراق وسورية. وقد بات واضحاً أنّ أمريكا والدول الغربية والدول الرجعية العربية أدّت دوراً مهماً في تشكيل (داعش)، ويمكننا الاستشهاد على ذلك باعترافات وزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلينتون، التي ذكرت في كتابها (الخيارات الصعبة) ما يأتي: «كنت قد سافرت إلى (١٢) بلداً في العالم، واتفقت مع كثير من أصدقائي أنّه في اللحظة التي يعلن فيها عن تأسيس (داعش) سنعلن موافقتنا - نحن والأوروبيون - بشكل رسمي. وكان قد حصل الاتفاق على أن يعلن عن الموافقة في (٥ تموز ٢٠١٣م)».

(داعش) هذه انتهجت أساليبَ وفنوناً استطاعت من خلالها تحقيق إنجازات كبيرة وواسعة في أمداء زمنية متقاربة نسبياً، مستفيدة من بعض الثغرات التي كانت تعيشها أمتنا.

ولمّا كان الخطر من وجود تنظيم (داعش) لم ينته بشكل نهائي على الرغم من الانتصارات التي تمثلت في تحرير مساحات واسعة مما كان يسيطر عليها، فإنّ تسليط الضوء على تلك الأدوات التي استخدمها والأساليب التي مارسها، سيسمح أكثر فأكثر بوضع الخطط الوقائية والإستراتيجيات المستقبلية، للتصدي لهذا التنظيم ومواجهته على الصعد كلها الإعلامية والنفسية والدينية والتربوية والثقافية إضافة إلى المواجهة السياسية والعسكرية.

أساليب الحرب النفسية...

على الرغم من الانتهاكات الفظيعة لحقوق الانسان التي يرتكبها تنظيم (داعش) الإرهابي ومحاولتــه إثارة الخوف في نفوس الناس من خلال بث مشاهد مرعبة، تسهم كثيرٌ من وسائل الإعــلام الإقليمية والدولية -من حيث تدري أو لا تــدري- بترسيخ هذه المشاهد إلى درجة سهّلــت على هذا التنظيــم احتلال مناطق كثيرة فــي سورية والعراق دون قتــال. وأصبحت وســائل التواصل الاجتماعي مثل تويتــر أو يوتيوب، مكاناً دعائيــاً يستخدمه (داعش) لنشر حربــه النفسية ضد شعوب المنطقة والعالم والترويج لأفكاره كعامل محفّز يؤطر به خطاباته المفبركــة والمؤدلجة التي يحاول من خلالها تسويغ جرائمه ورسم صورة مغايرة عن حقيقته الإرهابية لتحقيق أهدافه.

اعتمــد هذا التنظيم الإرهابي علــى ثلاثة أبعاد نفسية هي الإشاعــة والدعاية والحرب الإعلاميــة، لخلط الأوراق وقلب الحقائق وخلق بطولات وهميــة، لأنه يعرف تماماً أنه ليس بإمكانــه فرض سيطرته علــى أي بلدة أو منطقة في سورية أو العــراق دون اللجوء إلى خلق حالة من الفوضى من خلال تصوير الجرائم التي يرتكبها بطرائق وحشية كالإحراق والإغراق وقطع الرؤوس وبثهــا عبر وسائل التواصل الاجتماعي والفضائيات الداعمة له. ويعتمد هذا التنظيم الإرهابي في أغلب الأحيان على ذبح الضحايا لترسيخ الحرب النفسية كعنصرٍ أساسٍ فــي إستراتيجيته التي تعتمــد أيضاً على التفجيرات الانتحاريــة واستخدام الغازات السامة لقتــل الأبرياء في المدن والبلدات التي يستهدفهــا أو الإبادة الجماعية كما حدث في قاعدة (سبايكر) بالعراق.

وإذا ما تتبعنا أساليب «داعش» في الحرب النفسية فإننا نجد أنه يستخدم تقنيات حديثة ولا يعتمــد على ما يرويه الناجون من فظاعات وأهوال فحسب. ويؤكد الخبراء والمحللون أن «قــوة داعش» لا تكمن بأي حال من الأحوال بقدراتهــا العسكرية أو بتكتيكاتها الإستراتيجية علــى أرض المعارك كما يحاول أن يصــور بعضهم، ولكن تعتمد على التباهي الفج بجرائمها عبر مواقع الإنترنت وشبكات التواصــل الاجتماعي، وهذا العمل الممنهج والمكرس لتصوير الجرائم بوحشية مفرطة، هو الذي دفع المحلل البارز (ديفيد بروكس) إلى أن يصف ذلك في مقــال له في صحيفة «نيويورك تايمز» بأنه يعبر عن نقطة تحوُّل مرعبة وغامضة في قواعد السلوك البشري والحضارة الإنسانية.

إنّ استخـــدام تكتيـــكات مثل نشر الأخبـــار الكاذبة والمفبركة حـــول انتصارات (داعش) وفتوحاته، وتهويل قدراته وتضخيـــم جرائمه وبطولات أفراده وقادته، يصب كله في عمليات الحرب النفسية لهذه الجماعات الإرهابية.

وبعـــد معرفة هـــذه الحقائق والدلائل بات واضحـــاً أن «داعش» وعلـــى الرغم من الهالة الإعلاميـــة التـــي أحيط بها والحرب النفسيـــة التي يشنّها، يمر الآن فـــي أضعف حالاته من الناحيتيـــن المعنويـــة والقتالية، بعد أن فَقَد القدرة على التأثيـــر في سير المعارك، ومن هنا يتوجـــب على القادة الأمنيين والإعلاميين وخبراء الحرب النفسية مضاعفة الجهود من أجل إسقـــاط المنهجية الإعلامية لهذا التنظيم وغيره من التنظيمات الإرهابية التي لا يمكنها أن تنشـــط وتتكاثر إلاّ في أدران الفوضى، والدعاية الرخيصـــة، ودعم وسائل الإعلام المغرضة التـــي تموّل من دول غربية وإقليمية في مقدمتها أمريكا وقطر والسعودية.كما لا بد في هذا الصـــدد أن تتم الاستعانة بالأخصائيين في المجال الإعلامـــي وبعدة لغات لمواجهة الحملة الدعائية للتنظيم، والاستعانة أيضاً بزعماء دين معتدلين من أجل بث خطاب إسلامي معتدل، وفـــي الإطار الحكومي يجب الاستعانة بمراكز اتصـــالات مكافحة الإرهاب ومضاعفة العمل الإعلامـــي وذلك لكسب مصداقية أكبر في تفنيد الخطـــاب الإعلامي للتنظيمات الإرهابية. وهنا ينبغي التركيز على عدة مهام:

- التركيز على الأخبار والبرامج التي تكشف زيف الخطابات المفبركة والمدبلجة.
- الحذر مما ينشر من موضوعات لها صلة تزيد من قدرة الإرهابيين بمختلف التوجهات.
- مواجهة الفكـــر المتشدد بفكر معتدل عبر إقامة البرامج التثقيفية والحوارية بمشاركة خبراء ومفكرين في مجال علم النفس الاجتماعي.

تسخير شبكات التواصل الاجتماعي

مـــع تزايد استخدام شبكات التواصل الاجتماعـــي بشكل مستمر بين الفئات العمرية كافة والشرائح الاجتماعية المختلفة وتحوّلها من مواقع للتواصل إلى مواقع تستخدم لنشر التطرف وفكـــر الإرهاب أصبح من الضروري التركيز على الـــدور الذي تؤدّيه هذه المواقع في تجنيد الشباب واستقطابهم من طرف التنظيمات الإرهابية.

وعلـــى عكس ما يتخيله بعضهم، أو ينظر إلى هذا التنظيم بأنه تنظيم متخلّف، فإن (داعش) يدافع عن أفكاره في الشبكات المتداولة وشبكات التواصل الاجتماعي، وينشر فكره الخاص عبر

تلك الشبكات، وقد نشر التنظيم في بداية نشاطاته في سورية صوراً وأفلاماً أبهرت المتخصصين. كما انتقلت رموز (داعش) الأخرى عن طريق الصور، عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ.

– الفيس بوك والتويتر– والشبكات العامّة. هذه الطرق تحتاج إلى خبراء متخصصين ذوي باع طويل في هذا المجال، لذلك فإن (داعش) يستند في عمله في مجال الإعلام والنشر إلى الشبكات الفضائية والإلكترونية، على قواعد هندسية ذكيّة مجربة ومتخصصة في مجال الدعاية.

على سبيل المثال، في البداية كان (داعش) يعرض مشاهد مرعبة، تحرك مشاعر الخوف والذعر بين الناس (قطع الرؤوس، انتزاع قلوب الجنود المقتولين بالأسنان،حرق الطيّار الأردني بالنـــار، نبش قبور الأولياء والصالحين وحتى أصحاب الرســـول الأكرم. وبعدها شيئاً فشيئاً، أخـــذ يغيّر شكل دعاياته، فهيأ الظروف لعرض ونشر وثائـــق مدتها من (١٠ إلى ١٥) دقيقة، بشكل حرفي متقن، وفي فضاء إلكتروني عالي السرعة ومجّاني، مستعيناً بعناصره الأجانب، وبالأخص من أوروبا وأمريكا، المعتادين على استخدام مثل هذه الوسائل والأدوات.

فـــي هذا الإطار نشرت مجلـــة الإذاعات العربية في عددهـــا الأول عام (٢٠١٦م) دراسة للباحث المغربي ابن عيسى عسلون بعنوان «مواقع التواصل الاجتماعي: منصّات حيّة تُستغلّ لصناعـــة الإرهاب والموت». وحسب الدراسة فإنّ «التنظيمـــات المتطرّفة والإرهابية أدركت نجاعـــة شبكات التواصل الاجتماعـــي وعدّتها منصّات افتراضية مأمونـــة ومضمونه لتنفيذ مشروعهـــا الأيديولوجي، إذ تفانت بشكل لافت في استغلال هذه المنصّات للترويج لأفكارها العدمية وكسب قدر من التعاطف معها».

وبيّـــن ابن عيسى أنّ سهولة تمركز التنظيمـــات المتطرّفة في مواقع التواصل الاجتماعي بمـــا فيها الفيسبوك وتويتر واليوتوب فتحـــت المجال أمام هذه التنظيمات لوصول أكبر عدد ممكـــن من المتقبلين ومن ثمّ استقطاب أكبر عدد من الشباب و«تجنيدهم وتحريضهم» للعمل كعناصر إرهابية في هذه التنظيمات.

وقـــد توصلـــت الدراســـة إلى أن ما يعـــرف باسم تنظيـــم داعش الإرهابي يعـــدّ من أكثر التنظيمات استخداماً لشبكات التواصل الاجتماعي مقارنة بالتنظيمات الإرهابية التي سبقته مثل «القاعدة» و«بوكو حرام»، وحسب المصدر نفسه، فإنّ مميزات الفيسبوك وتويتر واليوتوب التـــي تكمن في سهولة الوصول إليها من طرف الجميع وفي تكلفتها المنخفضة أدت إلى رفعّ نسبة الإقبال على هذه المواقع بالمقارنة مع وسائل التسويق والإعلام التقليدية.

كما خلصت الدراسة إلى أنّ هذه التنظيمات تعتمد على مواقع التواصل الاجتماعي ليس للاستقطاب فحسب؛ بل «لاستعراض نفوذها وشراستها بغرض الحشد والتعبئة أو التخويف من مواجهتها» أو حتى لتوجيه رسائل تهديد و وعيد لمن تعدّه عدواً لها معتمدة في ذلك على تقنيين وفنيين مختصين في الدعاية والترويج الإلكتروني.

ومن بين المراجع التي اعتُمِدَت في هذا البحث، دراسة أخرى قام بها مركز سياسة الشرق الأوسط والتي بيَّنت أنّ تنظيم داعش الإرهابي استطاع الترويج لأفكاره الإرهابية من خلال (٤٦٠٠٠) حساب تويتر تستخدم لبث تغريدات مكثفة واستهداف عناصر جديدة. ولتحقيق هدف الاستقطاب والتجنيد من خلال مواقع التواصل الاجتماعي تُعتَمد اعتماد منهجية محكمة تتأسّس على ثلاث خطوات مترابطة:

المرحلة الأولى تركّز على إثارة العواطف، أي مرحلة التأثير الوجداني، من خلال إثارة العاطفة في سياق الغيرة على الدين وحجة الدفاع عن القيم المقدّسة، مع الاستعانة بنصوص دينية يروّج لها في شبكات التواصل الاجتماعي ومن خلال صور لأحداث مؤلمة تعرض لها بعض المسلمين مثل تفجيرات مرفقة برسائل حول ضرورة نصرة المسلمين و المضطهدين.

وتتمثّل المرحلة الثانية في الترويج للأفكار الجهادية، وتتعلق بدور الشبكات في نقل وترويج المعلومات والبلاغات الداعمة لوجهة نظر الجماعات المتطرّفة والدعوة إلى الالتحاق بمناطق «أرض الخلافة».

أمّا المرحلة الثالثة فهي الخطوة التي تتكفّل بالانتقال من مرحلة دغدغة المشاعر والتأثير الفكري والأيديولوجي، إلى المشاركة الفعلية بالقوة والعنف، من خلال «دعوة المستقطبين إلى تنفيذ عمليات إرهابية في محيطهم تستهدف من يصفهم التنظيم الإرهابي بالكفرة».

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها جاءت بعد التعديلات التي تسعى مواقع التواصل الاجتماعي إلى وضعها للحد من استغلالها من طرف التنظيمات الإرهابية للترويج لأعمالها من خلال حذف كل المحتويات التي تحرّض على العنف والإرهاب في آجال قصيرة.

كما تسعى دول كثيرة اليوم إلى وضع نظام أكثر فاعلية لتوعية مواطنيها بشأن تلك التنظيمات الإرهابية وإيقاف الحسابات التابعة لها أو الممجّدة للعنف والإرهاب، يُضاف إلى ذلك تشديد الرقابة على تحركات الأموال عبر الإنترنت.

سلاح وسائل الإعلام...

أصبح «الإعــلام» المحرك الأساس في شتى مناحي الحياة، فهو من يشكِّل عقول شريحة كبيــرة من الشعوب العربية والأجنبية، ويعتمد عليه عــدد كبير منهم، وذلك يظهر من خلال حروب الجيل الرابع والتي تعتمد في الأساس على وسائل الإعلام ونشر الشائعات من خلاله، وكان الركيــزة الكبرى الــذي اعتمد عليها تنظيم داعش الإرهابــي، في استقطاب عدد كبير والانبهار بالتقارير الإعلامية التي كانت تُصدَر مستهدفةً بعض المتعاطفين للانضمام لها.

وكشــف عدد من الدراسات التــي نُشِرَت أن التنظيم يملك سبع قنــوات فضائية، و(٩٠) ألف حساب على مواقع التواصل الاجتماعي، وتقدر ميزانيتها بثلاث مليارات دولار، وبحسب الدراسات فإن التنظيم يخوض حرب إعلامية بدرجة عالية من التقنية والشمول والاحتراف، مستعيناً بجنود يصعب حصرهم من المؤيدين الإلكترونيين عبر العالم.

إنّ نشاطــات (داعشــ) في مجال الإعلام قد أذهلت العالم فهــو يملك التقنيات الحديثة والتجهيزات المعقدة، وكادراً من المحترفين والمتخصصين المهرة.

وقد كشفت دراسة حديثة تحت عنوان الإعلام الجهادي: كيف وظَّفت التنظيمات الجهادية وسائــل الإعلام؟ فكان المنتج الإعلامي النهائي الذي يخرج من تنظيم داعش، يكشف عن أن التنظيم رصد مبالــغ ضخمة لتمويل بعض القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية، والمواقع الإلكترونية، والمجلات بهدف ترويج فكر التنظيم فى العالم من خلال اثنتي عشرة لغة.

وعدّت الدراسة الصادرة عن المركز العربي للدراسات أن بداية الإعلام الحقيقي لداعش كان من خلال إصدار أول صحيفة رسمية للخلافة الإسلامية، أطلق عليها اسم «دابق Dabiq»، والتي صدرت باللغتين العربية والإنكليزية، بهدف تبليغ رسالة الخلافة، وتوزيعها مجاناً ضمن نطاق سيطرة التنظيم في كل من سورية والعراق.

ومن خلال ما سبق نخلص إلى الملاحظات الآتية:

– يمثــل تنظيم «داعش» أحد أبرز ظواهر الجيل الرابع من الحروب، وإن توظيفه لوسائل الإعلام الحديثة إنما هــو امتداد للاستخدام الرقمي لتنظيم القاعدة، وإنَّ الجيل الثالث من المهاجريــن إلــى أوروبا والمتحولين دينياً هم الفئات الأكثر تأثــراً بأفكار التنظيم، وإنَّ نمط التجنيــد الرئيس لتنظيم «داعش» قد أصبح من خلال مواقــع التواصل الاجتماعي بدلاً من الاتصال المباشر الذي ساد في السابق.

- لا يعدّ الإعلام أداة ثانوية لدى تنظيم «داعش»، بل أداة رئيسية، ضمن البنية الاتصالية التـــي شكّلها التنظيم، فهو يقوم بتوظيف الإعلام ضمن إستراتيجية متكاملة تتسم بالمركزية، ومنهــا قيامــه بتسجيل أسماء الصحفييـــن العاملين على الأراضي الخاضعـــة له، واشتراطه لممارسة عملهم حصولهم على تصاريح خاصة بذلك، على أن يسبقها إعلان هؤلاء الصحفيين البيعــة لأمير التنظيم. وقد استطاع التنظيم استخـــدام وتسخير كل وسائل الإعلام (القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية والمجلات الورقية والإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي) لخدمة وتحقيق أهدافه.

- وجود عاملين أساسيين مؤثرين في مدى قدرة التنظيم على الاستخدام الأمثل للإعلام. أولهمـــا: يتمثـــل في الرؤية الكمّية لاستخـــدام التنظيم للإعلام، والتـــي يلاحظ منها أنه قام بتوظيف سبعة أذرع إعلامية لبث رسالته حول العالم، تتنوع بين القنوات الفضائية والإذاعات والصحف ومكاتب الاتصال على الأرض. وثانيهما: يتمثل في ارتباط الوسيلة بالنص والهدف، إذ يلاحـــظ استعانة التنظيم ببعض النصوص الدينية ونزعها من سياقها لتوظيفها في تسويغ ما يمارسه من عنف بهدف بث الرعب والرهبة في نفس المتلقي.

استخدام المدنيين دروعاً بشريّة...

يستغل (داعشـــ) الأسرى من النساء والأطفال والشيوخ كـــدروع بشريّة للدفاع عن قواته، ولحمايـــة نفوذه فـــي مناطق سيطرته، أو للهجـــوم على مناطق أخرى، وهـــذا ما يستلزم في مواجهته استخدام كل الوسائل الممكنة للتقليل من أذية المدنيين العزّل.

استغلال الأطفال والمراهقين...

نظّم (داعش) من بداية وجوده في سورية، دورات دينيّة للأطفال والمراهقين، حتى يتمكن مـــن اجتذاب هذه الفئة العمريّة من المجتمع، ومـــع إتمام الدورات يُزجُّ بهؤلاء في معسكرات للتدريب العسكريّ، وبعد إغرائهم وغسل أدمغتهم، يُحدِّد مهمّاتهم، ويُكلِّفهم بعمليات مختلفة، من ضمنها العمليات الانتحاريّة.

إنّ الأطفـــال والمراهقين، الذيـــن انضمّوا إلى تنظيم (داعش) في ســـنّ مبكرة، من أكثر الأوفيـــاء والمخلصين لهذا التنظيم، لأنّهم يعدّون وجودهم من دون وجود (داعش) بلا معنى، علاوةً على أنّ الأطفال يشكّلون دعاية إعلامية جيدة للتنظيم.

اجتذاب وتجنيد النساء...

إنّ عملية اجتذاب النساء إلى الإرهاب، وخلق مجموعات إرهابيّة خاصّة بالنساء في تنظيم (داعش)، ظاهرة بدأت تبدو للعلن في بداية عام (٢٠١٣م)، حين قام التنظيم بعد سيطرته على مدينة الرقّة، بإيجاد مجموعتين من المسلحات الإرهابيات، دعيت الأولى باسم (الخنساء) والثانية باسم (أم الريحان)، ووظيفة هاتين المجموعتين هي نقل العلوم المذهبية المنحرفة المأخوذة عن قادة (داعش) إلى النساء، ومراقبة التزام النساء بهذه التعاليم، وكذلك التفتيش البدنيّ للنساء على الحواجز، علما أنّ راتب كلّ واحدة منهن هو (٢٠٠) دولار، ومن شرط الانتساب إلى (داعش) أن تكون عازبة، وعمرها يتراوح بين (١٨ و٢٥) عاماً.

ويرجع السبب في رغبة النساء في العمل في صفوف التنظيم إلى اعتقادهنّ أنّهنّ، بانضمامهنّ إلى (داعش)، سيصبحن بمنأى عن خطر الإرهاب والقتل، وأنّهنّ سيصبحن أقوى من النساء الأخريات بحكم التجربة العسكرية، وبهذا يزيد اعتمادهنّ على أنفسهنّ ويصبحن مساويات للرجال.

كيف نجح داعش في استقطاب فئات دون غيرها؟

في أواخر عام (٢٠١٣م) كان العالم على موعد مع ظهور تنظيم وحشي أُضيف إلى قائمة التنظيمات الإرهابية الأكثر فتكاً ودموية... «داعش» ذلك التنظيم الذي ظهر بين ليلة وضحاها من العدم لينشر دمويته في كل بقاع الأرض، منفذاً أجندة تخريبية هدفها الأول والأساس «تشويه الدين الإسلامي» وتفكيك بلدانه إلى دويلات صغيرة متناحرة ومتقاتلة. تتار العصر الحديث الذين لم يسلم من شرورهم عسكري ولا مدني، كهل أو طفل، رجل أو امرأة، غربي أو شرقي، وعلى الرغم من بدء انحصار هذا التنظيم بعد فقده لكثيرٍ من مناطق سيطرته، وانحصار أعماله الإجرامية الوحشية في البلدان التي تمكن من النفاذ إليها، إلا أننا لا يمكن أن نمر مرور الكرام على الفئات التي انضمت له طواعية وشكلت قوامه الأساسي في العراق والشام، وحتى على مستوى ذئابه المنفردة المنتشرة عبر العالم، ولعل السؤال الأبرز الذي يُطرح في أذهان العامة بشكل دائم: «لماذا ينجح الدواعش في التأثير على بعض الناس ومن ثم استقطابهم لصفوفه، ولا ينجح مع غيرهم؟»، يمكن الوصول إلى إجابة منطقية عن هذا السؤال، إذا قمنا باستعراض الفئات والشرائح المنتمية إلى داعش، لنجد أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات أساسية:

الأولى: المضطربون نفسياً:

يمكن القول إن فئة «المضطربين نفسياً» إحدى أبرز وأهم الفئات التي تنضم إلى داعش، تلك الفئة التي تعاني في الأساس من مشاكل نفسية وخلل في سلوكياتها الإنسانية، وليس المقصود بـ«المضطربين نفسياً» هنا الأشخاص المصابون بأمراض نفسية وعصبية، بل المقصود أولئك الذين يعدّون متطرفين سلوكياً وفكرياً، ممن يتبنون ثقافة العنف والتشدد والغلظة مع الآخرين ومع المجتمع والوسط المحيط بهم. هؤلاء يجدون في الخطاب الداعشي المتطرف، وفي الممارسات الداعشية الدموية ما يروي ظمأهم للعنف والقتل والسلب والنهب، وهو ما يحرك لديهم الرغبة في ممارسة سلوكياتهم الشاذة العنيفة بشكل مقنن، ومغلف بستار ديني. ويكون لسان حال أغلب المنتمين إلى تلك الفئة: «إذا كنت سأتمكن من ممارسة العنف ضد كل من يخالفني الرأي أو التوجه، وسأتمكن من التنكيل بالآخرين، فلماذا لا أنضم إلى داعش؟».

الثانية: المحدودون في الثقافة الدينية:

هذه الفئة لا يستهان بها في قوام التنظيم الداعشي، فهم من أكثر الفئات انضماماً إلى التنظيم ونشاطاً فيه، الفئة التي يعاني أغلب من ينتمي لها من قلة الثقافة الدينية على الرغم من جودة التعليم الذي تلقّته، ومن ثمَّ فإن الخطاب الداعشي المبهر بدعايته المكثفة، وطريقة داعش في عرض النصوص وتحليلها تداعب المشاعر الدينية لديهم، فيعتقدون - مع قلة ثقافتهم الدينية - أن ما تقدمه داعش هو صحيح الدين، ومن ثمَّ يكون لدى هؤلاء حلّان لا ثالث لهما: إما الدعم المعنوي للتنظيم وإعلان قناعتهم الكاملة بكل ما تقدم عليه يد داعش، بل تسويغه للآخرين ممن يوجَدون في وسطهم المحيط أو أخذهم القرار بالانضمام الفعلي إلى داعش؛ نصرةً للدين، ومساندةً للمجاهدين - من وجهة نظرهم - هذه الفئة وبسبب قلة وعيهم وثقافتهم الدينية لا يستطيعون التأكد من المعلومات الدينية التي تقدمها داعش، أو التحقق من صحتها، لأنهم ببساطة غير محصنين دينياً بالقدر الذي يسمح لهم فهم ما تفعله داعش من استئصال النصوص واجتزائها وتوظيفها لخدمة أجندتهم الهدَّامة.

ولعل خطورة هذه الفئة تكمن في الشريحة التي اختارت تأييد داعش معنوياً دون الانضمام إلى صفوفه، فهم بمنزلة القنابل المؤقتة التي تعمل – عن قصد ودون قصد – على تمهيد الطريق لدى غيرهم في تقبل الفكر الداعشي على أساس أنه الفكر المترجم والمعبر

عن صحيح الدين أما بالنسبة إلى الفئة التي انضمت فعلياً فخطورتهم ربما ستظهر على المدى المتوسط والبعيد، عندما يعودون إلى بلدانهم الأصلية بعد أن مارسوا العنف بشكل عملي...

ولا يمكن نسيان أن تلك الفئة تضم أيضاً بين صفوفها من شربوا الفكر المتطرف في بلدانهم الأصلية، وتربُّوا عليه منذ صغرهم، وتكوَّن بناء عليه وجدانهم الديني والإنساني.

الثالثة: من يمكن اللعب على وتر عاطفتهم الإنسانية

هذه الفئة يُلعَبُ على وتر عاطفتها الإنسانية، إضافة إلى العاطفة الدينية، وكثير من المنتمين إليها من بلدان شبه القارة الهندية ودول جوارها التي تعج بكثير من الجماعات الإرهابية على شاكلة داعش، ويوجد فيها أيضاً صراعات سياسية ومذهبية تستغلها داعش وأخواتها من أجل تأجيج الصراع وحرق الأرض؛ لسهولة النفاذ إلى تلك البقعة من العالم وتثبيت أقدامهم بها، ونظراً لظروف تلك المنطقة المناخية والجغرافية، ونظراً للطبيعة القبلية لسكانها، تلجأ داعش إلى التحايل عليهم عاطفياً وإنسانياً من أجل نصرة ومساندة أشقائهم في الدين ممن يُقتلون على أيدي الكفّار والمشركين - حسب وصف داعش - في كشمير وغيرها من مناطق الصراع. ولعل أبرز مثال على ذلك الداعشي الهندي الذي ظهر في أحد الفيديوهات وهو يتوعد الهند بالدمار والخراب، والثأر لقتلى المسلمين في كل من الهند وكشمير. ودعا المسلمين في الهند على وجه التحديد للنفير من أجل نصرة أشقائهم المسلمين ممكن يقتلون على أيدي أعداء الله (حسب وصفهم).

يعتقد كثير منا أن الفئة الأكثر انضماماً إلى داعش هي فئة من يعانون من الناحية المادية والمتضررين بشكل كبير من الأزمات الاقتصادية، ولكن الحقيقة أن هذه الفئة على الرغم من وجودها ضمن القوام المكون لداعش، ولكنها لا تشكل غالبيته... ويمكن القول: إنَّ جزءاً لا يستهان به من تلك الشريحة ينتمي في المقام الأول إلى الفئات التي تمارس أعمال النصب والبلطجة - إن صح التعبير - على السكان والأهالي الموجودين في المناطق الريفية في عدد من البلاد التي أُصيبت بالمرض الداعشي.

يقول أحد الأشخاص إن (الخارجين عن القانون) في بلاده ممن كانوا يجمعون الجباية ويعترضون الطرق ويسلبون ويسرقون العامة، قد أطلقوا لحاهم، وبدؤوا في تطبيق شرع الله - حسب زعمهم - ومعاقبة المواطنين وإقامة الحدود في أعقاب دخول داعش إلى بلادهم

ومناطقهم الريفيــة. قُطّاع طرق الأمس وسالبو وناهبو العامــة، أصبحوا بين ليلة وضحاها جنود الله التي تطبق شرعه من أجل إعلاء رايته. هؤلاء وجدوا في الانضمام إلى داعش خير وسيلــة لممارسة بلطجتهم تحت غطاء قانوني وشرعي، وتقاضي مئات الآلاف من الدولارات دون جهــد أو تعــب، إلى درجة أن أصبح لســان حالهم: «إذا كنت سأمارســ وظيفتي بشكل شرعي، وسأفعل ما شئت تحت غطاء ديني، وفوق كل هذا سأتقاضى المئات من الدولارات!، فلِمَ لا أنضم إلى داعش؟».

أمــا الســؤال الذي يطرح نفســه الآن، كيف نعالج هذا الأمر، وكيــف يمكننا أن ننقذ ما يمكــن إنقاذه؟! ولاسيّما بعد تقهقــر هذا التنظيم، وبدء عودة بعض المنتمين له إلى بلدانهم الأصليــة. إن الإجابة تكمن في إدراك الجميــع أن محاربة داعش وأخواتها وما سينتج عنهم مــن تنظيمات أخرى مسؤوليــة الجميع. وعلى مؤسسات وهيئــات المجتمع كلها أن تتكاتف بعضها مع بعض من أجل النجاح في هذه المهمة، واستئصال ذلك المرض الذي بات ينهش فــي جسد الأوطان، ولكــي يحدث ذلك، وإلى جانب الحلول الأمنيــة، نحن في حاجة لتبني علمــاء النفس والاجتماع والسلوك الملف الخاص بالشريحــة الأولى، إذ يُسلَّطُ الضوء على تلــك الشخصية وتحلَّل، ثم الخروج بدراسات إرشادية لكيفية التعامل معها، وكيفية الحد من خطورتها على المجتمع والسلم والأمن القومي، ومن وجودها بين أفراده وشرائحه المختلفة. كمــا نحتاج أن يتبنّى علماء الدين الملف الخاص بالفئتيــن الثانية والثالثة لتحصينهم دينياً وإنسانياً من أي ضعف وخلل في ثقافتهم الدينية. ولا بدّ من تفعيل دور المؤسسات التعليمية الدينيــة من حيث المناهــج الصحيحة، والتي تساعدهم في فهــم وتحليل وفرز أي خطاب دينــي قادم لهم مــن الخارج أو من الداخل، كذلك نحتاج لتحرك عاجل من المراكز الثقافية والمؤسسات الرياضية والشبابية عن طريق تنظيم ندوات وفاعليات وأنشطة ثقافية ورياضية تزيــد من وعيهم وتستغل قدراتهم الذهنية والبدنيــة فيما هو مفيد، ومن ثمَّ استثمار وقتهم ومجهودهم فيما هو نافع.

كمــا أننا بحاجة أيضاً إلــى دور مؤثر من صنّاع الفن الراقي مــن أجل زيادة الوعي لدى الجماهيــر - الشباب منهم على وجه التحديد - ممــن يسهل استقطابهم واللعب على نقاط ضعفهــم. وكل هذه الجهود لن تكلل بالنجاح إذا لم يكــن هناك إعلام واع يسلّط الضوء على المرض، وعلى الجهود المبذولة على كل الأصعدة لعلاج المرض وأعراضه وتبعاته.

تركيز داعش على استقطاب المثقفين والعلماء

تعتقد الغالبية العظمى من سكان دول العالم أن تنظيم داعش الإرهابي، ليس إلّا مجموعة من الأشخاص المنعزلين عن العالم يرجعون بأفكارهم إلى العصور الوسطى في طريقة حياتهم كالملبس والمسكن والمأكل، وهو ما يجعل الإجابة عن سؤال «كيف يجند داعش الشباب، خاصة المرفّهين ذوي المستويات المادية المعقولة؟» صعبة وغير ظاهرة الملامح بعد، وربما أن هذه الصورة الذهنية المكونة عن داعش سبب رئيس وراء فشل العالم في وضع نهاية لهذه الجماعة الإرهابية.

إنَّ القارئَ الجيد لجميع الأساليب التى تتخذها داعش فى تجنيد الشباب يعلم أننا أمام جماعة فاقت حكومات ودول العالم فى طريقة التفكير والتخطيط، وهو ما مكّنها فى وقت قصير جداً من تجنيد كثيرٍ من الشباب وإقناعهم بأن طريق الموت هو أفضل طريق! ولعل ما توصَّل إليه الكاتب الأمريكي روبرت إيفانز، فى مقاله «سبعة أشياءَ تعلّمتها من قراءتي لكل أعداد مجلة دابق الداعشية» من القدرة الإلكترونية الفائقة التي تعتمد عليها «داعش» فى مخاطبة الشباب والتأثير فيهم، ولاسيّما الحرفية التي يتمتع بها التنظيم في استخدام تويتر واليوتيوب لتحقيق أغراضهم.

يقول روبرت: «أعضاء داعش يستخدمون تويتر لتجنيد الجنود، وكذلك لاستدراج الزوجات، وهم يستهدفون الأطفال الصغار والضعفاء بالطرائق نفسها التي يستخدمها المنحرفون جنسياً على الشبكات الاجتماعية، كما يقوم الفريق الإعلامي لداعش بتركيب سلسة من مقاطع الفيديو التي تهدف جميعها إلى إقناع الشباب بالهجرة إليهم، وهنا يبدو الجزء الأكثر إرباكاً وتناقضاً باقتران الدهاء التكنولوجي والحرفية التصميمية مع ممارسات مستقاة بشكل مباشر من بربرية القرون الوسطى، كما يضيف أن جناح العلاقات العامة التابع لداعش، مركز الحياة الإعلامي، يفهم وسائل الإعلام الاجتماعي تماماً كما يفهمها نظراؤه في الجيش الأمريكي.

لم يكن ما قاله روبرت مختلفاً كثيراً عما أعلنه البرلمان الأوروبي في الوثيقة التى أصدرها عقب هجمات باريس، والتي ذكر فيها أن داعش استطاع فى المدّة الأخيرة تجنيد خبراء في الكيمياء والفيزياء وعلوم الحاسوب في صفوفه، من أجل شن حرب تستخدم فيها أسلحة الدمار الشامل ضد الغرب.

علـى جانـب آخر، نلاحظ أن شريحـة كبيرة من المنضمين إلى هـذا التنظيم على قدر كاف ووافٍ مـن التعليـم، إذ تلقّى أغلبهم تعليماً عالياً أو على الأقل تعليماً جيداً، فنجد بينهم الأطبـاء والمهندسين بشكل خاص، والمعلميـن والصيادلة والرياضيين وغيرهم من أصحاب الدراسات والمهن المرموقة في مجتمعاتهم. تحاول داعش بشتى الطرق استقطاب هذه الفئة من المتعلمين لما سيكون لها من دور كبير في خدمة أهدافها ولاسيّما من أصحاب الدراسات الهندسية والتكنولوجية والإعلامية.

وبالحديـث عن ظهور فئات جديدة تمتلك قدراً كبيـراً من الثقافة والمستوى فى صفوف التنظيـم الإرهابي داعش، فإن ذلك يفتح كثيراً من التساؤلات حول الطريقة التي يتّبعها هذا التنظيـم فى تجنيد مثل هـؤلاء الشباب وما التأثيرات التي يقوم بها هـذا التنظيم من أجل تجميل الطريق إلى الموت لدى هؤلاء الشباب وصغار السن.

قال الدكتور كمال حبيب، الخبير في شؤون الحركات الإسلامية، إن تنظيم داعش الإرهابي اعتمـد فى المدّة الأخيرة على تجنيد شباب جامعات فـي تخصصات جيدة يتمتعون بعيشة رفاهية عالية ولا يواجهون أيّاً من مشكلات الفقر وضيق العيش التي تضطرهم إلى الانضمام إلى مثل هذه الجماعات، مبيناً أن التنظيم استطاع الوصول إلى فكر الشباب وما يرغبون فيه على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم الاجتماعية.

وقـد أكد الخبراء والمختصون في هذا المجـال أن تجاذب الشباب للفكر الإرهابي مماثل للأسلـوب الـذي يتخذ في جذب الشبـاب للمخدرات، لذلك لا بد من رفـع المستوى الثقافي والاجتماعي لدى الشباب، من خلال تنظيم حوارات مجتمعية لاحتواء الشباب تهدف إلى تقوية الانتمـاء إلى الوطن ورفع المستوى الثقافي والفكـري وتصحيح المفاهيم المغلوطة للرسالات السماوية، إضافة إلى العمل على عدم تهميش الشباب أو إشعارهم بأي نوع من أنواع التمييز.

كيف ينجح داعش في إقناع الشباب الوديع بأفكاره الوحشية؟

التطـرف ظاهرة موجودة في جميع الأمم، وعلى مـدى التاريخ. ويمثل «داعش» في الوقت الحاضر أحد أكبر منتجاته وأخطرها، نظراً إلى نطاق عمله الواسع، والتزايد المضطرد لأتباعه والمتعاطفين معه، وتأثيره الإعلامي الكبير، وقدرته الفائقة على استقطاب المراهقين والشباب ودفعهـم إلى القيام بأعمـال إرهابية غاية في القسوة وصلت إلى قتل الوالدين والإخوة. ويمكن تناول «داعش» من أبعاد دينية وسياسية وثقافية وإعلامية واجتماعية، لكن البعد النفسي لا تقل

أهميتـه عن هذه الأبعاد، فهو يحاول توظيـف النظريات والأبحاث النفسية لفهم كيف يستطيع «داعش» التأثير على الشباب واستقطابهم للانضمام إليه أو تنفيذ عملياته أو التعاطف معه.

يقدّم علم النفس بفروعه المختلفة تفسيرات مهمة لظاهرة التطرف والإرهاب من منطلق اهتمامه بديناميكيات الجماعات، والتأثير والإقناع وتغيير الاتجاهات، وسيكولوجية الطاعة، وتحوّل الإنسان من كائن خيِّر إلى شرير، والحرب النفسية. ويعود الاهتمام بالجوانب النفسية إلـى توظيف داعش الأساليب والنظريات النفسيـة بأسلوب فعال غير مسبوق من الجماعات الإرهابيـة والسرية، ما يدل على طابع مؤسسي واحترافي في إدارة خطابه الإعلامي ووسائل الاستقطاب القائمة على المعرفة النفسية العلمية.

(البروفايل) الشخصي للإرهابي

حاولت الدراسات النفسية تحديد «بروفايل» معيّن للشخصية المتطرفة والإرهابية، ومنها «داعش»، ولكن من دون جدوى كبيرة، فنوعية المنتمين إلى «داعش» أو المتأثرين به أصبحت متنوعـة بشكل كبير، إذ رأينا ازدياد انضمام الفتيات والنسـاء، واتساع النطاق العمُري ليبدأ مـن مرحلة مبكرة (١٣ سنـة). كما لم يعد الانضمام إلى «داعش» أو التعاطف معه يقتصر علـى جنسيات أو أعـراق معينة بل تجاوز ذلـك ليشمل أشخاصاً من بلـدان وأصول عرقية عـدة. أما من ناحية المكانة الاجتماعية والمهنية، فقد شمل من ينضم إلى «داعش» الأطباء والمهندسيـن ورجال الأعمـال وغيرهم من المهنيين، ما يخالف الصـورة النمطية الشائعة، مـن أن أعضـاءه ومثيلاته (من المنظمـات الإرهابية) هم من أصحـاب المستوى التعليمي والاجتماعـي والاقتصـادي المتدني أو العاطليـن من العمل. أما ما يعتقـده بعضهم من أن الإرهابييـن والمتطرفين هم أشخاص مختلون عقلياً أو مـن متعاطي المخدرات أو أصحاب السوابـق أو نحـو ذلك، فهو تبسيط مخـلّ لمشكلة بالغة التعقيـد، فالدراسات النفسية تدل علـى أنهـم في الغالب لا يعانون من اضطرابات نفسيـة أو عقلية أو نحو ذلك، بل كثير منهم من مرتفعي الـذكاء، وهذا منطقي، لأن الجماعات المتطرفة لا تستقطب في الغالب من هو غير مستقر نفسياً، ولاسيّما في الأعمال القيادية والمهام الإرهابية، لأن تلك الأعمال تتطلب السرية الكاملة والالتـزام الكامل والاضطراد في المواقف والتصرفات، وهذا لا يتوافر لدى مـن لديه اضطراب نفسـي أو عقلي. ولا يعني ذلك عدم فائدة دراسـة الخصائص النفسية لأعضاء الجماعات المتطرفة، بل على العكس، فعلم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي

وغيرهمـا من فروع علـم النفس، تقدم أدوات مهمـة تساعد في التعرف إلـى كيفية تشكل الجماعات الإرهابية وأسلوب عملها ووسائلها في التأثير الواسع النطاق والتأثير على أفرادها، ولاسيّمـا المستقطَبين الجدد، لكن المهم هو توظيف تلـك الأدوات والأبحاث لفهم الظاهرة بشكل معمَّق، وألا يركز على الشكل على حساب المضمون.

الإستراتيجية النفسية في الاستقطاب

تقـوم إستراتيجية داعش في استقطاب أعضائه، ولاسيّما من النشء والشباب، على الجوانب النفسيـة بشكل أساس، وذلك من خـلال الاعتماد في خطابه على تلبيـة الاحتياجات الرئيسية للإنسـان والتي تحدَّث عنهـا علماء النفس، مثل أبراهام ماسلو وغيره. بل إن بعض علماء النفس يشير إلى أن داعش يعتمد في الاستقطاب على العامل النفسي أكثر من العامل الديني، إذ يشكك الدكتور كروغلانسك (Kruglanski) أستاذ علم النفس في جامعة ماريلاند في الولايات المتحدة الأمريكية، وأحد مؤسسي المركز الوطني للتميُّز في دراسة الإرهاب والتعامل معه، في أن المعركة الحقيقيـة التي تدور حول عقـول المتحمسين لـ «داعش» وقلوبهم يمكـن كسبها بالاعتماد على مرتكـزات دينية فحسـب، إذ إن إستراتيجية «داعش» في الاستقطاب تقوم في الغالب على أسس نفسية وليست دينية كما يقول، ومن هنا فإن التناول يجب أن يكون نفسياً إلى درجة كبيرة.

وفيما يأتي بعض الإستراتيجيات ذات الأبعاد النفسية التي يستخدمها «داعش» في الاستقطاب:

- توفير أجوبة لتساؤلات حائرة (الإغلاق المعرفي):

من أهـم الحاجات النفسية عند الإنسان هي الحاجة إلـى الإغلاق المعرفي (Cognitive Closure) التي تشير إلى الحاجة للابتعاد عن حالة عدم اليقين (Uncertainty) والغموض التي تؤدي بالإنسان إلى التوتر والقلق والتنافر المعرفي (Cognitive Dissonance)، والحاجة للوصول إلـى حالة فيها نـوع من يقين الشخص حول مستقبله: ماذا سيعمـل؟ وإلى أين سيذهب؟ وماذا سيقدم فـي حياته؟ ويربط كروغلانسكي بين الحاجة إلى الإغلاق المعرفي والتطرف، إذ يشير إلى أن الأوضاع الحالية التي يعيشها العالم تزيد في حاجة كثير من الناس إلى الإغلاق المعرفي وتوفيـر إجابـات مقنعة حول ما يجري، ما يـؤدي بهم إلى حالة من عـدم اليقين، تدفعهم إلى البحـث عن تفسيرات مقنعة وإلى الحصول على الجواب. هنا تأتي الجماعات المتطرفة، ومنها «داعـش»، بتوفير أجوبة قطعية (أسود أو أبيض) مباشـرة لتلك التساؤلات، وتعِدُ بحلول سريعة للمشكلات التي تواجه الأفراد والمجتمعات و«الأمة» بشكل عام، إذ تربط أجوبتها والحلول التي

تقدمهـا مباشرة بين السبب والنتيجة، وتُشعـر الناس بأنهم في إمكانهم توقع المستقبل والتأثير فيـه والتحكم به. وبغض النظر عن صحة الأجوبة التي تقـدم، إلا أن تأثيرها على الناس كبير، فهـي تنقلهم من حالة عدم اليقين وما يصاحبها من قلق وتوتر إلى حالة أخرى يشعرون بارتياح أكثر فيها. فـ «داعش» بهذا يقدم صورة أكثر وضوحاً للعالم، يستطيع الأشخاص (ولاسيّما النشء والشباب) فهمها وتبنّيها بسهولة، كما أنه يقدّم لهم خيارات ويعدهم بحلول لمشكلاتهم ومشكلات مجتمعاتهـم وأوطانهم وأمتهم. ويشيـر كروغلانسكي إلى مجموعة من الأبحاث التي وجدت أنه كلمـا زادت الحاجة إلى الإغلاق عنـد الشخص زاد التطرف. هذه النتيجة تم التوصل إليها في دراسـات أُجريت في دول عدة، منها المغرب وفلسطين وإسبانيـا والفيليبين وإيرلندا الشمالية وسيريلانكا، بل إن الدراسـات وجدت أن الأشخاص الذين يتوقون للإغلاق بشكل كبير يحملون أفكاراً متطرفة يصاحبها انتقاص وازدراء للأشخاص الذين لا يشاركونهم أفكارهم والشعور بأن لديهم مسوِّغات أخلاقية لتحطيمهم بأي طريقة.

- توفير الهدف والمعنى للحياة والشعور بالقيمة الذاتية:

مـن الحاجات الرئيسية للإنسان حاجته إلى وجـود هدف ومعنى في حياته والشعور بأن لـه قيمة في المحيط الذي يعيش فيه. ويوظف «داعش» هـذه الإستراتيجية بشكل فعال، إذ يسعى إلى ملء الفراغ الذي يعيشه بعض النشء بسبب عدم وجود أهداف لحياتهم يسعون إلى تحقيقها أو شعورهم بعدم القيمة أو التهميش، كما أن «داعش» يقدم مكافأة لمن ينتمي إليه، بزعمـه أنه يتيح لهم الفرصة ليكونوا من «النخبة المميزة» التي تسعى إلى تحقيق هدف سام يتمثل في «قتال الكفار» وتحقيق «دولة الخلافة» أو «الشهادة في سبيل الله»، أي المكانة العليا كمجاهـد في الحياة الدنيا، وخير الجزاء عند الاستشهـاد، وغير ذلك من المزاعم الضالة. وهـذه إستراتيجية فعَّالة في كثير من المتلقّين، ولا سيَّما من هم في سن المراهقة والشباب، فعندمـا يعتقد الواحد منهم بـأن عملاً ما سيوصله إلى الجنـة فسيتعاطف معه، ويكون من السهل استقطابه إلى المنظومة التي ستساعد في تحقيقه.

- إثارة روح الإحباط وتوفير فرص للانتقام:

يستخـدم «داعش» والجماعات الإرهابية بشكل عام أسلـوب إثارة روح الغضب لدى النشء حول مختلف جوانـب حياتهم وحياة مجتمعهم ودفع صاحبها للانتقـام، ومن الوسائل المتبعة لذلك غرس السلبية واليأس والإحباط وتقديم فكرة «الدولة الإسلامية» حلاً لها. إن من عناصر

القوة لدى «داعش» والجماعات الإرهابية الأخرى قدرتها الفائقة على توظيف الإحباط والشعور باليأس لخدمة أغراض العنف والإرهاب، واستغلال البنية النفسية الهشة عند بعض الشباب وعدم امتلاكهم شخصية مستقلة أو القدرة على قول «لا» ومواجهة الضغوط أو المغريات. وجدير بالتنويه هنا، أن علاقة عامل اليأس والإحباط بالتطرف أو العدوان بشكل عام، ليست علاقة سببية، بل هناك متغيرات وسيطة بينهما، مثل طريقة تفكير الإنسان وقدرته على التعامل مع ضغوط الحياة والتفكير المنطقي الذي يحوِّل الإحباط إلى دافع للعمل والإنتاج.

- التصنيف (نحن وهم):

التصنيف أحد أهم الوسائل التي يستخدمها المتطرفون لاستقطاب النشء لأفكارهم أو جماعاتهم. ويُستغل التصنيف لتوفير هوية للفرد تميِّزه من الآخرين، وتستغل هذه الحاجة عند بعض الشباب فيوفرها لهم المتطرفون، فيصبح الشاب منتمياً إلى كيان له أفكاره وأهدافه الواضحة، كيان يُشعر أتباعه بأنهم «أفضل وأكمل وأنقى» من الآخرين، وأن الآخرين لا قيمة لحياتهم. ومن ثمَّ، فهم لا يستحقون العيش، ناهيك عن التعايش. ويوظف «داعش» والجماعات المتطرفة ذلك بأسلوب يحقق أهدافها ويسوِّغ ممارساتها الإجرامية، فإخراج الإنسان من دائرة المؤمنين إلى الكفار، يقود للتقليل من قيمة حياته، وأنه لم يعد يستحق الحياة أو الاحترام.

- الطاعة العمياء:

هذه إستراتيجية أخرى مهمة يستخدمها المتطرفون لاستقطاب الشباب، وهي تعتمد على طمس شخصيتهم المتفردة والمستقلة، وإدخالهم في نمط التفكير الجمعي والالتزام بأفكار الجماعة والطاعة العمياء لها. فرسالة «داعش» وغيره من الجماعات السرية والإرهابية لأفرادها هي: اتبعني أوصلْك إلى الطريق الصحيح لتحقيق «أهدافك»، وأنه ليس هناك داعٍ للتفكير باستقلالية أو التصرف وفق قناعات شخصية، ومن ثمَّ طمس التفرد والاستقلالية لدى الفرد وجعله يتحرك وفقَ ما تريده الجماعة.

- توفير نموذج البطل وتمهيد الطريق للبطولة:

الحاجة إلى الإنجاز والنجاح من الاحتياجات الأساسية عند الإنسان، والنشء والشباب يتطلعون لأن يكونوا أبطالاً لهم إنجازات، وأن يشار إليهم بالبنان، وأن يحظوا بتقدير الآخرين. ويستغل المتطرفون هذه الحاجة عندما يُشعرون الشاب بأنه هو أيضاً يمكن أن يكون بطلاً وفق مفهومهم المنحرف للبطولة. وتزداد الخطورة عندما يتحول «داعش» وقادته في أذهان الشباب ليصبح رمزاً

للثـورة والتمرد، كما كان غيفـارا وغيره، ولاسيَّما أن بعض الشباب يبحثون عن هذه الرموز نتيجة شعورهم برفض المجتمع والسلطة الوالدية والسياسية لهم، وحاجتهم إلى رموز بديلة.

- **إشباع الحاجة إلى الانتماء:**

الحاجة إلى الانتماء من أهم الحاجات التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، وتقوم الجماعات الإرهابيـة، و«داعش» منهـا، بمحاولة إشباع هـذه الحاجة عند النشـء والشباب من خلال إتاحـة الفرصة لهم للانتماء إلى كيان أو فكرة أو جماعـة، وغرس الشعور عندهم أنهم جزء مـن كيان له رسالـة سامية تتمثل بإعادة «أمجاد الأمة» التـي حكمت العالم فوصلت إلى الصيـن. والشعور بالانتماء لا يشبع حاجة ملحة فحسب، بل يشكل مؤثراً قوياً على أفكار الفرد وسلوكـه. ولا تقتصر إستراتيجية داعش على إشباع حاجة الفرد للانتماء، بل توفر له المسانـدة الاجتماعيـة والعاطفية والمادية، ولذلك يصبح كل شـيء في حياته يتمثل فكرها حتـى يضمن مكانه فيها، وحتى يحافظ على الامتيازات التـي تقدم له فيها، وحتى إنّ وجد أن بعض قناعات الجماعـة تخالف قناعاته الشخصية والأخلاقية وما تربى عليه سابقاً، إلا أنـه يتبنى رأي الجماعة، لأنهـا تمارس ضغوطاً على الأفراد المنتمين بسحب المميزات التي حصلـوا عليها، وبعقابهم إذا انحرفوا عنها، ولذلك يجد الشاب نفسه في النهاية قد «تورط»، ما يجعل عصيانه الجماعة خطراً عليه. ويرتبط بهذه الإستراتيجية التي يستخدمها «داعش» لاستقطاب الشباب أسلوب آخـر يعتمد على فصل الشاب شعورياً عن مجتمعه «الجاهلي» أو «الكافر»، على حد زعمهم، من خلال غرس القناعة لديه أنَّ الانتماء إلى المجتمع أو «الوطن» يتعارض مع الانتماء إلى الكيان الأكبر، وهو «الأمة»، وأن تلك التنظيمات هي الوحيدة الجديرة بأن تمثل الأمة، من خلال «الخلافة» المزعومة. وهذا الأسلوب يجعل من السهل وقوع الشاب فريسة للاقتناع بأفكار الجماعة وممارساتها المتطرفة مهما بلغت من الوحشية.

دروس مستفادة من الأبحاث النفسية

- إن الاقتصـار على نقض خطـاب «داعش» وتكذيبه وتخطئته لن يكـون فعَّالاً من دون أجوبة عن التساؤلات التي تحيِّر الشباب وتعرضهم لحالات مستمرة من عدم اليقين، إذ يجب تقديم إجابات مقنعة لهم قبل أن يلجؤوا إلى الجماعات المتطرفة بحثاً عن ذلك.

- إعـادة صياغة مفهوم البطولة ونصرة الديـن في أذهان النشء من خلال توجيههم إلى أنَّ تميُّـز الفـرد في دراسته أو عمله هو أفضل خدمة للدين، وأن البطولة تتحقق بعمل الخير

ونبذ الشر والإسهام في بقاء الوطن قوياً ومتماسكاً وآمناً وليس بالقتل والإرهاب. إضافة إلى إتاحــة الفرص للشباب لأن يكونوا أبطالاً حقيقيين من خلال توفير مشاريع إنتاجية تتيح لهم الإبداع وإظهار طاقاتهم الكامنة والاحتفاء بإنجازاتهم.

- تربية النشء لتكون له أهدافٌ في حياته يكرس جميع جهوده وتفكيره وطاقته من أجلها، فمن لديه هدف وتعلَّم كيف يحققه سيستمر في طريق ذلك، أما من يعش بلا هدف فسيسهل اختطافه لتحقيق أهداف الآخرين والتضحية بحياته «وحياة الآخرين» ثمناً لذلك.

- تركيز الممارسات التربوية والتعليمية على تنمية الشخصية والتفكير المستقلَّين، وعلى عــدم مسايرة الآخرين مــن دون تفكير ونظر في عواقب أفعاله علــى نفسه وعلى الآخرين. إن البيئــة الأسريــة والمدرسية والمجتمعيــة التي تشجع التساؤل ولا تكبتــه، وتدعم الحوار الحقيقي، هي التي يخرج منها جيل يصعب نجاح المتطرفين في التأثير فيه.

- إشبــاع حاجــة الفرد إلى الانتماء، بأن تكــون الأسرة متماسكة وتهتــم بجميع أفرادها وتمارس معــاً اهتمامات مشتركة، وتعزيز تماسك المجتمــع المحلي والجوار وتكثيف برامج تعزيز الانتماء للوطن والهوية الوطنية.

- تربيــة النشــء والشباب على التحكم بمشاعر الغضب والإحبــاط وتوجيههما ليصبحا قوة إيجابية تدفعهم إلى العمل والإنتاج ومنع الإحباط، وذلك بتعليمهم أن يفرقوا بين الغضب والسلوك الذي قد ينتج عنه، فمن الطبيعي أن يغضب الإنسان، ولكن ليس من الطبيعي أن ينتقم بنفسه، أو أن يسمح لمشاعر الغضب بأن تتحول إلى كراهية تمنعه من التمييز بين الصواب والخطأ.

- تصميم برامج الوقاية وفق أسس علمية منتظمة وليس في شكل جهود مشتّتة لا توظف أساليب الإقناع والتأثير والتنشئة الاجتماعية المناسبة، وإشراك المجتمع ومؤسساته في تنفيذها.

- تبنّي خطاب إعلامي فعَّال غير تقليدي يوظف النظريات والأساليب النفسية في الإقناع وتغيير الاتجاهات بأسلوب جذّاب يراعي خصائص المستهدفين.

محور العدد

نحو تحليل وجوديّ للوعي التكفيريّ

د. علي محمد إسبر

تحـوّل التكفيـرُ إلى دعوةٍ عالميّـةٍ معاصرةٍ، تجتذب أعداداً كبيرة مـن البشر ليتّحدوا في نمطٍ من الوعي يُقصي الآخرين ويرفضهم، بل يتجه بهم نحو هاوية الذّبح والحرقِ والصّلب. إنّـه في عمقـه ادّعاء بامتلاك الحقيقة المطلقـة، ويمكن تفسير هذه الحقيقـةِ نفسِهَا على أساسِ أنَّ التكفيريَّ يؤمن إيماناً قاطعاً بأنَّ الأفكار الموجودة داخل ذهنه عن الإنسان والعالم والمصيـر تُعدّ مطابقةً تمامـاً للواقع النهائيّ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لذلك هذا الضربُ نفسُـهُ مـن الإيمان يقتضـي بصاحبه الاعتقاد بـأنَّ أقواله مطابقـة للأشيـاء. إذن، إنَّ الوعيَ التكفيريّ وعيُ المطابقة.

لكن ألا يجب أن نتساءل عن معنى هذه المطابقة؟

تقتضي الإجابة عن هذا السؤال تحديد مدى أصالة الأفكار الموجودة في ذهن التكفيريّ، أي لا بدّ من التأمّل في صِدْقيتها أو بالأحرى ينبغي البحث عن الأصل الذي انبثقت منه لتمتد فيما بعد لتتغلغل في العقول والأفهام والضمائر قابضةً على الواقع بإحكامٍ!

إنَّ أيّ نمطٍ من الفكر يقدّم معنىً نهائيّاً للوجود، سيتحوّل مباشرةً إلى عقيدة، في نظر كلّ مـن يسلّم بصحته، وتشمل هذه الملاحظة كلّ ضروب التفكيرِ القطعيّ، سواء أكان لاهوتيّاً أم فلسفيّاً أم علميّاً أم سياسيّاً، وغير ذلك كثير.

إنَّ هنالك أمثلة من قبيل تصديقٍ معتقد لاهوتيّ دون غيره، أو التعويلِ على نسق فلسفيّ واحديّ في تفسير الوجود، أو الاقتناعِ بالصحة المطلقة لنظريّة علميّة بمعزل عن النظريات الأخرى، تدلّ علــى التعيُّن الفكريّ، لكن ما يجــب الانتباه إليه هنا -كما تخبرنا مقولة فلسفية عميقة- أنَّ «كلّ تعيُّنٍ سلبٌ»، بمعنى أنّه لا يمكن على الإطلاق الاقتناعُ التام للوعي بأيّ قناعة مهما كان شأنها، إلا على أساس أن يقوم هذا الوعي نفسه بسلب القناعات الأخرى من داخله، لأنَّ التعيُّن هنا (الأخذ بقناعة دون غيرها) لا يمكن أن يتحقق إلا بوساطة السلب (رفض القناعات الأخرى).

إذن، يتبيّن أنَّ اليقين المطلق لشخصٍ ما بصحة الأفكار الموجودة في ذهنه يقوم جوهريّاً علــى رفض كلّ الأفكار الأخرى الموجودة في أذهــان الآخرين! لكن، أيمكن أن يوجد، فعليّاً، يقينٌ مطلقٌ؟

إذا تأمّلنــا في هذا الاتجاه معنــى اليقين لاكتشفنا، أنّه يقوم علــى ضربٍ من الاطمئنان النفســيّ أو الثقــة الشعوريّة أو التصديق الواعي برأيٍ أو حكــم أو اعتقادٍ. وينبني هذا الأمر علــى أساس أنَّ الإنسان يجد فيما يعتنقه حقّاً غير قابلٍ للتغيير أبداً، أي إنّه يجد فيه الثبات والديمومــة والإطلاق، لذلــك يجد هذا الإنسان نفســه خاضعاً بسببٍ مــن يقينه لشيءٍ من الأشياء. وهذا يعني أنَّ اليقين يستدعي الخضوع، كما أنّه يمكن أن يدفع بصاحبه إلى الإذعان لمــا هو أساساً مغلوط. إنّه ضربٌ من التسليم النهائيّ بحقيقةٍ دون غيرها من الحقائق؛ ذلك بالمعنى الوجوديّ النهائيّ الشامل.

يحملُ اليقينُ في ماهيته إمكانياتٍ للغلط والوهم والخطأ، ولا يمكن أن يوجد معيار موثوق يسعف في تخليصِ أيِّ مُوْقِنٍ بشيءٍ من التباسات فكره وانزياح عقله ووقوعه في التيه.

ولئــن كان الأصلُ في اليقين -إن صح هذا الفهم لمعنى اليقين- هو تصور العالم كما هو ظاهر فعليّاً؛ إلا أنَّ اليقين يفتك بأعماق النَّفْس الإنسانيّة ليقودها إلى التسليم بتصور مزعوم عن العالم، أي الاعتقاد بما يجب أن يكون عليه العالم.

غيــر أنّه يجب التمييز بين مصدر اليقين واليقين نفســه، فكلما كان مصدر اليقين أكثر تأثيراً كان اليقين أكثر قوّةً. لكنَّ وعي المُوْقِن لا يُعنى باليقين نفسه بصفته تركيباً من الأفكار يحمل دلالات على الوقائــع، بقَدْر ما يُعنى بمصدر اليقين، فموضوع اليقين عند هذا النمط مــن الموقنين مأخوذٌ به بالنسبــةِ إليهم، بسببٍ من مصدره، وليس بسببٍ من قيمته المنطقيّة أو المعرفيّة أو العلميّة.

ويمكــن أن يكــون مصدر اليقين لاهوتيّــاً أو ثقافيّاً أو نفسيّاً، ... إلــخ. لكن لِمَ يكونُ لهذا المصدر نفسه حضورٌ طاغٍ في الشعور الإنسانيّ؟

يُعزى ذلك إلى أنَّ الإنسانَ بحكم طبيعته باحثٌ عن اليقين، إنّه يُفضّل أن يكون له أيُّ يقين علــى ألا يكــون له يقين مطلقاً. وهناك حكمة قديمة غامضة تقــول: «من آمن بحجرٍ نَفَعَه»، لذلــك يبحث الإنسان، بوصفه ما هو عليــه، أي من حيث هو إنسان، عن خشبةِ الخلاص في لُجّةٍ غير نهائيّة لا تتوقّف أمواجها عن التلاطم.

وتكشــفُ اللغةُ العربيّة التي هي من أعمق اللغات وأعظمهــا أصل اليقين اتساقاً مع هذا الاتجــاه فــي التأويل، إذ نقرأ في اللسان: «رجلٌ يَقِنٌ ويَقَنٌ: لا يسمــعُ شيئاً إلا أيقَنَهُ... ورجلٌ ذو يَقَــنٍ لا يسمعُ شيئاً إلا أيقنَ بــه... والموقونة: الجارية المصونة المخدّرة». أيعني ذلك أنَّ المُوقِــنَ داخلٌ في خدرٍ هو أيضاً؟ أيعنــي ذلك أنَّ الموقِن في حجاب؟ أيعني ذلك أنَّ الإيقان طاعةٌ واستسلامٌ؟

لكن اللغــة العربيّة العظيمة مزّقت هذا الحجاب، فها هو أحد أكبر شعراء العربيّة، أعني أبا العلاء المعرّي يقول بعمق بالغ ممزّقاً كلّ يقين:

أمَّـــا الـيـقـيـنُ فـلا يـقـيـنَ وإنَّــمَــا

أقصى اجـتـهـادي أن أَظُـنَّ وأَحْـدِسـا

إنَّ اليقين خضوعٌ لمصدر اليقين، وإذعانٌ كامل بحكم الطبيعةِ الإنسانيّة لكلِّ ما يُعيّن هذه الطبيعــة عينها، بمعنى أنَّ الإنسان نزَّاعٌ نحو ما يُعيِّنه ويحدِّده ويهبه حضوره النهائيّ في هذا الوجود.

وهــا هو المُوِّقِــنُ يسير على غير وعي فــي «الكتيبةِ الخرساء» على حــدّ تعبير المعرّي نفسه:

يـرتـجـي الـنّــاسُ أن يـقـومَ إمــامٌ

نــاطـقٌ فــي الـكـتـيـبـةِ الـخـرسـاء

تدلُّ هذه المعطيات على أنَّ اليقين أو الإيقان أو التيقُّن أمورٌ تحجب الإنسان عن الآخرين، بل عن نفسه، وتمنحه الثقة بأنّه يمتلك الحقيقة دون غيره من سائر الناس.

ابتداءً اكتشفنــا أنَّ الوعي التكفيريّ يقينيّ، كما عرفنا أنَّ اليقينَ خضوعٌ لمصدر اليقين؛ لكن قلنا سابقاً: إنَّ الوعي التكفيريّ هو وعيُ المطابقة.

إنَّ التكفيـريّ يريـد أن يُطابق مضمونُ وعيه صيـرورةَ العالم والنهايـاتِ الميتافيزيقيّة للوجود؛ غير أنَّ السؤال الأكثر جوهريّة في هذا المقام هو: ما الذي يَسُوّقُ الوعي إلى مطابقة الواقع؟

أعني ما الذي يدفعُ التكفيريّ إلى الإيقان بأنَّ مضمون وعيه مطابق للوجود؟

يقتضـي الجواب عن هذا السـؤال التمييز بين الطبيعة وما بعد الطبيعة، إذ إنَّ التكفيريّ يعتقدُ أنَّ تفكيرَهُ متحدِّرٌ من حيثُ ماهيتهُ ممّا هو غير طبيعيّ، أي ممّا هو مناقضٌ للمُدنّس، لذلك يأتي التكفيريُّ إلينا محمّلاً بما هو مُقَدّس، ولا أعني بالمقدّس هنا ما هو لاهوتيّ، لكن أيضاً ما هو عقَديّ ونَفْسيّ وعرقيّ...

لكـن أَيُعْقَـلُ أنَّ ما يُضفي القداسـةَ على ما هو مقدّس يتجلّى في الحـرب، أو القتل، أو التفجيـر، أو القطع، أو السَّحل، أو الجدع. إنَّ قتـلاً باسم المقدّس ينأى بالمقدّس نفسه عن القاتـل؛ لأنَّ المقدّسـ يعني بعد أيِّ تحليلٍ التَّحَلُّلَ من أيِّ مُدنَّسـٍ؛ ذلك أنَّ في القتلِ تدنيساً للمقدّسِ نَفْسِهِ.

إنَّ فـي إهـراقِ دم بريء باسم المقدّس سوقاً للمقدّس نحو نهايته؛ ذلك أنَّ المقدّس يعني النجـاة ولا يعني البتةَ الفتك والإزالة والإنهاء، لذلك مَـنْ يقتل باسم المقدّس يقتل المقدّس نفسه، ويتسبب في نفور الناسِ كافةً منه.

إنَّ التكفير يعني إرغامَ الآخر على الاعتقاد بأنَّ ما أبجِّلَهُ أنا بصفتي فرداً أو تابعاً لجماعةٍ يطابـق الحقيقة الأصليّة للوجود، وبذا تصيرُ كلّ حقيقةٍ أخرى غير مطابقة لما أقول -وليس فـي الواقـع للوجود- هباءً وقبضَ ريح. إذ لم يَعُدْ يعنيني إلا ما أقول، ولا يعنيني أبداً ما يكون الوجود!

يتأسّسُ التكفيرُ على الرَّفضُ، ويتأسّسُ الرَّفضُ على غَلَبَةِ الرأي، ولا شك في أنَّ الرفضَ وغَلَبَةَ الرأي يتساويان في الإساءَةِ إلى إنسانيّةِ الإنسان، فحينما يغلبُ رأيُ جماعةٍ أو فئةٍ آراءَ جماعات أو فئات أخرى ليرفضها كلّها، تنزعُ هذه الجماعاتُ أو الفئاتُ الأخرى نفسها عُمقيّاً إلى مقاومته، ساعيةً إلى تغليبِ آرائها والانتصار لها. وهذا الواقعُ يسوقُ إلى حلقةٍ مُفْرَغةٍ لا سبيل إلى الخروج منها.

غيـر أنَّ التكفيريّ يهدف جوهريّاً إلى وضع تفسيرٍ نهائـيٍّ لمعنى الوجود، أي إنّه يختزلُ التنـوّع اللانهائيّ للموجودات في تصـوّرٍ واحدٍ عن الوجود، لذلك يصيـرُ الوجودُ في وعيه

خاضعاً مُسبَّقاً لماهيّةٍ قسريّة، فيُختَزَلُ العالمُ من جرّاء ذلك، ويفقدُ تفتّحه الحيويّ، ويتحوّل الإنسـان من موجودٍ حرٍّ إلـى كائنٍ تحكمهُ جبريّةٌ مطلقة. إذ لا مجـال له للتحرّك إلا ضمن سياقـاتٍ مُفتعلـة تُفرضُ عليه، لأنَّ هـذه السياقات -في منظـور التكفيريّ-تنبعُ من ماهيّةِ الوجود.

إذن، إنَّ ثقافـة التكفير هي ثقافةُ الماهيّة. إنها ماهيّةٌ تفتكُ بالوجود الحيّ، لأنها تقضي علـى الذّاتيّةِ الإنسانيّة، فتمنعها مـن أن تنبع من ينابيعها الداخليّة، بـأن تجعلها تَبَعاً لاحقاً للماهيّـة. وبذا لا يكـونُ الإنسانُ إنساناً بحكم طبيعته؛ وإنما يكـونُ إنساناً بحكم ماهيته، أي إنّـه لا يكونُ إنساناً بسبب اقترابه من طبيعته الإنسانيّـة؛ وإنما يكون إنساناً – وفق المنظور التكفيريّ- إذا وفقط إذا حاكى ماهيّة الإنسان الممنوحة له مُسبَّقاً.

ولا ينطبـقُ هذا المنظور التكفيريّ نفسه على الموجود الإنسانيّ وحده، لكن ينطبقُ أيضاً على الموجودات الأخرى كلها التي ليس لها أيّ معنى ما لم تكتسب تعيُّناتها من الماهية.

وعليـه، يتبيّن أنَّ أخطر ما ينجم عن الوعـي التكفيريّ أنّه يقضي على الذّاتيّة الإنسانيّةِ، ثقافيّاً، قبل أن يقضي عليها، جسديّاً!

وتكشف الوقائع أنَّه لولا تغلغل الثقافة التكفيريّة في العقول لما حدث ما حدث من مآسٍ وأهـوالٍ وويـلات. لكن ما لم ننتبه إليه هو أنَّنا لم نُعنَ بفهم هذه الثقافة التكفيريّة إلا بعد أن شاهدنا بأم العين الجرائم والفظائع والأهوال التي ارتكبها التكفيريون، وعلى الرغم من ذلك لم ينصب تركيزنا على خطورة هذه الثقافةِ نفسها؛ بل تركّزت الجهود على مواجهةِ أشخاصٍ يعتنقون هذه الثقافة نفسها؛ ذلك أنهم في نهاية المطاف ضحيّة لها.

يمكن القول بمعنى آخر: لقد واجهنا نتائج أو مفرزات أو وحوش الثقافة التكفيريّة على أرض الواقـع، وهذا أمرٌ موثوقٌ جدّاً يشهدُ به القاصي والدانـي؛ لكننا لم نواجه الثقافة التكفيريّة نفسها، أي لا بدَّ أن نتساءل عن الينابيع المسمومة التي غذّت عقول التكفيريين، تلك الينابيع التي تتحدّر قادمةً من تراثٍ بحاجةٍ إلى إعادة نظر، جملةً وتفصيلاً.

تقتضـي مواجهةُ التُّراث بادئ ذي بـدء فهمَ الوجود خارج الحدود التي عيَّنتها المنقولات النصيّة للتراث، وبثَّ نمطٍ من الوعي ينبثق من التجربة الإنسانية وحدَها، ويستند إلى تأسيس علاقـة حقيقيّة بين الفكر والواقع الماديّ، لا إلى علاقـة تؤسس بين فكر مغلوط وواقعٍ من نسج الخيال.

إذن، لا بـدَّ من إطلاق مشروع لا غنى عنه يقومُ على تقديـم رؤيةٍ علميّةٍ للعالم، تتضافر العلـوم كلها علـى تكوينها من طبيعيّة وإنسانيّة. ولا أعني بالرؤيـة العلميّة هنا رؤيةً مستمدةً مـن العلم الغربيّ وتابعة لثقافة الغرب؛ بل رؤية تنبثق من معاناةٍ شاقة للإنسان السوريّ تكون ناجمةً عـن تصدّيه لتفسير معنى الوجـود استناداً إلى مناهج العلـوم، تحديداً الاستقرائيّة والإحصائيـة والاستشرافيّة منها، إذ إنَّ ترك معنى الوجود مرهوناً بالتراث سيفضي دون أي شك إلى شيوع ضروبٍ من التفكير لا تُعنى إلا بالمُغيّبات.

إنّ السؤال الأكثر خطورة في هذا الاتجاه يتجلى في القول: ما مدى توافر إمكانيّة الاقتناع بأنَّ شعباً تاريخيّاً لم يتجه نحو تقديم رؤيته عن معنى الوجود؟

تظهر هنا مشكلةٌ عاليةُ التركيب، فحينما يفتقدُ شعبٌ من الشعوب إلى رؤيةٍ علميّةٍ للعالم بعد هذا التقدّم الهائل في مسار البشريّة على جميع المستويات، فهذا يعني أنّه بصفته شعباً لا بدّ أن ينكص -بحكم هذا الافتقاد عينه-إلى أساطيره الأولى.

إذن، إنَّ غيـاب العلم هو ما يوقظ الأساطير، لكن ألا يتعيّن على الأيديولوجيا السائدة أن تنتج العلم، أعني بصفتها أيديولوجيا قادرة على هذا الإنتاج، بحكم نوع تعيُّنها وسيادتها؟

تنبنـي الأيديولوجيا على افتراضٍ قسريّ يحـدّد معنى العالم، وتنبعُ قيمةُ هذا الافتراض نفسـه من أنه قسريٌّ، لكن لا يتصفُ القَسْرُ هنا بالسلـب أو الإيجاب، إذ ما يعنينا هو القَسْرُ مأخوذاً بذاته، أعني القسر بحسبانه بوابةً وحيدةً لنهوض شعبٍ من الشعوب!

لكن، أيمكن أن يُعَدَّ القَسْرُ بوابةً للنهوض؟

حينمـا تغيبُ عن شعبٍ من الشعوب إرادة الحياة المشتركة، بحسبان أنَّ هذا الشعبَ عينه مكـوَّن من عناصرَ مختلفة، لا بدَّ من قوَّةٍ تخلق الوحـدة بين الناس، فيمكن تحطيم كثير من أحجـار الكوارتز وصولاً إلى حجر الزمرد، إذ إنَّ «**مَعْدِنَ الذَّهَـبِ الرَّغَامُ**»، كما يقول المتنبي، وهنـا ينبغـي أن نفهم الأمر وكأننا نحفـر بئراً في صحراء قاحلة، فكم مـن الرمال والأتربة والصخـور تجب إزالتها وصولاً إلـى الماء القراح، لذلك تقتضي الأصالة أن يعنينا الجوهريُّ وحـدَهُ فحسب، لكن إذا كانت الأداةُ التي تُفضي إلى تحقيق الجوهريّ - أعني الأيديولوجيا- عرضيّـةً في حقيقتها، فهذا لا يعني أنَّها دربٌ أصيلٌ سيفضي إلى الجوهريّ؛ لكن ما المعيار الذي نحدِّدُ على أساسه الجوهريَّ أو العرضيَّ؟ أعتقد أنَّ الجواب متروكٌ لسيرورة الحياة، ولو جاء هذا الجوابُ مختلفاً، لَعُدْنا إلى ثقافةِ الماهيّة.

إذا فهمنـــا حركةَ التاريخ واستقرأنا أنّ الفردَ جزءٌ مـــن كُلٍّ، أو عنصرٌ في جملة، أو نسمةٌ فـــي ريـــح، لَمَا ظهر في اعتقادنا أنَّ للحياة الفرديّة معنى؛ لكن هذا الضرب من الفهم لا ينأى بالحيـــاة الفرديَّةِ عن حركةِ التاريخ عينها، بل يجعلها مؤسِّسةً لتلك الحركة، إذ إنَّ التاريخ وإن كان كليّـــاً إلا أنه يمتنع أن يُبنى إلا فرديّاً، لذلـــك الفرد قياساً إلى التاريخ ليس له معنى؛ لكن أيضـــاً التاريخ بالقياس إلـــى المعاناة الوجودية للفرد ليس له قيمة، ذلـــك إذا أهملَ الجزئيّ لصالح الكليّ!

تتكشَّفُ هنا علاقة جدليّة بين المعنى واللا معنى، فبقَدْر ما يمنحُ المعنى اللا معنى إمكان تعقُّله، كذلك يمنحُ اللا معنى المعنى إمكان وجوده، أيمكنُ أن يُفضي ذلك إلى أنَّ المعنى واللا معنـــى يشكِّلان لحمة الوجود وسداته، أو أَيمكنُ أن يـــؤول ذلك إلى أنَّ العالم منسوجٌ بالمعنى واللا معنى؟

إنَّ العالم تركيبٌ من الحياة والموت، أعني من المعنى واللا معنى؛ لكن أليس في مقدورنا أن نقـــول: إنَّ كلَّ تكفيـــر هو لا معنى، أعني أنه لا يعدو أن يكون إلا موتاً أو عدماً، كما أنّه في مقدورنـــا أن نقول: إنَّ كلَّ يقين هـــو معنى، أعني أنه لا يعدو أن يكون إلا حياةً أو وجوداً؛ لكن فـــي مقدورنا أيضاً أن نؤكِّد أننا لا نستطيـــعُ الخلاص من المعنى واللا معنى؛ ذلك أنَّ العالم منســـوجٌ بالمعنى واللا معنى معاً، وهذا يفضي إلى أن يصير المعنى لا معنى، وأن يصير اللا معنى معنى، فالتكّفيرُ يقينٌ بقدْر أنَّ اليقين تكفيرٌ.

غيـــر أنَّ طبيعة الحياة تذهبُ أبعد من المعنى وضده اللا معنى! لكن إلى أين تذهب هذه الطبيعةُ عينها؟

إنّهـــا تذهبُ إلى حيثُ يجـــدُ الإنسانُ ذاته، غير أنه يجدها في كثيـــر من الأشياء؛ بيد أنَّ الشـــيء الذي يجدها فيه قد يكون في أوضع الأشياء أو قد يكون في أكثر الأشياء رفعةً! غير الســـؤال الرئيس المنبثق ها هنا هو: ما المعيار الذي نميّز على أساسه بين الوضيع والرفيع، أو بالأحرى كيف أُميّز بين الكفر والإيمان؟

ينبنـــي هذا الفهـــم للأمور على أساس تبيان ضعف تصوّرٍ ســـاذج عن الإنسان، يضعه بين ثنائيّـــة «(إمـــا) و (أو)»، فالإنسان إمـــا أن يكون مؤمناً أو كافراً، صديقـــاً أو عدوّاً، محبوباً أو مكروهـــاً؛ ذلك أنّه كيف لي أن أكون إمـــا مؤمناً أو كافراً، بصفتي إنساناً، دون أن أكون إنساناً بالفعل قبل كلّ شيء؟!

إنَّ الوعي التراثي يتجه نحو نمذجةِ الإنسان، أعني نحو إرجاعه إلى نماذج ليس بمقدوره البتة أن يحقق أيَّ ضربٍ من ضروبِ وجودِه ما لم يكن منضوياً فيها، ويُعَدُّ أيُّ خروج على قبول هذه النماذج والتسليم بها تسليماً مطلقاً مروقاً وعصياناً، أعني يُعَدُّ تقويضاً للنسق الذي يجب علــى عقولنا -شــاءت أم أبت- أن تسير في مساره المقدّس. ولا يخفى على كلِّ أريب أنَّ النسق يحطم الذّاتيّة، ويطوِّح بها في الهاوية، أقصدُ هاوية تزولُ فيها التناقضات كلّها.

إنَّ أعــداء التناقض هم أعــداءُ كلّ ما يُعَدُّ خصباً، إذ إنهــم لا يريدون التنوّع والاختلاف والتغايــر. إنهم لا يريدون سوى صحــراء قاحلة تحاكي فيها كلُّ حبَّةِ رمــلٍ أختها. ويوجّهون حرابهم ضد أيِّ إنسانٍ يبدو نسيج وحده، أعني يبدو شخصاً بذاته.

لا يجوز في منظور هؤلاء التكفيريين من الأصناف كلها أن يوجد الإنسانُ الفرد؛ بل يجب أن يوجد الناس، إذن، لا يجب أن يوجد الخاصُّ أو المفردُ أو الوحيد، لكن يجب أن يوجدَ وفق رؤيتهم القاسية المشتركُ والعامُّ!

لكن، لم الركون إلى نظرةٍ واحديّةٍ للوجود مهما كان مصدرها؟

إنَّ أيَّ نظرة ذات طابع أُحاديّ لا بدّ أن تكونَ فاشلةً بذاتها، سواء أكانت لاهوتيّة أم سياسية أم علميّة أم غير ذلك، إذ إنَّ كتاب الوجود لن يجعل نفسه قابلاً كيما يكون مقروءاً لعقلٍ واحدٍ أحد دون غيره من العقول.

ولئــن كان التمذهبُ ظاهراً أكثر في اللاهوت، إلا أنَّ اكتشافه في العلم والسياسة والحياة لا يمتنعُ على كلّ أريب.

لكن ألا تكفي الإنسان مشقّات الحياة وحدَها؟

كيف يمكنُ لهذا الإنسانِ المُنهك أن يوفّق بين عملِ الجسد وفعَّاليّة العقل؟

ألا ينبغي أن تتأسس حياته على رفاهيةٍ أبعد من العمل والتفكير؟

تنبنــي إنسانيّة الإنسان على تحقيق متطلبــات حياته، أعني أنَّ الإنسان لن يكون إنساناً ما لم يشعــر بتوافــر جميع الشروط التي تحقّق له كيانه الطبيعــيّ أو الحيويّ، فهو يريد من أعمق أعماقــه أن يأكل ويشرب وينسل ويسكن ويفــرح، قبل أن يشرع في التفكير في معنى الوجود، ونظراً لعدم تحقيق هذه المتطلبات صار التفكير نفسه متوجّهاً نحو عمليّة تحقيقها، فلم يَعُدْ للتفكير قيمة على المستوى الاجتماعيّ سوى أنه قادرٌ على استحضار شهوات الحياة.

إنَّ التكفيرَ في أعمق خباياه لا يعدو أن يكون إلا رغبةً في تأسيس العالم وفق أصولٍ فكريّةٍ لشهوةٍ مفقودة، إذ إنَّ أيَّ مخالفة لهذا التأسيس تعني حرمان التكفيريّ من شهوته، كما أن التكفيريّ -كما يعتقدُ- يقدّم للناس هباتٍ كُبْرَى؛ ذلك باعتقاده أنّه يمنحهم شهواتهم هم أيضاً بسوقهم إلى مُتعهم ونجاتهم وشغفهم. وإذا كان هذا هكذا، فإنَّ أيَّ مخالفة تواجه التكفيريّ تعني أن المخالف يحْرِمه من شهوته، ليس هذا فحسب؛ بل إنَّ المخالفَ يحرِم نفسه أيضاً من الشهوات التي أباحها التكفيريُّ أو التكفيريون له، لذلك يتساءلُ أيُّ تكفيريّ بصدد مخالفيه على النحو الآتي: أَيُعقلُ أن يَحْرِمَ هؤلاء أنفسهم ونفسي أنا أيضاً من مُتعٍ لا تقتضي إلا التسليم بما أظنه حقيقةً، ويتابعُ التكفيريُّ قائلاً: لا تسألوني عن صدقيّةِ ظنّيَّ، فأنا أتنبأ لكم بأنَّ كلَّ ما أعتقده صحيح، لذلك عليكم، احتراماً لشهوتي، أن تُصَدِّقوا كلَّ ما أقول. وإن لم تصدّقوا أيُّها الناس فأنتم تنكرون طريقاً مُعبّداً نحو الملذات، وإن نكرتم فأنتم لا تستحقون الحياة، لأنكم تنكرونها هي أيضاً، إذ إنَّ التكفيريّ يعتقدُ أنّه واهبُ الحياة، ولأنه -كما يهجس- واهب الحياة هو أيضاً واهبُ الموت!

لكن، يجب ألا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ الأمرَ سهلٌ بسيطٌ، إذ إنَّ التكفيريّ يقول من أعماق أعماقه التراثيّة: «اطلبِ الموتَ، توهب لك الحياةُ»، وبذا نقبضُ على ماهيّةِ الوعي التكفيريّ، إذ إنّه لا يريد التضحية ولا الفناء ولا الزوال ولا الانتحار إلا من أجل حصوله على نوعٍ محدّدٍ من الحياة، إلا أنها ليست حياةً أُخرويّةً دينيّة أو روحيّة؛ بل حياة أُخرويّة دنيويّة، فالتكفيريُّ يُريدُ من الدُّنيا نفسها أن تتحوّل إلى آخرة. وبذا يجعلُ من الدُّنيا المعنى الأعمق للآخرة.

إنَّ التكفيريّ يبحثُ عن عالمٍ ضائع، لكن تظهر المفارقة في أنَّ عالمه الضَّائع الموهوم لا يعدو أن يكون إلا عالمه الواقعيّ نَفْسَهُ، لكنه يريدُ أن يذهب به إلى أقصى حدوده، أي يريدُ أن يتجاوز حدود عالمه الواقعيّ نحو عالمٍ آخرَ ليس سوى إعادة تصويرٍ أو نسخٍ لعالمه الواقعيّ، لكن على نحوٍ أبديّ.

يقتضي هذا الكلام أنَّ التكفيريّ لا يبحث في عالمه المنشود عن أيِّ روحانيّة، وإنما يبحثُ عن إعادةِ تكرارٍ شهويٍّ للعالمِ الذي عاش فيه. إنّه يريدُ الاستمرار في وجوده - كما هو عليه- حتى بعد موته؛ لذلك لم يستطع التكفيريّ تجاوزَ العالم الدُّنيويّ أو المحسوس. وبذا يكونُ مصنّفاً - وفق تصنيف التكفيريين أنفسهم- أنّه كافر، أعني أنَّ التكفيريَّ نَفْسَهُ يُكَفِّرُ نفسه وفق المعايير التي يستندُ إليها في تصنيف الناس.

إنّه يُكفِّرُ نفسه، لا لأنّهُ يُريدُ تجاوز الحياةِ التي عاشها، بل لأنه يريدُ أن يُعيد إحياء الحياة نفسهـا التي عاشها. إنّه لا ينكرُ الحياة، بصفتها حيـاةً حسيّةً تناقضُ كلَّ ما هو روحانيّ؛ بل يناقضها، لأنها لا تتحقّق، بصفتها حياةً حسيّةً.

إذن، إنَّ ما هو إيمانيٌّ في العمق، في وعي التكفيريّ هو تأسيسٌ لما يزعمُ التكفيريُّ نَفْسُهُ رَفْضَـهُ، أعني لما يقبله ويريده ويبتغيه، أعني أنَّ ما يطلبه التكفيريّ هو تأبيدُ الدُّنيا، بمعنى أنّه يحاربُ الدُّنيا الزائلة من أجل الدُّنيا الأبديّة.

يتأسسُ على هذا التحليـل أنَّ الخوف من الموت، يُفْضِي إلـى نزعةٍ نحو تجاوز الموت، لكن لا يمكنُ تكوينُ أيِّ نزعةٍ من هذا القبيل، إلا على أساس تبيان أنَّ الموت نفسه يُعَدُّ إعادة بناء للحياة، بمعنى أنَّ التكفيريَّ يُريدُ السُّلطة، لكنها ليست سُلطةَ ازدراءٍ تامٍّ لهذا العالم بحثاً عن عالمٍ آخرَ؛ بل هي سلطة ازدراءٍ لهذا العالم، لأنه لا يفي بالمطلوب، لذلك تنهضُ ثقافةُ أيِّ تكفيريٍّ على المقولة الآتية: أنا أُريدُ الخلاص من هذا العالم كيما أحصل عليه. لذلك يسعى كلُّ تكفيريٍّ إلى تدمير العالم، لأنه لا يريده إلا ملكاً له وحده.

يتأسسُ معنـى العالم في منظور التكفيـريّ على أنّه مكوّنٌ من أجلـه وحده، لذلك يُغفل التكفيريون معنى العالم في أفق تنوّع آراء البشر بصدد هذا المعنى نفسه. وإذا حدثَ أن واجه التكفيريُّ معانٍ متنوِّعةً للعالم، فإنّه لا يقبلها ولا يُناقشها، بل يخضعها لرؤيته هو نفسه.

وإذا اعتقد الإنسان أنَّ العالم موجودٌ من أجله وحده، استناداً إلى طريقةِ وعيه التراثيّ به، فهو ينكصُ إلى تصوّرٍ بدائيٍّ عن معنى العالم، أي إنّه يسقطُ في شراك تصوّرٍ ذاتيٍّ ساذجٍ عن العالم يذكرنا بالعهود الأولى لطفولةِ البشريّة، بمعنى أنَّه يُضفي تصورات الذات على صيرورة العالم من أجل إيقافها؛ ذلك بإفراغها من الزمان الحيّ الذي يحرّكها، ما يُفضي إلى تحنيط العالـم بعد نزع كلّ ما هو حيّ منه. لذلك إنَّ العالمَ مُحنَّطاً أو التحنيطُ طريقةً لتكوين العالم أمران يدلان على أسلوب ذاتيٍّ نرجسيٍّ بائس في فهم الأشياء.

إذ إنَّ كلّ مـن يعتقد أنّه يصوغ العالـم وفق وعيه الذاتيّ، فإنَّه لا يمتلك ذاتاً أصلاً؛ ذلك أنَّ العالـم داخلٌ إلى أبعد مدى في تكوين الذّات، لكن ليس ليمنحها الوحدة؛ بل ليهبها التعدّد، أي إنّـه لا يضعهـا في هُويّة معه؛ بل يسوقها نحو الاختلاف بأن يتركها إزاء ذاتيات أخرى، ذلك أنَّ اختلاف الموجودات في العالم يهبُ العالم معناه، كما أنَّ تطابقها التام يسلبُ من العالم عالميتَهُ. ذلك، إذا أخذنا هذا الأمر بالمعنى الوجوديّ العام الذي لا يكترثُ به الوعي التكفيريّ.

أما إذا أخذنا الأمر نفسه بالمعنى الإنسانيّ الخاصّ، لتبيّن لنا أنَّ التكفيريّ ليس ذاتاً مطلقاً، أي إنّــه لا يحوز أيّ فرديّة أو فرادة أو خصوصيّة، إذ إنه لا يُمثّلُ نفسه مطلقاً؛ بل يُمثّل ما حُشي فــي عقله من أفــكار سيطرت على بنيته العقليّة؛ بل كوّنتها. وإذا أرجعنا هذه الأفكار نفسها إلى مظانّها لاكتشفنا أنّها لأشخاصٍ آخرين، أو بالأحرى لكثرةٍ كاثرةٍ من الأشخاص، وتظهر المفارقة في أنَّ كلَّ شخصٍ من هؤلاء يحيلنا إلى غيره، لذلك تنعدم الذاتيّة بينهم، وتستمر هذه العمليّة في الإحالة إلى ما لا نهاية حتى يؤول الأمر بنا إلى أن نخرج من الطبيعة لنُقاد إلى ما بعد الطبيعة، وهناك فيما بعد الطبيعة لم يعد ثمة قيمة أو دلالة للكلام على أيّ ضربٍ من الذاتيّة.

إذن، التكفيــريُّ ليــس ذاتاً، بل يقع علــى النقيض من كلّ ما هو ذاتــيّ، وهذه هي مأساةُ التكفيريّ فعلاً؛ ذلك لأنه من دون ذات يريدُ أن يقضي على الذاتيّات الأخرى كافة، إذ إنَّ في داخله نزعةً تدميريّة لن تتوقّف عند حدّ ما لم يتم إخمادها.

إنَّها نزعةٌ تهدف، جوهريّاً، إلى القضاء على الآخر المختلف وإزالته من العالم، ماديّاً ومعنويّاً، وتقــوم على قاعدة رئيسة هــي: إما الوجود أو العدم، ولا يوجد مخرج ثالث، فالوجود يكون لمن يماثلُ التكفيريّ في عقيدته، والعدم مصيرُ من يناقضُ التكفيريّ في هذه العقيدة نفسها.

إذن، نحن هنا إزاء إعدام ذي طبيعةٍ عَقَديّة بقَدْر ما هو إعدامٌ ذو طبيعةٍ إجراميّة، لكلّ ما هو إنسانيّ في الإنسان؛ لكنَّ ما يُعدّ خطراً بالدرجة الأولى ليس الإعدام الإجراميّ أو الماديّ للآخر؛ بل الإعدامُ العَقَديّ أو المعنويّ له هو الأكثر خطورةً، وأعني بالإعدام العَقَديّ تحقير اعتقاد الآخر ورفضه وتحييده، لصالح اعتقاد التكفيريّ نفسه.

لكن ما الذي يُقيِّضُ لاعتقادٍ دون غيره أن يلغي الاعتقادات الأخرى كلها؟

إنَّ التكفيــريّ لا ينطلــق في رفضه للآخر وذبحه من مُنطلــق أنّه يرتكبُ فعلاً خاطئاً؛ بل من منطلق أنّه يقوم بعملٍ صحيح؛ ذلك أنَّ وعي التكفيريّ مسلّحٌ بالمقدّس، قبل أن تتسلح يده بسكين قطع الرؤوس.

غيــر أنَّ المقدَّس، مذهبيّاً، ليس حكراً على التكفيريّ وحدَه، بمعنى أنَّ التكفيريّ يستثمر الاعتراف بالمقدَّس-وإن كان ذلك على نحوٍ لا يقبله-من أجلِ أن يؤوِّلَ كلام المقدّس في أُفق إرادته التكفيريّة، بمعنى أنَّه يستغل مُقدّساً مسلّماً به وإن كان ذلك بطريقةٍ لا يرتضيها، ليقول: إنني وحدي الذي أعرفُ إرادة المقدّس الذي تعترفون به، ولأنكم تعترفون به، مذهبيّاً، فأنتم مجبرون على فهمه كما أفهمه أنا!

إنَّ التكفيــريّ ينطلقُ في دعوته مما يسمّى «الحس العام»، أو مما يمكن أن نسميه «الوعي المشتــرك» لفئــة أو جماعة، إذ إنَّ التكفيــريّ كان في يوم ما ذا حسٍّ عــامٍّ أو صاحبَ وعي مشترك، وهنا على وجه التحديد تتجلّى الخطورة في طريقةً تفكيره، إذ إنَّه نزع إلى أن يتجه بحسّــه العام أو وعيه المشترك الذي كان يجمعه مع الناس كافة إلى حدوده القصوى، أي إنّه لا يبتكــرُ وعيــاً جديداً، وإنما يريدُ أن يذهب بوعيٍ فئــويٍّ أو جمعيٍّ معيّن إلى أبعد المطارح الممكنــة، فهو لا يكتفي بأنّه أوتر قوسه وصوّب سهمــه مثله مثل غيره؛ بل لا بدّ في رأيه من رشق هذا السهم إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليه.

وعليــه، يمتلكُ التكفيريُّ -كما يعتقدُ هو نفسهُ- شجاعةً تميّزه من غيره، لذلك يتوهّم أنّه يستحق الإجلال والاعتراف بالجميل! ذلك أنه لم يفعل ما فعله سوى لهدايةِ الخرافِ الضَّالة، أي ليكون أسوة وقدوة ومثالاً.

لذلــك ينظرُ التكفيريُّ إلى نفسه – في استباقه الواعــي لموته- بصفته شهيداً ولا ينظرُ إليهــا بصفته مقتولاً، أو منتحراً. إنّه يؤسســ بوصفه شاهداً على الحقيقة وشهيداً في سبيل الحقيقــة. ذلك أنَّ وعيه -كما سبــق القول- هو وعي المطابقــة، أي مطابقة أفكاره للواقع النهائيّ، سواء أكان ماديّاً أم مثاليّاً.

إذن، تتضــحُ المشكلــةُ التي نعاني منهــا: إنها امتلاك الحقيقة المطلقــة. ولا يزيل هذه المشكلة نفسها الفرق في درجة الامتلاك أو شدّته بين شخص وآخر؛ ذلك أنَّ مفهوم امتلاك الحقيقــة عنــد مذهبٍ أو فئةٍ أو جماعةٍ يُعدُّ، مأخوذاً بذاتــه، سبباً رئيساً لسلب الحقيقة من الآخريــن، أي إنَّ العالمَ في هذا المنظورِ يُقسم إلى مؤمنين وكافرين، أو ضالين ومهتدين، أو عارفين وجاهلين، أو قاتلين ومقتولين.

وعليه، تظهــرُ علاقةٌ رهيبة هنا بين سيدٍ وعبدٍ-والسيادة والعبودية هنا ليستا موجودتين في بداية المطاف إلا على المستوى العَقَديّ-فالسيّد يمتلكُ عقيدةً ينبغي أن يذعن العبدُ لها، أعني أن يؤمن بها؛ لكن التاريخ -كما تعلمنا دروسه-يحول السادة إلى عبيد، ويجعل من العبيد سادةً. لذلك لا يوجد أيّ ضمان لاستمرار امتلاك الحقيقة على نحوٍ أبديٍّ، فالحقائق التي كان يمتلكها من كان يُظن أنهم عبيد صارت حقائق ذات سيادة على الذين كانوا سادةً فيما مضى. ويستأنف التاريخ حركيته دون توقف.

إنَّــه تاريــخٌ لا يتوقف عن تغيير مساراتــه، لأنه يتحرك أساساً بالفعّاليــة الخالقة للبشر، ســواء أكانت نتائجها سلبيّــة أم إيجابيّة، هذا إلــى أنَّ الإيجاب والسلــب يخضعان في هذه

الحيثيّــة لمقياس نسبــيّ، فما هو إيجابيّ لفئة، قد يكون سلبيّاً لفئة أخرى، ويصحُ عكس هذا الكلام...

إنَّ للتاريــخ اندفاعاً ووثبةً وابتكاراً، لكن يأتي هذه كلّه في سياقات قد نقبلها أو نرفضها، إذن ليس بمقدورنا أن نراهن على التاريخ، أعني التاريخ بصفته قوّة خالقةً لعالم البشر.

يفضــي هذا الضربُ من الفهم إلى توكيد أنَّ التكفيريّ يسعى -كما يتوهّم-إلى تكوين قوّة خالقــة للتاريخ، أي إنّه يريدُ بالدرجة الأولى - بحكم وعيــه المشترك والذهاب بهذا الوعي المشترك إلى أقصى مدى عَقَديٍّ له- أن يستحوذ على العالم فكريّاً باسم المقدّس، بمعنى أنه يعــي تماماً أنّه لا يمكــنُ لأيِّ إنسان مهما كانت سلطته أن يضبط حركيّة التاريخ أو أن يتحكّم بها لصالحه هو وحده، لذلك يريدُ التكفيريّ أن يضرب أعظم الأمثلة-كما يتوهّم-في محاولته القبض على حركيّة التاريخ من أجل توجيهها كيفما يشاء، وكأنّه ربانٌ يقبضُ على دفّة سفينة، ليوجّهها نحو عُمق اللُّجّة.

وتُكشــفُ مسألةٌ ذات دلالــة بالغة العمق في هذا الاتجاه، إذ إنَّ التكفير ليس حالةً فرديّة؛ بل حالةٌ جماعيّة. يعني ذلك أنَّ التكفير ليس نابعاً من أعماقِ نفسٍ إنسانيّةٍ بعينها، وإنما ينبعُ من نفوسٍ كثيرة تتكثّرُ باستمرار دون توقّف.

وهنا من حقّنا أن نسأل لماذا لا تنجح دعوةُ التكفير إلا إذا اعتنقتها جماعةٌ من الجماعات، أو بالأحرى لماذا لا يتحقّق أو يتجوهرُ التكفيرُ إلا ضمن جماعة؟

يقتضــي هذا الفهــمُ للأمور القول: إنَّ التكفيرَ في أصل ماهيتــه جمعيٌّ في حقيقته، أي إنّه لا يظهر بصفته نزعةً نحو نكران الآخرين المختلفين وإزالتهم من الوجود، إلا على أساس انبثاق هذا السلب عن وعي جمعيّ.

لكن لا بدَّ أن نبحث عن الأسباب التي تؤدي إلى تكوين الوعي الجمعيّ على نحوٍ تكفيريّ، وتخبرنــا تجاربنا المريرة أنَّ هناك قابليّةً واستعداداً وتهيــؤاً- تبعاً لتغيُّر الظروف- كيما يغيّر الناس قناعاتهم ومواقفهم وتوجُّهاتهم...

لكن ما الذي يدفعهم إلى ذلك الأمر؟

إنّ مــا يدفعهم بادئَ ذي بدء لا يُمكنُ أن يُفهم إلا على أساس الاعتراف بهم وتمكينهم من امتلاك الوسائل التي تساعدهم على التعبير عن أنفسهم بصفتهم حاصلين على حقٍّ حصريٍّ بامتلاك الحقيقةِ المطلقة.

إنَّ تراجــع أصحاب الحقائق الأخرى، لأنهم لا يريدون التعبير عن حقائقهم أو لا يمتلكون الوسائــل للتعبير عنهــا أو يفتقدون إلى مقوّمات طرحها، يجعل جماعةً من الناس تشعرُ بأنّها تمتلكُ الحقيقةَ المطلقة.

وبما أنَّ هذه الحقيقة المطلقة تمتصُّ كل الحقائق الأخرى - التي هي في منظور أصحاب الحقيقــة المطلقة نسبيّة- فإنَّ معتنقي هذه الحقيقةِ المطلقــة سيفرزون من داخلهم فئةً لا تقبلُ أصحاب الحقائق النسبيّة.

إذن، إنَّ تراجع الإنسان الفرد عن التصريح بما يعتقد أنّه حقيقة، سيؤدي حتماً إلى انتصار أصحاب الحقيقة المطلقةِ عليه.

لكن ها هو المعرّي يقول:

تَــرُوْمُ شــفــاءَ مــا الأقــوامُ فيـه
رُويــدكَ إنَّ داءَ الـقـومِ أَعْـيَـا
وألــقَــتْ هــذه الأيــامُ عِـلْـمـاً
إليـكَ، فـلَـمْ تُـصَـادِفْ منـكَ وَعْـيا
ودِيــنُــكَ مـا عـلـيَّ الـحـكـمُ فيـه
فـأبـغـيَ لـلـذي أخـفـيْـتَ بَـغْـيا
إذا الإنـســانُ كـفَّ الـشـرّ عـنّـي
فـسُـقـيـاً، فـي الـحـيـاةِ، لَـه وَرَعْـيـا
ويَـدرسُ - إنْ أرادَ- كـتـابَ موسى
ويُـضـمِـرُ، إنْ أحــبَّ، وَلاءَ شعيا

سيميولوجية العلامة وتفكيك الخطاب الإرهابي

د. أحمد الشعبان

تعدُّ أحد أبرز أوجه السياسات الغربيـة الأوروبية والأمريكية، خلق بـؤر التوتر في العالم، الأمر الذي يضمن لها حَراكاً سياسياً واقتصادياً نَشِطاً، على وجه الخصوص لأسواق أسلحتها. نجحت هذه الدول دوماً في عرقلة التطور في بلدان العالم النامي والشّرق الأوسط الذي يعدُّ مصـدراً هائـلاً للثروات الـمُتنوِّعـة، وموقعاً إستراتيجيـاً مُهمّاً يشكل حلقة وصـل بين أطراف العالم وقارّاته، لِتبقى – أي الدول الغربية- مُسيْطِرة على السّياسة الدّولية، ولاسيّما في الحقبة الحديثـة والـمُعاصرة من التاريخ، إذ تبدَّلَـت أوجه الاستعمار من مباشر إلى استعمار بالتبعية السياسيـة والاقتصاديـة والثقافية، من خلالِ السيطرة على الـمُستحدثـات العلمية التي تُعدّ عمود التطور الأساس والتي تُسيطِر عليها هذه الدول بشكل شبه مطلق - إلا ما خَرَجَ من تحتِ عباءتهـا- ومـن خلالهِ تستمد سيطرتها علـى باقي مناحي الحياة فـي بُلداننا التي يطلقون عليهـا، «شعـوب العالم الثالث» أو شعـوب الـ«3rd zone»، أو «developing countries». لسنـا فـي صدد العرض الكرونولوجي لآليات التحـوُّل الاستعماري وأَوْجُهِه مـن القديم إلى الـمُعاصِر، ولكن لا بدّ من مدخلٍ للتوصّل إلى الشكل الحديث الذي تجلّى فيه هذا الاستعمار بالتزامـن مع حقبـة ما يسمى «ثورة المعلومات» في العقديـن الأخيرين من القرن الماضي، والتحـول إلـى ما يسمـى حقبة «انفجـار المعلومات وتَشَظّـي المعرفة»، التـي نعيشها حالياً منـذ مطلـع الألفية الثالثة، كل ذلك أسهم في تسريع وتيـرة الخطاب الجماهيريّ بشكل عام

وتوجيه الرَّسائل حول العالم في أيّ زمانٍ ومكانٍ بأسرع وأدقّ مما يتصوره العقل البشريّ، فمن يمتلك التقنية يمتلك الرسالة ومن ثمّ يفوز الغرب المُتحضِّر دوماً بالسَّبْق.

التطرّف، الإرهاب بين الدال والمدلول

«من يقول ماذا؟ لِمَنْ؟ بأيِّ وسيلة وبأي تأثير؟»[١]، بهذه الصيغة خطّ العالِم الكندي (هارولد لاسويل Harold Laswell) (١٩٠٢– ١٩٧٨) الطريق إلى شهرته، إذ قـدَّم إطاراً مفاهيمياً للسوسيولوجيا الوظيفية لوسائل الإعلام التي كانت حتى ذلك الوقت محصورة في دراسات علمية ضيِّقة، وعند نقلها إلى مجالات بحثية أوْسع، أعطت صيغة لاسويل دفعاً جديداً لتحليل وضبط وتوجيه مضامين وسائل الاتصال الجماهيريّ، ولتحليل الجمهور والتأثير عليه. وبين الحالة الجماهيرية للإعلام وأشكال الاتصال واسعة الانتشار، اهتم الغرب بالعلامة بوصفها المؤسس الرئيس للصورة الذهنية، وركّز جلّ اهتمامه على صياغة رسالة ذات أبعاد كثيرة تؤدِّي دوراً كبيراً، يفوق في بعض الأحيان تأثير الغدد الصماء في الدم، وهنا تكمن الخطورة الهائلة التي يُمارِسها الغرب في تغذية الفكر المُتطرِّف الذي يلقى دوماً بيئات غنية حيث يقبع الفقر والتخلف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في مجتمعاتنا بشكل عام والمقصود هنا «بلدان العالم العربي والإسلامي».

اهتم (فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure) (١٨٥٧– ١٩١٣) بالعلامات اللسانيّة كالكلمات، فحدّد الإشارة بأنّها تتكوّن من «دال» و«مدلول»[٢]، ويميل الشُّرّاح المُعاصرون إلى وصف الدّالّ بأنّه الشّكل الذي تتّخذه الإشارة، والمدلول بأنّه الأُفهوم الذي تُرجَع إليه، ويميّز سوسير بين الدالّ والمدلول كالآتي: «ليست العلامة اللّسانية صِلَة بين شيء واسم، لكن بين أفهوم (مدلول) وطراز صوتي (دالّ)، وليس النموذج الصوتي صوتاً، لأنَّ الصوت محسوس، الطراز الصوتي هو الانطباع النفسي الذي يولِّده الصّوت عند المستمع، كما يصله كمُعْطى عبر أحاسيسه، ولا يمكن تسمية الطراز الصوتي عنصراً ماديّاً، إلّا بِمعنى أنّه يمثّل انطباعاتنا الحسيّة، وبذلك يُمكن التمييز بين الطراز الصوتي والعنصر الآخر المرتبط به في العلامة اللسانيّة، وهذا العنصر الآخر هو عامّةً أكثر تجريداً، هو أُفهوم»[٣].

بالنسبة إلى سوسير «الدال (الطراز الصوتي) والمدلول (الأفهوم) كلاهما (نفسي) محض، وكلاهما شكل وليس مادّة»[٤]، وعن اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول يلحظ سوسير «أنّ الدّالّ على الرغم من أنّه قد يبدو أنّه اختير بحريّة، هو من منظور الجماعة اللسانية (مفروض

وليس مختاراً بحريّة)، لأنّ اللّغة دائماً إرثٌ من الماضي، وليس لِمستخدميها إلّا القبول بها»[٥]، ومـــن هنا يمكننا القول: إنّ الإشارة اللسانيّة اعتباطية، فهي لا تعرف أيّ قانون غير التقاليد، ولأنّها تقوم على التقاليد يمكنها أنْ تكون اعتباطيّة.

التفسير السّيميولوجي للعلامة (الإرهاب) بين المُرسل والمتلقي

لــم يتردد الغرب المُتطوِّر وصاحـــب الإمبراطوريات الإعلامية الضَّخمة في إيجاد طريق ليفرضـــ به هيمنته على الدّوام، ولم يجـــدْ أهمّ من علم السيميولوجيـــا، الموصوف منهجياً بـ«المنهـــج المُهيّمِن» الذي يفرض سطوته علـــى باقي العلوم ومناحي الحياة بشكل عام، وهنا يكمـــن التلاعب في العقول عبر الدلالة واللَّفظة والمُفـــرَدة والمُصْطَلَح الذي تنشأ وتترعرع عليـــه الأجيال بفعل قوة الإعلام وسطوته، وعلـــى الرّغم من أنّه لا يبدو لِلعيان أنّه يمْلِك ذلك التأثيـــر بالغَ الحساسية، إذ يظهر كقوة ناعمة وضعيفة أحياناً كثيرة ولكنّه على المدى البعيد يُحـــوِّل مجاري الحياة ويجعل دولاً تنهار ويُسهم فـــي نهوض أخرى، ومن خلال الاشتغال على اللّغة إعلامياً وقَعَ المُتلقي دوماً في دوّامات التفسير فيما بين العلائق اللغوية والمصطلحات، وأيَّاً من الأطراف يفرض السَّيطرة في التفسير، المرسل أو المتلقي، وأيهما تسود نظريَّته أكثر فـــي تبني الأفكار والمُستحدثات نظرية المُرسل في احتماليات التفسير أو نظريات المتلقي، المُسْتَنِـــد إلى خلفياته الفكريـــة والثقافية والاجتماعية وكل ما يرتبـــط بذلك مروراً بواقعه الاقتصادي؟

لا يعنـــي مبدأ الاعتباطية أنّ الفـــرد يستطيع أن يختار اعتباطيّـــاً أيّ دالّ لمدلول ما، إنّ العلاقـــة بين الدال ومدلولـــه ليست موضع خيار فردي، ولو كانت كذلك لأصبح التواصل غير ممكن، «بعد أن تصبح الإشارة قائمة عند الجماعة اللسانيّة، لا يملك الفرد أنْ يُبدِّل فيها أي تبديـــل»، من وجهة نظر مستخدمي اللغة، اللغة هي شـــيء مُعطى، ونحن لا نصنع المنظومة لأنفسنـــا، يقول سوسير عـــن اللغة: «إنّها عقـــد نوقِّعه عند الولادة مـــن دون مناقشة بنوده»، أمـــا بالنسبة إلـــى المدلول فيقول إمبيرتو إيكـــو: «إنّ موقعه بين الصـــورة الذهنيّة والأفهوم والواقع النفسيّ»[٦]، ويمكن أن تفيدنا هنا ملاحظة (سوزان لانجيه)[٧]، (Susanne Katherina Knauth Langer)، فنحـــن عندما نتكلّم على الأشياء نملك تصـــوّرات عنها، وليست الأشياء نفسها، تستحضر الكلمات عادةً سلوكاً تجاه التصورات، ويمكن أن نعدّ هذه عادة السيرورة في التفكير، وتقول لانجيه: «إنّني إذا قلت نابليون، فإنّك لا تنحني أمام فاتح أوروبا وكأنّه حاضر

أمامــك، إنّما تفكّر فيه فحسب»، ويقول (سوسيــر)[٨]: «إنّ معدن العملة لا يحدد قيمتها، ولو كانت الإشارات اللسانية تلفت الانتباه إلى ماديّتها لأعاق بذلك شفافيّتها بالتواصل».

إنَّ عمليــة إسقــاط الدّال على المدلول جعلــت من الدّال مُعطى مُباشــر، وصورة ذهنية خالصة تحضر لدى ذهن المتلقي بشكل سريع دون الرجوع إلى (المُرجع اللَّفظي الذي يُجسِّد الأفهــوم)، كأن تُعقَد المُقارنة مع المُعادلة الفلسفيّة البديهيّة الآتية: «كل إنسان فانٍ، سقراط إنســان. إذن سُقراط فــانٍ»، ويقابلها سيميولوجياً حسب النظــرة الغربية والمفاهيم السائدة كما أَرْجَعْنا تاريخيــاً في الحقبة الحديثة والمعاصرة إلى أنَّ: «الإسلام هو الإرهاب، إذن فإن كل مسلــم أو كل عربي إرهابيٌّ»، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه دُمِجَ بين الدّال «الإسلام» والدّال «العَــرَب» لِيُصارَ إلى المدلول المُسقط عليه وهــو «الإرهاب»، وطبعاً ما يُمكن أنْ يتفرَّع عنه مــن مفاهيم استبدالية ومرادفة يُمكن أنْ تصــبّ لِتُعبِّر بأقلّ أو أكثر شدّة على الحالة السّلبية للأفهوم المغروس، أو الأفهوم الذي يعمل دوماً على استمراره وإعادة غرسه لدى الأجيال التي تَنْشأ. والسؤال أو الفكرة المطروحة دوماً هي:

«الإرهــاب أو التطــرّف هو الشــكل الأحدث والأكثر تطــوراً لِلذرائعيــة الغربيّة ولاسيما الأمريكيّــة التي تقود العالم المُعاصر بما فيه الغرب الأوروبيّ، إلى التدخل في شؤون الدول، ولهــذا فإن إعلان الحرب على الإرهاب عبر الوسائل المسلحة، وبالقوة الخشنة فحسب، أمر يشبه «هشّ الذباب بالمطرقة»، مع الأخذ في الحسبان أنّ ذلك ضروريٌّ إذ يجب أن يكون، وفي حالة الأزمة الشرسة إرهابياً التي تعرضت ولا تزال تتعرض لها سورية كبلد عربي ومسلم خيرُ مثــالٍ مُعاصر على نفاذ الأفهوم عبر الإعلام ووسائله المعاصرة «multimedia»، التي تشمل جميع أنواع الوسائل الإعلامية، بما فيها وسائل التواصل الاجتماعي، والتي على الدوام تُشكِّل خرْقــاً لِما يُمْكن تسْميَته بِشاقولية الخطاب الإعلاميّ الرَّسْميّ أو حتى الخطاب بكلِّ تجليّاتِه وصُــوَرِه عبر الإعلام، والتي استغلَّها الغرب في الحــرب الأخيرة على سورية، والعالم العربي فيمــا سُمِيَّ بِـ«ثورات الربيع العربــي» أفْضَلَ استغلال، لِتُتيح لنــا مُخرجات عديمة البناءات والحوامل لِكي يُبْنَى عليها لا فكرياً ولا سياسيّاً ولا اجتماعياً ولا ثقافياً ولا أيّ شكل من أشكال عوامــل الحضارة أو قيام الــدُّول ونهوضها، فما سُمِّيَ «الرَّبيع العَربــيّ» لمْ يُثْمِر مُطلقاً حتى اللّحظة، ومن الواضح لدى أيِّ مراقبٍ مُهتم أنّه لن تكون له الفرصة لِذلك، حيث إنَّ المفاهيم السلبيــة المُنغرسة بيــن حوامل الرِّسالة الإعلامية جاءت أصــولاً مُشوَّهة لأنها استندت إلى مفاهيــم غُرِسَتْ بطريقةٍ سلبيةٍ بين معنى الدّال ومــا نَتَجَ عنه من سلوكيات آلَ إليها المدلول

ك(الإرهـــاب، التطرف، القتل، التخلف، الرجعيـــة،...» وكلّ ما ينتج عن ذلك لن يكون بالتأكيد سوى الدَّمار والخراب بأوسع معانيهما، وهذا ماحدث فعلاً.

الفكــرة الأساسية التي يجب ألا يَغْفُل عنها عاقل، هي أنّ غرس المدلول السلبيّ وإسقاط الــدّال لمصلحة المدلول، وتبنِّي ذلك يعني أنَّ الفِكــرة أو الفِكْر في الإطار العام بات جاهزاً ليتحوَّل إلى سلوك في أيٍّ لحظة وحينما تُتاح الفرصة لذلك، ومن الواضح أنّ «الغرْب الـمُتطور تِكنولوجيّــاً» نَجَحَ في خلْقِ بؤرِ توتّر وصراع دائمة دون أنْ يخوض حرباً مُباشرة منذ عقود إلا مـــا اضطرَّه إلى ذلك، وإنْ حدث ذلك فهـــو مدعاة لِلضبط وإحْكام السَّيطرة وتنفيذ الخطط التي يرْسمها على الدوام بِهدف تحقيق مصالحه العُليا.

خصائص اللُّغة العَلَامِيّة والإعلامية وتفكيك المصطلح

جعلت تَركَـــة سوسير – فيما يتعلّق باعتباطيّة العلامـــات– السيميائيين يشدّدون على أنّ العلاقـــة بين الدال والمدلول اصطِلاحيّة، تعتمد علـــى اصطلاحات اجتماعيّة وثقافيّة يجب تعلُّمهـــا، ويتّضـــح ذلك ولاسيّما بالنسبة إلى الإشارات اللسانيـــة التي عُني بها سوسير: «تعني أيّ كلمـــة ما تعني بالنسبة إلينا، لأنّنا نتفق جماعيّاً على أنْ تعني ذلك، وليس من سبب آخر»، ويضيـــف سوسيـــر: «إنّ أي وسيلة تعبير يقبلها المجتمع تسْتَند مبدئيّـــاً إلى عادة جماعيّة أو عرف ما يعني الشيء نفسه»، وهنا ما يُظْهِر أنّ الإعلام مارس سطوته بكل ما أوتي حتى بات الاصطـــلاح الاجتماعي على ما يدُلّ عليه مصطلـــح «التطرف» و«الإرهاب» و«التخلف» أو أيّ مصطلـــح سلبيّ هو شبه يقيـــن ليس لِمن تصب في مصْلحته أنْ يعدّ ويتبنّى كلّ تلك المفاهيم التي ألْصقت بالعَـــرب أو الـمُسلمين فحسب، إنَّما حتى بالنسبة إلى المتلقي العربي والـمُسلم نفســـه، والتي كما أسلفنا جعلته يضع نفسه على طرفٍ نقيض، أي بين غرب متطوِّر مُتحضر يعيشـــ فـــي سلام، وبين شرقٍ مُتخلف مُتطرِّف يعيش في قلـــقٍ وحالةِ حربٍ واقتتال مستمرة، والأمثلـــة كثيرة على ذلك في عالمنـــا العربي كأن نعود بالذكر إلى احتلال أمريكا للعراق سنة (٢٠٠٣م) إلى تاريخنا الحالي وما نتج مما دُعيت بـ«ثورات الربيع العربي»، ولكن يجب ألا نغفل مُطلقاً أنَّ هُناك علامات كالكلمات مُسْتقلّة تماماً عن (الـمُرْجَع إليه)، وهناك أيضاً أشكال من العلامات أقلّ اصطلاحيّة وأقلّ استقلالاً عن الـمُرْجَع إليه، وقد اتخذت العلامة عند (سوسير) تبعـــاً لذلك عدّة خصائص أساسية يجدر ذكرها لِلإضـــاءة أكثر على آليات الغرس الإعلامي عبر اللغة والتي تُسْتَخْدَم استخداماً أدَقَّ وأعْمقَ في غرس الـمُصْطلح والسُّلوك، إذ يجب الردّ

بالميكانِزمات نفسها أي عبر الميديا وبالقوة الناعمة قبل الخشنة، وليس بالمجابهة المسلحة فحسب، وهذه الخصائص هي:

١- اللغة نظام علامات:

فاللغــة ليست إلا نظاماً من العلامــات System of Sings التي تُعبِّر عن الأفكار، التي لا وجــود لها من دون وجود العلامات، وهو شبيه بأنظمة رمزية غير لغوية كثيرة، ولكنه أهم من هــذه الأنظمة، «فالصفة التي تميز نظام العلامات عن الأنظمة الأخرى، لا تظهر بوضوح إلا في اللُّغة، بل إن مسألة اللغة هي في جوهرها مسألة علم العلامات (السيمياء)»(٩).

٢- العلاقة الإيحائية:

فهنـــاك شيء مختلف قابل لِأنّ يُستَبَدل بِشيءٍ يُــرادُ تحديد قيمته (كلمة تمثِّل فكرةً على سبيل المثال).

٣- العلاقة التركيبية:

حيث إنَّ هناك أشياء يُمكننا مُقارنتها بشيءٍ وُضِعَتْ قيمته موضِع بحث (أي كلمات أخرى تُعارضها).

إن أهــمّ ما يجب تأكيده هنا، هو أنّــه إذا كانت اللُّغة نظاماً من العلامات التي تَتَّصِف أولاً بالاعتباطيــة وثانياً بالتسلســل الخطي، فإن (سوسير) يغفل ذكر صفــة أخرى أساسية وتحتل أهمية أكبر، وهي أنّ «العلامات تؤلف نظاماً، فهو يقول إنَّ اللغة (Langue) ذخيرة من العلامات مُدوَّنة سلبياً، لا يعني بذلك أنّ هذه العلامات لا نظام لها، ما هي إلا مُسمّيات، وإنما هي - على عكســ ذلك- تؤلف نظاماً دقيقاً يمثل الصفة الثالثة من صفات العلامة»(١٠). ويمكن الإضافة أيضاً أنّ ضَرّب المفهوم بمعنى «هدمه» من خلال التكرار هو ضرب لِلعلامة أو لِلدّال من خلال إشباعه بالمدلول واصطلاحه من خلال التداول والتكرار، أو في الوقت نفسه استبدال العلامة الإيجابية بأخرى سلبية من خلال الرسالة الموجهة عبر الوسائل الإعلامية، وهنا تكمن خطورة الإعــلام، أولاً لأنه جماهيريّ وخصوصاً في العقود الثلاثة الأخيرة التي شهدت طفرات هائلة متتاليــة في عالم (الميديا)، والأكثر خطورة من ذلك أنه عابر لِلقارات إذ لم يعُد هناك حدود مُطلقاً أمــام البث التلفازي والشبكات العملاقة، ومع دخول الحقبة الرقمية وعصر الإنترنت، أيضــاً أسهم هذا الأمــر بشكلٍ كبيرٍ في تسريع وتيرة إسقاط كثير مــن المفاهيم السَّائدة في العالم التقليدي، في القرن الماضي ولا سيَّما الحالة السياسية التقليدية التي كانت سائدة في

المجتمعات بشكل عام، لِتُفضي هذه الحقبة إلى حالة جديدة من الخطاب، الذي لم يَعُدَّ محطَّ جـدالٍ عــن أنّه فَقَدَ شاقوليّته من أعلى إلى أسفل، بل انقلب فــي كثير من الأحيان رأساً على عقب، وهنا ظهرت كثيرٌ من النظريات في الاتصال الإنساني وحول كيفية تداول المُستحدثات، وتلقــي الرسالة، ويعبر إمبيرتو إيكو عن ذلك بـ«أنَّ المرســل بات يعيش على فُتات ما يقوم به المتلقــي في تفسيره لِلرسالة»، وهذه أيضاً خطورة وثــورة أُخرى في عالم الاتصال الإنساني، إذ انتُقِــلَ من «عصر الحداثة إلى مابعد الحداثة» أو ما نُظِّرَ له في كتاب «فرانسيس فوكوياما ونهاية التاريخ»، ولسْنا بصدد خوض غمار ذلك، ولكن يمكننا الرّبط أنَّه عصْر الانتقال من ثورة المعلومات وانفجار المعلومات إلى عصر ما بعد انفجار المعلومات، وتشظي النصّ «المعرفة»، الذي يُسهِم في تبدلات وتغييرات على مدار الساعة في عالمنا المعاصر.

٤- نظرية العلامة: (الدال والمدلول):

تتخذ العلامة لدى اللساني (سوسير) كياناً نفسياً ثنائي المبنى، «تربط بين الفكرة والصورة الصوتيــة، وليس بين الشيء والتسميــة»، والصلة وثيقة بين الجانبين فكل منهما يوحي بالأمر - كوجهي ورقة- مستخدماً بدلاً من (الفكرة) Concept، و(الصورة الصوتية) Image- Sound على التوالي: (المدلول «Signified» و(الدال) «Signifier»، وكِلا (الدال والمدلول) مترابطان ومتحــدان نفسياً، وهذا المزج هو أساســ العلامة اللغوية، ومن دون أحدهما لاوجود للآخر، وعنــد انعدام هذا الاتحــاد بينهما لاتبقى هناك إلا الصورة (السمعيــة/ الذهنية/ النفسية) لمتواليــة من الأصوات، ولكن لن يكون هناك مدلول، «فالذي ينتج عن اقتران الدال بالمدلول يمثــل في (الشكل) Form، وليس في (الجوهر) Substance»، أي إنَّ العلامة تشمل مفهوماً (مدلــول)، وصورة صوتية (دال)، وهــي حسيّة «إذا وصفتها بأنها ماديــة، فإنما أعني بذلك طبيعتها الحسية» كما يقول (سوسير)[١١].

٥- الطبيعة الاعتباطية للعلامة:

«إن النظام اللغوي بأجمعه يستند إلى هذا المبدأ غير المنطقي وهو اعتباطية العلامة» كما يقول (سوسير)، «لذا فهي لا تخضع لأي قانون سوى قانون العُرْف، ولمّا كانت تستند إلى العرف فهي اعتباطية»، وتعني اعتباطية العلامة أنّ دالها «ليس له صلة طبيعية بالمدلول»، فكلّ مدلول يمكــن أنّ يُعبَّر عنه باستخدام أي دالّ، والاعتباطية إمّــا أنّ تكون «اعتباطية مُطلقة تنتفي فيها عملية (التحفيز) Motivated، أو اعتباطية نسبيّة تكون العلامة فيها محفزة نسبياً»[١٢].

٦- الطبيعة الخطية للدال:

«لمـا كان الدال شيئاً مسموعاً فهو يظهر إلى الوجود في حيز زمني فحسب، ويستمد منه هاتيـن الصفتين: ١- أنه يمثل مدّة زمنية. ٢- تقاس هـذه المدّة ببعد واحد، فهو على هيئة خـط»(١٣)، ومن ثمَّ فإنه يُرسَل ويُستقبَل ليس في آن واحد وإنما يتم ذلك بصفة متعاقبة على المحـور الزمني، وهذا راجع إلـى أن (الجوهر) Substance الصوتـي للإنجازات الصوتية هـو الذي «يعتمد عليه عمل اللغـة بأكمله»، ومن دونه لن يكون هناك مسـوّغ لهذا التسلسل الخطي، فلا يمكننا أن نتلفظ بصوتين في وقت واحد، ولذلك فإنّ الدالّ يتميز بهذه الخاصيّة التنظيميّـة عبر الزمن(١٤)، والذي يفرضها أنَّ اللّغـة المنطوقة تحتل المرتبة الأولى بالنسبة إلى الغة المكتوبة، وهذا التسلسل الخطي «الذي له أهمية اعتباطية العلامة لأن كل ميكانزم اللسان تابع لهذا المبدأ»(١٥).

بين الـدال والمدلول، وبعمق بالغ الحساسية، اشتُغِل على المصطلحات والمفاهيم، فعلى سبيل المثال: حينما نقول «الإسلام» من وجهة النظر الغربية، يتبادر للذهن على الفور مفاهيم عدة يمكن وضعها بمفهوم واسع وأشمل هو «التطرُّف»، الذي يمكن أنْ يتضمَّن مفاهيم أخرى كـ: (التخلّف، الإرْهاب، الرّجْعيّة، الظُّلم،...)، قد لا تكـون النظرة دقيقة، ولكن إذا ما دققنا فـي المحتوى الذي يُنشـر حول هذا المفهوم – أي الإسلام- فـي وسائل الاتصال الجمعي والجماهيـري فـي الغرب فمن النادر أنْ تحمـل صورة سمحة طيبة، فهـم لا يشتغلون دُعاة للإسـلام بل العكس يجعلـون من هذا المفهوم ومن مُريديه -أي العـرب والمسلمين- عالماً مملـوءاً بالمتناقضات غير واضحِ المعالم الفكرية ولا الحضارية، وأكثر من ذلك؛ فيما يتجلى من خلال صورة ذهنية سلبية تشكلت في وعي المُتلقي الغربي؛ وحتى المُسلم نفسه الذي بات يعدّ أنه أمام حالة من صراع، وأمام حالة غرب/ شرق، بكل ما في للكلمتين من أبعاد حضارية وفكرية، ولا سيّما لدى الأجيال المهاجرة الأولى وصولاً حتى الجيل المُهاجر المُعاصر، الذين يرون أنفسهم أمـام تحديات كبيرة في عملية الاندماج الفكري والنفسي والاجتماعي وكل ما يرتبط بالبيئة الجديدة التي انتقلوا إليها.

عمـد الغرب إلـى تشكيل الصورة الذهنيـة السلبية تجاه الشرق المُتطـرِّف دينياً وربما يمكن القول إنّه لسوء التجربة لم تكن وسائل الإعلام على مقدرة كافية لِصدّ الدعاية وحتى الهجمات التي يكيلها الإعلام الغربـي بجرعات متفاوتة تتبع مصالحه ضد العالم الإسلامي

والعالــم العربي كثير الثروات بما فيها رأســ المال البشري ذي الإمكانيات الجبّارة، إذ يدأب الغــرب دوماً ومنذ الأشكال الأولــى للاستعمار على نهب هذه الثــروات، ويدأب العرب على المزيد من التّفكك والتباعد فيما بينهم وتشتيت هذه الثروات التي تُجسّد عماداً لوقوف هذه الــدول ضد الغرب ومخططاته. تتمثل الصُّورة الذهنية التي يرسمها الغرب دوماً عن الإسلام والتطرف والإرهــاب والتخلف... بقابلية التأويل السلبيّ، «فالصورة علامة قابلة للتأويل»[١٦]، والســؤال الكبيــر الذي يتبادر للذهــن دوماً كيف يمكن الوقوف في وجــه هذه الميكانزمات الإعلامية؟ وكيف يمكن تبديل هذه الصورة؟ أو بطريقة أخرى هل يهتم العالم العربي بتبديل هذه الصورة وتغييرها أو أنه استسلم لهذه العجلة الإعلامية الضخمة؟!

الهوامش

(١)- أرمانــدا ماتيلار وميشيل ماتيلار، نظريات الاتصــال، ترجمة: أديب خضور، الناشر أديب خضور، ط١، دمشق، ٢٠٠٣م، ص٤٠- ٤٢.

(2) - Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale (Paris: Payot, 1967), p. 158.

(3) - Ibid, Course in General Linguistics, P 66.

(4) - Ferdinand de Saussure Ibid, P 12.

(5) - Ibid, PP 71- 72.

(6) - Umberto Eco, A Theory of Semiotics, Advances in Semiotics (Bloomington: Indiana UNIVERSITY press, 1976), pp. 14 -15.

(7) - Susanne Katherina Knauth Langer, Philosophy in a New Key: A Study in the Symbolism of Reason, Rite and Art (New York: Mentor, 1951), p. 61.

(8) - Saussure, Ibid, P.117.

(٩)- ويلــز رولون. س، علم اللغة الحديث (الأسس الأولى- دي سوسير وعلم اللغة)، ترجمة: يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ص٤٠-٤١.

(١٠)- لا بــد مــن الإشارة إلــى أنّ مفهوم العلامة عنــد سوسير يأخذ مفاهيم كثيرة، فهــو يستخدم لها لفظ (العلاقــة) أي الربط بين الفكــرة الذهنية Concept والصورة الصوتية، وهي النتيجة النهائية للربط

بيـــن الـــدال والمدلول، وأحياناً يستخدم لفــظ العلامة، للعلاقة التي تربط هذيـــن العنصرين، وكثيراً ما يستخدم الاستعمال الشائع، إذ تشير (العلامة) عادةً إلى الصورة الصوتية، ولكن أقرب التعاريف لاستعمال سوسيـــر للعلامـــة حسبما يرى (رولن ويلز) هو أنّ (العلامة) ليســت بين الدال والمدلول، ولاهي الربط بينهما، بل هي الدال من حيث إنّه دال. بشأن ذلك انظر:

- Saussure, Ibid, Pp 8489-,& pp 122- 126.

ورولون، س، ويلز مرجع سابق، ص٣٥- ٣٨.

(11)- Saussure, Ibid, P 86.

(١٢)- بخصوصـــ اعتباطية العلامة يصف (بارت) العلاقة بين العلامة وصورتها الذهنية بأنها نتيجة لتدريب جماعـــي، معطياً بذلك للمصطلح دلالة أكثر تحديداً، أما (جـــان بياجيه) فيؤكد العرف التقليدي لحماية الدلالـــة من الضياع، مشيراً إلـــى محاولة سوسير تجنب اللبس في تقسيمه هـــذا، ولعله يقصد بذلك أن العلامـــة حرة في دلالتها، ولكنها لا تدل إلا بتواطؤ جماعي وسمّى ذلك (اعتباطاً نسبياً)، انظر بخصوص ذلك: جان بياجيـــه، Journal of the Jean Piaget، Cognitive Development، Quarterly by Elsevier، Peanma، Kuhn، ed- Berkely، California. ورولان بـــارت، علـــم الدلالـــة، دار الحوار، ط٢، سورية، اللاذقية ١٩٨٧م، ص ٨٣-٨٤.

(١٣)- حنون مبارك، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص٨٠.

(١٤)- تنبـــع هـــذه الأهمية من أنّ الدال ذو طبيعة سمعية ولا يجـــري إلا في الزمن، لذا فهو عبارة عن امتداد وهذا الامتداد قابل لأن يقاس في بعد واحد هو (الخط)، والدوال السمعية تبعاً لذلك لا تمتلك سوى خط الزمن على عكس الدوال المرئية، انظر بشأن ذلك، حنون مبارك، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، صـــ٥٣. ورجاء آل بهيشـــ، سيمياء الخطاب الدعائي، رسالة دكتوراه غيـــر منشورة، جامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٩٨م. ص٣٩.

(١٥)- أبراقـــن محمود، المبـــادئ البنيوية السوسيرية وتطبيقاتها على مختلـــف أنظمة الاتصال، دراسة حالة خصائص الدليل، المجلة الجزائرية للاتصال، عدد٧/ ربيع١٩٩٢م، ص١٨١.

(١٦)- دوبـــري ريجيس، حيـــاة الصورة وموتها، ترجمة: فريـــد الزاهي، دار إفريقيا الشـــرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م، ط١، ص٢١.

الميديا والعولمة والإرهاب

د. إبراهيم أحمد سعيد

مما لا شك فيه أن لكل عصر من العصور تقانته وأدواته في نقل المعلومات والمعطيات بين الناس أو الشعوب أو الدول، لأن الاتصال حاجة أبدية لا بد من توافرها، ولأن الاتصال يحمل معانٍ كثيرة لتحقيق أهداف متباينة، منها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي أو هذه كلها، ومن ثمَّ فهي أساسية، ومن الضروري استخدامها والتعاطي معها، ولا يهم هنا الشكل التي هي عليه، المهم أنها تحقق ما يجب أن تحققه، وتخدم الطرف الذي يستخدمها ويوجهها، ويدفع نفقاتها، ويسعى إلى تحسين قدراتها، لأنها في النهاية تقوّي مستخدمها وتزيد من أرباحه وقدراته.

سعت الدول، ممثلة بمؤسساتها، عبر تاريخها وتاريخ العلاقات الدولية بينها لابتكار الأدوات الجديدة والوسائل والأساليب التي تزيد من قدرات التواصل وتحقيق الأهداف بأسرع ما يمكن وبأحسن النتائج وبأقل التكاليف وبأكثر الطرق ضمانة، إما للسرية أو لجعل الطرف الآخر في حالة من الصعوبة لا يقدر على التوصّل إلى كشفها، أو فكِّ رموزها، أو الاستيلاء عليها، أو تحويلها لتوظيفها في تحقيق أهداف غير الأهداف الموضوعة من أجلها. مع ذلك يمكن القول: إن السنوات العشرين الأخيرة قدّمت وسائل اتصال، تستخدم بين الأفراد والشعوب والحكومات والدول ومراكز الأبحاث، بما يعادل أضعاف ما ظهر عبر تاريخ البشرية كلها، فيما يُعرف بوسائل الاتصال الاجتماعي وتقانة الميديا المعاصرة.

تتحدّد مشكلة البحث بجدلية العلاقة بين القوة الناعمة كأداة كثيرة الاستخدام والأهداف الشريـرة التدميرية لأطراف خارجية، التي تتبنّاها الدول الكبرى ولاسيّما الولايات المتحدة، لأنهـا موضوعة فـي صُلب مخططاتها المستمـرة، على أنها تحقق مصالـح هذه الدول من جهـة وحماية الكيان الصهيوني كدولة تمثل الحضارة الغربية وتحمي مصالحهم في المشرق العربي والشرق الأوسط وربما لأبعد من ذلك من جهة أخرى.

اعتُمِد منهج التحليل العاملي في هذا البحث، وذلك من خلال تحليل العوامل التي أسهمت فـي نشأة العولمة وخروجها من إطارها الإقليمي إلـى الساحة الدولية، بهدف هيمنة طرف واحد على العالم كله وكأنه قرية واحدة تتحكم فيه قوة جبارة ساحقة لا تسمح لأحد أن يقف أمامها، وتزيل الحدود بين الدول أمام الشركات العابرة لتلك الحدود، وتقضي على الخصائص المحليـة والذاتية لشعوب العالم بما يتوافق ومصالح تلك الشركات والدول التي تهيمن عليها ولا سيّما الولايات المتحدة.

يهـدف هـذا البحث إلى تحديد وظيفـة وسائل الاتصال والإعـلام (الميديا) المعاصرة وإظهار دورها في نقـل خطوات إستراتيجيات الدول وكيفية تطبيقها، ودعم اتخاذ القرارات الفاعلـة في تلك الإستراتيجيات بإشراك واسـع لأكبر كتل ممكنة من الجماهير، وفي دراسة وتحليل الأساليب المتّبعة والأفكار التي تحملها من الدول الكبرى والتي تسعى إلى الهيمنة أو لزيـادة سيطرتها على مقدرات الشعوب وثرواتها لتبقى لاهثة دون جدوى للحاق بالمستويات الاجتماعيـة والاقتصادية والاستقرار السياسي في تلـك الدول التي اعتادت منذ قرون على سرقة الشعوب المغلوبة على أمرها والتي تعاني من مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية وبيئية.

يُستخـدم الإعلام في الإعداد للحروب، وهـو يُشكّل الأساس الذي يُمهد لخوض الحروب وإيجـاد المسوِّغات اللازمة لقيامها. لذلك يأتـي الترويج الإعلامي لصنع الأوهام والحالات الافتراضيـة كعمليات ميدانية تحصل، مـع الإظهار المنطقي للنتائج المُعـدَّة مسبقاً والتي تبدأ بعرضها علـى المحطات، وبثها في الإذاعات لاقتناع العدو المفترض بأن الذي أعرضه واقعـي وميداني، وينقلـه شاهدو عيان، ويناقشـه في المحطـات إستراتيجيون وعسكريون مدّعمـون بالخرائط وبالتقانة اللازمـة لاستخدام الصورة وما يمكن أن تؤثر به على المتلقي مباشـرة، وكأن الحرب تجري فعلاً، والعدو ينكسر ويتقهقـر بأبشع الحالات، كعرض حالات

فيهـا استسلام، جماعات وأفراداً، وكيف تُقـدَّم المساعدات للجنود المستسلمين واحترامهم وتقديرهم وفق اتفاقية جنيف لأسرى الحرب. فـ(الميديا) تصنع الحدث والأفكار والقناعات، إذ توجِـد المشكلـة وتصنع الأدوات وتوجِـد النتائج والنهايات التي ترغب فـي صنعها، إنها إيجـاد حالات من الوهم التي تتطلب مدخلات كثيرة تُحدَّد، ثم تُطحَن وتُحَضَّر وفق الطريقة المطلوبة، وبعد ذلك تُخرَج بالشكل المطلوب والمكان المراد وبالأهداف التي يجب أن تحققها أو تصل إليها.

يستطيع الإعلام أن يصنع الإرهاب والفتن، كما يستطيع في الوقت نفسه محاربة الإرهاب والفتـن بين الشعوب أو بين أفراد الشعـب الواحد، سواء كان من قوميات كثيرة أم من قومية واحدة أم من أديان ومذاهب كثيرة أم حتى من دين واحد، بل حتى من مذهب واحد.

تأتـي أهمية الإعلام بعـد أن تطورت وسائله في السنوات الأخيـرة وأصبح على المواقع الالكترونيـة تحت عنوان (السوشيال ميديا)، وقد ظهر بقوة تأثير الإعلام الخاص. ويستخدم الإعـلام ووسائل الاتصـال الاجتماعي في بث الفتن وأصبـح أداة لصناعة وتسويق الإرهاب وصناعة الرأي العام. وفي ظل عدم احترام الرأي الآخر فقد تتحول المخالفة بالرأي بوساطة الميديا إلى خلاف ثم إلى تكفير ومن ثم إلى إقصاء وقتل.

العولمة وجذورها الفكرية

العولمة (Globalization) كلمة مأخوذة من العربية من عَولَمَ على وزن فَوعَلَ. وهذا يعني إكسـاب شيء ما طابع العالمية بالقوة على العالم، على الرغم من أن للعولمة أبعاداً كثيرة في النواحي الاقتصاديـة (عولمة اقتصادية)، والنواحي السياسيـة (عولمة سياسية)، والنواحي الثقافية (عولمة ثقافية)، والنواحـي الاجتماعية (عولمة نمط اجتماعي محدد)، وهذا يبين أنَّ العولمة ظاهرة شمولية ذات أبعاد متداخلة ومركبة[1].

العولمـة ظاهرة قديمة من حيث الممارسة والانتشـار، فالحضارات القديمة، التي كانت تخرج من إقليمهـا الجغرافي إلى الفضاءات المجاورة، كانت تفرض ثقافتها ودينها ولغتها وحضارتها بالإجماع على الشعوب والمجتمعات التي تسيطر عليها، ولعل هيمنتها في التاريخ كانـت أكبر بعد الاكتشافات الجغرافية في نهاية الربع الأوَّل من القرن السادس عشر، عندما أُثبتـت كروية الأرض عملياً (برحلة ماجلان فـي عام ١٥٢٢م) وانتقلت ثقافـة البرتغاليين والإسبـان ثم الإنكليز إلى قـارَّات جديدة (الأمريكيتين وأستراليـا) وأُبيدت ثقافات وشعوب

وحضـــارات كانت على تلك القــارات، ولكن العولمة بالمفهوم المعاصــر انطلقت بعد انهيار الكتلة الاشتراكيــة بزعامة الاتحاد السوفييتي ودخول العالم في بداية التسعينيات من القرن العشريــن مرحلة هيمنة القطب الواحد بل الدولة الواحــدة من هذا القطب، وقد ظهر ذلك بصــدور وثيقة البنتاغون في بداية عام (١٩٩٥م)، والتي تتضمن سعي الولايات المتحدة إلى الهيمنة المطلقة على العالم وعدم السماح لأيٍّ قوة في هذا العالم بأن تُشكّل منافساً حقيقياً للولايات المتحدة.

رأى روبــرت كيوهان: «أنَّ الهيمنة تخلق الاستقرار بوساطــة احترام مجموعة من قواعد اللعــب[٢] القوة تضمن الأمان، والقــوة الأعظم تمثل الضمان الأعظــم للأمان، ومن المحتّم أن تصطــدم الــدول التي يُحركها هــذا الدافع، لأنها تتنافس جميعاً علــى تحقيق ميزة على الأخرى، وهــذا الموقف المأساوي لا مناص منه إلا إذا اتفقت الدول التي تؤلف النظام على تشكيل حكومة عالمية، لكن هذا التحوّل الضخم لا يزال بعيد المنال، لذلك ستظل النزاعات والحروب حتماً السمات الكبرى للسياسة».

يقــول روبرت كيوهان مؤســس الاتجاه الليبرالــي الجديد، في مقالته فــي مجلة شؤون خارجيــة، آب (٢٠١٢م)، بعنوان: (مبني للمجهول): «إذا نجحت الولايات المتحدة في احتواء الصيــن وتقييد حرية حركتها وانغماسها في الشؤون الدوليــة، فإنها ستنجح في إدامة عمر قيادتهــا للعالم، والعكس صحيح أيضاً، فإذا توسّعــت الصين وتعمَّق حجم انغماسها وتدخلها فــي الصراعات الدولية فإن التاريخ يعلِّمنا أن القــوى الشابة الصاعدة تطرد القوى القديمة العاجزة من القمة، وتتولى هي القيادة، ومثلما فعلت واشنطن ستفعل بكين في المستقبل».

فالعولمــة هي الهيمنة والقهر والسيطرة، تسعى إلى سيطرة النظام الاقتصادي والسياسي والأمريكي على العالم واحتوائه واختراق ثقافة الآخرين وسلب خصوصيتهم. إنها علاقة ظالمة بين الشعوب وثقافتها هابطــة، إذ تدفع بالعالم إلى مزيد من التفكك والتناقض والخلافات، وإلى صدام الحضارات وصراعهــا ونحو تدمير الحدود السياسية بين الدول وتراخي مفهوم المواطنة والدولة الوطنية.

فــي النهاية تسعى العولمة إلى وضــع رأس المال العالمي مقابل سوق العمل أو قوة العمل العالمية أي الأغنياء مقابل الفقراء، إنها منافية للطبيعة البشرية ولقوانين الطبيعة لأنها ضد التنوّع.

الجذور الفكرية للعولمة

تعود العولمة بالمفهوم الحديث والمعاصر إلى الجذور الآتية[٣]:

١ – الرؤية الهيغيلية الديالكتيكية عن الدولة الليبرالية، إذ تكتمل حركة التاريخ بين الدولة الليبرالية وحالة العقل المطلق، وقد عبّر عنها الكاتب الأمريكي فرنسيس فوكو ياما بمقالة له تحت عنوان «نهاية التاريخ» في عام (١٩٨٩م): «إنَّ حالة الصراع في التاريخ انتهت ولم تعد الثورات محركة له، وقد هيمنت عليه الدولة الليبرالية الحديثة التي تمثلها الولايات المتحدة».

٢ – تبنّي الداروينية في المنافسة والصراع من أجل البقاء، حيث البقاء للأفضل (القادر على الهيمنة على الآخرين المنافسين) في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

٣ – الاعتماد على الحتمية الجغرافية السياسية التي روّجها في أمريكا ماهان وسبيكمان. فقد قال سبيكمان: إنَّ شكل الأرض يُلغي الأخلاق في السياسة ويُعطي المسوِّغ لتدمير الضعفاء، وأكد أنَّ أشكال العنف بما فيها الحروب المدّمرة مباحة في المجتمع الدولي، وأن سياسة القوة ضرورة طبيعية مستقلة عن إرادة البشر فاقترح مفهوم اضمحلال السيادة الوطنية.

٤ – انهيار سيطرة الأيديولوجيات السياسية والثقافية بانهيار الكتلة الاشتراكية والاتحاد السوفييتي وتقدّم ثقافة هيمنة التسلط للولايات المتحدة.

٥ – اعتماد الشعارات الإنسانية الكبيرة كالديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والمساواة في الفرص الاقتصادية والتداول السلمي للسلطة.

أمّا أدوات العولمة فقد تعددت، ولكنها تكاملت في أدوارها لتحقيق الأهداف، الكبرى منها والصغرى على حد سواء. وللتذكير فإن أهم أدوات العولمة هي منظمة التجارة الدولية، الغات (GATT)، والتي تهدف إلى إزالة الحماية الجمركية أمام حركة السلع وعدم السماح بإغراق الأسواق بالمنتجات من خلال تطبيق نظام التخصيص، وتهدف كذلك إلى تخفيض منتجات الدول النامية والمساواة بين السلع الوطنية والمستوردة، ومن الأدوات الأخرى صندوق النقد الدولي، الذي يهدف إلى تنمية الصادرات لزيادة الواردات، وتخفيض الواردات في مرحلة أخرى لتعديل نظام المدفوعات، وزيادة الضرائب، وتخفيض قيمة العملة المحلية لتحسين الصادرات. أما البنك الدولي فهو يُكمّل دور صندوق النقد الدولي، فيهدف إلى بيع مؤسسات

القطاع العام أو الخصخصة، والسماح بدخول رؤوس الأموال الأجنبية وخروجها، وتحرير الأسعار على المواد الأساسية، وإزالة الدعم الحكومي عن الخدمات الاجتماعية الكبيرة (التعليم والصحة والخبز والكهرباء والماء وغيرها). ومن أدواتها استخدام القوة العسكرية الأمريكية وقوة الحلف الأطلسي (الناتو) كقوة مساعدة للمشروع الأمريكي.

أما الأداة الأكثر خطورة، والتي استُخدِمت، حتى من القوى المضادة أو التي يجب أن تتوجه إليها العولمة ببرامجها، فقد كانت القوة الناعمة أو منظومة وسائل الإعلام والاتصالات أو ما بات يُعرف بوسائل الاتصال الاجتماعي ومحطات التلفزة ومواقع الشابكة كثيرة الأغراض. وفي هذا البحث سنحاول تحليل هذه القوة وتحديد إمكاناتها النظرية والعملية للوصول إلى أهداف العولمة. ولكن قبل الدخول في هذا الموضوع فإنه من المفيد التأكيد الآن أن من أهم أدوات المشروع الأمريكي- الصهيوني العالمي وفي منطقتنا العربية والإسلامية، استخدام الإرهاب المنظّم لتدمير الشعوب والدول والحضارات، التي يمكن أن تقف في وجه المشروع الظلامي المذكور.

استُخدم هذا الإرهاب المنظّم منذ ثمانينيات القرن العشرين في أفغانستان لضرب الوجود السوفييتي، الذي كان يُهدد، كما يرى الغرب وجوده وتمدده في أوراسيا، واندحار الأيديولوجية الشيوعية (الاشتراكية بمستوياتها)، التي ترى الرجعية العربية، الممولة للإرهاب المنظّم، فيها خطراً أيديولوجياً وثقافياً وقيمياً. فتشكلت القاعدة وطالبان، وبعد أحداث أيلول عام (٢٠٠١م) أعلنت الولايات المتحدة الحرب على الإسلام والتطرف الإسلامي كما تسميه، فغزت العراق في (٢٠٠٣م) ودمّرت جيشه ومؤسساته، ثم ظهرت التنظيمات الإرهابية برعاية أمريكية تحت مسمى دولة الإسلام في العراق والشام (داعش)، التي استباحت سورية منذ عام (٢٠١٣م)، إذ انتقل داعش إليها ثم تكوّن ما يسمّى جبهة النصرة وبعدها تتالت التسميات حتى غدت بالعشرات، وكان من آخرها الخوذ البيضاء.

عندما تحوَّل النظام العراقي إلى أحد أقطاب الشر في العالم، صبت عليه وكالات الأنباء والمحطات الفضائية والصحف والمجلات العالمية، التي تُشرف عليها وتوجهها الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، نار غضبها وسهامها عليه ووضعت كل الإمكانات بما فيها الأكاذيب والمعلومات الأمنية المغلوطة مسوِّغاً لأي إجراء عسكري أو اقتصادي أو سياسي ضده. لقد استخدمت صناعة الكذب منتجاً له فوائده الفعالة لتحقيق الأهداف السياسية في

حقبة الدولة الألمانية النازية وخلال الحرب العالمية الثانية وقد كان مثالها المطروح: «اكذب ثم اكذب فإن لم يصدقك أحد فصدّق أنت وهذا يكفي...» يقول هتلر: «إن الجماهير تُصدّق دائماً الفضيحة، ولو أن (٩٠٪) منها غير مُثبت، أكثر من التسويغ المؤكد (١٠٠٪)».

ويقــول غيبلــز وزير الدعاية النــازي: «كلما كان الكذب أكثر وقاحــة كان انتشاره أسرع وصدّقــه الناس أكثــر». ويتابع قائلاً: «إن الإنسان الذي يقول الكلمــة الأولى للعالم هو دائماً على حق».

وضع غيبلز مبادئ للدعاية يمكن إيجازها بالآتي:

١- اختراع الكذب وتكراره، فالتكرار يعمل على زيادة فرص التصديق المطلوب الوصول إليها.

٢- يجب أن تكون الدعاية مشوقة والكذب بمفردات عادية بل أقل من العادية. فيقول: «لا يوجد شيء أسهل من أن تُبقي الناس منقادين».

٣ - وضع شعارات تعبر عن الثقة، واستخدام الرموز والآثار التاريخية.

٤ - العمل على تكوين صور في الوعي بمساعدة الافتراءات والإشاعات.

٥ - ضــرورة عدُّ المعلومات المبثوثة حقيقية، لذلك يجــب أن تكون بسيطة ويتكرر بثّها باستمرار.

٦ - أن يكــون الناس منغمسين في الأفكار التي سيتــم إقناعهم بها. وأن تكون المفردات المستخدمة واضحة تفرز الناس مع موقف ما ولفكرة ما.

وحتى تُطبّق هذه المبادئ فإن من الضروري اتباع الطرائق الآتية:

١ - يجب أن تُبث الأخبار التي تحمل اتجاهين متناقضين.

٢ - زيادة جرعات الأخبار والدعاية بالعناصر السلبية والإيجابية.

٣ - يجري لاحقاً انتقاء حقائق تقوية أو إضعاف للأفكار التي صُرِّح بها وبُثّت.

٤ - يجــب تأكيــد الإعلان الأول واختيــار مفرداته بعناية لأن الناس تميــل إلى الاقتناع بالمعلومات التي تسمعها أوَّلَ مرة.

وإبّــان الحرب العالمية الأولى، قال وزير الدفاع البريطاني جورج بلويد: «لو عرف الناس الحقيقــة عــن الحرب لتوقفت غداً لكنهم لــم يعرفوا ولن يعرفوا الحقيقــة عنها». فالتعتيم الإعلامــي مرتبط بالهيمنــة الإعلامية. وكذلــك فالتضليل وسيلة أساســية وأداة مهمة في

الحروب وتحقيق الأهداف الظلامية. والجماهير أكثر قبولاً للتلقين، ولاسيّما إذا تم بأفكار بدائية تعتمد على الغرائز مثل: «من ليس معنا فهو ضدنا». وهكذا نجد أن جوهر الحرب الدعائية هو الكذب.

وفي الأزمة السورية تجلّت عملية استخدام الإعلام ووسائل التواصل و(الميديا) كلها بأفظع أشكالها وأقوى درجاتها لتحقيق الأهداف الآتية[٤]:

١ - شيطنة الدولة السورية ممثلة بالنظام السوري.

٢ - زرع الفتنة على مستوى البنية الاجتماعية والتركيب الإثني للسكان في سورية.

٣ - إطلاق الإشاعات التي تركز على فصل المواطن عن مؤسسات الدولة وعدم الذهاب إلى العمل للوصول إلى مرحلة العصيان المدني.

٤ - بثّ الأكاذيب التي تحمل الطابع الأمني، والمرتبط مباشرة بأمن المواطن وسلامته وسلامة عائلته في المدارس والمؤسسات التي تقدم خدمات، أو على الطرقات الدولية والطرق بين المراكز العمرانية الصغيرة (بين القرى والمزارع والبادية وغيرها).

٥ - التركيز على الجيش والقوات المسلحة، للعمل على دفع الجنود والضباط والشرطة والأمن للهروب والفرار (الانشقاق). وقد استُخدمت محطات التلفزة الإقليمية وحتى الدولية لتصوير شخصيات تحمل رتباً عسكرية عالية، وبعضها لم يكن كذلك.

٦ - وضع البرامج التلفزيونية التي تحمل أبعاداً فكرية (ووسائل الاتصال الاجتماعي)، يديرها ويُقدّمها شخصيات سورية استلمت مناصب حكومية عالية (نائب رئيس جمهورية، رئيس مجلس وزراء، ووزراء، ومديرون، وشخصيات استلمت مفاصل مهمة في سورية).

٧ - استخدام مراسلين محليين وغير محليين تحت مسمى شاهد عيان، إذ يقوم بنقل مباشر، كما يدّعون، لمجريات أحداث مفترضة، كمعارك صغيرة على مؤسسة مهمة أمنية أو اقتصادية أو على بلدة من البلدات بهدف بثّ الرعب في قلوب الناس أو إظهار تآكل سيطرة الدولة في بنية الجغرافيا السورية.

٨ - تشكيل عصابات ترتدي لباس الجيش، وتحمل العلم السوري أو صور الرئيس السوري، وتقوم بأعمال إرهابية تعتدي على الناس أو تقوم بسرقة ممتلكاتهم، وتصوير ذلك ثم بثّه على وسائل الإعلام ووسائل الاتصال الاجتماعي.

٩ – القيام بمرافقة العصابات الإرهابية وتصوير اعتداءاتهم (نجاحاتهم في بعض المعارك) وتنقلاتهم بأعداد كبيرة مجنزرة بالآليات المدرعة ومسلحة بالصواريخ وسيارات محملة بالدوشكا والرشاشات الثقيلة، ومن ثم عرضها على وسائل الاتصال الجماهيري أو نقلها إلى محطات التلفزة، والتي زاد عددها عن (٨٠٠) محطة إقليمية ودولية، إضافة إلى مواقع لا حصر لها تحت عنوان تنسيقيات بلدات كذا أو فلان من الشخصيات التاريخية أو الدينية.

١٠ – القيام بتصوير أفلام هوليوودية، ذات إخراج متقن، ذات محتوى مرعب يحمل من القسوة ما لا يستطيع الناس العاديون متابعته بالتفاصيل تتضمن ذبحاً وقطعاً للرؤوس وحرقاً على قيد الحياة أو تقطيعاً للأطراف والجوارح، كما حصل في مجازر عدرا وأرياف اللاذقية وحوض الفرات وعقرب، وكان آخرها مجزرة السويداء (٢٠١٨/٧/٢٥م) التي راح ضحيتها أكثر من (٢٥٠) شهيداً ومئات الجرحى وعشرات المخطوفين. وتصوير الاستعداد لاستخدام الكيماوي ضد السوريين وإبادتهم كالأرانب التي عرضوها وهي تموت بالكيماوي في تركيا.

١١ – تصوير أعمال انتحارية للانغماسيين في أثناء قيامهم بهجماتهم الانتحارية، ثم عرضها على المواقع المتاحة لهم، وهي كثيرة دون حذفها إلا بعد مدة لتصل إلى أكبر عدد ممكن من الناس وإلى أبعد المناطق على سطح الأرض. في حين حُذفت محطات وطنية من الأقمار الصناعية ومُنِعَت محطات للمقاومة ومؤيدة لسورية (محطة المنار ومحطة الدنيا ...)، لأن المحطات التلفزيونية والمواقع على الشابكة جزء من الحرب الكبرى على سورية.

١٢ –وصلت هذه العمليات إلى قمة حرفيتها بتشكيل منظمة الخوذ البيضاء (الأقنعة البيضاء) على يد البريطاني جيمس لي مسوريه (James Le Mesurier)، في عام (٢٠١٣م) في تركيا في حين كان مقرها في هولندا (أمستردام)[٥]. لقد دُرِّبَ إرهابيو هذه المنظمة على أعمال كبيرة حرفية لتحقيق أهداف كبيرة على مستوى دولي لتكون ذريعة لتنفيذ هجومات استعمارية دولية، تحت غطاء أممي أو غير أممي، كما حصل في خان شيخون ودوما، وقبل ذلك قامت تلك العصابات بالهجوم على المدنيين وبعض قوات الجيش كما حصل في خان العسل والغوطة.

يكفي أن نقول: إنَّ ارتباط هذه المنظمة بالولايات المتحدة وبريطانيا و(إسرائيل) وكندا وألمانيا والأردن قد اتضح في نهاية المطاف عندما طلبت هذه الأطراف بالتنسيق مع الكيان

الصهيونـــي إخراجهم مع عائلاتهم عبر الجولان المحتل، وتبـــرع الأردن باستقبالهم كمحطة لتوزيعهم على تلك الدول المذكورة بما فيها فرنسا.

إذن، استخدمــت القيم الإنسانية (إسعاف المدنيين وتقديــم العون لهم) لتحقيق أهداف استعماريـــة عدوانية ظلاميـــة من خلال منظمات رعتها وكالات الإعــلام وروجت لها، بل لم تستحِ تلك القوى من إعلان تمويلها ومساعدتها عبر وكالات الإعلام. بل كشفت منظمة أطباء سويديـــون (SWEDRHR) أنَّ منظمة الخوذ البيضاء هـــي التي قتلت الأطفال السوريين ولم تكن تُنقذهم كما كانت تدّعي.

مـــن خلال ما ذُكر في هذا البحث نجد أن العولمـــة ظاهرة عالمية فرضت هيمنتها على العالم تحت عنوان البقاء للأفضل، وأنها هي الأفضل مستخدمة أدوات كثيرة كان في مقدمتها (الميديا) بأنواعها كلها، المقروءة والمسموعة والمرئية وبمستوياتها المتعددة، محلية وإقليمية ودولية، أفراداً وجماعاتٍ بل دولاً.

استخدمــت العصابــات الإرهابية (الميديا) بنجاح كبير معتمدة فـــي ذلك على المساعدة المقدمـــة من الولايات المتحدة والدول الغربيـــة العدوانية وإفساح المجال أمامها على مواقع التواصل الاجتماعي، سواء باختراقها أم بإقامة مواقع مؤقتة لنقل رسائلها وأهدافها إلى الجهات التي تريد إيصال هذه الرسائل إليها، وقد رافقت وسائل الإعلام الإرهابيين في كل تحركاتهم ومعاركهـــم وجرائمهم في محاولاتهم لتدمير الدولة السوريـــة، ولكن في الوقت نفسه سمحت بل ساعدت الـــدول الاستعمارية كل من وصفته بالمعارضة على أن ينشط ضد النظام والدولة والمجتمـــع السوري. وأسهمت تلـــك الدول، مستخدمة الكذب والفتـــن والحروب الافتراضية، فـــي انتشار الإرهاب على الجغرافيـــا السورية وفي دعمه لوجستياً وفـــي شيطنة الدولة وفي اللعب على الوتر الإثني والطائفي وسلب السوريين حقهم في صناعة مستقبلهم ونظامهم، كما أسهمت في الترويج للعدو الصهيوني وفرض حالة الاستسلام على السوريين والقبول بالحلول الأمريكية للقضية العربية من خلال ما يُعرف بصفقة القرن (صفقة ترامب).

إذن، فالإعلام و(الميديا) عموماً تمتلك أهمية كبيرة في حياة الشعوب وفي مصالح الدول الكبرى وفي الحروب وهي أداة فعالة في الانتصار (على العدو) تحت ما يُعرف بالقوة الناعمة، وقد تكون بديلاً عن تدخل الجيوش الغاصبة لأنها قادرة، إن نجحت، في إيجاد أدوات محلية تقاتـــل بقسوة المجتمع المحلي وتمزّقه وتحقق أهداف تلك الدول دون أن تطلق طلقة واحدة

أو تخسر جندياً واحداً أو حتى دولاراً واحداً، إنها النسخة الرابعة من الحروب، حيث العدو لا يُرسل جيوشاً بل يدير الحرب بأدوات محلية وبتمويل إقليمي وبخسارة تُقدّر بالصفر، بل يُمكن الاستثمار فيها وتشغيل مصانع الأسلحة وتحقيق ما لا يُستطاع تحقيقه بالحروب الكلاسيكية. إنها عولمة الإرهاب وعولمة (الميديا) وعولمة الأهداف والإستراتيجيات. مع ذلك يُمكن لوسائل الاتصال الاجتماعي و(الميديا) أن تُسهم في حماية الأوطان والانتصار على الغزاة والمعتدين، ودعم فرص التفاهم الإنساني، ومدّ جسور التواصل بين الشعوب.

الهوامش

(١)- أول من أطلق هذا المصطلح (Globalization) عالم الاجتماع الكندي ماك لوهان بمعنى القرية العالمية Global Village في نهاية الستينيات من القرن العشرين.

(٢)- الجميل، سيار. العولمة احتراق الغرب للقوميات الآسيوية- متغيّرات النظام الدولي القادم: رؤية مستقبلية، المستقبل العربي، ع٣، ٢١٧/ ١٩٩٧م. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٥٥.

(٣)- إبراهيم أحمد سعيد، ما بين الجغرافيا السياسية ومخاطر الجيبولتيك والعولمة، دمشق، دار الأوائل، ٢٠٠٦م، ص٢٢٤.

(٤)- إبراهيم أحمد سعيد، الجيوبولتيك السوري وقوة الجغرافيا السياسية السورية، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م، ص٣٣٢.

(٥)- بدأت هذه المنظمة أعمالها من بلدة عندان في ريف حلب الشمالي. اتبعت دورات تدريبية في تركيا وهي تمول من الولايات المتحدة وبريطانيا وهولندا والدانمرك وألمانيا واليابان. حصلت في عام ٢٠١٦م على جائزة رايت ليفيلهوود، والمعروفة باسم جائزة نوبل البديلة السويدية في مجالات حقوق الإنسان والصحة والتعليم والسلام. يزيد عددها عن ٣٠٠٠ إرهابي. إنها في النهاية منظمة إرهابية دعائية.

محور العدد

الإرهاب والعنف
في عالم العولمة والميديا

إسماعيل الملحم

إن ديمقراطية العولمة التي تنحاز إلى الأغنياء بشكل مطلق هي المسؤولة عن كثير من مظاهر التوترات الاجتماعية المتصاعدة في مختلف أصقاع المعمورة.

«من مقدمة فخ العولمة»

سوف تتسرب المعلومات من فوق أعلى الأسوار القانونية كما ضباب الصباح، سوف تزحف الحواسب على أجهزة التلفزة في بيوتنا.

إشراقة كل شمس يبزغ معها فجر مرحلة جديدة. وَعَد عصر الأنفوميديا نفسه أن يكون على كل طاولة قهوة كمبيوتر.

هذه الصور والوعود التي قطعتها الأنفوميديا على نفسها، ونظائرها من الصور التي لوحت بها العولمة على أمل أن تكون المعارف قادرة على التقدم في تحقيق الرفاهية والأمان لإنسان العصر، هل كانا عند وعودهما؟

ما زال الإنسان في علاقته بالكون والأشياء مسكوناً بالبحث عن الجديد وتطوير ما أصبح في المتناول من تقنيات مستحدثة لا تتوقف عند حدود تمكين البشر من السيطرة على الطبيعة واستنطاقها والكشف عن أسرارها، بل تجاوزت البحوث والاكتشافات تلك

الحـــدود وما زالت، على الرغم من تلك التبدلات الجذريـــة إنّ في مجالات العلوم المختلفة، أو فيمـــا تتيحه التكنولوجيا من وسائل وأدوات وطرائـــق واندماج الأنشطة الإنسانية بها فقد حـــدث تحول جذري في مجالات الحياة، وإنَّ اندماجاً نوعياً يحصل باستمرار على مستويات العلاقـــات الإنسانية نفسها. لم تعد الجبال ولا البحـــار والمحيطات ولا المسافات الشاسعة ومنهـــا تلك التـــي نشهدها في مجالات غزو الفضاء واستكشافه تشكِّل عبئاً أو أن تكوِّن عائقاً أمـــام البشر لطلب المزيـــد من المعارف، وتعديل كثيرٍ كثيرٍ من يقينـــات بلغ الوثوق بصدقها درجة اليقين، فلا يقين.

أحدث الحاسب الآلي وما يتعلق به من التحكم بفيض المعلومات وما يرافق ذلك من ثورة فـــي مجال الاتصـــالات حالات جديدة، بل متجددة في مجمل النشاطـــات الإنسانية. فالثورة التقنية وشبـــكات التواصل الاجتماعي وما إليها أثَّرت وتؤثـــر باستمرار، ولم تترك جانباً من جوانب الحياة إلا وأحدثت فيه تغيرات لم يكن العقل البشري قد خطرت له على بال من قبل. انعكـــس ذلك في مجمـــل السلوك البشري على نحو هائل على مستـــوى الأفراد والجماعات، ومـــا تعلق بعوالـــم الإدارة والإعلام والصحة والاقتصاد وغيرها. لـــم يعد في عالم اليوم من يشـــكك في كيـــف المعلومات وكمها، كما في قـــدرة وسائل الاتصال علـــى الولوج إلى عوالم الكـــون الشاسعة، وإلى عوالـــم الإنسان النفسية منها والثقافيـــة والفكرية والاجتماعية، فقد غدا الإنسان فرداً وجماعة موضوعاً من موضوعات البحث والفحص والتدقيق تقوم بإنجازه الإلكترونيات المتقدمة، وهو مما بات يُعرف بمرحلة الهندسة الاجتماعية وهندسة الشخصية -كما كتب خلدون النقيب في أطروحته فقه التخلف، الصادرة عن دار الساقي عام (٢٠٠٢م)، من حيث إعادة تنظيم المجتمع والاقتصاد، بما يتناسب مع جموح التطور الاقتصادي والتقني العسكري والثقافي والنفسي...

تتأثـــر كل يوم، في خضم هذا النشاط العلمي والتقني، أنمـــاط السلوك البشري بشكل ظاهر وملموس ولن تكون قوى الكائن البشري الجسدية والمعرفية في منأى عن التفاعلات التي تتيحها كل مظاهر التسارع الحثيث التي يحققها التفجر المعرفي في مجالات الاتصال وثورة المعلومات.

تطـــوَّر النشاط البشـــري في خضم هذه الشبكات من التواصل مـــا أدى إلى تطور يحدث باستمـــرار في اتجاهات العلوم لتتحول إلى علوم تطبيقيـــة، فالتكنولوجيا المتطورة أصبحت هدفـــاً لتطورات أكبر من خلال الاكتشافات العلمية الجديدة، كما يصبح العكس صحيحاً.

إن الواقــع الذي استحدثته ثورة الاتصــالات والمعرفة يعود بأسبابه إلى أن كل تلق لتعليم ما، وأن العلم بأسره -كما يقول كارل بوبر- إنما يجنح نحو إمكان التطبيق. أما فيما سبق فلم يكن عالِــم العلوم البحتة ودارسها ليلتزما إلا بمسؤولية واحدة تتجاوز مسؤوليات أي شخص آخر، هي مسؤولية البحث عن الحقيقة التي وجب عليه أن يواصل تنمية مادة بحثه قدر استطاعته. على الرغم من هذا الذي أعرفه، يضيف بوبر:

ما كان ماكسويل ليعنى بإمكان تطبيق معادلاته إلا للنزر اليسير، ولعل هيرتز لم يكن يعنى البتــة بشأن تطبيــق معادلاته، ينتمي ذلك الوضع البهيج إلى الماضــي، أما اليوم فكل العلوم البحتة يمكن أن تصبح علوماً تطبيقية، ليست العلوم فحسب، وإنما كل تحصيل علمي[١].

بين العولمة والميديا

لعلــه من بــاب المقارنة بين ما يحصل على مستويات ومنتجــات الميديا وتطورها ليس غريباً أن تكون شبكاتها وتطوراتها وسهولة الولوج إليها وسرعة تطورها بعيدة عما يحصل من الترابطات والعلاقات المتبادلة التي تميز الحياة الاجتماعية الحديثة، ولم تكن العولمة التي شغلت السياسيين وعلماء الاجتماع والاقتصاد في مقارباتها من حيث ما تشكله من سرعة في التطور ومن تزايد في الكثافة إلا جزءاً من شبكات عالم الافتراض وتفجر المعلومات ووسائط الاتصال. العولمة ببساطة -كما يقول **جون توملينسون** في كتابه **العولمة والثقافة** تعمل على تقوية أواصر الترابط العالمي التي تيسرها التقنيات الحديثة، مشدداً على تعدد الروابط التي ينطوي عليها، إذ نجد في الوقت الحاضر أن السلع، ورأس المال، والبشر، والمعرفة، والصور، والجريمة، والملوثات، والمخدرات، والأزياء، والمعتقدات تتدفق جميعها بسهولة عبر الحدود الإقليميــة. إن الشبــكات والحركات والعلاقات الاجتماعية العالميــة واسعة الانتشار في كل المجالات تقريباً، من الأكاديمية إلى الجنسية[٢].

إنها الارتبطات التي تؤثر في حياتنا والتي تدخل فيها الشبكات المالية التي تربط حسابات الأشخاص والمؤسسات إلى السوق الرأسمالية العالمية إذ لم يتبقَ من مزاحم لها إن في شرق العالم أو غربه[٣].

مقاربات العولمة ونظيراتها المتعلّقة بـ(الميديا) تعبران تعبيراً لاشك فيه عن وضع العالم فــي هذه الحقبة الحاضرة، وعن تزايــد ذلك التقارب العالمي المكانــي، هذا التزايد الذي يوصف على أنه إفناء المكان بالزمان، أو انضغاط الزمان بالمكان، بناء على ما يقوله **ديفيد**

هارفي. وهو ما يعبّر عنه بعبارتي العالم المنكمش، والقرية العالمية. أليست هذه المفاهيم داخلة في مفهوم العولمة من جهة، ومفاهيم (الميديا) من جهة أخرى؟

خرق سيادة الدول

لعل أول مخاطر هذا التقدّم الذي أحدثته (الميديا) والعولمة ليس خافياً على العقل البشري المتمثل بذلك الخرق الصارخ الذي أحدثته ثورة وسائل الاتصال وتكنولوجيا المعلومات في قدرات المجتمعات المتشبثة بحدودها ورقعتها الجغرافية ومقدراتها، كما في اختزال قدرات الدولة الحديثة في السيطرة والمجانسة الثقافيَّتَيْن. لن يكون اليوم ولا في المستقبل المنظور أن تستطيع القوانين والتشريعات والسلطات على مختلف التباينات فيما لديها من خصوصيات في نظمها أن تدعي القدرة في الحفاظ على خصوصياتها. فالاختراقات الثقافية والخروقات السيادية تحصل في كل وقت مهما كان الحرص شديداً على الهوية الوطنية. فهذه الأسواق العالمية وشبكات الإنترنت تؤكدان ما ذهبنا إليه. وليس صحيحاً أن دولة ما قادرة على الإمساك التام بفعل دورها المركزي، إن في ضبط الإقليم أو السكان(٤).

ولم تعد الثقافة، أيّ ثقافة، قادرة على الدوران حول الذات مهما تشبَّثت بخصوصيتها، لأنّها قد انتقلت من حالة التوهم بثباتها إلى حالة من النشاط والتفاعل المستمرين مع ما يحصل في شتى بقاع الأرض.

أحدثت الحواسب وما ينتج عنها من مخرجات صدمات متتالية أسهمت وتسهم في تشكيل العالم المعاصر.

دفعت العولمة المسلحة بالمعارف العالية ووسائل الاتصال ذلك التوجه الذي بدأت خطواته بالتسارع منذ نهاية الحرب الباردة التي لم تجلب المزيد من التكيف بين الدول، لكنها حددت توزيع القوى بين الدول والأسواق والمجتمع المدني. لم تفقد الحكومة الوطنية ببساطة استقلالها الذاتي في ظل عولمة الاقتصاد، بل تتقاسم القوى -بما في ذلك أدوار سياسية واجتماعية وأمنية تعد من لب السيادة- مع دوائر رجال الأعمال ومع المنظمات الدولية غير الحكومية. إن التركيز المتزايد للسلطات بين يدي الدولة الذي ابتدأ تحديداً مع سلام وستفاليا عام (١٦٤٨م) بموجب المعاهدة التي تمت بعد حرب الثلاثين سنة بين فرنسا وهولندا من جهة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة وإسبانيا من جهة أخرى. انتهى، وباتت توجهات العولمة تدعم نزعات التفتّت المعاكسة، من مثل القوميات العرقية بما يعرف

بالإثنيـــة، والأصوليات الدينية التي تمزق الدولـــة وتشجع على انتهاك حقوق الإنسان وابتداع الأزمات الإنسانية[٥].

وهـــا إن العالم يشهد كل يوم تساقــط الحمايات القومية والإقليميـــة وارتهان السياسات القومية والوطنية في تقمّصها الأكبر لقوانين الاقتصاد التي هيمنت على العلاقات بين الدول والشـــركات للمستويات المتفاوتة في امتلاك القوة في التعاملات وفرض السياسات في شتى أشكالها، من (الميديا) والعسكرة، لتظل البراعة التقنية سيدة الموقف[٦].

الحواسب من تحليل البيانات إلى الكمبيوتر/ المكتبة

شكلـــت (الميديا) دخولاً هائلاً مـــن حيث سرعة ولوجها وتتابع جديدهـــا بشكل غير مسبوق، وقادت البشرية إلـــى أمكنة شديدة الاختلاف. ففي السبعينيات من القرن الماضي كان الكمبيوتر الشخصـــي لسطح المكتب مجرد فكرة تـــراود ذهن المهندس، أما اليوم فالكمبيوترات قد أضحت مكتبة راسخة موجودة في كل مكان. أي إنَّها صارت جزءاً مهماً من حياتنا الشخصية واليومية[٧].

إنه من الصعب في وقتنا الحاضر التفكير في أي جهاز إلكتروني لا يكمن في داخله كمبيوتر.

التقدم الهائل في صناعة الحوسبة والاتصالات والإلكترونيات الاستهلاكية هي الأكبر بما لا يسهل قياسه في عالم الصناعات العالمية وأكثرها دينامية ونمواً.

يشهد عصر الأنفوميديا أعظم انطلاقة وأضخم تعزيز على مدار تاريخ الاقتصاد والإعلام العالميـــين، خارج نطاق المجـــال العسكري، وهو الآن يصبح محـــرك التقدم لتلك التكتلات الاقتصادية التجارية العظمى في العالم[٨].

باتت الحواسب تعالج الصور والفيديوهات والصوت والوسائط الإعلامية بالقدر عينه من السهولـــة أو الأسهل بكثير مما كانت الكمبيوتـــرات القديمة توفره إذ كان يقتصر دورها على وظيفة محددة تتعلق بمعالجة البيانات.

أصبحـــت المعلومات والمهارات في مجال البرمجة والمعالجة متاحة لكل راغب، بل إنها جذبـــت الأشخاص من مستويات عمرية وثقافية مختلفة للتعامل مع جوانب الحياة والأنشطة الإنسانيـــة، وكذلك الألعاب المثيـــرة والمدهشة التي يمارسها الكبـــار والصغار ويعبثون بها. وصارت الأجهزة المتطورة سهلة التناول والانتقاء. بإمكان الطفل، في هذه الأجواء الجديدة، أن يشـــارك في العنـــف عبر ألعاب الفيديو والكمبيوترات المنزليـــة. وبالسهولة نفسها أصبح

تأثيـــر ألعاب وبرامج الجنس يصـــل إلى أبعاد قد لا يستوعبها الذهن بسهولة. أليس غريباً إن رجعنـــا بالزمن حقبة قصيرة أن تأخذنا الدهشة لما نراه اليوم من القفزات الهائلة ابتداء من متاجـــر المعلومات -على سبيل المثال لا الحصر -كما في القفزة عن مجالات النشر الورقي وما تحقق من ثورة في صناعات الطباعة والنشر بحجم تصعب مقارنته مع ما أنتجته الطباعة منذ مطبعة غوتنبرغ[٩]. ما أتاح لكل فرد في موقع ما أو في أي مكان في العالم، وفي أي وقت أن يلج إلى عوالم (الميديا) مخترقاً خصوصيات الأفراد والمجتمعات.

عمليات تشكيل عالم مختلف

بـــدأت عمليـــات التدخل في سلوك البشر وتشكيل الشخصيـــة الإنسانية من قبل ما تبنته المدرســـة السلوكية في علم النفســـ وكان من قادها علماء نفس، مـــن أمثال **واطسن وسكنر** وغيرهمـــا، وما زال لمقارباتهم الدور الأهـــم الذي تتبناه قوى الهيمنة والاستغلال في العالم. وكان لهذه المدرسة شأنها وما زال بما أدخل عليها من تعديلات من تأثير تبني بعض السياسات لتكويـــن شخصية الأفـــراد والجماعات وهندستها. وصف سكنر التدخـــل في تعديل السلوك وتنويعـــه بالآتي: إذا ما استطعت ضبط نمو سكان العالم بالدقة نفسها التي يضبط بها مسار سفينة الفضاء، أو تحسين الزراعة، فإنه سيصبح ممكناً حلُّ مشكلاتنا بسرعة.

قرَّبـــت ثـــورة الأنفوميديا تلك الأهـــداف والتقنيات من بلوغ غاياتهـــا وأصبح في متناول العابثيـــن بأمن الشعوب والدول أن يتلاعبوا بالبشر، وما ظواهر الجريمة المستحدثة وتشويه المعتقـــدات والحط من قيمتها والاعتداء على سيادات الدول وتشجيع الإرهاب وصناعته إلا بعضـــ من مخرجات تلك الذهنية الاستعلائية والنزوع للتدمير والسيطرة على العالم لخدمة (مافيات) لا تقيم وزناً لحق الشعوب بالحياة الكريمة.

الإرهاب والعنف وتجاوز الحدود والمسافات

أفـــرزت العولمة وفوضى المعلومات المبرمجيتان تحت عناوين ملتبسة وتضليلية، عناوين متناقضـــة هدفها إحداث الفوضى تحت عنوان الفوضى الخلاقة التي أدت إلى انتشار العنف ورعايـــة تنظيمات شككت بكل مسلمـــات أمن المواطنين، وأحدثت البلبلـــة في أماكن كثيرة، كان أهم نتائجها خلـــق منظمات إرهابية تعمم القتل والتخريب الذي طال المؤسسات العامة والعمران والبشر ونهب الممتلـــكات العامة والخاصة، وتعميم الإرهاب الذي يطال البشر في أيِّ أرض كانوا.

يعيش العالم المعاصر متشبثاً بالعالم الافتراضي الذي غزا البيوت والمؤسسات العامة والدوائر الحكومية، وقد عزلت شبكات التواصل الشخص عما حوله وهي تأخذه إلى عوالم مختلفة، غابت عن الأسرة تلك الجلسات الحميمة التي كان لا يخلو منها أي بيت ليتحول كل فرد فيها إلى عالمه الخاص المتوهم، ما سهل انتشار العنف وتنظيم بعض الشباب في تنظيمات لا تقيم وزناً لإنسانية الإنسان وحقه في الحياة، متجاوزة الأعراف والتقاليد والقيم التي هي نتائج لخبرات الشعوب في الحفاظ على هوياتها وأمنها.

تنامي العنف في العالم يغطي على كثيرٍ مما أحرزته البشرية من تقدم، وهو على الرغم من إدانة وسائط الاتصال المختلفة له كظاهرة مخيفة تزداد وتيرته يوماً بعد آخر، لكن باتت وسائل الإعلام نفسها تميل إلى تقديم قصص العنف بطرائق تثير المشاعر. وبات تقييم حجم العنف الكوني الذي يعتمد على المعلومات الآتية عبر مصافي وسائل الإعلام يشكل إستراتيجية تنطوي على قدر كبير من المخاطر(١٠).

فجرائم القتل صارت أحداثاً يومية ومعدلاتها في ارتفاع، لم تسلم منها دولة في العالم. الأمثلة كثيرة تتناقلها وسائط الاتصال من الولايات المتحدة الأمريكية إلى بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وغيرها كثير، ومنها تلك التنظيمات التي تغزو دول العالم بعصاباتها التي أخذت شكل جيوش تعتدي على سيادة الدول، وتعبث بالممتلكات والآثار تحت مسميات تمجد القتل ولها في ممارسته طرائق لم تعمل بها أشد المجتمعات بدائية ووحشية، من بوكو حرام إلى داعش وأضرابهما. إذا فحصنا أسباب تلك المظاهر التي طغت أخبار أحداثها على الإعلام وغيره من وسائط الاتصال، فإن العولمة في إطار توصيفها ونتائجها على الرغم من فوائدها -كما يبدو لبعضهم- فإنها تقود حلبة الاقتصاد الضخم الذي أدى إلى تفاقم التباين في الدخول على نحو مذهل يفوق تصور الأشخاص من الطبقات الوسطى والفقيرة، وساعد على انتشار العنف من خلال تزايد الاتصالات ووسائل الإعلام، إضافة إلى توسع التجارة في مجال صناعة الموت التي ترعاها الصناعات الحربية وتجارة المخدرات(١١).

أتاحت (الميديا) رواج الاحتكارات، وأدخلت إلى قاموس الجرائم وطرائقها عناوين جديدة، منها جرائم المعلومات (سرقتها وتزويرها)، الدخول إلى الشبكة بأسماء وهمية وانتحال شخصية مزيفة، جرائم بحق الأشخاص وبحياتهم من سلب أو عنف وقتل. فمخاطر العالم الإلكتروني اليوم كثيرة ومتعددة الأوجه، ولاسيّما في غموض القوانين التي تحكم هذا

العالم المختلف، وتعزيز سلوك الأطفال في الولوج إلى هذا العالم المثير وإتاحة الفرص لهم في الولوج إليه وإلحاق الأضرار بحق الأفراد والمؤسسات والجماعات.

فوضى المعلومات وتزييف الذاكرة

تتيح الجهات التي توجه الإعلام المجال لتدفُّق سيل المعلومات على الهواتف الشخصية وعلى وسائط الإعلام المختلفة فلا يغيب عنها التركيز على نشاطات الأفراد العقلية والنفسية والاجتماعية في عمليات تستهدف تزوير الأحداث وتزييفها وتتناول في الرأس منها تاريخ الشعوب والأوطان. وما الإفراط في كم المعلومات الهائل الذي يتدفق بوتائر متسارعة ومتلاحقة إلا بعض وسائل حرف الأفكار وتشويشها والأخذ ببعض ما تحمله من أذى يصيب الذاكرة، ويزيّن مثيرات الغرائز التي تبعث على تضخم الأنا الفردية وبث الكراهية والعنف تحت شعارات تعزز الفرقة بين الجماعات وتحيي الأحقاد الطائفية والمذهبية والإثنية من قبورها. وليس الإرهاب إلا بعض نتاج هذا العماء الذي صار معمماً.

كشف الكاتب الأمريكي غور فيدال في كتابه القفص الذهبي عن قدرة السياسة إذا فقدت إنسانيتها على قلب اتجاهات الرأي العام، ويذكر مثلاً كيف استطاع الرئيس الأمريكي روزفلت، في أثناء الحرب العالمية الثانية، أن يقنع الشعب الأمريكي بالدخول إلى جانب الحلفاء ضد دول المحور، ومنها اليابان، بعد أن عبَّر ٨٠٪ من مواطني الولايات المتحدة عن عدم رغبة في تورط بلادهم في تلك الحرب، وإذ لم يكن باستطاعة الرئيس تجاوز رغبة الأمريكيين، فقد انتهز فرصة تورط اليابان في حملتها على الصين، فأمر الأسطول الأمريكي بمناوشة اليابانيين إلى أن اضطرت اليابان إلى قصف القاعدة الأمريكية في بيرل هاربر، الأمر الذي استثار مشاعر الأمريكيين فسوَّغوا له الدخول في الحرب بشكل مباشر، وكانت نهاية الحبكة باستخدام الجيش الأمريكي للسلاح الذري بعد تلك الخدعة الخبيثة[١٢].

كم من الخدع التي تمررها الولايات المتحدة وغيرها للتدخل المباشر وغير المباشر في إرهاب مبرمج، وبأسلحة أخطر من قنبلتي هيروشيما وناغازاكي، ومن فبركة المعلومات وتوليفها وغزو العقول لتنفيذ أهدافها في أمكنة مختلفة من العالم، وكانت حصة العرب منها كبيرة.

في المقابل أتاحت (الميديا) كثيراً من الفرص التي حسَّنت بوساطتها حياة الناس، من حيث تيسير المعلومات وسرعتها، كما أنها غيرت في العلاقات الاجتماعية والتفاعل الثقافي بين الأفراد والجماعات، وحسَّنت أداء الإدارات والاقتصاد وشؤون التربية.

وفـــي المقابل، يعيش العالم حالة خوف من بطالة ناتجة عن الاستغناء عن بعض عناصر قـــوة العمل في مجالات وأنشطة كثيرة، لأن التكنولوجيـــا التي يتطور دورها في الحياة تخلق كثيراً من فرص العمل الجديدة وستزداد الحاجة إلى المتخصصين.

لكـــن قوى السيطرة لم تعدم الوسائل من أجل الاستحـــواذ على العقول الذكية للعمل في (ماكيناتها) عالية التقنية وحرمان الدول الضعيفة منها.

الهوامش

(١)- كارل بوبر، أسطورة الإطار، ترجمة: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، العدد ٢٩٢، ص١٥٠.

(٢)- جون توملينسون، العولمة والثقافة، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم، عالم المعرفة، العدد ٣٥٤، ص١٠.

(٣)- المصدر السابق، ص١٣.

(٤)- هيرست طومسون: ما العولمة؟، ترجمة: فالح عبد الجبار، عالم المعرفة، العدد٢٧٣، ص٣٨٠.

(٥)- جيسكار ماتيوس، العولمة، الثقافة العالمية، العدد ٩٩، ص٥٥.

(٦)- مطاع صفدي: السوق والأيديولوجيا، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان ١٣٦، ١٣٧.

(٧)- فرانك كلش: الأنفوميديا / الوسائط المعلوماتية كيف تغير عالمنا وحياتك، ترجمة: حسام الدين زكريا، عالم المعرفة، العدد ٢٥٣، ص٩.

(٨)- المصدر السابق، ص١٢.

(٩)- المصدر السابق، ص ٤١٦.

(١٠)- بونيفتش وموريسون، العيش في عالم أكثر عنفاً، ترجمة: أحمد محمود، ص٥٩ الثقافة العالمية، العدد ١٠٣.

(١١)- المصدر السابق: ص٦٤.

(١٢)- أخبار الأدب، تاريخ ٢٠٠٠/١٢/١٠م، ص١٦.

محور العدد

الإرهاب وعنف العولمة

د. سوزان عبد الله إدريس

مع بدايات الألفية الثالثة تزداد ظاهرة العنف انتشاراً وتطوراً، وتغدو معالجتها والحدّ من انتشارها من أهم المعضلات التي تعاني منها البشرية، وعلى الرغم من أن العنف ظاهرة قديمة قِدم العالم، إلا أنها من أكثر الظواهر تجدداً وتنوعاً في الحضارة المعاصرة.

وعلى الرغم من كل الإنجازات العلمية والتكنولوجية الباهرة التي حققها الإنسان المعاصر، لايزال العنف يسكنه ويتجدد في داخله، ليس بالمعنى السياسي فحسب بل بالمعنى الأخلاقي أيضاً؛ فأعمال العنف في جوهرها ليست إلا تعبيراً عن انهيار القيم الأخلاقية العليا وانتهاك إنسانية الإنسان؛ لأنها ظاهرة غير أخلاقية تهدد الوجود الإنساني برمته. حيث يقول هابرماس: إن «ظواهر العنف والبربرية تحدد شعار هذا العصر»[1].

كما يرجع العنف المعاصر إلى تنامي ظاهرة العولمة، التي أوجدت أزمات عدة عجزت معها الإنسانية عن نشر قيمها الأخلاقية، فقد دعت إلى عنف محض يؤدي إلى إقامة عالم خالٍ من القيم العليا؛ لذلك يحمّل النظام العالمي الجديد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية العنف الذي يعمّ الوجود الإنساني؛ لأنه يعتمد سياسة القطب الواحد التي حوّلت العنف إلى إرهاب، وولّدت عنفاً آخر مضاداً للعنف الذي تصدّره إلى بقية شعوب العالم.

وقد اتخذ العنف أشكالاً كثيرة ومتنوعة عبر التاريخ. الأمر الذي أدى إلى تنوع التعريفات التي قدمت له، ومن هنا يصبح البحث عن تعريف موحّد للعنف أمراً في غاية الصعوبة؛ بسبب

تشعب الميادين التي يحتويها واختلاف آراء الباحثين وتفسيراتهم له باختلاف أهدافهم والأغراض المراد بلوغها؛ لهذا كان لا بد من الوقوف على دلالات العنف اللغوية والاصطلاحية.

دلالات العنف

١- الدلالة اللغوية:

يـورد ابـن منظور في لسان العرب تعريفـاً للعنف؛ إذ إنه الخرق بالأمـر وقلة الرفق به، فيقال: يعنفُ عنافةً؛ أي يقسو قسوةً، وهو عنيفٌ غير رفيقٍ في أمره، وأعنفَ الشيء؛ أي أخذه بشدةٍ وقسوةٍ، وهو في معانٍ أخرى التقريع والتوبيخ[٢].

كمـا يدل على الضغط واللوم والتعيير، وجوهـر المعنى اللغوي للعنف يتجسد في الشدة والقسوة، وهو ما اتفقت عليه معظم المعاجم اللغوية؛ إذ ورد في كتاب المنجد في اللغة أيضاً، عنف: عنفاً وعنافةً بالرجل وعليه: لم يرفق به وعامله بشدة، عنّف: لامه وعتب عليه، والعنف ضد الرفق وهو القساوة[٣].

وفـي اللغـة الإنجليزيـة حـدده قـاموس Oxford بأنه فعـل إرادي متعمـد يقصـد إلحاق الضـرر أو التلف أو تخريب أشياء أو ممتلكات أو منشآت خاصة عن طريق استخدام القوة[٤].

ويتضح من هذه التعريفات اللغوية أن العنف لم يقتصر على الأذى الجسدي المادي فحسب، إنمـا تجاوز ذلك إلى الإيذاء المعنـوي الروحي، وانتقلت هذه المضاميـن اللغوية إلى دلالات اصطلاحية كثيرة حملت وجهات نظر مختلف الباحثين في جميع المجالات الفكرية.

٢- الدلالة الاصطلاحية:

أسهب الباحثون في تحديد مفهوم العنف من زوايا كثيرة تعكس وجهة نظر ورؤية كلٍّ منهم، فيعرّفه لالاند في موسوعته أنّه سمة ظاهرة أو عمل يقوم على استخدام العنف، وأنه استعمال غيـر مشروع للقوة، من خلال فرض كائن ما نفسه علـى كائن آخر خلافاً لطبيعته دون وجه حق أو قانون[٥].

ويجسد العنف من الناحية الاجتماعية سلوكاً اجتماعياً مكتسباً، وتعمل البيئة الاجتماعية المحيطة بالفرد على تعزيزه من خلال عدة مظاهر؛ كالتفكك الاجتماعي وانحلال العلاقات الاجتماعية... وغيرها من أشكال تؤدي إلى العدوان، أما بالنسبة إلى المعنى النفسي فيرجع سبب العنف إلى الإحباط عندما تواجه رغبات الفرد عقبات لا يمكن التخلص منها بأساليب

معتادة ومقبولة فيلجأ إلى أساليب عنيفة للتعويض عن الإحساس بالنقص أو الضعف، في حين يرى التحليل الحضاري الثقافي أن العنف ظاهرة ثقافية تختلف من مجتمع إلى آخر ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، وترتبط بالمعايير السائدة في المجتمع الذي يسوّغ العنف أو يرفضه تبعاً لبنيته الثقافية[٦].

أما المعنى السياسي فقد ورد في الموسوعة السياسية أن العنف يعني استخدام القوة بهدف الاستيلاء على السلطة أو تحقيق أهداف غير مشروعة[٧].

وهنا يكون العنف بمعنى القوة والتسلط الذي تمارسه فئة ضد أخرى؛ لخدمة أهداف وأيديولوجيات إستراتيجية محددة، ويتم فيها استخدام كل الوسائل القمعية والسلطوية المؤدية إلى تحقيق الهدف المراد منه.

ويجسّد العنف في الفلسفة أهم المشكلات الفلسفية التي تناولها الفلاسفة بحثاً وتفسيراً، وقد صاغوا لها تعريفات وأبحاث كثيرة لتحليلها ومعرفة أسبابها ومحاولة وضع حلول لها؛ إذ يرى ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤ –١٩٢٠م) أن جوهر السلطة يكمن في ممارسة العنف وهي الوحيدة التي يحقّ لها استعماله، ويؤكد ذلك بقوله: «**(إن الدولة) مثل كل التجمّعات السياسية التي سبقتها تاريخياً، تكمن في علاقة سيادة للإنسان على الإنسان مبنية على وسيلة العنف المشروع (أي على العنف المقبول شرعياً). إذ لايمكن للدولة أن توجد إلا بشرط خضوع الرجال المسودين للسلطة التي يطالب بها الأسياد**»[٨].

بهذا يرى ماكس فيبر أن الدولة بسلطتها هي المسؤولة عن حدوث العنف، ولا تُثبِّت أركانها إلا إذا مارست القوة واستخدمتها بكل أشكالها على الأفراد.

أما إيف ميشو Yves Michaud[٩] (١٩٤٢–) فيركز على تحليل العنف المادي وأشكاله والصور التي يظهر فيها من إبادة وحروب واضطهاد، ويحمّل التجارة الدولية جزءاً كبيراً من المسؤولية في نشر وسائل العنف وتطويرها ونشرها بأيدي جماعات كثيرة من البشر، ولا يقلل من أهمية التقدم التقني في تطوير الأسلحة المستخدمة في العنف إضافة إلى دور وسائل الإعلام في ذلك[١٠].

وكذلك ترى حنة أرندت Hannah Arendt (١٩٠٦– ١٩٧٥م) أن العنف عندما يُستخدَم سوف يؤدي إلى خلق عنف أكبر منه «**إن ممارسة العنف، مثل كل فعل آخر، من شأنها أن تغيّر العالم، لكن التبدّل الأكثر رجحاناً سيكون تبدلاً في اتجاه عالم أكثر عنفاً**»[١١].

بهذا تقــرر أرندت خطر ممارسة العنف بحجة الدفاع عن الحقوق المسلوبة؛ لأنه يفضي إلى خلق عنف أخطر منه، ولا يؤدي إلى القضاء عليه.

ويتضـــح مما سبق أن العنف لا ينفصل عــن الإطار الثقافي والاجتماعي والتاريخي الذي يندرج ضمنه، وكان لا بد بدايةً من تحديد الفروق والتشابه بين العنف والإرهاب.

العنف والإرهاب

يطغـــى العنف على المشهد العالمي الحالي بوصفه سلوكاً غير رسمي وغير قانوني يستخدم القوة وشتى ضروب الوحشية لتحقيق أهدافه، ويعد الإرهاب أحد أبرز مظاهر العنف، وهو أقرب إلى الانتقام ويمثل عنفاً عدمياً أعمى؛ لذلك فهو يختلط بمفهوم العنف إلى حدّ كبير، الأمر الذي يدفع إلى محاولة تحليلهما للوقوف على ماهيتهما ومعرفة الفروق بينهما ونقاط الاشتراك.

- **معنــى الإرهــاب**: مصطلح الإرهاب مصطلح حديث في اللغة العربية، فهو لم يرد بشكل حرفـــي في المعاجم القديمة ويشير ابن منظور في لســـان العرب إلى أن الإرهاب مشتق من الجـــذر ((رَهَبَ)) رهبةً ورهباً أي خاف، واسترهبهُ: استدعى رهبته حتى رَهِبهُ الناس، وأرهبهُ أي أخافه وأفزعه[١٢].

ويمتد معناه في معاجم أخرى ليحتوي معاني الذعر والتهديد والقهر[١٣].

كما يرد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «**وإياي فارهبون**»[١٤] بمعنى الخوف والرهبة.

وبهـــذا تتفـــق المعاجم العربية على معنـــى الخوف والذعر الناتج عـــن فرض الرأي بقوة وعنـــف، أما معنى الإرهاب في اللغات الأجنبية فأصلهُ اللغـــوي في اللغة الفرنسية terreur وهو الفعل السنسكريتي tra الذي يعني رَجَفَ، وهو يطابق ما نجده في اللغة الإنكليزية بمعنى الرعـــب؛ إذ يعرّفه قاموســـ أكسفورد بأنه استخدام العنـــف والتخويف بصفة خاصة لتحقيق أغراض وفرض أفكار محددة[١٥].

ويجمع المفكرون على أن بدايات استخدام كلمة إرهاب ترجع إلى مرحلة الثورة الفرنسية، ولكـــن بقي التعريف غاية فـــي الصعوبة والخلاف بين المحللين، فاختلفوا في تحديد تعريف شامـــل وجامع للإرهاب، ويرجع ذلك إلـــى ارتباطه وتداخله بعدد كبير من المفاهيم الأخرى، ولاسيما مفهوم العنف حتى غدا الفاصل بينهما معقداً وغير واضح، إضافة إلى تطور مظاهر الإرهاب وتنوعها من مكان إلى آخر، وتباين أنماط الأفعال الإرهابية.

أمـا التعريف الدولي للإرهاب فقـد ورد في الاتفاقية الدوليـة الموقعة في جنيف عام (١٩٣٧م)، ويقصـد به الأعمال الإجراميـة التي تثير الرعب وتستخدم العنف ووسائل الإكراه المادي والمعنوي لفرض رأي أو تحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية أو ثقافية(١٦).

ويتضـح ممـا سبق أن جميع هذه التعريفـات تُجمِع على أن الإرهـاب هو استخدام غير مشروع للعنف والتهديد، يعرّض حياة الأفراد وحرياتهم للخطر ويسهم في نشر الرعب العام، واستخدامـه ناتج عن ظروف اجتماعية وسياسية محيطة بالفرد، ويسعى منفذوه إلى تحقيق أهـداف ومصالـح غير مشروعة، ويشير بعضـ الباحثين إلى أن الإرهـاب هو أبرز مظاهر العنف، يقوم على اختلاط وتقارب وثيق به.

والعنف في معنـاه السياسي يقوم على استخدام التهديـد والأذى الجسدي من أشخاص انخرطـوا في صراعات سياسية وقامـوا بأعمال تدميرية نتيجة معارضتهم ما تفرضه عليهم الأنظمة القائمة(١٧).

فالعنف هو استخدام القوة عبر وسائل كثيرة؛ كالوعيد والهدم والتحذير والتصفية ضد أفراد وجماعات محددة بهدف تخويفها لتحقيق أهداف ومآرب بطريقة غير مشروعة ومسوَّغة.

اختلفـت وتقاربت مفاهيم كلٍّ من العنف والإرهاب حتى غـدا التمييز بينهما من أصعب الأمـور؛ إذ يتقـارب العنف مع الإرهاب تقارباً كبيراً فيقترن بـه الإرهاب دوماً، ويمثل العمل الإرهابـي نوعـاً من العنف مـن خلال وضع الإنسـان في حالة ذعر ورعـب شديدين وذلك باستخدامه القوة ونشر الذعر لتحقيق مآربه.

وبسبب شدة اختلاط المصطلحين كان لا بد من تحديد الفروق بينهما.

١- الفروق بين العنف والإرهاب:

يوجد عدة فروق بين العنف والإرهاب يمكن تسليط الضوء عليها على الرغم من الارتباط الوثيق بينهما، ومن هذه الفروق ما يأتي:

١- يعد الإرهاب عنفاً منظماً يسعى إلى تحقيق أغراض سياسية تخالف السلطة القائمة، ففـي حين يستخدم العنـف القوة لبث الرعب والذعر في نفوس الأفـراد إلا أنه لا يستخدم تقنيات واستراتيجيات ضد الآخرين، على عكس الإرهاب الذي يعتمد على الخطط المدروسة والمنظمـة، لتحقيق مآربه السياسية والاجتماعية بأساليب مخطط لها جيداً، أما العنف فهو يفتقر إلى التنظيم وليست لديه أغراض سياسية محددة كالإرهاب(١٨).

وهنـــا يظهر الفرق بينهمـــا في التخطيط والتنظيم، فأحدهما يهـــدف إلى الترويع بشكل منظم ومخطط، وآخر يهتم بالنتائج المادية دون اهتمام بالتخطيط.

٢- كذلك يختلفان في الهدف؛ إذ يلجأ الإرهاب إلى الدعاية لقضية ما عبر وسائل الإعلام مـــن أجل جذب الانتباه والتأثير في تفكير الجمهور وسلوكهم معتمداً على التأثير النفسي من خـــلال رسالة يحملها ويهـــدد بها، على خلاف العنف ذي الأهداف المباشرة، فهو لا يلجأ إلى الإعلام بشكل أساسي ومحـــوري ولا يركز على التأثيرات النفسية كالعمل الإرهابي، ومن ثمَّ تبـــرز في العنف العلاقة بين الأفراد وبين من يمارســـ العنف سواء أكانت علاقة مباشرة أم غير مباشرة، في حين تختص مثل هذه العلاقة في العمل الإرهابي بين منفذيه، ومن يُمَارَس عليهم الإرهاب.

بمعنـــى أن المعنِّف فـــي حالة العنف يُلحِق الأذى والضرر بالأفـــراد إما انتقاماً، وإما لأي سبب شخصي، في حين يسيء الإرهابي إلى الفرد الذي يُمارَس عليه الإرهاب، ليوصل رسالةً يحملها، ويحاول تحقيقها بشتى الوسائل القمعية.

٣- إن الفعـــل الإرهابي يحاول إيصال رسالـــة موجهة إلى الرأي العام وليس إلى الضحية بحد ذاتهـــا، وهذا ما يميز الإرهاب المعاصر، ويضفي علـــى العمل الإرهابي طابعه الرمزي فيصبـــح الأشخاص العاديين هم الوسيلة الإعلامية للوصـــول إلى الرأي العام، وهذا يخالف مبـــدأ العنف القائم علـــى إلحاق الأذى بالضحية نفسها، فيحـــاول الإرهاب برمزيته أن يهتم بالصور والتمثيلات التي سترتسم في أذهان البشر والرأي العام(١٩).

وهذا يبرز الدور الذي تمارسه وسائل الإعلام في تحقيق أهداف العنف والإرهاب.

٤- كما أن العنف يختلف عن الإرهاب في إمكانية التحديد التاريخي، فالإرهاب لا يمكن تحديده تاريخياً في الواقع، وليس له أي معنى أو غاية ولا يمكن إيجاد سبب محدد له، كما أنه ظاهـــرة مرفوضة ولا أخلاقية ولا يمكن قبولها ؛ لأنها متطرفة وأكثر خطراً من العنف نفسه، ولا يحمل أي بعد سياسي أو أيديولوجي معين.

٥- كمـــا أن المـــدة الزمنية في تحقيـــق الأهداف تعدّ اختلافاً آخـــر بينهما، إذ لا يتمكن مخططـــو الإرهاب من تحقيـــق أهدافه بسرعة مباشرة، في حين نجد العنف على العكس من ذلـــك يستطيع تحقيـــق أهدافه مباشرة وبسرعة كبيرة؛ لأنه يستعمـــل قوة القهر والإلزام ضد الطـــرف الآخر (المعنّف) لإلحاق الأذى والضرر به؛ أي إنَّ ممارسات الإرهاب مدتها الزمنية

طويلة تستخدم شتى وسائل القمع والقهر والقوة، وتنتظر تحقيق النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصاديـــة، في حين المـــدة الزمنية ليحقق العنف أهدافه قصيـــرة، تنتهي بمجرد انتهاء تنفيـــذ الفعل مباشرة، وهذا ينجم عنـــه ضخامة التكاليف المادية والبشرية في الإرهاب أكثر بكثير من الخسائر في العنف؛ لذلك يعدّ أخطر وأكثر انتشاراً وأذية على المجتمعات.

ويتبيـــن من هذه الفروق أنَّ العنف والإرهاب يتميزان بعضهما من بعض بنواح عدة تجعل لـــكلٍّ منهما مفهوماً مستقلاً بذاته إلا أن ذلك لا ينفي وجود نقاط التقاء وثيقة بينهما ووجود خصائص يشتركان بها في تحقيق مآربهما.

٢- نقاط الالتقاء والتشابه بين العنف والإرهاب:

يُعدُّ كلٌّ من العنف والإرهاب من أخطر الظواهر التي تواجه المجتمعات، فهما ليسا مجرد تقنيـــة مستخدمة لنشر الفوضى والتدمير وحسب؛ لأن من يمارسهما على قناعة تامة وإيمان راسخ بصحة ومشروعية ما يقوم به، ولذلك فهما يتميزان بخصائص مشتركة منهما:

١- يعـــدّ العنـــف والإرهاب مـــن أكثر المشاكل خطـــورة، إذ تمتـــد تأثيراتهما على جميع الأصعدة.

٢- الإرهـــاب نوع من العنف، والعنف نوع مـــن الصراع وهو بدوره نوع من الفعل البشري؛ لذلـــك فـــكل إرهاب عنف ولكن هـــذا لا يعني بالضـــرورة أن كل عنف إرهـــاب، فالعنف هو استهـــداف لنظام الأشيـــاء وهو في الوقت نفسه سبب أساسي فـــي إعادة تنظيمها من جديد بشكل آخر، فالإرهاب هو توظيف للعنف على نحو من الترويع والتخويف، وليس المقصود هو التعنيـــف بحد ذاته إنما الذي يهمه هو آثـــاره وما يتبعها من نتائج نفسية مؤثرة إلى حدّ كبير في إحداث التغيير[٢٠].

وهنا يظهران كالتوءمين اللذين لا ينفصلان بعضهما عن بعض، فأحدهما يستدعي الآخر بالضرورة.

٣- يؤمن كل من يمارس العنف والإرهاب بنبل قضيته وتعصبه لرأيه وموقفه بعدما وصل إلى مرحلة اليأس من اعتدال الظروف السائدة القاهرة التي يعاني منها، فيلجأ إلى شتى أنواع القوة والسلاح والترهيب لتحقيق مآربه.

٤- العنـــف والإرهاب ظاهرتان تمسان الفرد قبل أي شيء آخر، فتطال تأثيراتهما الحالة الجسديـــة والنفسيـــة؛ لذلك نجـــد أن جماعة الفرد قد لا تساعده فـــي تخفيف وطأة العنف

والإرهاب المقام ضده، إنما قد تدعم ذلك وتضاعف معاناته؛ مما يدفعه إلى تصرفات أخرى جديدة تتميز بعنف جديد أكثر خطراً من العنف المسلط عليه(٢١).

وهذا يبرز الفكرة الأساسية أنَّ العنف والإرهاب يولّدان عنفاً آخر أخطر منهما.

٥- إن العنف سواء كان فعلاً مباشراً أم غير مباشر يستهدف الأشياء ويلحق الضرر والأذى بشخص ما، إما جسدياً وإما نفسياً وإما مادياً، أما الإرهاب فهو توظيف للعنف ويستخدمه بأسلوب من الترويع والترهيب.

وهنا يتضح كيف أن الإرهاب أحد تجليات العنف، يزداد كمّاً ونوعاً، ويتصف بأنه عنف فاحش يؤدي إلى خسائر فادحة في الأجساد والممتلكات ويستخدم الإعلام لتغطية أعماله ووحشيته منتهكاً كل الحرمات والقيم.

وكذلك يوصف بأنه عنف أعمى لا يميز البريء من المذنب، ولا يعترف بوجود أبرياء، فيعمل على الانتقام من الجميع مستخدماً كل وسائل التهديد، وأيضاً يعد عنفاً فائقاً يستخدم السلاح الأقصى والموت؛ كالعمليات الانتحارية فيستخدم الإرهابي جسده سلاحاً وأداة للترويع والتفجير والتعذيب احتجاجاً على نظام العالم وقيمه، هو كذلك ذو طابع عدمي: عندما يُمارَس من غير أهداف ومطالب تعجز منظومة القيم والمعنى عن احتوائه، ويتحول إلى موقف عدائي وسلبي من العالم والبشر والزمن(٢٢).

وبهذا يكون العنف هو الجانب العملي والصورة الواقعية للإرهاب، أما الإرهاب فهو الجانب النظري للعنف، والذي يركز على الحالة النفسية.

يتبين مما سبق أن العنف هو أهم أدوات الإرهاب وكذلك الإرهاب يتمظهر كأحد أوجه العنف وكلاهما يتداخلان ويعملان على نشر الأذى والرعب في المجتمع، ولكن كلّ منهما بوسائله الخاصة التي يتميز بها من الآخر، فمن يمارس الإرهاب والعنف إنما يدين القيم السائدة ويحاول تدميرها وتقويضها، وهذا يتعارض مع الأخلاق التي لا تستطيع تسويغهما مهما حاولا تسويغ أهدافهما.

كما يُلاحَظ ازدياد العنف وآلياته انتشاراً وتنوعاً مع التطور الحضاري المعاصر، وكذلك مع ازدياد وسائل الهيمنة والتسلّط من الأنظمة الديكتاتورية العالمية التي تمارس العنف بشتى أشكاله على بقية شعوب العالم الأضعف منها متذرعةً بحجج واهية، وما كان العنف المضاد إلا نتيجة حتمية لذلك العدوان. وتعدّ العولمة سمة هذا العنف المعاصر، وما ينجم عنها

مــن تبعات على جميع الأصعدة وعلى القيم والأخلاق والتي يعدّها مقدمات أولية لبروز شبح العنف المعاصر وهو عنف العولمة.

عنف العولمة

إن النظـام العالمـي الجديد الـذي أطلق تسميتـه الرئيس جورج بوشـ الأب في مطلع التسعينيـات هو المسؤول عـن هذه التحولات العنيفة في مسار العالم، والذي بدأ مع ظروف تفكك الاتحاد السوفييتـي، وارتبط بالعولمة ليعبر عن عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال والمعلومـات بحرية بين المجتمعات في ظـل الهيمنة الأمريكية أو ما يسمى بسيطرة القطب الواحد على العالم.

١- تلاشي الكونية وظهور العولمة:

فـي معرض تحليلنا لـ «عنف العولمة» نبـدأ بالتمييز بين مصطلحين بارزين يكثر الخلط بينهمـا، هما الكونية والعولمة؛ فالكونية تعنـي جملة القيم الإنسانية المثالية والغايات العليا التي تتعلق بحقوق الإنسان وحريته ومفاهيم الديمقراطية والتفاهم الإنساني والتسامي، وهي وسيلة للتفاعـل بين الثقافات على مبدأ التوازن والتكامل وإغنـاء الثقافة الإنسانية وتأصيل قيمهـا المشتركـة؛ لذلك تمثل غاية الإنسانيـة بأجمعها وطموحها، وتشمـل الثقافة والفكر والأدب والفن، وتختلط فيها العاطفة ويغذيها الخيال الأدبي والفني.

ويتجاوز هذا الحلم الإنساني الشامل بتحقيقها حدود الدولة ليشمل العالم بأسره، ويسعى لتحقيق أهدافه من خلال نشر الوعي والتبادل الثقافي والفني، وتوحيد الثقافات مع الحفاظ على خصوصيتها المتميزة بها؛ أي توحيدها مع الحفاظ على اختلافها وتنوعها، معتمدة في ذلك على ثورة الاتصالات والمعلومات الحديثة[٢٣].

ويبرز في مقابل مصطلح الكونية مصطلح آخر هو العولمة الذي يرمز إلى واقع اقتصادي ومعلوماتي وسياسي يمتد على امتداد الكرة الأرضية، وهو في متناول تحكم القوى الكبرى في العالم، ويتركز اهتمامه حول الإنتاج والسوق والتكنولوجيا والسياحة والمعلومات.

ففـي الجانب الاقتصادي والتجاري نجد أن العولمة تعمل على توحيد العالم وجعله سوقاً واحدة مفتوحة؛ لأنّهـا ترتبط بالتكنولوجيا المعاصرة الحديثة فهي تشكل فضاءً للافتراضي والرقمـي، كما تسعى إلى جعـل اقتصاد السوق يهيمن على العالـم، وتسعى إلى زيادة حجم التبـادل بين المجتمعات، وزيادة تدفق رأس المال عبر الحـدود، أما على الصعيد السياسي

فهـــي تشير إلى التنسيق بين الدول والإيمان بفكـــرة المجتمع المدني العالمي، والتنسيق بين المجموعـــات غيـــر الحكومية، وربـــط دول الأطراف بمركز القـــوة؛ أي هيمنة سلطة القطب الواحـــد على العالم، في حين تعني علـــى المستوى الثقافي السعي إلى زيادة تفاعل الثقافات وتجـــاوز سلطة الدولة والثقافات الراسخة، وهي مرافقة للثورة التكنولوجية وهيمنة الإنترنت والعالم الافتراضي(٢٤).

وبذلك يظهر تغلغل العولمـــة في جميع مظاهر الحياة ومناحيها وعلى جميع المستويات، وتنبـــئ كلها عن سيطرة النظام الأقوى والشركات (متعددة الجنسيات)، وتعميم ثقافة السلطة المهيمنة.

ويقول الفيلسوف الفرنسي جان بودريار في معرض حديثه عن الفرق بين الكوني والعالمي: «**هنـــاك بيـــن لفظتي «العالمـــي** mondial» **و«الكوني** universal» **تشابه خـــادع. إن الكونية هي كونية حقوق الإنسان، والحريات، والثقافة، والديمقراطية. أما العولمة فهي عولمة التقنيات، السوق، والسياحة، والإعلام**»(٢٥).

وهـــذا يبين مدى الاختلاف بينهمـــا، فالكونية هي جملة القيم الأخلاقيـــة المثالية التي تسعى العولمة إلى القضاء عليها، فيكون مصيرها التلاشي والامّحاء، في حين العولمة تتميز باستمرارها وانتشارها وتقدمها.

إن الكونية الحاصلة في العالم اليوم في ظل العولمة ليست بالكونية الحقّة المثالية، إنما هي ادّعاء بالكونية؛ أي عولمة مزيفة متنكرة بالكونية، فكل حضارة عندما تسعى إلى العالمية فإنها ستفقد تمايزها وتموت حتماً.

ولهـــذا يمكن أن نميز بين عصر التنوير الذي كان يُنظر فيه إلى الكونية على أنها إنسانية تحتفظ باختلاف الثقافات وتتقدم باستمـــرار وتتطور، والحضارة الغربية المعاصرة في ظل العولمـــة التي غابت فيهـــا الكونية؛ إذ عملت علـــى تدمير كل اختلاف وسعـــت إلى دمج كل الثقافات وتدمير خصوصيتها؛ لذلك تحولت إلى شبه كونية تجسدت في عولمة القيم الغربية، إذ تستخدم القيم؛ كحقوق الإنسان والحرية... بطريقة مجحفة ومادية، وبهذا فإن الحضارات الأخرى قد ماتت ولكن موتها كان رحيماً وذلك بسبب خصوصيتها، في حين الحضارة الغربية على العكس من ذلك، إذ كانت تحمل قيم الكونية ثم ماتت؛ لأنها فقدت خصوصيتها وتفردها ودمرت كل قيمها بسبب العولمة التي أوجدتها(٢٦).

وهذا ما يوضحه بودريار بقوله: «**كل ثقافة تتعمم تفقد ثقافتها وتموت... الثقافات الأخرى ماتت من خصوصيتها، وهو موت طبيعي، في حين أننا نموت من فقدان كل خصوصية، ومن استئصال كل قيمنا، وهو موت عنيف**»(٢٧).

ولذلك فإن مصير القيم هو التلاشي عندما تحاول الوصول إلى العولمة؛ لأن العولمة بدلاً من أن تسهم في تحقيق الذات فإنها تؤدي إلى تصحرها وتشظّيها وضياع هويتها، ومنه يأتي هلاك الكونية عندما تصبّ في مجال العولمة الذي يعبر عن مسار أحادي شرس يدمّر ويقتل كل الثقافات ويدمجها في سياقها العام، فينهار الكوني ويذوب في ظل العولمة، فالذي يتعولم هو التبادلات التجارية والتقنيات ورؤوس الأموال وغيرها، والتي تضع معها حداً لكونية القيم.

فانتشار العولمة يستأصل كل القيم الكونية، ويؤدي إلى ظهور ثقافة غير متمايزة لا اختلاف فيها، وتكون نتيجة ذلك انهيار الحدود والخصوصيات؛ لأن الكوني قد تعولم، فالعولمة قضت على كل الاختلافات والقيم وأعلنت بذلك نشوء ثقافة جديدة لامبالية، فعندما تختفي الكونية تهيمن البنية التكنولوجية المعولمة، التي يجب عليها أن تواجه اختلافات جديدة بعيدة عن القيم الكونية التي دمَّرتها.

وعلى هذا النحو فإن قيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان باتت تواجه نظاماً عالمياً، واختلافاتٍ ثورية جارفة تؤدي إلى انهيار تلك القيم والخصوصيات وتحوّلها إلى مجرد أشباح لماضي الكونية.

وهذا يفتح الباب أمام نوع جديد من العنف هو عنف العولمة الذي يتميز بثقافة تكنولوجية وتنظيم، وهو عنف مجتمعٍ يُمنع فيه النزاع والاختلاف.

العولمة ماهي إلا محاولة لتعميم الثقافة الأمريكية وقيمها وتحويلها إلى ثقافة عالمية عبر وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، فهي تنطلق إلى تكوين ما يسمى بالقرية الكونية في محاولة منها لتحقيق أملها في أمركة العالم، أو نشر الحلم الأمريكي على أكبر نطاق ممكن من العالم، والسعي إلى نشر هيمنتها على السوق اقتصادياً أو سياسياً مستفيدة من الإعلام الحديث المتطور.

ويتبين أن العولمة هي نظام اقتصادي سياسي يسعى إلى توحيد السوق على مستوى العالم، وإلى فرض النمطية والتبعية على جميع الشعوب، وتتخذ أمريكا لأجل ذلك جميع

الضغوط اللازمة على الشعوب الأخرى في شتى المجالات، من أجل تأكيد هيمنتها ونشر ثقافتها وقيمها الرأسمالية.

وبذلك تعمل العولمة على تعزيز غربة الإنسان وعزلته، وإخضاعه للقوى المسيطرة والكبرى، وإضعاف روح النقد لديه، فجميع القيم التي تحملها ثقافة الغرب، ماهي إلا قيم مادية في أساسها تعبر عن فكر الغرب المادي النهم للسيطرة.

أفرزت العولمة أفكاراً وتصرفات لاإنسانية عنيفة تقضي على كل القيم، وهذا ينتج عنه العنف العالمي الذي يحارب كل أشكال الخصوصية والتفرّد والاختلاف، ولهذا يوصف بأنه عنف فيروسي ينتقل بالعدوى ويناهض كل محاولة لمقاومة ومحاربة العولمة.

ويذهب بعض المفكرين إلى أن العولمة لم تنتصر بعد؛ إذ يوجد قوى كثيرة غير متجانسة، وهذه القوى منها اجتماعية ومنها ثقافية وأخرى اقتصادية، تعمل على مواجهة عنف العولمة المهيمن، وهذه الأشكال والقوى المناهضة للعولمة، يمكن أن تتخذ أشكالاً عنيفة ولا عقلانية أحياناً في طرائق مقاومتها، كما يمكن أن تتجسد على المستوى الفردي في شكل سلوك مزاجي أو عصابي، لهذا وصفتها العولمة بأنها حركات إرهابية.

ويمكننا القول إنَّ البدائل الإيجابية للعولمة لا يمكنها هزيمة النظام العالمي المهيمن، فالقادر فعلاً على هزيمة العولمة هو الخصوصيات؛ فهي ليست بديلاً لها إنما هي نسق آخر مخالف لها، نظام رمزي مختلف، لا تخضع لحكم قيمة أو لواقعية سياسية؛ إذ تقف دوماً ضد سياسة الفكر الواحد، وتبرز خصوصيات اللغة والفن والثقافة. أمثلة لها، ولكن بالمقابل يوجد خصوصيات عنيفة إرهابية تنتقم لكل الثقافات الخصوصية الأخرى.

وهذا إنما يستدعي تأكيد دور الشعوب في النضال للمحافظة على خصوصياتها لإنهاء العولمة، بوصفها أول عدوّ للعولمة تعمل على القضاء عليه.

ومن ثمَّ يبرز خطر العولمة في دورها في بناء عالم خالٍ من القيم العليا، يسعى إلى نشر العنف بكل الوسائل العلمية والتقنية والثقافية والسياسية والاقتصادية.

٢-العولمة ودورها في خلق العنف:

تشير العولمة إلى هيمنة الدول القوية الغنية اقتصادياً والمهيمنة سياسياً على سائر الدول الأخرى، وتحاول إخضاعها لقانونها، وربط دول الأطراف بمركز القوة، الأمر الذي يزيد من حالة التبعية، فهي معادية للإنسانية تحاول إضعاف بقية الشعوب والسيطرة عليها، فالغرب

يمارس تسلطه بوصفه الأقوى والأغنى اقتصادياً وسياسياً والتحكم بمصير الشعوب بحجة أنها عاجزة وقاصرة عن إرادة شؤونها بمفردها ولم تنضج كفاية لتعي مصالحها، والنظام العالمي له قوانينه التي تصف كل من يخرج عليها بالإرهابي الذي يجب محاربته ومقاومته؛ لذلك شنّت عدة حروب وكأنها تنتقم من بقية الثقافات والحضارات لتخفي عجزها عندما تتم مقارنتها بهم، فتمارس الحروب والعنف بمختلف أشكاله.

وهنا يكون العنف نتيجة للعولمة التي خلقت عدوّها وبدأت بالصراع معه من أجل ردعه ومنعه من مقاومتها، فقامت بحروب أربكت علاقة الثقافات بقيمها، ودعتها للجوء إلى منطق الثأر والانتقام من ثقافة تدّعي العالمية والهيمنة[٢٨].

لذلك شنّت أمريكا حروبها على أفغانستان والعراق بحجة الحرب على الإرهاب، وكأنها عملية مواراة أو إخفاء لأهدافها وغاياتها الإستراتيجية سياسياً واقتصادياً، فمارست لأجل ذلك كل أشكال التوحش والإرهاب لإخضاع كل شعوب العالم تحت أمرها، وتقليص مساحة أي مقاومة رافضة لسياستها.

ويمكننا القول إنَّ الحروب التي تشنّها أمريكا على شعوب العالم الأخرى هي تعويض عن الضعف والهشاشة التاريخية وانعدام القيم داخلها، فتسعى لتعويض نقصها بتدمير الشعوب الأخرى التي تتفوق عليها بقيمها وحضارتها، كتعويض للنقص الذي تعانيه.

ومن نتائج اليأس والبؤس الذي انتاب بعض الشعوب الأخرى أن دعاها إلى التمرد على هذا النظام العالمي، وهذا التمرد يولّد أحياناً الإرهاب؛ إذ يقاوم هؤلاء المتمردون الحروب التي تعلنها العولمة، يقاومونها ويصمدون في وجهها فكرياً وعملياً، ولكن هذا الصمود قد يتخذ صفة عنيفة أحياناً؛ لأن النظام العالمي ما هو إلا نتيجة غيرة شديدة- على حد تعبير بعض المفكرين- فأمريكا ذات حضارة متدنية مقارنة بالحضارات الأخرى العريقة ذات المستوى الرفيع، وهذا ما يدفعها إلى التستر على هذه الوضاعة بمحاولة إقصاء الثقافات الأخرى وتدميرها واتهامها بالإرهاب، ومحاولة تحويل مسار العنف والحروب من داخلها إلى خارجها، وهذا ما مارسته أمريكا في حربها على أفغانستان والعراق؛ إذ اتهمتها بمعاداة الحضارة وقيم الغرب والحداثة ووصفتها بالمتعصبة، فقامت بمواجهتها ومعاداتها وعدتها كارهةً لها ولقيمها.

ونجم عن ذلك الإحساس لدى الأفغان أو لدى بقية الشعوب الأخرى المضطهدة إلى كره أمريكا والغرب وإحساسهم بالذل والإهانة، وهذا الذلّ رُدَّ عليه بإذلال من نوع آخر تجلّى في

أحداث (١١ أيلول)؛ إذ كبّد النظام العالمي إذلالاً كبيراً، فكان من غير الممكن إعلان الحرب على أمريكا بدافع الانتقام فقد يكفي إذلالها رمزياً، الأمر الذي يؤثر أكثر من الدمار المادي الناجم عن الاعتداء[٢٩].

ومــن هنــا يتضح دور العولمة في خلق العنف المضاد لها، ويعــود السبب في ذلك إلى يأس المهانيــن والمذلولين، هذا اليأس الذي يستغله الإرهــاب ويعتمد عليه من أجل استغلال غريزة المــوت أو التدميــر؛ أي كلما تعاظمت هيمنة النظام العالمــي زادت الرغبة في تدميره، وارتفع مستوى العنف الموجّه نحوه من الثقافات الأخرى التي عانت الضيق والاستغلال والإذلال بسببه، فيكون العنف بمنزلة احتجاج ورفض له يتّسم بالضراوة والشراسة نفسهما التي تعرضت لها.

وبهذا فإن العولمة هي التي خلقت عدوّها بذاتها من صميم طبيعتها؛ فإذا كانت في الأصل موجهــة ضد كل اختلاف وتميّــز وكل ما هو مغاير لها، فهذا يستتبعــه بالضرورة قيام عنف مضــاد لهــا في كل لحظة، فهي تقف ضد كل أشكال التفــرّد والخصوصية في كل المجالات تحــاول جمعها فــي قبضة سلطة واحدة مهيمنة عليها، فتثور تلــك الأشكال والقوى في وجه العولمة، وتُنتج عنفاً مقابل ذلك العنف، وبهذا يُستَنتَج أنَّ الإرهاب ليس صنيع ذاته بل هو وليد العولمــة، ومرافق لكل نظام هيمنــة واستبداد؛ لذلك فإن محاربة الإرهاب ما هي إلا محاربة للعولمة والحدّ من هيمنتها[٣٠].

وبنــاء عليه نجد أن العولمــة تعبير عن مرحلة إفلاس في الحضــارة المعاصرة، أفضت إلــى انهيــار القيم الأخلاقيــة والإنسانية، ودعت إلــى انتشار العنف والهيمنــة. ولا تقتصر تأثيرات العنف العولمي في المجال السياسي والاقتصادي وحسب، إنما أفرزت عنفاً إعلامياً وتكنولوجياً من حيث سعة انتشاره وتأثيره الخطير في الأفراد.

وبمــا أن العولمة مرتبطة بالعنف والإرهاب فهذا يستحضر تساؤلاً عن الرسالة الحقيقية للإرهــاب، ما هي؟ ما هدفها؟ لماذا وُجِد وإلى ماذا يطمح؟... فنخلص إلى أن الإرهاب غير أخلاقــي، فهو عبثي لا معنى لــه ولا غاية، ولا يملك وسائل القوة نفسها التي يحملها النظام؛ لذلك فهو يواجه العنف بعنفٍ آخر، فلا يكتسب أهميته بما يحققه من نتائج وأضرار بقدر ما يشكّل تهديداً وهزيمة رمزية.

يمكن القول إنَّ الجبروت الأمريكي عامل أساسي في خلق نوع جديد من الإرهاب هو الإرهاب الانتحــاري الــذي يتخذ فيه منفّذوه من موتهم سلاحاً وحيــداً خاصاً بهم، مع أنهم قادرون على

استخـــدام أكثر الأسلحة تطوراً وفتكاً، فهم مثقّفــون بالتكنولوجيا الحديثة والتقنيات المتطورة، ويعملــون على تفعيل دور الشبــكات الإعلامية وكل وسائل الاتصال في خدمة أهدافهم، بل يرى أنهــم قد ربّوا وتدربوا في أمريكا وعرفوا كل أسرار حياتهــا وهي التي احتضنتهم وعملت على تدريبهم وتطويرهم إلى أن سنحت لهم الفرصة ليظهروا كقنابل مخفية أعلنت عن خبثها وقوتها، وهــذا الإرهاب الانتحــاري كان في القديم سلاح الضعفاء والفقراء أمــا الآن فقد أصبح سلاح الأغنياء، فهم يهدفون إلـــى زعزعة النظام وخلخلة أركانه، فتأتي أعمالهم الإرهابية لتمثل ردود فعل رمزية ضد العنف الذي يصدّره النظام، يعتمدون على سلاح خاص بهم وحدهم وهو موتهم، فيقــف النظام عاجزاً حيال ذلك (العنف الرمــزي)، فما يستطيع الإرهابيون تحقيقه حيال هذا النظــام ليس العمل على زعزعة أركانه والعمل على زعزعة النظام والحدّ من انتشاره وشموليته فحســب، بل العمل على إنهاء مركزيته كقطب واحد يهيمن على العالم، ويتمثل الرهان الأساسي لهم في الرهان على الموت الذي لا يهابونه بل يتمنونه، وهذا ما تجسّد بشكل واضح في أحداث أيلول الذي هجم فيه الموت بشكل عبثي ومفاجئ وصادم، فكوَّن - من ثمَّ- حدثاً مطلقاً.

وهــذا يعني أنه على الرغم مــن الأسلحة التي يمتلكها النظــام، إلا أن هؤلاء الإرهابيين يتفوقــون عليــه بامتلاكهم سلاحــاً خاصاً بهم يستخدمونــه إضافة إلى تلــك الأسلحة وهو التضحيــة بأنفسهم في سبيل قضية يدافعون عنها، وهذا يشكل لديهم قوة ذات فاعلية كبرى علــى التدمير، الأمر الذي ربما يحقق سرّ تفوقهم، فيسعون في لحظة موتهم إلى الابتعاد عن قتل الآخرين.

وعلــى هذا النحو يصعب على النظــام ردع هذا الإرهاب الذي يراهن على نجاحه بموته، فالنظام يخاف الموت ويسعى إلى الحياة ويناضل لأجل ذلك بإرهاب بقية الشعوب، في حين الانتحاريون يسعون وراء الموت طمعاً بحياةٍ أخرى كمكافأة أو جائزةٍ لهم على ما يحققونه.

ويمكننــا وصف الانتحاريين بأنهم لا يهابون الموت عندما يُقدِمون على فعلهم الانتحاري؛ أي إنَّ موتهم ليس عبثياً ولا مجانياً، إنما يطمعون بمكافأة عليا في الجنة: «**هؤلاء الإرهابيون يقايضون موتهم بمطرح في الجنة، فعملهم ليس مجانياً**»[٣١].

لذلك لم يكن عملهم عبثياً وفوضوياً إنما يتبع قضيةً وهدفاً يسعون إليه، وهنا يشكل موتهم جزءاً من عملهم الذي يقوم مبدأه على التحدي والمنافسة، فهم يرون أن القوة التي استغلتهم وأذلّتهــم يجب أن تتلقــى بالمقابل الإهانة والــذلّ نفسهما ويجب برأيهــم أن تُباد وتتحطَّم،

فيعتمـــد الإرهابيون فيما بينهم على مواثيق واتفاقات توحّد عملهم على مبدأ إهانة الخصم بكل ما يملكونه من قوة واندفاع.

وهكذا فإن الحياة الأخرى للإرهابيين ورغبتهم في الخلاص من هذه الحياة، هي الدافع وراء ما يفعلونه وليس سعياً وراء الموت فحسب، فالموت بالنسبة إليهم حياة.

فالإرهابيـــون لا يعتمدون على نقل الصراع وحصره في مجال الواقع وحسب إنما يحاولون نقله من حيز الواقع المادي إلى الإطار الرمزي، فيسعى الإرهاب إلى تدمير واقعية النظام من خلال خلق حدَث أكثر واقعية من الواقع نفسه؛ مما يؤدي بالنظام إلى الانهيار ذاتياً ليس نتيجة قوى وأسباب خارجية، إنما بفعل انتحاره الذاتي الذي يعكس عوامل تفككه وعجزه وإخفاقه.

لذلك نستطيع القول إنَّه لا يمكن تسويغ الأفعال الإرهابية من الناحية الأخلاقية مهما كان الدافع والوسيلة، فكل عملية قتل هي جزء من الإرهاب.

فالإرهـــاب يمكـــن أن يعطي مضموناً سياسياً إذا حمل أهدافـــاً سياسية واقعية، وإلا فإنه سيتســـاوى مع الجرائم العادية؛ لذلك يفرّق بين عدة أنـــواع للإرهاب منها : العمليات العنيفة الهوجـــاء، وحـــرب العصابات غير العسكريـــة، إضافة إلى الإرهاب العالمـــي؛ إذ إن النوعين الأولييـــن يتميزان بأنهما حرب عصابات قاتل أصحابهـــا على أرض محددة، ومع ذلك يسعى لإحراز هدف سياسي يتمثل في إلغاء شرعية النظام(٣٢).

ولأن الإرهـــاب لا يسعى إلى تغيير العالم وإصلاحه وإنما إلى التضحية به؛ لذلك لا يكون الإرهـــاب تعبيراً عن مواجهة بين حضارتين أو عرقين أو ثقافتين وإنما تعبير عن عداوة بين ثقافتيـــن؛ إحداها مهيمنة لا تهتم بخصوصيات الشعـــوب وبقية الثقافات التي تجري إبادتها أينما وجدت، وهذا يمثل أساس العداوة الذي يتركز بين الحضارة المتفوقة تكنولوجياً وسياسياً والحضارات الأخرى التي تسعى إلى تصفيتها، وهي بذلك تشكّل عداوة جوهرية معهم.

فـــكل عنف إنما يستدعـــي بالمقابل عنفاً آخر يواجهه، وما الإرهـــاب الانتحاري إلا أحد النتاجات المتمخضة عن هذا العنف العالمي، فهو يمثل عنفاً مقابل عنف آخر.

وبذلك فإن العنف الذي بدأت أمريكا بتصديره للعالم، لم يجلب لها إلا العنف والذلّ.

ولهـــذا فـــإن أخطر ما في أحداث أيلـــول ليس الاعتداء الذي استهـــدف القوة الأولى في العالـــم، وإنما الإهانة التي لحقت بها، والتي لم تتمكـــن من ردها، فعمدت إلى الردّ بمحاربة شعوب أخرى بذريعة حماية نفسها والعالم من الإرهاب.

وهنا تظهر أمريكا نفسها في موضع الضحية التي يتعاطف معها الجميع وتستغل ذلك من أجل شنّ حرب على الإرهاب لتحقيق أهدافها الإستراتيجية؛ كضربها لتنظيم القاعدة وحركة طالبـان، وكذلـك السيطرة على النفط فـي العراق، فقامت بذريعة تحقيـق أمنها بملاحقة مخابئ الإرهابيين في أفغانستان واحتجازهم في قاعدة غوانتانامو من دون أي مظهر إنساني وممارسة شتى أنواع الإهانة والتعذيب والإذلال بهم، إضافة إلى تعذيبها للأسرى في السجون العراقية، مستخفّة بقرارات الأمم المتحدة، فأضرمت جنون الحرب في كل أنحاء العالم غير مبالية بالقيم الإنسانية (٣٣).

وهـذا دليل على الدهاء الذي يمتلكه هذا النظـام، والخطط التي يسعى إليها من تدمير وقضاء على الشعوب وحريتها وممتلكاتها بحجج وذرائع واهية.

وحـول ذلك يقول تشومسكي: «**إن الولايات المتحدة لا تريد أن تقدم دليلاً؛ لأنها تريد أن تبقى قادرة على فعل ذلك في الوقت الذي تريده وأن تتصرف من دون دليل. وهذا جزء حاسم مـن ردّ الفعـل الذي يسمـح للولايات المتحـدة ألا تطلب تخويل مجلس الأمـن، الأمر الذي حصلت عليه الآن**»(٣٤).

ولا تستطيع أمريكا أن تحقق أهدافها إلا بمساندة من مجلس الأمن، فقد تجبره وتضغط عليه بالموافقة بفعل القوة التي تمتلكها والحجج والذرائع التي تستخدمها.

هنـا نلاحـظ العلاقة الطردية بين العنـف وتراجع القيم والأخـلاق، إذ تراجعت مبادئ القانون الدولي الإنساني وأسسه وتراجعت الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية دفعة واحدة أمام الإجراءات والتدابير الاستثنائية التي قامت بها أمريكا بذريعة مكافحة الإرهاب.

وكان مـن نتائج الحرب الشاملة التي أعلنتها أمريكا ضد الإرهاب إصدار القانون الوطني الأمريكـي لمكافحة الإرهاب لتوفير الوسائل الملائمة لذلك، إضافة إلى إصدار وزارة العدل أمـراً باحتجاز غير الأمريكيين على يد إدارة الهجرة دون اتهامهم رسمياً بارتكاب أي جريمة، وبهـذا قامت بتعزيز وتضخيـم دور القوات المسلحة للحفاظ على الأمـن الداخلي، وإقامة محاكـم عسكرية ولا سيّما لمحاسبـة الإرهابيين، وبذلك يطغى هاجـس الأمن على حساب حقوق الإنسان والحريات.

إضافـة إلى أخطـر نتيجة نجمت عن هذا الحـدث، ألا وهي اتّهام الإسـلام بالإرهاب، وتصنيف الدول الإسلاميـة تحت هذا الاسم، فقد أُطلِق تسمية الإرهاب الإسلامي وتضخيم

خطره عبر وسائل الإعلام في محاولة لبث الخوف من خطر ما يسمى بتصاعد الأصولية الإسلامية الإرهابية، فاستُغِلَّت الأحداث لتشويه سمعة الإسلام رابطةً إياه بالإرهاب، وتخويف الناس منه من أجل تحقيق العداء له، فكان ضرب نظام طالبان بتهمة التطرف وممارسة الإرهاب إنما إخفاءً منها لهدفها الأعم والحقيقي المتمثل في ضرب الإسلام ومواجهته وتشويهه إلى حدّ التعميم أنَّ كل من يحمل صفة مسلم هو عدوّ للغرب(٣٥).

وهذا ما بات يُطلَق عليه في أيامنا بالإسلاموفوبيا، والتي تسعى إلى تعميم خطر المسلمين، وربط أي ظاهرة عدوانية بهم.

ويمكننا الاستنتاج أن الضمير الأخلاقي قد أصيب بأزمة إنسانية تمّ فيها وأد كل الضمائر الحية وتوقفت العقول عن التفكير العقلاني وذلك خدمة لمصالح أيديولوجية سياسية تتحكم بها العولمة بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية.

ويمكن أن نحمّل النظام العالمي بقيادة أمريكا المسؤولية عن نشوء الإرهاب المضاد المسمى بالإرهاب الانتحاري، الذي يجعل من موته سلاحاً خاصاً به، فالنظام الذي يعتمد الهيمنة والعنف يستدعي العنف كرد فعل مقابل له، ويولّد العنف المضاد، حسب مبدأ الفعل وردّ الفعل.

ولا نقرّ أن الأيديولوجيا هي السبب الأساسي للإرهاب، فالهجمات والحروب لا ترتبط بدين ولا ثقافة ولا حضارة، إنما العولمة هي في صراع دائم مع ذاتها؟

وكذلك فإن المسؤولية في حدوث العنف المعاصر يمكن أنْ نعزوها إلى العولمة التي يجعلها بعض المفكرين بمنزلة الحرب العالمية الرابعة التي يشهدها العالم المعاصر، والتي أدت إلى تلاشي القيم الكونية الإنسانية مثل حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، وأدت إلى تعزيز قيم العولمة، وقضت على خصوصيات الشعوب والثقافات، فالعولمة هي التي خلقت عدوها من صميم ذاتها، فمحاربة الإرهاب هي في النهاية محاربة العولمة.

وصفوة القول: إنّ أزمة الإنسان المعاصر هي أزمة قيمية أخلاقية بالدرجة الأولى؛ إذ يعاني الإنسان فيها من ازدياد مظاهر العنف بأشكاله كلها، وعلى الصعد كلها، ولا سيما مع تطور عصر المعلومات وسلطة الصورة، وهيمنة النظام العالمي والدول الكبرى على بقية الشعوب التي تؤدي إلى ضياع القيم وانهيارها.

الهوامش

(١)- هابرماس، يورغن، الحداثة وخطابها السياسي، ترجمة: جورج تامر، دار النهار للنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص٨٠.

(٢)- انظر: الإفريقي، ابن منظور ، لسان العرب، المجلد٩، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٩٩٧م، باب عنف، ص٢٥٧.

(٣)- انظر: معلوف، لويس، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الجديدة، ١٩٦٠م، مادة عنف.

(٤)- The oxford dictionnaire of engliche، new York، ٢٠٠٠، p١٤٤٥.

(٥)- انظر: لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلد٣، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط١، ١٩٩٦م، مجلد٣، ط١، ص١٥٥٤- ١٥٥٥.

(٦)- انظر: عمران، كامل، الموسوعة العربية، مجلد ١٣، مؤسسة الصالحاني للطباعة، دمشق، ط١، ٢٠٠٥م، ص٥٩٣-٥٩٤.

(٧)- انظر: الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م، ص٢٥٦.

(٨)- فيبر، ماكس، رجل العلم ورجل السياسة، ترجمة: نادر ذكرى، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص٣٩٢-٣٩٣.

(٩)- إيف ميشو: فيلسوف فرنسي متخصص في دراسة ظاهرة العنف، من أهم مؤلفاته: «كتاب العنف» الذي صدر سنة ١٩٧٣م، وكتاب «العنف والسياسية» الذي صدر سنة ١٩٧٨م، وكتاب «العنف المروض» سنة ١٩٩٦م.

(١٠)- انظر: أرندت، حنة، في العنف، ترجمة: إبراهيم العريس، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٩٢ م، ص١٤.

(١١)- أرندت، حنة، في العنف، ص٧٣.

(١٢)- انظر: الإفريقي، ابن منظور، لسان العرب، المجلد١، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٩٩٧م، باب رَهَبَ، ص٤٣٦.

(١٣)- انظر: معلوف، لويس، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الجديدة، ١٩٦٠م، ص٢٨٢.

(١٤)- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٤٠.

(١٥)- انظر: هوكنز، جويس. م، قاموس أكسفورد، مراجعة: محمد دبس وعمر الأيوبي، دار أكاديميا، بيروت، ١٩٩٨م، ص٥٩٧.

(١٦)- انظر: الحسن، إحسان محمد، علم اجتماع العنف والإرهاب، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٥.

(١٧)- انظر: الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج١، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١٩٩٠،٣م، ص٥٦.

(١٨)- انظر: الحسن، إحسان محمد، علم اجتماع العنف والإرهاب، ص٢٧.

(١٩)- انظـر: تومي، محسن، الإرهـاب والعنف، المالكون والمستأجرون، مجلـة كتابات معاصرة، العدد ٧٦، مجلة ١٩، ٢٠١٠م، ص٥١.

(٢٠)- انظر: التومي، محسن، الإرهاب والعنف، كتابات معاصرة، ص٤٨.

(٢١)- انظر: بن عمر، سالم، العنف والإرهاب، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ليبيا، ط٢، ١٩٨٨م، ص٣٠.

(٢٢)- انظـر: حرب، علـي، الإنسان الأدنى (أمراض الدين وأعطال الحداثـة)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٥٨-٦٠.

(٢٣)- انظـر: الخطيب، حسام، العالمية والعولمة من منظـور مقارن، مجلة عالم الفكر، المجلد٣٤، العدد١، ٢٠٠٥م، ص٩.

(٢٤)- انظـر: أدهم، سامي، ثقافـة التكنولوجيا: الواحد- الهوية- الفرد، مجلة كتابـات معاصرة، العدد٨٦، ٢٠١٢م، ص٢٤.

(٢٥)- بودريار، جان، عنف العالمي، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص٤٢.

(٢٦)- انظـر: الشريف، عابدين، الإعلام والعولمة والهوية: المؤثر والمتأثّر، المركز العالمي لدراسات أبحاث الكتاب الأخضر، ليبيا، ط١، ٢٠٠٦م، ص٨٥- ٨٧.

(٢٧)- بودريار، جان، عنف العالمي، مجلة الفكر المعاصر، ص٤٢.

(٢٨)- انظر: عباس، فيصل، العولمة والعنف المعاصر: جدلية الحق والقوة، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص٣٠٧- ٣١٢.

(٢٩)- انظر: المسيري، عبد الوهاب، والتريكي، فتحي، الحداثة وما بعد الحداثة، ص١٨٥- ١٨٦.

(٣٠)- انظر: الشريف، عابدين، الإعلام والعولمة والهوية، ص٧٦- ٧٧.

(٣١)- المصدر نفسه، ص٣٠.

(٣٢)- انظر: بورادوري، جيوفانا، الفلسفة في زمن الإرهاب، ترجمة: خلدون النبواني، ص٩٨- ١٠٨.

(٣٣)- انظر: لبيب، فخري، ما بعد ١١ أيلول وأثره على العالم، مطبوعات التضامن، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٧.

(٣٤)- تشومسكي، نعوم، أحاديث وحوارات قبل وبعد ١١ أيلول ٢٠٠١م، ترجمة: أحمد عبد الحفيظ الحافظ، دار الرضا للنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٢١.

(٣٥)- انظر: ماضي، أبو العلا، وآخرون، الإرهاب: جذوره، أنواعه سبل علاجه، أبحاث ندوة مكافحة الإرهاب لندن ٢٠٠٤م، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٦٠- ٢٦٨.

محور العدد

عولمة الإرهاب

هيثم توفيق العطواني

لعل ماركس كان محقاً في تحليله للواقع فيما يتعلق بالعنصر الدينامي في العولمة الرأسمالية، وهو أن انتصار الرأسمالية إنما هو «حفّار قبرها»، ففي كتاباته المبكرة نلمس ملامح تشخيص يكاد يقترب من الدقة، إذ ورد في البيان الشيوعي أن التثوير المتواصل للإنتاج والاختلالات غير المنقطعة للعلاقات الاجتماعية، واللايقين المستمر والبلبلة تميّز الحقبة البرجوازية من كل مراحل التاريخ، وكل ما هو ثابت ومتجمد من علاقاتها وأفكارها للاستعمال قبل أن يتحدد، وكل ما هو صلب يتحول إلى أثير، وكل ما هو مقدس قد تدنّس، وأصبح الناس مجبرين على مواجهة أوضاعهم الحقيقية وظروف معيشتهم وعلاقاتهم بالآخرين بأحاسيس واعية[1]. وقد تمخض عن هذا العالم الجديد وجود إنسان جديد، يستخدم طرقات الإعلام السريعة ويتعامل مع شبكات الاتصال المتعددة والفائقة، إنه الإنسان التواصلي الذي تتيح له التقنيات الرقمية التفكير والعمل على نحو كوكبي بصورة عابرة للقارات والثقافات، وقد أصبح العالم عبارة عن قرية كونية واحدة، وقد ارتبطت لفظة العولمة بمجالات متعددة سياسية، اقتصادية - إعلامية، وإنها موضع اختلاف بين الباحثين، والمؤسسات المتعددة، رفضاً أو قبولاً، وأدى هذا الاختلاف إلى الاختلاف في وضع تعريف شامل لها. ويشير مصطلح العولمة إلى العملية التاريخية الكبرى التي أثرت تأثيراً بنيوياً على كل المجتمعات المعاصرة، المتقدمة والمتأخرة.

شاع استخدام مفهوم العولمة Globalization في الأدبيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بشكل مكثف في بداية التسعينيات من القرن الماضي، فقد أشار قاموس أكسفورد إلى مفهوم العولمة للمرة الأولى عام (١٩٩١م) بوصفها من الكلمات الجديدة التي برزت حديثاً، وهذا لا يعني أن هذا لم يكن موجوداً في السابق، لكنه لم يكن يحظى بأي اهتمام من قبل.

كما يستخدم مفهوم العولمة للإشارة إلى التغيرات الكونية التي نجمت عن سقوط الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية، مع نهاية الثمانينيات، وقد أصبحت الشيوعية بلا مصداقية على الصعيد العالمي، «لم يعد البراكسيس» الماركسي اللينيني، يتمتع بالاحترام حتى بين أعضاء الأحزاب بوصفه دليلاً صحيحاً بشكل شمولي في عملية إعادة البناء الاجتماعية، ومن ثمَّ فإن آفاق التقدم للشيوعية باتت مسدودة»[٢]، هذا ما أشار إليه بريجنسكي مبشراً بإخفاق التجربة الشيوعية وبالانتصار الكبير للرأسمالية، على حد زعمه، ومعنى ذلك أن هذا الخبير الأمريكي يقدم المنظور الأمريكي للعالم أولاً وقبل كل شيء، هذا يقودنا إلى ما أشار إليه غرامشي يوماً أنه لا ضرورة أن يكتب رجل السياسية كتاباً في الفلسفة لأن فلسفته الحقيقية تقوم في ممارسته السياسية، وإن ما ذهب إليه بريجنسكي إنما هو صورة لفكره وممارسته ومنظوره للعالم قبل أن يكون كتاباً يبحث عن حقيقة تاريخية، وعمل على أن تقدم أمريكا التي تملك (٦٥٪) من المادة الإعلامية العالمية نموذجاً كونياً للحداثة، وانتشرت الحداثة الأمريكية على مستوى العالم بسرعة كبيرة في الأوساط المختلفة، في حين بدأت الأيديولوجية «السوفييتية» التي اعتمدت منطق الدبلوماسية والشعارات الجامدة بالضمور يوماً بعد آخر ثم تلاشت بمفاهيمها الاشتراكية إبان الشروع في إصلاحها لتحل محلها ثورة المعلومات. وقد أصبحت ظاهرة العولمة حقيقة تاريخية تمثل انعكاساً للنظام الرأسمالي الذي أصبح هو النظام الأكثر سيادة، ولكن هذا لا يعني سقوط الماركسية كأيديولوجية، وأداة بحثية، لأن النظم السياسية إذا كانت تسقط، فإن الأيديولوجيات بوصفها أنساقاً مترابطة مع القيم التي تتعلق بالتطور الاجتماعي، ربما تضعف، وقد تتوارى، لكنها لا تسقط، الماركسية تطمح إلى تحقيق الحرية الإنسانية، في إطار من العدالة الاجتماعية الشاملة، وهي المعبِّر الأساسي عن شوق الإنسان إلى العدل، وتحقيق الحلم بالحرية والسعادة والازدهار.

ما العولمة؟

ظهر هذا المفهوم في أدبيات العلوم الاجتماعية بوصفه أداة تحليلية لمحاولة فهم عمليات التغير في مجالات كثيرة، لكن العولمة «ليست محض مفهوم مجرد، فهي علمية مستمرة يمكن ملاحظتها باستخدام مؤشرات كمية وكيفية في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والاتصال»[٣]، ويرى آخرون، أن هناك أربع عمليات أساسية للعولمة وهي: المنافسة بين القوى العظمى، والابتكار التقاني «التكنولوجي»، وانتشار عولمة الإنتاج والتبادل والتحديث، ومن أبرز العوامل المهمة، ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات في العقود الأخيرة من القرن العشرين التي أسهمت في إحداث تغيرات جوهرية في المجتمع والثقافة، فقد حولت ثورة الاتصالات العالم إلى قرية معولمة، تقوم فيها وسائل الاتصال بدور كبير في نقل الأفكار والخبرات من ثقافة إلى أخرى، مما يسهم في تغيير أساليب الحياة الاجتماعية. ومن الجائز رد ظاهرة العولمة إلى حركة الإيقاع السريع التي باتت تجسد روح العصر مما جعل الحاجة ملحة إلى نحت مصطلح جديد لمفهوم كان مخفياً في التفكير سمي بالعولمة Globalization أو الكوننة Mondialisation وأن أول من أطلقه معرفياً عالم الاجتماع الكندي «مارشال مالك لوهان» إبان صياغة مفهوم القرية الكونية global village في نهاية عقد الستينيات[٤] وربما من الجائز القول إنَّ ظاهرة العولمة تمثل مرحلة متقدمة من مراحل تطور النظام الرأسمالي وتسعى إلى تصدير القيم والمؤسسات والثقافات الأخرى، وهي مرتبطة بمنطق وآليات السوق والإنتاج الاقتصادي من خلال ارتكازها على المؤسسات الاقتصادية والتجارية وما تؤدّيه من دور مهم في تسويق الظاهرة والسعي إلى إزالة القيود التجارية سعياً إلى إزالة الحدود الفاصلة، وفرض نموذج محدد من نمط الحياة التي تقررها الحضارة الغربية بهدف السيطرة على العالم.

ويرى بعضهم أن العولمة هي الصورة الرديئة لظاهرة العالمية، وذلك بقدر ما تشكل العالمية مطمعاً أصيلاً ومشروعاً لكل الأعمال الأدبية والفنية والإنسانية المتميزة التي تستطيع أن تتجاوز حدود الزمان والمكان، مثل الفن المصري، وفن عصر النهضة وأعمال شكسبير ودوستويفسكي و....»[٥]. إذ هناك أربع عمليات أساسية للعولمة المنافسة بين القوى العظمى، والابتكار التكنولوجي، وانتشار عولمة الانتشار والتبادل والتحديث.

إضافة إلى إفرازات المجتمع الاستهلاكي الغربي والأمريكي، ولا سيّما بعد هيمنة نظام السوق على العلم المتقدم وتفرد الولايات المتحدة بالهيمنة على مصير البشرية بعد انهيار المنظومة الاشتراكية.

ويجمع نظـام العولمة بين المتناقضات: إنه وبوصفه نظامـاً اقتصادياً وسياسياً يسعى إلى توحيد السوق على مستوى العالم، وتنميط معظم بلدان العالم سياسياً بتحويلها إلى نظام الليبرالية أو الرأسماليـة، ويبرز هذا واضحاً مما تتخذه الولايـات المتحدة الأمريكية والدول الغربية من الضغـوط اللازمة للإعانات الاقتصادية والقروض المالية أو صندوق النقد الدولي، وغالباً ما تقترن هذه العلميات بشروط الإصلاح المالي وخصخصة الشركات الكبرى، وكذلك بشروط ذات طابـع سياسي، مثل الحد من هيمنة الدولة، لكي يسهل التعامل معها، وسيطرة الشركات العابرة للقارات على الشركات المحلية، كما يسعى نظام العولمة من جهة أخرى إلى العمل على تشجيع الاختلافـات الثقافية وتأكيد الهويات العرقيـة، فيما يبدو أنه مساندة لحقوق الأقليات وتشجيع التنـوع والتعدد، ودعـوة إلى إقامة الحوار البنـاء بين ثقافات شعوب العالـم، أي تأكيد النظام الاقتصادي الحر والديمقراطية الليبراليـة الجديدة كأفضل نظام أفرزته البشرية بعد وصولها إلـى «نهايـة التاريخ، حسب زعم فوكويامـا، الذي بشر بنهاية الأيديولوجيـات وأنه ينذر ويهدد بهيمنة قسمة معرفية وإستراتيجية جديدة تتعدى السياسة الدولية إلى الكينونة الأنطولوجية. إذ إنَّ العالـم، حسب زعمه، سيغدو عالمين، «أحدهما لا يزال أسير التاريخ، ويصعب تحرره منه أو يكاد ميؤوساً منه، والآخر قد أنجز رحلة التاريخ كلها، وفك أسره من حتميته الصارمة»(٦).

إن تقسيـم العالم بيـن تاريخي وما بعد تاريخـي، يمهد إلى نوع مـن القطيعة الصارمة فـي صميم الكيان الإنسانـي، تخرج معظم أو بقية العالم من تصنيـف البشر القادرين على الاعتراف بهم، ومن ثمَّ سيسوِّغ حرمان هؤلاء البشر من إمكان تجاوز القطيعة، وتخطي الدورة التاريخية، والوصول إلى حالة التطابق بين المثال والواقع، تلك الحالة التي تغدو استثناءً تمييزياً أعلى لا يناله إلا أولئك المُعَدّون له، سلفاً، لكسر الحلقة التاريخية وبلوغ الكمال الأخير.

قـرأ فوكويامـا تاريخ المجتمـع والفكر الغربيين مـن خلال روح الديالكتيـك الهيجلي، لتأكيـد فكرة محددة مسبقاً لديه وهي: أننا نعيش بعد نهايـة الماركسية والأنظمة الشمولية totalitaire اكتمـال الحداثـة، من حيث هي مطلـق متحقق في النمـوذج الليبرالي بقيمه الديمقراطيـة والرأسمالية، و«كلما اقتربـت الإنسانية من نهاية الألف الثانية فإنه يُلاحظ أن الأزمتين المزدوجتين للتسلطية والاشتراكية لم تتركا في ساحة المعركة إلا أيديولوجيا واحدة محتملـة ذات طابع شمولي، هي الديمقراطية الليبرالية، عقيـدة الفردية والسيادة الشعبية، فبعـد مئتي سنة من إطلاقها للثورتين الأمريكية والفرنسية، برهنت مبادئ الحرية والمساواة ليس على أنها دائمة فحسب، بل أيضاً أنها تستطيع أن تنبعث من جديد»(٧).

ليست فكرة نهاية التاريخ فكرة جديدة، فقد كان كارل ماركس الذي اعتقد بأن اتجاه التطور التاريخي اتجاه غائي هادف يتحدد بتفاعل قوى مادية ولن يصل إلى نهايته إلا بعد تحقيق اليوتوبيا الشيوعية التي من شأنها أن تحل أخيراً سائر التناقضات السابقة، وأن مفهوم التاريخ بوصفه سيرورة ديالكتيكية ذات بداية ووسط ونهاية كان ماركس قد أخذها عن هيجل، وقد أشار هيجل أيضاً إلى أن التاريخ قد انتهى تحققه ووصل إلى محطته الأخيرة في ذروة الدولة البروسية، بعد الثورة الفرنسية التي أنهت تاريخ الإقطاع الأوروبي وبدأ تاريخ البورجوازية الأوروبية - العالمية، وحتى الرئيس الأمريكي الراحل جون كندي أشار إلى نهاية الأيديولوجية، وكان يتابع في ذلك بعض مفكري زمانه، وربما مستشاريه عندما أشار إلى «أن زمن الأفكار الكبيرة قد انتهى، وأنّ لا مجال هناك إلا لبعض الإصلاحات الاقتصادية والإدارية والسياسية، أي إنَّ النمو والتقنية سيحلان محل الأيديولوجية»[٨]، لكن ألا يمكن عدّ النمو -مثل التقنية- أيديولوجيةً.

كان كلام «هيجل» حول نهاية التاريخ مأساة، وكلام فوكوياما، حول نهاية التاريخ مهزلة، فقد ربط هيجل مقولته عن نهاية التاريخ بانتصار جيش نابليون الفرنسي على بروسيا في معركة يينا (١٨٠٦م)، إذ تجسدت الروح المطلقة، الفكرة المطلقة في هذه المعركة، وقد رأى هيجل في نابليون، المحقق العظيم الأول لمفهوم نهاية التاريخ، إذ أخضع أوروبا لسلطانه، «لقد كان «نابليون» وكان «التاريخ» عقلاً قوياً، تقضي له إرادة من حديد تصنع الرجال والحوادث»[٩].

أما فوكوياما فقد ربط مقولته عن نهاية التاريخ بما يراه من عظمة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اعتلت العالم، وسعت لأمركته، فالديمقراطية الأمريكية هي التي وضعت نهاية للتاريخ وقد امتثل التاريخ كفكرة في العقل الأمريكي المهيمن، المعولم، ويؤكد فوكوياما أن الدولة التي تظهر آخر التاريخ هي ليبرالية بالقدر الذي تعترف فيه وتقوم بحماية حق الإنسان في الحرية بوساطة نظام من القوانين، وهي ديمقراطية بقدر ما يرتبط وجودها برضا المحكومين، وإن روح المساواة في الولايات المتحدة الأمريكية تشكل في العمق تحقيق المجتمع الخالي من الطبقات الذي سعى إليه ماركس. إن الإمبريالية في الوقت الذي تصنع فيه قاعدتها الاقتصادية الضخمة، تصنع بالتساوي معها الأسس والمعايير الثقافية التي تبارك كل خطوة من خطواتها وتشرع سياساتها وتؤكد مشروعيتها في كل أنحاء العالم، مجسدة حقيقة الروح المطلقة.

يقول الأمريكيون عن أنفسهم إن غايتنا هي «ضمان تماسك مجتمعنا الحر وحيويته، هذا المجتمع القائم على الكرامة والجدير بالفرد»[١٠] مع حماية هذه القيم في العالم كله.

قسم فوكوياما، بشكل تعسفي غير منصف، العالم إلى عالم منتج للتكنولوجيا وعالم يستهلك منتجاتها، ويبدو هذا التقسيم هو المميز للعلاقات الدولية، مدّة معينة، ويعتقد فوكوياما أن العلم هو الذي سيقود إلى انتشار الديمقراطية الليبرالية في أنحاء العالم، لأن التكنولوجيا والعلوم من أهم شروط نجاح الرأسمالية وأن التقدم الاقتصادي غير ممكن في ظل غياب الديمقراطية، «العيب الوحيد البارز هو منطقة الشرق الأوسط التي ليس فيها أيضاً ديمقراطيات مستقرة، في حين تحوي عدداً كبيراً من الدول إذ المداخيل الفردية تصل إلى المستويات الأوروبية، ولكن النفط يفسر كل شيء: فالمداخيل النفطية سمحت لدول مثل السعودية والعراق وإيران والإمارات العربية أن تحصّل الدلائل الخارجية للحداثة. سيارات، فيديوهات، طائرات حربية... دون أن تتلقى مجتمعاتها التحولات الاجتماعية الضرورية لبناء ونحت مثل هذه الثروة»[١١].

تجليات العولمة

للعولمة تجليات كثيرة، اقتصادية وسياسية وثقافية واتصالية، وتكنولوجية، حيث إنَّ التكنولوجيا بأدواتها ومنجزاتها المتطورة تنتج قيماً جديدة على أنقاض القيم القديمة التي في طريقها إلى الزوال، إنها قيم السوق، والتبادل، وقد تحول هذا الفضاء برمته إلى مسرحٍ للدعاية ووسائل الإعلام السريعة، ولم يكن هناك شكل واحد أو صورة واحدة للعولمة، «بل هناك صور كثيرة متباينة، وكل صورة من هذه الصور عولمة بحد ذاتها، فهناك عولمات كثيرة، عولمة في مجال المعلومات والمخدرات والأوبئة والبيئة، والمال، وما يزيد الأمر تعقيداً، أن العولمة صارت تتعاظم في المجالات المختلفة بسرعة متباينة»[١٢].

وقد برزت التجليات الاقتصادية من خلال نمو وتعمق الاعتماد المتبادل بين الدول والاقتصادات القومية، وفي وحدة الأسواق المالية، وفي تعمق المبادلات التجارية وإنشاء منظمة التجارة العالمية، ونتج عن التجليات الاقتصادية «مشكلة أزمة الدول القومية» وتأثير العولمة في مفهوم وتطبيقات فكرة «السيادة الوطنية»، إضافة إلى بروز إشكالية حول دور الدولة في ظل العولمة الاقتصادية إضافة إلى ظهور أسئلة حول صلاحية نظام حرية السوق

ليكـون أساسـاً للتنمية في مختلف بـلاد العالم، والمخاطر التي يمكـن أن تنجم من التنمية وحيدة البعد التي عمادها الرئيسي الجانب الاقتصادي فحسب.

وأصبحـت الأسواق المالية تسيِّرها الإلكترونيـات التي تتداخل وتتوحد على نحو يتجاوز حـدود الـدول والأوطان، فما من دولـة اليوم، أيـاً كان شأنها، قادرة علـى ضبط العلميات ضمـن حدودهـا، «الأمر الذي يجعل الـكلام على اقتصاد وطني أو قومـي يمت إلى مرحلة سابقة»[١٣].

ومن تجليات العولمة التي تفرض نفسها:

العولمة الثقافية

طالـت العولمـة الثقافية بما هي منظومة من الرموز والقيـم يضفي الإنسان من خلالها معنـى على وجوده كل تفاصيل حياة الإنسان، فالثقافات بمـا هي مرجعيات للدلالة وأنماط للوجـود والحياة، ولا سيّما بكل أمـة أو دولة أو مجتمع «تجد نفسهـا الآن عارية أمام تدفق الصور والرسائل والعلامـات التي تجوب الكرة على مدار الساعة، وإن وسائل الإعلام تصنع الآن خيـال الإنسان، فالمرء الذي تحـول إلى مستهلك ثم إلى مشاهـد، تَعْمُر مخيلته نجوم الشاشة ولاعبو الكرة وعارضات الأزياء ومصممو الحواسيب»[١٤].

أصبحنا أمام نمط واحد يطغى على أنماط الحياة وأنظمة الثقافة المختلفة يتيح لبعضهم أن يتحـدث عـن «انتصار نموذج كونـي»[١٥] يتجاوز تعداد العوالم نحـو عالم واحد ذي نمط موحـد، فالعالم يتشكل اليوم بطريقـة مختلفة وبقوى جديدة، الأمر الـذي يعني أن الثقافة أخـذت تتغير، من حيث أطرهـا ومضامينها، أو من حيث آليات تشكلهـا والقوى التي تسهم فـي إنتاجها واستهلاكها، وهكذا أصبحنا أمام إمكانات جديدة، للوجود والحياة والثقافة هي عصـارة كل عصر، وتمثل تعبيراً عن توجهاته، إنها مدعوة اليوم، أكثر من أي وقت مضى إلى القيـام بدور فائق النشاط تحليلاً ونقداً، وتفكيـراً وتبصراً. ففي المرحلة التي تتعرض فيها لحالـة الحصار المتنامي من ثقافة الصورة، والثقافـة الأصولية، يتعين تحديداً أن تعود إلى احتلال نقطة المركز»[١٦].

هنـاك دورٌ ملحٌ ومصيـريٌّ لا بد أن تتخـذه الثقافة على صعيد جلاء آثـار وأبعاد حالة الانشطار ما بيـن الثقافتين اللتين تحاصرانها. وضرورة التصدي بالنقد لما يسمى ثقافة ما بعـد المكتوب، إذ ظهرت هذه الثقافة بعد تراجع الثقافة المكتوبة، إنها ثقافة الصورة، ثقافة

استطاعت أن تترك الأثر الكبير عبر تحطيم الحواجز اللغوية بين المجتمعات الإنسانية، وتطوير التقانة ما ساعد على انتشار ثقافة الصورة خارج البلدان التي صدرتها، وتشكلت إمبراطوريات إعلامية مهمتها تصدير ثقافة الصورة بالنظام السمعي البصري، وأخذ هذا النظام ينتشر بسرعة بسبب العزوف عن القراءة. إضافة إلى السهولة التي يمكن أن تنشر بها الشركات والأفراد المعلومات عبر الإنترنت وفق المفهوم الكامل لكلمة «نشر» كما رسَّخه الإنترنت، دون مساعدة من أي طرف، «وهي تملك ما يكفي من المستخدمين لكي تفيد من دورة التغذية المرتدة، فكلما زاد عدد مشتركيها، زاد المحتوى الذي تتضمنه، وكلما زاد المحتوى الذي تتضمنه زاد عدد المشتركين المنضمين إليها»[١٧].

ومن الجدير الإشارة إلى أن التبادل الثقافي العالمي الحالي هو تبادل غير متكافئ وهو تبادل بين ثقافات متقدمة تمتلك إمكانيات واسعة وثقافات أقل تقدمية في الوعي ولا تمتلك الإمكانات نفسها، من هنا يسمي بعضهم هذا النوع من التبادل الثقافي بالغزو والاختراق، فقد شكل الغزو الثقافي إحدى القضايا الإشكالية الأساسية، عبر طرح الأسئلة هل نحن بصدد هيمنة وغزو، هل نحن بصدد هيمنة وغزو من عقلانية الغرب؟ أو إزاء فرصة الدخول في التاريخ الديناميكي بدءاً بالتنوير ووصولاً إلى ما بعد الحداثة في مختلف تجلياتها؟ ويبدو أن المسألة لم تعد قضية غزو ثقافي وفكري غربي للعالم الثالث، «بل غزواً للكون وفي مقدمته الغرب نفسه الذي نتصارع معه، فنتلاقى ونختلف، فمن جانب، نحن بصدد ملف اصطياد الكرة الأرضية بمن عليها من خلال مشروع التنميط الثقافي الكوني الذي تشكل الثقافة الإلكترونية وقوتها التكنولوجية حالته الجديدة»[١٨].

ثقافة الصورة والبلاغة الإلكترونية تجوب أصقاع الكون، خالقة فرصاً معرفية غير مسبوقة في تاريخ البشرية، إنها ثقافة تتوسل لغة جديدة وأبجدية جديدة هما اللغة «الصورة، وأبجدية الحواس»[١٩]. مما يثير قلقاً كبيراً بتشكيل قطيعة فعلية مع الثقافة المكتوبة وعقلانيتها.

ويعتقد بعضهم أنه ليس صحيحاً أن العولمة الثقافية هي الانتقال من حقبة، ومن ظاهرة، الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة هي الثقافة العالمية أو الثقافة الكونية، على نحو ما يرى أنصار فكرة العولمة الثقافية، بل إنها «فعل اغتصاب ثقافي وعدواني رمزي على سائر الثقافات، إنها رديف الاختراق الذي يجري بالعنف، المسلح بالتقانة، فيهدر سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها عملية العولمة»[٢٠].

ولابــد من التفريق بين التناقض والعنف الثقافي من جانب واحد، إذ يعني الأول الإصغاء المتبــادل من سائر الثقافات بعضها إلى بعض، كما يعنــي الاعتراف المتبادل بينها، وأهمها الاعتــراف بحق الاختلاف، في حيــن ينطوي الثاني على الإنــكار والإقصاء لثقافة الآخرين وعلــى الاستعلاء والمركزية الذاتية، فالأول يرادف معنى الحــوار والتفاهم، في حين يتلازم الثاني مع الإكراه والعدوان. ولا بد أن يجري التناقض على أرضية الندية.

وعمليــة الترويج لمفاهيم مثــل التفاعل الثقافي، وحوار الحضـــارات، والتبادل الثقافي، تنتهــي إلى أن ثقافة المركزية هي التي يجب أن تسود، وأن الثقافات الأخرى عليها أن تحذو حــذو المركــز لكي تقترب منــه، وأن مجابهة مثل هذا التيار لا بد مــن أن تتم عبر الاهتمام بالخصوصية الثقافية والحفاظ عليها، لأن ما تقوم به العولمة الثقافية التي تندرج تحتها مثل هذه المفاهيم هو إذابة الثقافات الأخرى، وتعميم ثقافتها.

وبحسب مــا يعتقد هنتغتون، فإنَّ رموز الهوية أصبحت أشيــاء يعتد بها ولها فعلها، مثل الأعلام، والصليب، والهلال، وحتى غطاء الرأس «لأن الثقافة لها أهميتها ولأن الهوية الثقافية هي الأكثر أهمية بالنسبة إلى معظم الناس، واستناداً إلى ذلك فإن كتابه، صدام الحضارات، يؤكــد أن: «الثقافة والهويات الثقافية التي هي على المستــوى العام هويات حضارية، تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة»[٢١]، والناس يعرفون نفسهم مــن خلال النسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعــادات والمؤسسات الاجتماعية، ويعتقد هنتغتــون أن الغرب الآن هو أقوى الحضارات، وهذا يؤدي، حسب زعمه، أن تنتقل قوة الغرب إلــى الحضارات غير الغربية، وأنه ينتقد أطروحــة فوكوياما التي تؤكد انتصار الديمقراطية الغربية بوصفها الشكل النهائي للحكومة الإنسانية، ويعدّها، ليست أكثر من أوهام، بدليل ظهور صراعات عرقيــة وانهيار النظام والقانون، وانبعاث تحالفات جديدة وظهور حركات شيوعية وفاشية جديدة، واتساع الأصولية الدينية، وعجز الأمم المتحدة عن كبح الصراعات الدموية، وبــدأت تظهر لدى الناس تقسيمــات الشرق والغرب، المركز والمحيــط، الشمال والجنوب، الدول الغنية والدول الفقيرة، فالعالم غارق في فوضى تفكك الدول، واتساع نطاق الصراعات القبليــة والعرقية والدينية وظهور المافيا الإجرامية الدولية، وزيادة أعداد اللاجئين بعشرات الملايين، وانتشار الأسلحة النووية وانتشار الإرهاب وتفشّي المذابح»[٢٢]، في ظل هذا الوضع يريد من ينتصر «للعولمة الثقافية» أن يعمم ثقافة أمريكا على العالم، في الوقت الذي توصف فيه الثقافة الأمريكية على أنها «نفاية الثقافات، وثقافة النفايات»[٢٣].

العنف والإرهاب الدولي

وبإمكاننا التحدث عن التجليات السياسية للعولمة التي تبدت في سقوط الشمولية والسلطوية، والنزوع إلى الديمقراطية والتعددية السياسية، وظهور مشكلة ازدواجية المعايير فيما يتعلق بحقوق الإنسان وقواعد تطبيقها، بسبب الهيمنة الأمريكية على الأمم المتحدة ومجلس الأمن والاستخدام الفاضح لفكرة التدخل، والذي يصل في ذروة صَلَفه إلى إصدار قرارات باسم الشرعية الدولية، لحصار الشعوب...، وضرب الأعراف والقوانين الدولية بالحائط، عندما تتعارض مع مصالح الدولة الأقوى. وربما تكون الأعراف الدولية ليست محددة بصرامة، لكن، هناك اتفاق على خطوط عامة، بيد أن الولايات المتحدة تعد نفسها معفاة من هذه الأعراف والشروط، منذ نهاية الحرب الباردة، وقد بينت الرسالة الإخبارية للجمعية الأمريكية للقانون الدولي، التي أعدّت في شهري آذار، نيسان من عام (١٩٩٩م) «أنَّ القانون الدولي هو اليوم على الأرجح أقل احتراماً في بلادنا من أي وقت مضى في هذا القرن»[٢٤]، وحذَّر محرر صحيفتها المحترفة من الاستفحال المرعب لرفض واشنطن لإلزامات المعاهدات الدولية، وقد أدى الدعم الأمريكي العسكري للعدوان الأندونيسي في أثناء غزوه تيمور الشرقية عام (١٩٧٥م)، إلى مقتل (٢٠٠) ألف في بضع سنوات، ووُصِفَ الجنرال سوهارتو المجرم، من إدارة كلنتون، بأنه «الشخص الذي نريده»[٢٥]، وهو الذي أشرف على مذبحة رواندا (١٩٦٥م)، ودُعم غيره من المجرمين في أثناء ارتكابهم أعمالاً وحشية أكثر سوءاً. ولا يتغير الوضع إلا حين تُعصى الأوامر أو يساء فهمها، وهناك سلسلة من الأمثلة، تروخيو، موبوتو، ماركوس، نورييغا، »ليس للجريمة عواقب كبيرة، أما العصيان فنعم»[٢٦]. وكل هذا وغيره، أدى إلى بروز ظاهرة العنف في العلاقات الدولية، وتقتضي الضرورة العملية والمعرفية، التصدي بالبحث عن إجابات لمجموعة من الأسئلة المشكلة، مثل: لماذا العنف في العلاقات الدولية؟ وبأي معيار يمكن التمييز بين مختلف أشكاله؟ وعلى أي أساس يمكن الإقرار أن هذا العنف ممكن وضروري، وذلك محرم ويتعارض مع الشرعية الدولية؟ هل من المبالغة في شيء الحلم، والعمل من أجل عالم خال من العنف؟ أم أن العنف محايث لديمومة البشرية؟ هذه وغيرها من الأسئلة، ذات الطابع الإشكالي، تفرض نفسها باستمرار، وكلما تجدد التساؤل عن المجتمع الدولي وطبيعة قواعده، ومؤسساته واستمرار العنف بين أركانه، اشتدت الحاجة إلى ضرورة محاولة فهم الجذور والبنى الأساسية التي كمنت وراء نشوء وتبلور هذا النظام الدولي بشكله الحالي القائم على

العنف، والذي يؤدي إلى الإرهاب بطبيعة الحال، فالعنف ليس معطى خارج التاريخ، إنه بالضرورة ظاهرة لها منطلقاتها وأبعادها، «إنه وليد مجتمع قديم حامل بمجتمع جديد، أو الأداة التي تشق بمساعدتها الحركة الاجتماعية طريقها وتحطم الأشكال السياسية الميتة المتحجرة»(٢٧).

أصبح موضوع الإرهاب الدولي من أكثر الموضوعات إثارة للجدل ضمن التحليلات الحديثة في علم العلاقات الدولية، وذلك بسبب الحضور الطاغي لأشكال الممارسات الإرهابية التي تجاوز آثارها الحدود الوطنية لتصبح ظاهرة لا يستطيع أحد أن يكون بمنأى عنها، سواء المعتدي أم المعتدى عليه، أي إنها تطال كل أعضاء المجتمع الدولي، وإن بعض الدول تسعى إلى توظيف هذه الظاهرة كسلاح في عملية الصراع الدائر عبر تقاطع المركز والأطراف، وإن توجيه التهم بدعم الإرهاب أصبح المسوغ الأرأس للممارسة الفعلية للإرهاب، «فالإرهاب يتجلى، في استخدام العنف، غير القانوني، أو التهديد به، بأشكاله المختلفة كالاغتيال والتشويه والتعذيب والتخريب والنسف، بغية تحقيق هدف سياسي معين مثل كسر روح المقاومة والالتزام عند الأفراد وهدم المعنويات عند الهيئات والمؤسسات أو كوسيلة من وسائل الحصول على معلومات أو مال، وبشكل عام استخدام الإكراه لإخضاع طرف مناوئ لمشيئة الجهة الإرهابية»(٢٨).

وأبرز الأمثلة على الإرهاب الرسمي هو الإرهاب الصهيوني، وإرهاب حكومة جنوب إفريقيا العنصرية، وإن الإرهاب الرسمي الصهيوني وسواه يستجلب رداً مماثلاً في كثير من الأحيان، والإرهاب الصهيوني، الذي يستخدم العنف والإكراه بطريقة غير مشروعة لمحاولة تحقيق أهداف غير عادلة، يمتد بجذوره إلى العقيدة الصهيونية، وإلى الأهداف التي حددتها الصهيونية منذ نشأتها التنظيمية، وإلى طبيعة الأهداف الإمبريالية التي من أجلها قام الغرب بتشجيع الفكرة الصهيونية والتي تتلخَّص بالتآمر على نهضة الجماهير العربية وتحررها، فالصهيونية، من حيث هي حركة استيطانية، قامت على أساس استقدام اليهود إلى فلسطين، وإنشاء مستوطنات على الأراضي العربية، وبناء قوة مسلحة، مدعومة من الإمبريالية العالمية، ضمن خطة، لإجلاء عرب فلسطين بالقوة، وقد بدأ الإرهاب الصهيوني مع الغزو الصهيوني في أواخر القرن الماضي ومازال مستمراً باستمرار ذلك الغزو.

وعندما أشاعت القوى الاستعمارية والصهيونية هذا المصطلح «الإرهاب الدولي» وتحدثت عنه في سياساتها ومواقفها، خلطت فيه الإرهاب الإجرامي بنضال الشعوب في سبيل تقرير مصيرها وكفاح الجماعات ضد الظلم الاجتماعي، وقد أحدث هذا الخلط المقصود تشويشاً في منهجية معالجة شؤون الإرهاب الدولي بتعاريفه، ومفاهيمه ومنظماته وعملياته والأسباب الكامنة وراءه والتدابير لمكافحته، ولاتزال قضية وضع تعريف متفق عليه لظاهرة الإرهاب الدولي من المشاكل المستعصية على الحل، وإذا كان الاختلاف على المستوى الفكري مرتبطاً بالخلفية الأيديولوجية للمفكرين الذين اهتموا بالظاهرة، فإن الاختلاف على مستوى التنظيمات الدولية ولا سيّما منظمة الأمم المتحدة ليس إلا انعكاساً لمظاهر الصراع ضمن المحاور الجديدة للمواجهة، وثمة أكثر من دولة أو جهة صاغت تعريفاً يعبر عن وجهة نظرها، حتى إنَّ بعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية تتبنى أكثر من تعريف واحد في الوقت نفسه خدمة لأغراضها السياسية، ولم تتفق الموسوعات والمعجمات الأجنبية أيضاً على تعريف «الإرهاب الدولي» وإن تحدثت عن بعض ملامحه، ويشير شميدت في آخر مؤلف له عن «الإرهاب السياسي» إلى أنه عثر حتى عام (١٩٣٨م) على (١٠٩) تعريفات تتفاوت تفاوتاً كبيراً فيما بينها»[٢٩].

وقد ظهر في القرن العشرين في أوروبا مفكرون وفلاسفة أسبغوا الشرعية على العنف، رداً على حالة القهر والاستلاب الذي يمارسه المجتمع الاستهلاكي الرأسمالي تجاه الفرد، وقد وصف هربرت ماركيوز نظام المجتمعات الصناعية المتقدمة بالعدو، وسوَّغ الاستعانة بالوسائل غير المشروعة، إن لم تُجدِ الوسائل المشروعة في مواجهة مظالم ذلك النظام، وهو يرى أن العنف ضروري، وهو أحد أهم عوامل تغيير المجتمعات، وأن الرأسمالية بوحشيتها واستلابها لحقوق العمال ستقود حتماً إلى العنف والثورة «وكلما كان الوضع الذي ظل سائداً هو سلبية شاملة، فإن تغييره يقتضي ثورة شاملة، تقلب كل الأوضاع السائدة، وتؤدي إلى الاستعاضة عنها بنظام شامل»[٣٠].

يعد ماركيوز العنف الأداة المحركة للمجتمع، وهو ما يطلق عليه «العنف التطوري البنَّاء» لأنه يقوم على مبدأ العنف المضاد كرد فعل على القمع والتسلط الممارس على الأفراد «والطغيان يدمج الأفراد عن طريق إنكارهم، والذي يحدث هو أن الناس يتمردون على حكم الطغيان ويقضون عليه لأن الطغيان وضيع ومقيت، ولكن السبب الحقيقي هو أن الطغيان قد استنفد أغراضه»[٣١].

فالعنف المسوّغ لدى ماركيوز هو العنف الثوري التحرري، في حين العنف غير المشروع الذي يرفضه إنما هو العنف السائد الذي يصدر عن السلطة المستبدة التي تمارس التسلط وتستخدم القوة.

إذن، لقد أصبحت كلمة «الإرهاب» مصطلحاً متداولاً في الخطاب السياسي المعاصر وكانت أوروبا هي الموقع الذي انتشرت به هذه الكلمة وبها اتخذت معاني كثيرة، استمدتها من الفلسفات التي استخدمت الإرهاب وسيلة، ومن الحركات والمنظمات والجماعات التي استخدمت هذه الوسيلة سواء في أوروبا أم أمريكا. ويمكن القول إنّ فلسفة الإرهاب واحدة في جميع الحالات، فهي تهدف إلى قتل أو تدمير المؤسسة التي يعتقد الإرهابي أنها العدو، غير أن الأسباب المؤدية إلى استخدام العنف في بلوغ الهدف يختلف بعضها عن بعض، اختلافاً يؤدي إلى نشوء أكثر من شكل من الإرهاب.

وقد ارتبط الإرهاب الدولي بأزمة بنيوية في النظام العالمي.

فكان «البعبع» الأول هو الخطر الشيوعي، وكان في أساس النظريات التي سادت منذ نهاية الحرب وعهد الرئيس ترومان إلى منتصف السبعينيات ونهاية عهد الرئيس نيكسون، ومع نهاية عهد نيكسون، بدأت الولايات المتحدة تدرك أن «الخطر الشيوعي» بدأ يفقد جديته أو مصداقيته، ولم يعد يقنع أحداً، ولم يعد قادراً على أن يسوّغ للولايات المتحدة تدخلاً، وفي عهد كارتر، خُلِق مسوّغ آخر أو بعبع آخر، هو «انتهاك حقوق الإنسان» وكان اختيار هذا البعبع متلائماً ومنسجماً مع استقرار موازين الرعب الثوري والردع الأقصى المتبادل. وأدرك العالم كله أن دفع الأمور على نحو قد يجلب مواجهة بين موسكو وواشنطن يؤدي بشكل حتمي إلى الدمار الشامل، فكان لا بد أن تكون إستراتيجية التدخل سلمية، وكان يمارس على العالم الثالث ضغطاً شديداً، لكن هذا الضغط كان انتقائياً، فلم تكن العقوبات المبنية على قيام الدول بانتهاك حقوق الإنسان تُوقّع إلا على الدول التي لا تسلم للولايات المتحدة بـ «مصالحها القومية» غير المحددة وغير المحدودة، في حين تغمض واشنطن عينيها، وتدعم من ينتهكون الحقوق نفسها من بين حلفائها وأصدقائها الموالين لها، في كوريا الجنوبية وتايوان والفيلبين والسلفادور... إلخ.

الهوامش

(١)- راجع، ماركس وأنجلس، بيان الحزب الشيوعي، دار التقدم، موسكو، د ت، ص٣٧-٤٠.

(٢)- بريجبسكي، زبيغنو، الإخفاق الكبير، ميلاد الشيوعية وموتها، ترجمة: فاضل جنكر، دار كنعان للدراسات والنشر، ط٣، ١٩٩١م، ص ١٧٩.

(٣)- السيد، يسين، في مفهوم العولمة، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب والعولمة»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٥.

(٤)- انظر زكريا محمد جاسم، ظاهرة العولمة، بحث في الموسوعة العربية، المجلد الثالث عشر، الجمهورية العربية السورية، ٢٠٠٥م، ص٦٢٣.

(٥)- كتابات معاصرة، مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية، العدد ٨٦، ٢٠١٢م، مجلد٢٢، ص٢٥.

(٦)- فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، ترجمة: فؤاد شاهين وآخرون، لبنان، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٢.

(٧) فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان والأخير، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٣م، ترجمة: فؤاد شاهين وآخرين، ص٦٨-٦٩.

(٨)- كامل الخطيب، محمد، جدل: كتاب العلوم الاجتماعية، دار عيبال للنشر والتوزيع، نيسان، ١٩٩٢م، ص١٥٩.

(٩)- جان إدوار سنبلة الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٦٨م، ص١١٩.

(١٠)- تشومسكي، نعوم، ردع الديمقراطية، دار كنعان للدراسات والنشر، ترجمة: فاضل جنكر، ١٩٩٢م، ص١٦.

(١١)- فوكوياما، مرجع مذكور، ص١٢٦.

(١٢)- هانس، بيرمارتين، وهارالد شومان، فخ العولمة، الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة: عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم رمزي زكي، عالم المعرفة، العدد ٢٨٣، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨م، ص٣٢٨.

(١٣)- حرب، علي، حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م، ص١٠٢.

(١٤)- حرب، علي، حديث النهايات، مرجع مذكور، ص١٠٥.

(١٥)- المرجع السابق نفسه، ص١٠٥، نقلاً عن :سيرج لاتوش، تغريب العالم، ترجمة: هاشم صالح، المؤسسة العربية للنشر والإبداع، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، ص٣٠.

(١٦)- انظر حجــازي، مصطفى، حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والدعــوة الأصولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م، ص١٧١.

(١٧)- جيتس، بيل، المعلوماتية بعد الإنترنت، ترجمة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، العدد ٢٣١، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨م، ص١٥٧.

(١٨)- حجازي، مصطفى، حصار الثقافة، مرجع مذكور، ص١٢.

(١٩)- المرجع السابق نفسه، ص١٢.

(٢٠)- بحــث عبد الإله بلقزيز، «العولمــة والهوية الثقافية، عولمة الثقافة أم ثقافــة العولمة؟»، ورقة قدمت إلــى: العرب والعولمة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٩م، ص٣١٨.

(٢١) هانتغتــون، صاموئيل، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م، ص٣٩.

(٢٢) المرجع السابق نفسه، ص٥٣-٥٤.

(٢٣) العرب والعولمة، ندوة، مرجع مذكور، ص٢٧٥.

(٢٤) تشومسكــي، نعــوم، الدول المارقة، استخدام القــوة في الشؤون العالمية، ترجمــة: إسامة إسبر، مكتبة العبيــكان، السعودية، ٢٠٠٤م، صــ١٠، نقلاً عن: الرسالة الإخبارية للجمعيــة الأمريكية للقانون الدولي، نيسان ١٩٩٩م. ديتليف فاغتس، «الاستخفاف بالمعاهدات»، تعليقات افتتاحية، ١٩٩٨م.

(٢٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

(٢٦) المرجع نفسه، ص١٤.

(٢٧)- إنجلســ، فريدريك، دور العنف في التاريخ، ترجمة: فؤاد أيــوب، دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٧٣م، ص٥٠.

(٢٨)- الكيالــي، عبد الوهاب، وآخرون، موسوعــة السياسة، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م، ص١٥٣.

(٢٩)- الموسوعة العربية، مرجع مذكور، ص٩٦٠.

(٣٠)- ماركيوز، هربرت، العقل والثورة، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٨٠-٢٨١.

(٣١)- المرجع نفسه، ص١٠١.

(٣٢)- تشومسكــي، نعــوم، الإرهاب الدولــي، الأسطورة والواقع، ترجمة: لبنى صبــري، سينا للنشر، ط١، ١٩٩٠م، ص٨.

(٣٣)- المرجع نفسه، ص٨.

مراجع البحث

(١)- الأطرش، محمد، «العرب والعولمة: ما العمل؟» المستقبل العربي، السنة ٢٠، العدد ٢٢٩، آذار، ١٩٩٨م.

(٢)- أمين، سمير، إمبراطورية الفوضى، ترجمة: سناء أبو شقرة، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ١٩٩١م، ص٥.

(٣)- إنجلس، فريدريك، دور العنف في التاريخ، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٧٣م.

(٤)- أيكن، هنري، عصر الأيديولوجيات، ترجمة: محي الدين صبحي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢م.

(٥)- ببلاوي، حازم، ندوة العرب والعولمة، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.

(٦)- بريجنسكي، زبيغنو، الإخفاق الكبير، ميلاد الشيوعية وموتها، ترجمة: فاضل جنكر، دار كنعان للدراسات والنشر، ط٣، ١٩٩١م.

(٧)- بريموفـا، ناتاليـا، سلوم، توفيق، معجم العلـوم الاجتماعية، مصطلحات وإعـلام، دار التقدم، موسكو، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

(٨)- تشومسكي، نعوم، الإرهاب الدولي، الأسطورة والواقع، ترجمة: لبنى صبري، سينا للنشر، ط١، ١٩٩٠م.

(٩)- تشومسكـي، نعـوم، سنة ٥٠١ الغزو مستمر، ترجمـة: مي النبهان، دار المدى للثقافـة والنشر، دمشق، ١٩٩٦م.

(١٠)- الحسيـن محمد تاج، مساهمة فـي فهم ظاهرة الإرهاب الدولي، مجلة الوحـدة، مجلة فكرية ثقافية شهرية تصدر عن المجلس القومي للثقافة العربية، السنة السادسة، العدد ٦٧، ١٩٩٠م.

(١١)- عباسـ، فيصـل، العولمة والعنف المعاصـر، جدلية الحق والقوة، دار المنهـل اللبناني، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢١٥.

(١٢)- الوالي، عبد الجليل كاظم، المستقبل العربي، بيروت، السنة ٢٤، العدد ٢٧٥، ٢٠٠٢م.

(١٣)- الموسوعة العربية، الجمهورية العربية السورية، ط ٢٠٠٥.

صعود الإرهاب: المخارج الثقافية

حسن إبراهيم أحمد

مخارج ثقافية

إذا كانت الحياة بقنواتها السياسية والعلمية والاقتصادية قد فشلت إلى يومنا هذا في إيجاد المخارج المطلوبة لحال الفوات والإعاقة والانسداد الحضاري لواقعنا، فإن أي مثقف قد يجترح من الحلول ما لا تستطيعه القوى السياسية أو غيرها. إنها وصفات يقدّمها أطباء الحياة، فلم يُطرح أمر يوماً على مثقف، أو أزمة مهما كانت، إلا واجترح لها مخرجاً. لكن المشكلة ليست في المثقف فحسب، وهو الذي يعاني من مشكلات لا حصر لها، فالمثقفون من أكثر الناس تصلباً وتمترساً وراء الأفكار، بل المشكلة في ضعف قابليتهم للتحول، فكل مثقف انتهج نهجاً فكرياً ينسجم مع ميوله وقناعاته، ثم عدّه الوحيد والنهائي، وقلما تحدث المراجعات لدى المثقفين بشأن قناعاتهم، أو التبديل في عوالمهم الفكرية، وهناك مؤشرات على التصلب الفكري لدى أغلبهم ممن ادعوا المرونة. وهذا يدخلهم عالم الدوغمائية.

المثقف جزء من المشكلة، عندما ينطلق من تصور نفسه في الموقع الأفضل، وإذا أراد الناس الخلاص فليقلدوه أو يتبعوه. إن له إعاقاته الذهنية والفكرية، مثلما له مواقفه الميثية أو الماورائية، لكن لا يتخلى عن أنه ممثل للحالة الأسمى: «من الأفضل أن تكون موجوداً بشرياً مستاءً من أن تكون خنزيراً متلذذاً، من الأفضل أن تكون سقراطاً مستاءً من أن تكون أحمق متلذذاً» حسب جون ستيوارت ميل.

هنـــاك من يضع شروطـــاً ضرورية وأساسية لتكون الثقافة فـــي موقعها الصحيح والقادر على صناعة التغيير واجتراح المخارج، كأن لا تبتعد عن الدين، مناط وجودنا، وكي يبقى هذا الوجـــود فاعلاً. وهناك من يرى أن النظر إلى الوراء هو جزء من النظر إلى الأمام، وقد نرى صـــدى هذه الفكرة فيما يراه سعد الله ونوســـ من أنه ليس ضرورياً أن يكون للثقافة الوطنية تعريـــف محدد لأنه يعرقل مغامرة الإبداع، ويرى أن ما يفوق مسألة التعريف أهمية هو تلمس بعضـــ المقومات التي لا تتحقق الثقافـــة الوطنية إلا بالارتكاز إليها: «وأهمها وأكثرها شمولاً هـــو الوعـــي بالتاريخ. أعني وعي الواقع كصيـــرورة مركبة على مستـــوى التاريخ المحلي، إذ تتضمن صيـــرورة الحاضر روافد صيرورة الماضي، وخمائر صيـــرورة المستقبل، والمستوى الثاني هو التاريخ الكوني إذ تتفاعل صيرورة الواقع عبر الجدل والصراع مع صيرورة عالمية كثيرة الاتجاهات والأزمان والغايات»[١].

وفي شهادة لحسين مروة عن الثقافة الوطنية، يقول: «لا ثقافة حية دون تاريخ، لأن الثقافة تاريخية، أي تحيا بقدر ما يضخ فيها زمنها التاريخي من حياته. إن ثقافة مجتمع خارج تاريخ العصـــر، هي - في الوقت نفسه- خارج تاريخ العصور الماضية. لأنها خارج نهر الحياة الذي كانه ذلك التاريخ»[٢].

هـــل هذه هي الواقعية التي يجب أن تقود الكتابـــة، أي الفكر والحقول الأخرى؟ لأنه من لـــم يكن واقعياً خارج الكتابة لا يمكنـــه أن يكون واقعياً داخلها، حسب رأي بريخت. ربما، لأن اعتمـــاد الواقع أساساً يبقي الأمل المرتبط بإمكان تغييـــره نحو الأفضل، «فاليأس هو درجة الصفـــر من الأمل» كما يرى ناصيف نصّار، واليأس يعني انعدام المحرك للواقع، فلولا الأمل بتغيير ما في هذا الواقع لانعدم نشاط الإنسان الهادف، ولا نشاط فاعلاً بلا أمل.

بتوالـــي بذل الجهد لتغيير الواقع ينبغي إقصاء كلمـــة مستحيل من ميدان البحث العلمي والفكـــري، حسب رأي نصار أيضاً، الذي يربط كل تغيـــر أو تحسين لشروط الحياة بالطموح إلى مزيد من العدل، إذ يقول: «من نافل القول إن الطموح من أجل مزيد من العدل على أساس مبادئ العقل والحرية والمساواة، يتقاطع في جميع جوانبه مع قيمة العمل، ولا سيّما مع العمل الاقتصادي المنتج للثروة وهو محكوم بقانون الموارد المحدودة»[٣].

إنـــه أساس مهم من أسس بنـــاء الأوطان وتكوين المجتمعات، إنه العـــدل الذي تقود إليه مبـــادئ ناضلت البشرية بأجمعها طويلاً في سبيلها، فتحققت ولم تتحقق، تحققت نسبياً لدى

بعض الشعوب وغابت عن بعضها، صنعت انفراجات لمجتمعات، وغابت عن أخرى فبقي الاضطهاد والظلم والاستبداد والشمولية وغير ذلك مما يسبب الإعاقة لأي تطور. فكيف نتخيل مخرجاً دون الاعتماد على هذه المبادئ؟!

لكن ما الذي يجعل هذه المبادئ فاعلة؟ لقد خسرت معركتها كثير من الشعوب في سبيل جعلها فاعلة، لأنها لم تربطها بالحراك الحقيقي الذي يجعلها تتجلى في الواقع. هذا المحرك الضامن لنجاحها، هو العمل المنتج لثروة المجتمع.

نصّار لا يرى أن الأمل يأتي خارج سياق العمل، فالأمل هو الدافع للعمل، والعمل هو محقق الأمل في التقدم، يقول: «... الأمل لا يأتي إلى الوجود خارج سياق العمل. من لا يعمل لا يعطي شعور الأمل فرصة التكوين والتأثير. وذلك لأن البقاء خارجاً عن سياق العمل، مع اهتمام بالمستقبل لا ينتج سوى التمني والانتظار. الكائن الذاتي يكتشف الأمل ويعيشه في العمل. ومن هنا خطأ البحث عن أسبقية للعمل على الأمل، وعن أسبقية للأمل على العمل»(٤).

الطريق الذي يحدده نصار للخروج من خيبة الواقع والإعاقة الصلبة والانسداد التاريخي أو الفوات، هو طريق العمل. هدف (أمل) ثم تحرك في سبيل تحقيق هذا الهدف. وهل الحياة غير ذلك؟ إنها تقع في هوة العبثية والعدمية حين تكون غير ذلك.

إنَّ الهدف الأول المساعد على القضاء أو محاربة الإرهاب، هو «تفعيل قيم العمل»(٥). والحديث عن العمل لا يعني ما يقوم به كل فرد على حدة فحسب، بل هو النشاط الاجتماعي المتكامل والمبدع الذي يستطيع أن يجد مخارج للانسدادات ويتغلب على الصعوبات بإيجاد الحلول العلمية العملية. وهذه الحال هي التي طورت شعوب أوروبا والعالم، فعندما كانت تعترض سير الإنتاج أيّ عقبة، كان العقل يبحث عن المخارج والحلول التي لا يتم الاهتداء إليها إلا بالعلم، ما يدفع العلم للتطور مرافقاً العمل المنتج، ويتطور المجتمع.

إن وجود الأمل والطريق الواضح لتحقيقه، أي الهدف والعمل المنتج، سيبعد عن أي شاب التفكير في إمكانية الانخراط في أعمال إرهابية، في الظروف العادية، بل عندما يتحقق، يخرج الشباب من الانخراط في الإرهاب. لأن الأمل في الحياة الأفضل يقود الأفراد والجماعات للانتظام في نشاطات لتحقيق الوجود الفاعل أكثر وأكثر. إنما عندما لا يوجد الأمل وطريق تحققه، سيكون البحث عن مخارج هو الذي يحدو بالشباب إلى البحث المتوتر، وعلى هذا الطريق يصنعون رابطهم مع الإرهاب.

في عصرنا الحديث زادت شدة الرقابة على المثقف لشدة خطره، ولاسيّما «ذو الأنف الطويل» حسب تعبير سارتر، وطول أنفه يعرِّضه للمهالك أكثر كلما بدا واضحاً، إذ تقتصُّ السلطات منه ثمن قصورها وضعفها لأنه أشار إلى هذا الضعف والقصور والتخبط، أو أعلن انحيازه إلى الجماهير.

«الرد الوحيد على الإرهاب الذي تعممه مؤسسات المجتمع الأبوي إنما يكمن في الكتابة». فـ«الكتابة أو القراءة المماثلة للكتابة، هي آخر مقاطعة غير مستعمرة يمكن للمفكر أن يتحرَّك فيها، متذوقاً فخامة الدال وسخاءه ومستخفاً أشد الاستخفاف بكل ما يجري في قصر الإليزيه أو مصانع رينو» كما يعلن رولان بارت. لكن ما الذي يضمن ألا يكون النص وصاحبه هما الضحية، ضحية الشك بهؤلاء الآباء، أو تخريب عالمهم الإيماني، وإدخاله عالم الشكوكية، أو إطلاق وصف أو كلمة باتجاه السماء خارجة عن الترسيمات التي وضعها هؤلاء وعلّموها للناس؟!

إن الإشارة إلى الغبار الذي علق بحذاء الوالي، أو وثاق كلبه غير المناسب، قد يكون ثمنها كل النصوص وأصحابها من المثقفين، وهذا أمر تتحدث عنه السجون وأعمدة المشانق. لقد أحرقت كتب ابن رشد وفُقِدَ بعضها، كما فقدت كتب لابن الراوندي ولأبي بكر الرازي، لأنهم فكروا بطرائق مختلفة، وقتل النسيمي والسهروردي وقبلهما الحلاج، وهم فلاسفة وصوفيون. مثلما ذُبح ناصر السعيد في بعض الأخبار لأنه كتب تاريخ آل سعود بطريقته، كما صُفِّي محمود محمد طه، وحسين مروة، ومهدي عامل، وفرج فودة، وكاد نجيب محفوظ أن يلحق بهم. وعندما لا يقتل المفكر جسدياً تطلق النار والفتاوى ضد ما أنتج من ثقافة، مثلما حصل لسلمان رشدي.

علينا أخذ الرأي بجرأة، ذاك الذي يقوله عبد الله العروي، إما أن يكون المثقف نقدياً أو لا يكون مثقفاً. لأن المثقف المترادف الملتحق بالسلطتين الزمنية والدينية، يخرب جهد المثقف النقدي المنحاز للناس وحاجاتهم «ذو الأنف الطويل» الذي لا يسكت على الرداءة والقبح، والذي يوفر قابلية للتقدم.

قلة من الكتّاب الجادين ربما، هم من لم يتعرّضوا للمنع والمصادرة، وقد علمنا بكثير من المعارك التي دارت حول أعمال أدبية أو فكرية بعينها، وحول مثقفين بعينهم، ولا نزال نتذكر ما دار حول رواية حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر» في مصر، وحول منع أعمال محمود

درويش في السعودية، وأمثلة ذلك لا تتسع لها الصفحات. والمؤسف أنها كانت مواقف سلطات سياسية ودينية ضد فكر وثقافة منحازة للإنسان وانعتاقه، وللحرية وضرورة تمكينها، تنفذها قوى مدربة على شم رائحة الممنوع بين السطور.

عرفت السلطــات المستبدة عبر التاريخ كيف تضع كثيراً من المثقفين أو من يدّعون ذلك في خدمتها، مثلما عرفت تماماً كيف تقصي وتستبعد المثقف النقدي الحر، أو من لا ينصاع. فَظَهر المثقف الباحث عن الالتحاق بمواقع السلطات المستبدة، بحثاً عن مكاسب ورفاه عيش، وبقي المثقف الرافض للذل يصر على دوره كحارس للقيم وكبرياء الإنسان، حتى وهو يصادم السلطات، هكذا كان تصنيف الكواكبي، وهو الذي لا يزال سارياً معبراً عنه في كل زمن. وهذا يحدد علاقة الثقافة بالسلطة في التجربة التاريخية، ويضعها في مسارات ثلاثة: الأول، مسار الثقافــة التسويغيــة الملتحقة بالسلطات، الحريصة على مواقع الثبــات ورفض التغيير تحت حجة الحفاظ على المجتمع، ما يجعلها مستجيبة للسلطات - أياً كانت- في تدجين المجتمع ووعيه، وتمجيد الآباء السياسيين والتراثيين وأدوارهم. وهم أصحاب الحظوة، ورديف السلطة الناطقون بلسانها. ومواقعهم لا تخفى على من يراقب وسائل الإعلام.

الثانـــي، مسار الثقافة التنويرية البعيدة عن التشنج والانفعال، والمهتمة ببناء وعي يمجد إنسانيــة الإنسان ويرفض استغلاله. وهذا المسار يجد نفسه في مواجهة كل قوى الاستغلال والاستبداد.

الثالث، وهو المســار المستقيل من أي من الموقفين. وهناك من لا يراه موجوداً، بوصف القسمــة ثنائية، خير وشر ولا خيار آخر. لكنه في الحقيقــة موجود حتى في الفكر والأدب، إذ نجــد الرقيب الداخلي يعمل عمل الضابط لإيقاع الثقافة والمثقف، إذ يحرص على وضع الحدود وعدم تجاوزها يميناً أو يساراً. مع أنه قد يحمل بعض الشحنات القبحية أو الجمالية، وهذه لها انحيازاتها. وربما ينظر المنخرطون في مجالات بعيدة عن السياسة والأدب والفكر، كمــا عــن العلوم الإنسانية التي لا بد منها من مواقف منحــازة، أنَّ لهم دوراً بعيداً عن صراع طرفين متقابلين، وهذا الدور يؤدَّى بكامل الحيادية.

فــي كل حال، إن للمثقــف سلطة هي سلطته المتأتية من حراســة الوعي، وهو إما قائم بهــا وإما مُفرّط، في الوقت الذي يجب عليه عــدم التنازل عن دور الحارس كي يبقى جديراً بانتسابه إلى الثقافة.

من خلال ما مر يمكن أن نشير إلى ثقافة تصنع التنوير في العلاقات الاجتماعية، وهي ثقافة شفافة، وأخرى مظلمة تسهم في تمكين التوتر والضديّة، أو المعضدّية، (مع / ضد). وهذا الدور لا يؤمن له من أن يكون جسراً يمكّن من عبور الإرهاب إلى المجتمع وعلاقاته. والثقافة التنويرية هي التي تقول شيئاً واضح الانحياز للإنسان، أي ليست تلك التي تؤدّي دورهما من خلال «الكتابة بالحبر الأبيض»(٦).

جدلية الأمن والثقافة

مع أن كل الصفحات السابقة كانت مشغولة بهموم الإجابة عن العلاقة الممكنة أو الحاصلة بين الثقافة والعنف أو الإرهاب، أو عن مفهوم الأمن، إلا أن كثرة الحديث عن الأمن الثقافي تفرض الإيضاح.

تعددت مصادر تهديد أمن الإنسان، فأصبحنا نسمع عن: الأمن الغذائي، والأمن المائي، والأمن الاقتصادي، والأمن الصناعي، وأمن المعلومات، وغيرها من أشكال تتأسس على مصادر التهديد للبشرية، مثل: الأمن النووي، وأمن الأوبئة، والأمن السياسي، وغيرها.

وإذا كان أكثرها رعباً ما يتصل بالحياة مباشرة، لكن مصدراً آخر لتهديد الأمن أصبح قيد التداول، دون أن يكون من اللائق به أن يكون مصدراً لتهديد البشر، بوصفه مصدر أمان كما يفترض، وهو الثقافة. لقد أصبح الأمن الثقافي متداولاً بكثرة، ما يعني أن خطراً ما يدور في فلكها، أو حيث ينشط الفكر والوجدان، وأصبحت الثقافة طرفاً في جدلية، طرفها الآخر، الأمن.

إن إسناد الخوف إلى الثقافة، أو عدّها مصدراً له، أو الخوف عليها، ما يجعل حقولها لا تشعر بالأمان الذي يجب أن تشيعه، أمر يحتاج من المثقفين إلى النظر فيه. فالربط بين الثقافة والخوف تلويث لما يجب أن يكون في مواقع الطهرانية. فالبشر بنزعاتهم ومصالحهم وأهوائهم هم الذين يشكلون الخطورة التي يمكن أن تكون الثقافة محملاً لها، والمفهوم من «الأمن الثقافي» أن تكون الثقافة حاملاً لفيروسات الزمن القاتلة، التي لا يتوانى البشر بعقولهم التي يفوح منها العطن أن يدسوها في الحوامل الثقافية كما يدسونها في حوامل أخرى، فتصبح الثقافة مصدر البراءة وحاملة الطمأنينة، هي مصدر التهديد، الذي لا يتوانى أرباب المصالح والنزعات عن استخدامه، مثلما يستخدمون الغذاء والدواء مصادر للتهديد من أجل السيطرة والربح.

قد تحمل الثقافة أيديولوجيا ما تتحول إلى هيمنة على العقول مقابل السيطرة المادية العسكرية أو السياسية، بل تزيد على السلطة بأن تصبح سلطاناً على العقول. وهنا تبدو خطورة ذلك عندما تكون أداة بيد طبقة أو قوة غاشمة. وعلينا ألا ننسى أن الرؤى والأفكار والنظريات السياسية هي ثقافة أولاً، مثلما أن حقول الحياة الأخرى هي ثقافة بمعنى من المعاني، إذا عددنا أن الثقافة هي «الخروج من مملكة الطبيعة».

الحديث في الثقافة وعلاقتها بالأمن، وعدّها مصدراً له أو حاملاً لخوف يهدد البشرية أو أي جزء منها، يحتاج إلى معالجة، وذلك يكون بالإجابة عن أسئلة كثيرة تتولد مع الحديث عن الموضوع، مثل: هل المقصود أن الثقافة مهددة بالغزو؟ أو أن الثقافة تستخدم معبراً للإضرار بأصحابها أو متلقيها؟ ما مصادر التهديد؟ وما الغايات التي يتوخاها من يستخدم الثقافة ليهدد بها الآخرين؟ لكن السؤال الأهم: كيف نتجنب الغزو الثقافي إن كان موجوداً، وكيف نصنع أمناً ثقافياً، أي للثقافة وبالثقافة، ومن ثمَّ للمجتمع عن طريق الثقافة؟

١- هل الثقافة مهددة؟

ليس هناك ثقافة بمأمن من تهديد غيرها لها، سوى تلك التي لا تداخل بين الشعوب التي تأخذ بها، وغيرها من الشعوب. فهناك شعوب تطالها الدراسات الأنثروبولوجية، لا تخالط بينها وبين غيرها، سواء كان ذلك في القديم، أم في أماكن معزولة، ومن ثمّ يصعب أن تحصل تغيرات في إطار ثقافتها، فتبقى راكدة، تعيد إنتاج عناصرها، ولا تخرج شعوبها من التخلف والانغلاق.

قد تتفاوت نسب التأثر والتأثير في الثقافات، وذلك حسب قوة الحضارة التي تصدر عنها، فالحضارة القوية المنتشرة تسمح أو تساعد في نشر ثقافتها والتأثير في ثقافات الآخرين، في حين أن الشعوب في حالات ضعف حضارتها، لا تكون قادرة على تصدير ثقافتها، ولا حوامل عندها لنقل هذه الثقافة بالأساليب السائدة في عصرها، فتمكنها من الانتشار.

وإذا كانت نسب التأثر والتأثير قد تتفاوت، لكن يصعب على الثقافات في العصر الحديث، أن تكون بمأمن من تأثير الآخرين بها، نتيجة عوامل مثل انتشار الطباعة ووسائل الاتصال والنقل، وما شهدته هذه المجالات من ثورات ونقلات فاقت الوصف والتوقع.

«الغزو الثقافي: هو تكوُّن بنية ثقافية (بالمعنى الواسع للعبارة) فاعلة في المجتمع المغزو، تعمل على المدَيين المتوسط والبعيد في خدمة المصالح الحيوية للمجتمع الغازي وعلى

حساب مصالح المجتمع الأضعف وحياته ومستقبله. أي يكمن جوهر ظاهرة الغزو الثقافي في عمل هذه البنية على عرقلة امتلاك المجتمع الخاضع للغزو للمقومات المادية والفكرية والعلمية والثقافية التي تسمح له بالنهوض والتصدي بنجاح للمهات التاريخية المطروحة عليه في عصره الراهن ومنها القطع مع كل أشكال الغزو والخضوع بما في ذلك للغزو الثقافي»(٧).

الغزو لا يتحدد بالعناصر الثقافية، بل بالإرادات البشرية السياسية، وما يريده الفاعلون السياسيون، وما في حوزتهم من عناصر قوة ومنها الثقافة، وكيفية استغلال هذه العناصر للتأثير على الشعوب الضعيفة. هل نستطيع القول إننا نريد أن ننتصر ونهزم الآخرين ونحن نعتمد عليهم حتى في الأسلحة التي يمكن أن نحاربهم بها، أي ونحن في حالة ضعف، ليس في الإنتاج فحسب، بل في طرائق استخدام ما نحصل عليه بثمن غذائنا ودوائنا وإنسانيتنا.

الثقافات تتخالط، تتعاون، تختلف وتتصارع، يقبل بعضها بعضاً ويرفض بعضها بعضاً، جزئياً أو كلياً، دائماً أو إلى حين، لكن حتى وهي في حالة نفور بعضها عن بعض، لا تستطيع أيّ ثقافة أن تكون في حيدة عن غيرها، ولاسيّما تلك التي فقدت قدرتها على إنتاج الجديد وبدا أنها لاحقة بغيرها عن طريق استيراد ما ينتجه هذا الآخر من وسائط وأساليب وعناصر ومذاهب. حتى إذا نظرت الثقافات الحديثة التي تعاني الضعف، وجدت أن عناصر مثل: المسرح، السينما، الموسيقا، الرقص، الفنون التشكيلية، الأدب... إلخ. التي بدأت تنتشر في بيئتها وبين شعوبها، هي نتاج حضارة طاغية وغريبة، أزاحت مكونات سابقة لدى بعض الشعوب، وأحلت عناصرها بدلاً منها، بأدواتها ووسائلها، وعن طريق من ينتسب إلى الحضارة والثقافة المتلقية وجهود أبنائها. فهل هذا اختراق لأمن ثقافتها؟!

لنعد إلى ما بين أيدينا من عناصر الثقافة فكراً وآداباً وفنوناً وعادات، لباسنا ومأكلنا ومشربنا، أدواتنا المنزلية، وسائل مواصلاتنا وأساليب ومواد تعليمنا، نظام مدننا وقرانا من البيت إلى الشارع والمدينة والدولة، قوانيننا، وسائل دفاعنا وقتالنا ونظمها، وسائل وعلوم الاستشفاء والطب، سياحتنا، سياساتنا ونظم سلطاتنا... إلخ، ولنقوِّم ما فيها ونرد كل جزئية إلى أصلها ومصدرها، فهل نجد منها كثيراً مما أنتجناه بقدراتنا الذاتية التي ليس للآخرين دور فيها؟ إذا وجدنا أننا ننتج ما نحتاجه في كل مجالات الحياة بقوانا الذاتية، فنحن بمنجى

مـن التأثير، وأمننا موفور اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً، وإذا لم يكن كذلك، فعن أي أمن نتحدث؟!

لنقـل إن كثيـراً من التواصل والتفاعل يأتي من خلال حـوار الحضارات (الذي قد يكون صراعـاً) دون صدامها. لقد عرفـت الحضارة كيف تتحاور أو تتصـارع، والصراع قد يكون حميـداً يولد الجديد والفاعلية دون أن يصل إلى الصدام الذي بشَّر به برنارد لويس وشرحه ونشره هنتنغتون. والصدام الذي بشَّرا به يجعل للحضارات أسواراً عقدية متنافرة لا متكاملة ولا تراكمية، هذه الحالة صممت كي يستثمرها الغرب ضد بلادنا، ونحن نرى النتائج. عندما تكـون الحالـة صداماً يكون كل وافد هو جزء من حالة غزو مفترضة، ولا سيّما عندما يجري في سياق الصدام الذي قد يظهر بمظهر التعاون(٨).

المتتبـع لعلاقة الدين بالسياسة، لا بد أن يكتشف أهمية التوجه العلماني في المجتمعات المتعـددة والمركبة والمنقسمـة، التي لم تتجـاوز عصبياتها العقدية تجـاوزاً عميقاً. لكن العلمانية هنا يجب أن تكون العلمانية اللينة لا العلمانية الصلبة التي توصف دائماً بأنها غزو للدين والمجتمع والثقافة، ومحاولـة لزعزعة المجتمع. والعلمانية اللينة أو الرخوة هي التي تفسـح المجال للعقل ليتم تأسيس التوجهات بناء على معطياته، دون استبعاد الدين أو اتخاذ موقـف عدائي منه، بمعنـى استبعاد الربط ممن لا يعرفون عن العلمانيـة كثيراً، بينها وبين الإلحـاد، أن نبعد الدين عن أن يكون حاكماً على مؤسسـات السلطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية(٩).

٢- هل الثقافة مصدر خطر؟

الوجه الثاني الذي يحيل إليه مفهوم الأمن الثقافي، لا يكمن في الخوف على الثقافة من غيرهـا، بل في الخوف من المخاطر التي تصنعها الثقافة وانعكاسها على المجتمع والحياة، وما يفعلـه الاختراق الثقافي عند الشعوب التي تتعرض ثقافتهـا للانتهاك نتيجة ضعفها أو عـدم مواكبتها للتطور. إذ عندما يتم اختـراق ثقافة ما بقوة، فالتأثير لا شك سيكون واضحاً على الشعوب التي لن تكون بمنجى.

هنـا تبرز عدة مسائل تتعلق بالقدرة على إغناء عناصـر الثقافة المحلية، ثقافة الشعوب المعرضة للتأثر، أو تبيئة بعض العناصر وإدماج المؤشرات في خضم ثقافة الشعوب إذ تظهر على شكل تجديد منسجم، أو تثاقف معهود بين الثقافات على مر العصور.

القــدرة التي تبديها ثقافة مــا على الإفادة من غيرها والتأثر فــي بعض الجوانب، هو تعبيــر عن قوة هذه الثقافة، كمــا فعلت الثقافة العربية في مراحــل قوتها، إذ بدت قادرة علــى الإفادة من ثقافات الشعوب كالفرس والهنود واليونانيين والرومان، كما تبادلت التأثير والتأثــر الثقافي مع شعوب خالطتها كما حدث في الأندلس. وكما جرى ويجري في العصر الحديث في جميع المجــالات كالفنون التي ذكرناها. لكن المهم هو قوة وتماسك المجتمع وثقافته، وقدرته على التفاعل مع المؤشرات الوافدة بديناميكية مانعة للآثار السلبية وقادرة على امتصاص الموجات أو الرد عليها، في تفاعل يعدُّ سمة العصر الحديث بسبب وسائط الاتصال.

بدت الثقافة العربية في كثير من الحالات، مصدر عطاء، فلا يزال الغرب يذكر مؤشرات مثــل ألف ليلة وليلة، وقصصــ الإسراء والمعراج، والفلسفة الرشديــة التي نقلت للغرب أثر أرسطو، وقد أظهرت الدراسات المقارنة كثيراً من أثر ذلك.

لا يمكــن القول إن ثقافة ما شكلت غزواً في تلــك المراحل، ما يعني استبعاد الخطر من تغيير يحصل في مجال التفكير وأساليب الحياة لدى الشعب المتلقّي، لقد كان ذلك في إطار التبــادل وحوار الحضارات أو الثقافات، ما يعني أنه كان خارج تهديد أمن الشعوب، عكس ما هو عليه اليوم ربما.

لا يصــح أن نفهــم الأمــن أو نصفه بآلياته العسكريــة أو السياسية، إنــه أخطر، وله من الخطورة ما يجعله أشد تأثيراً. إنه يذهب إلى إحداث تبدلات ذات خطورة على عقول الناس وطرائق تفكيرهم، فينقلهم من حالة وعي إلى أخرى، قد تخدم قوة أو شعباً آخر، فيكون هذا التغير ضاراً بالمتلقي لصالح فائدة المعطي. يشير إلى ذلك بيير بورديو في كتابه «التلفزيون والتلاعب بالعقول»[٩].

مــا الذي يبقى عندما تتعطل الإرادة ويحتل العقل وتفقــد المهارات ويُتَلاعب بالعواطف والأذواق؟!

هذا هــو الهدف الاستعماري منذ القديم، يورد محمد عابــد الجابري حكاية عن القائد الفرنسي لقوات الاحتلال في المغرب، فقد طلب المسؤولين عن التعليم بعد أن قمع الثورات المناهضــة للفرنسيين في الريف المغربي وقال لهم: لقد أخضعنا لكم الأبدان وقضينا على مقاومــة الشعــب، فعليكم أن تخضعوا العقول عن طريق التعليــم، هذا ما عملت عليه فرنسا

مما لا تزال آثاره واضحة[١٠]. هذا يعني أن الاستعمار لا يحقق غاياته النهائية إلا عن طريق الهيمنة على عقول الشعوب، ما يعني انتفاء الأمن.

الأشد خطراً هو أن يبدي شعب استسلامه للوافد دون عملية نقدية، ما يجعل العواطف والحراك في حالة تأثر أو خضوع، وربما تتشكل قناعة عقلية به، ويبحث عن المسوِّغات تحت حجة أننا متخلفون ولا بد لنا إذا أردنا التقدم من استقدام ترياق الآخرين، فنضحي بعقولنا وإرادتنا.

ليس من العقلانية أن نكون ضد التثاقف والتناص، ولا ضد التأثر والتأثير، فطبيعة الأمور أن تأخذ الشعوب وتعطي، لكن دون أن يسبب الأخذ شللاً لإرادتها، وهذا ما يعمل عليه الغرب الاستعماري لإنتاج الهيمنة والتبعية، وإذا كانت القوة العسكرية الغاشمة لا تزال بالمرصاد للشعوب الرافضة، فإن الأضمن هي الوسائل الثقافية وأدواتها.

لقد قاومنا الاستعمار بشكله القديم، وحققنا بعض الأمن لشعوبنا وثقافتنا مرحلياً، لكننا لم نفهم الأطماع وتحولاتها من حيث الأساليب وأشكال التعاطي، لقد أصبحت تكاليف الشكل القديم باهظة، ما جعل الاعتماد على الوسائل التكنولوجية تستجلب الشعوب إلى الاستعمار والتبعية مجدداً دون توظيف واسع للقوة العسكرية، ويتم ذلك بإرادة ورغبة الشعوب المطلوبة وأموالها التي تشتري بها هذه التكنولوجيا المحروسة بقوة العلم والتدبير، وضمان القوة العسكرية إذا احتاجها الأمر لتحطيم كل أشكال المقاومة كما حصل في حروب الخليج الأخيرة، إذ كان الهدف إخراج المنطقة خارج العصر والتقدم والحداثة، وإفرادها في عالم التخلف بإحياء كل معوقات الماضي، قبائل وعشائر وأقوام وطوائف ومذاهب وملل، وكل ذلك يفعل فعله التفتيتي والتناحري بين هذه المكونات المحروسة والممسوكة جيداً تحت إدارة الغرب والمجتمع الأهلي وعداواته.

لا يستطيع المثقف أن يكون خارج العصر ثم يبقى مثقفاً، ولكي يبقى داخل العصر عليه أن يكون منخرطاً في مجال الفكر والثقافة الغربية وتكنولوجياتها التي لا تعرف حدوداً للتجدد وتطوير الوسائط والإمكانات وهذا بالتأكيد مدخل لانعدام الأمن لدى الشعوب الفقيرة، ليس في مجال الثقافة فحسب، بل في كل مجالات الحياة. فلا ثقافتنا آمنة، ولا اقتصادنا ومواردنا آمنة، ولا سياستنا مستقلة وآمنة، ولا مجتمعاتنا آمنة، هناك اختراق أمني في كل المجالات، تقوده تكنولوجيا هائلة القوة والقدرة على الاجتياح، وقدرات تستطيع تسخير

إمكانات الشعوب كما تستطيع الاستيلاء على خيراتها على طريقة نهب النفط العربي، وإدارة المعارك ضد العرب وغزو بلادهم بأموال نفطهم وقدرات شعوبهم وموافقة حكوماتهم.

فرق المثقف العربي المتوازن بين دور الغرب في صناعة الحضارة والوعي وإنتاج وتطوير الثقافة، ودوره الاستعماري. فالغرب مصـــدر للعقلانية والتنوير وتكوين وعي جديد بالحياة، ومصـــدر تطوير للثقافات والفنون وطرائق إدارتها وتجديدهـــا. وبتوظيف ما نتعلمه منه في هذه المجالات يمكن أن تصبح أفضل إذا تم ذلك بوعي وباستغلال مناهج العلوم الحديثة التي طورهـــا الغرب، والتي هي إرث إنساني لا يصـــح احتكاره، كما تشير إلى ذلك منظومة حقوق الإنســـان مثلاً، أو تحكيم الثقافـــة الفلسفية والسياسية، والفكر ومناهجه، لتكون مساعدة في استنهاض واقعنا، لا بديلاً مما يمكن تطويره محلياً، مع ضرورة الإفادة من كل ما لا يمكن أن نجد له بدائل محلية، على مستوى لائق. وهذا متعارف عليه بين الشعوب والحضارات.

الثقافـــة للناس وبهم، منهـــم وإليهم، هي صياغـــة وإعادة تشكيل الوعـــي، وبهذا المعنى يكـــون الخطر منها وعليها، مثلما يكون الخطر مـــن الناس وعليهم. الشعوب لا تنتج ما يشكل خطـــراً عليها إلا عن طريق الخطأ، أو نتيجة خلـــل في الإرادة أو التوازن. وعندما ينتج شعب مـــا، ما يشكل ضرراً علـــى وجوده وتقدمه، فسرعان ما يتراجع عنـــه، إلا أن يكون ذلك تحت ضغـــط فقدان الإرادة والثقافة اللاوطنية، مثلما فعل أولئك الذين استدعوا ويستدعون القوى الإمبرياليـــة الغربية إلى بلدانهم لاحتلالها تحت حجـــة ومطلب الديمقراطية وتخليصهم من حكامهم المستبدين(١١).

٣-كيف ننتج أمننا الثقافي؟

هـــل يكون ذلك بالحفاظ على موروثنا دون نقد، ونحـــن نرى أن أعظم الارتكابات تحدث فـــي ظل «اللّه أكبر» وسوء فهم ذلك، أو سوء فهم العقيدة والثقافة؟! هل يكون ذلك بالتمترس داخـــل منظومتنا الثقافية التي عددناها حداثية، ولـــم تحصل شعوبنا منها إلا على مزيد من الاستبـــداد والتبعية؟! هل يكون ذلك باستبدال منظوماتنـــا السابقة بما تأتينا به المستوردات عـــن متون التكنولوجيا الحديثة، وأغلبـــه لا ينتمي إلى واقعنا ولا يشاكلنا؟! وإذا كانت الإجابة عـــن هذه الأسئلة بالنفي والاستبعاد لمحمولاتها، فـــأي البدائل تكون قادرة على إخراجنا من عالـــم يتهددنا طوال المكث فيه بأن ينسانا التاريـــخ وتنسانا الحضارة، وننسى أنفسنا تائهين على دروب لن توصلنا إلا إلى حالات تبعيّةٍ للقوى الكبرى؟!

تشكل الثقافة التقليدية حصوناً لم تعد آمنة لشعوبنا، ولم تعد الشعوب متأكدة أنها ستكون بمنجى إن هي بقيت تعيد إنتاج الثقافة نفسها بالطرائق نفسها، ونرى ما فعلته الشعوب التي استطاعت الخروج من الحصون التي يدعو التقليديون للبقاء فيها تحت شعار: لا يصلح حاضر الأمة ومستقبلها إلا بما صلح به ماضيها.

لقد اجتاحتنا ثقافة الغرب، فتراجع وانتهك أمننا الثقافي وهو تحت الرعاية القوية وحراسة العقل الإيماني الذي جُرِّبَ وهو يوقعنا في المهالك كل يوم زيادة على الذي قبله، حتى أصبحنا وواقعنا لا ينفك عن التفكير في الإرهاب الذي تغذيه ثقافة يعاد إنتاجها ويتحكم بها الجاهل قبل العالم، ويقودها الخبيث قبل البريء الطيب، ويستفيد منها العدو الذي جربت واختبرت عداوته المتجددة أكثر من الصديق، إذ لا فائدة منها لصديق.

لقد فرحنا، أو فرح بعضنا وهو يستقبل نفحات العقلانية الغربية، مع أن بشائرها جاءتنا مع قوته العسكرية التي فعلت بنا ولم تفعل العقلانية، وظن بعضهم أن خلاصنا في اللحاق بالغرب، لكننا أخذنا من جانبه عندما كان يوظف مناهجه في استغلالنا كما أثبت إدوارد سعيد عندما درس الاستشراق، كما أخذنا من جانب أنفسنا عندما فشلنا في توطين العقلانية والديمقراطية ومناهج العلوم الحديثة، إذ بقي كل ذلك في مجال التفاخر النظري، أي إننا لم نحول هذه الثقافة إلى ثقافة آمنة، من هنا كان انتهاك ثقافتنا.

لا يظن أحد أن الغرب الذي يعلن أنه يقاوم الإرهاب ويجيّش ضده الجيوش، كاره له إلى الحد الذي يعلنه،، طالما بقي محصوراً ولادة وممارسة في بلادنا، وتنعكس نتائجه علينا دماراً وتخلفاً، فالغرب يكون أكثر اغتباطاً كلما انتشر الإرهاب في بلادنا أكثر وترسخت ثقافته، لأنه حينها يعلم أن شعوبنا رازحة في تخلفها، يقضم الإرهاب فيها مساحات العقل، ما يجعل هذا الغرب مطلوباً أكثر للتدخل في شؤوننا وإبقائنا في حالة تبعية له، ولهذا دفع الغرب هذا الإرهاب إلى الظهور منذ حصل ذلك في مواجهة الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. ومعلوم كما هو واضح أن قوة التأثير الغربي حاصلة في المناطق التي تسود فيها الثقافة التقليدية أكثر، وليس مفهوماً أن يكون هذا الغرب عدواً للإرهاب كل هذا العداء وهو الذي أوجده، ثم يكون صديقاً للبؤر التي يتغذى الإرهاب منها فكراً وثقافة وأموالاً، ويبسط حمايته لها. ثمة تناقض.

ما يؤكد ذلك أن الغرب أراد جعل الإسلام عدواً بديلاً عند فقد العدو الشيوعي، وشهادات الغربيين تتوالى على تأكيد ذلك، فيؤكد بروش مازليش أن ما أراده هنتنغتون من فكرة صدام الحضارات التي استقاها من برنارد لويس، هو التأسيس لفكرة العداوة بين الغرب والإسلام[١٢]. والغرب متأكد من أنَّ الإرهاب مصنعه الثقافة، ما يعني العصف بأمننا الثقافي.

إذن، القاعـدة الأولـى للإجابة عن السؤال الأول تحقيقاً للأمـن الثقافي، ترتكز على أنه لا يجـوز تحكيم الماضي بالحاضر، ولا الغيب بالواقع، فـي غير المجالات التي تخص ربما الشؤون العبادية للمؤمنين. أي إنَّ تكوّن هذه الثقافة الآمنة قادرٌ على النهوض بالواقع من حال التخلف الحضـاري الفكري الثقافي العلمي السياسي الاقتصادي العسكري، إلى عالم يمكّنه مـن إنتاج الحلول بفعل وإرادة أبنائه وجدرانهم الثقافية المتجددة التي تساير العصر وتزاحم فاعليه كما سنرى.

الثقافة غير الآمنة المشار إليها وإلى ضرورة الخروج منها، تتبعها في الواقع وتكملها في نفيها للأمن والأمان، تلك الثقافة التي جاءت على أعقابها. إنها ثقافة الإحياء المتأثرة بإحياء الغرب لثقافات وأصول قديمة. وإذا كانت العملية ليست خاطئة بمجملها، فهي ليست صحيحة بمجملهـا أو بمجرياتها ومآلاتها. فالحفاظ على القديم أو تجديده، لا يكون بالاستسلام لغثه وسمينـه عندمـا لا يساير العصر والممكـن، بل باختيار ما يمكن الاستنـاد إليه للإقلاع من جديد، ففي التراث ما يمكن الاعتماد عليه لتنمية ثقافة عقلانية. هذه الثقافة التي تولد سيل الفتاوى الرافضة لأيّ عقلانية ممكنة على ضوء التراث وانطلاقاً منه. والجميع متأكدون من قوة حضوره في عالم عربي ثلث سكانه أمّيّون.

وإذا كان القطع مع التراث في الثقافة والفكر، غير حاصل، فقد استُكمِل فقدان الأمن الثقافي، باستيراد الغث من الثقافة الغربية، إذ تأثَّر بالعادات والشكليات، أكثر من الاعتداد بمناهج الثقافة العقلانية الغربية التي تنطوي على ما يمكن أن يساعدنا في إيجاد مخارج لإعاقاتنا.

هـذا يعني اكتمال الحلقة، ثقافة تقليدية قروسطية، تكملهـا ثقافة غربية منتزعة بشكل غيـر منهجي من ظرفها الاجتماعي وسياقها المعرفي، لـم تتمكن من التوطن أو التمكن في واقعنا، رُكِّزَ على الجانب النظري فيها، في حين أنها ثقافة عملية، سواء في جانبها التجريبي أم الإنسانـي، ولهذا علاقة بعـدم تمكين الطبقات الشعبية وعمـوم المجتمعات العربية من الانخراط في نهضة فاعلة.

لم يُعتمَد مناهج وأساليب واضحة للتلقي من الغرب، ولا سيّما في العلوم الإنسانية، بل كان الاختراق مزاجياً وعشوائياً. هذا يأخذ من مناهج ليبرالية ويعتمد الرأسمالية، وهذا يأخذ عن مناهج اشتراكية ماركسية ويعتمد الاشتراكية، وغيره يرفض الجانبين ليبقي على تراثه مكتفياً باستيراد المنتج التكنولوجي الغربي الذي يرى أن الله سخر الغرب لينتجه له.

هـــذا الواقع، أو ما جـــرى، أنتج أنظمة سياسية وفكرية هجينـــة، فالفكر القومي العربي، يعتمد مناهج الغرب فـــي الاستنهاض القومي، لكنه لا يغادر عالم الماضي والتراث والعقيدة التـــي يـــرى أنها مضمون هذا الفكر وروحه. مـــا أنتج فكراً توفيقياً مشتتـــاً، لا هو بالعلماني العقلاني صراحة، ولا بالتراثي فيقطع حبل السرة مع القديم صراحة.

هـــذا الواقـــع السياسي الثقافي الذي كُتبت فيه آلاف المجلـــدات، لا ينتج أمناً ثقافياً، بل ينتـــج ضياعاً وتهتكاً مصيرياً نحصد نتائجه كل يوم دماً ودموعاً وجوعاً ودماراً وتخلفاً وقلقاً وتبعية لم نر منها مخرجاً.

القاعـــدة الثانية لبناء الأمن الثقافي تقول إننـــا لكي نحقق هذا الأمن، لا بد لنا أن نخرج مـــن منطق التوفيقيـــة والتلفيقية، وأن نخرج من حال التبعية، لنتوجـــه إلى الثقافة العقلانية ومناهجها النقدية.

إن من يتخبط في حال من الضعف، ويبدو غير قادر على الإنجاز، وهو حقيقة كذلك، لا سلطـــة لديه على علـــم ولا استحواذ على ثقافة أو تكنولوجيا، هـــو بالضرورة مستجيب لإمـــلاءات العصر في كل المجالات. فمن لا يملك إمـــكان المقاومة لا بد أن يخضع. إنها استجابـــة لطلب الحداثة والعصر في امتلاك ناصية العلوم إنتاجـــاً وإدارة، وعلى أساسها يُبنى جزء مهم من الحداثة، وبوساطتها تشع الثقافات الحديثة التي تتسلح بها الشعوب. ولا يصح أن نوهم بها أنفسنا بمجرد أننا استوردنا وسائطها، مع سوء استخدامنا لها.

لقـــد دخل عالم الإنتاج عنصـــر جديد، وهو المنتج المعرفي، إنتـــاج المعلومة وتسويقها، وأصبح سوق المعلومات من الأسواق التي تدر أكبر الأرباح، وتتنافس في هذا السوق المهارات العاليـــة والقـــوى المؤهلة التي يقـــع الوطن العربي خارجها. وهذا مجـــال واسع من مجالات الغزو الثقافي، ومن ثمَّ الأمن الثقافي. وقد دل على ذلك كشاهد حصل في الولايات المتحدة الأمريكيـــة، إذ دلت حادثة موقع ويكيليكســـ لصاحبه أسانج، وحادثة إدوارد سنودن، وكلاهما كشفا أسراراً أضرَّت بموقع الدولة العظمى.

هـذه الثقافـة مثلما تنطوي على قـدرة الانتشار تنطوي على الفضائحيـة، ومثلما تقبل التهميش فإنهـا تلونه بالديمقراطية، ومثلمـا تعمم القتل والجوع والمرض، تظهر بمظهر المدافع عن إنسانية الإنسان وحقوقه. وهي لا تقبل أن يكون أحد خارجه، فلا باس أن تجوع وتعـري وتمرض، لكن عليـك امتلاك الوسائط التي توصلك بالإنترنـت والهاتف الجوال كي تبدو منتمياً إلى عالم العولمة، وتعرف أخبار السِّمَان المكتسين المتعافين. والتنمية الحقيقية والأمن الحقيقي لا يكون دون النهوض بالطبقات الفقيرة، وأمنها صنو كرامتها، وكرامتها صنو وجودها في هذا العصر متشابك المعاني والعلاقات.

هنا تبدو كذبة الأمن الثقافي الذي انخرط به الجميع طالما هم قادرون على قراءة الشاشات التـي ترافـق الإنسان في حله وترحاله، فينام داخلها ويستيقـظ داخلها، دون أن يتهم أحد بنوع ثقافته ولا أين تأخذه، ولا أحد - ولا سيّما في العوالم الفقيرة- يدري إلى أين سيصل وهو ينساق معهـا، ولا مهرب له منها، خدمتْه أم نهبتْـه وانتهكت بلاده. لقد أصبح المرء يواري وجهه إن لم يكن من رواد الشاشات وحراسها، دون أن يسأل عن حجم الأمن والأمان الذي تحمله له.

إنها الثقافة الجديدة، تنصر من ينتجها ويسخّرها لأمنه، وتخذل من لا يشارك في إنتاجها فتنتهك أمنه وخصوصياته وثرواته وأوطانه، وهي ضرورية لخدمة الأقوياء.

ولكـي تكـون الثقافة جالبة للأمن نافيـة للقلق والغزو، لا بد مـن المشاركة بفاعلية في إداراتها وإنتاجها، فما لا تنتجه لا يكون لك.

مهمة تحقيق الأمن الثقافـي إذن، تكتمل بخطوتين: الأولى خروجنا من ثقافة العصبيات الوشائجيـة، ثقافة القبائل والعشائر والأقوام، وثقافـة الطوائف والمذاهب والملل، والثقافة السحرية الغيبية المشبعة خرافة وأسطرة وكرامات. والثانية، دخولنا بشكل مدروس إلى ثقافة الحداثة العقلانية واعتماد وسائطها.

الهوامش

(١)- حسين مروة، قضايا وشهادات (كتاب مشترك)، العدد (٤)، الثقافة الوطنية (١)، خريف ١٩٩١م، ص ٤١.

(٢)- المرجع نفسه.

(٣)- ناصيف نصار، الذات والحضور - بحث في مبادئ الوجود التاريخي، دار الطليعة، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٥٦٩.

(٤)- المرجع نفسه، ص ٦٠٨.

(٥)- راجع، حسن إبراهيم أحمد، مداخل ومقدمات لنهضة متجددة، دار كنعان ط١، ٢٠٠٧م، ص ٨٩ فما بعد.

(٦)- راجع، حسن إبراهيم أحمد، الكتابة بالحبر الأبيض، الموقف الأدبي، عدد(٥٢٠)، آب، ٢٠١٤م.

(٧)- صادق جلال العظم، ذهنية التحريم، سلمان رشدي وحقيقة الأدب، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في الوطن العربي، نيقوسيا، قبرص، ١٩٩٤م، ص١١٤.

(٨)- راجع كتابنا: صدام المصالح وحوار الحضارات، دار رسلان، ط٢، ٢٠١٤م.

(٩)- من أجل فهم أوسع، راجع: عادل ضاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، ط١، ١٩٩٣م، ص٦٢.

(١٠)- بيير بورديو، عن التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة: درويش الحلوجي، دار كنعان، ط ٥، ٢٠١٢م.

(١١)- د. محمد عابد الجابري المسالة الثقافية، سلسلة الثقافة القومية (٢٥) قضايا الفكر العربي (١)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٤م، ص ١٨٩.

(١٢)- راجع كتابنا: الليبراليون العرب واستحقاق الحرية، دار النايا، ط١، ٢٠١٠م.

الإرهاب
النشأة والحلول الممكنة

ناجح خضر الحمود

يعدُّ تناول موضوع الإرهاب من أشد المهمات الفكرية حساسية ودقة لما ينطوي عليه من آثار في حياة الإنسان وحضارته ومستقبله، ولذا لا أريد أن أبحث هذا الموضوع المهم بصفته ظاهرة آنية ومحددة بزمن ما أو مكان ما بل بصفته مشكلة إنسانية بكل ما يتضمنه معنى الإنسانية من تطور فكري وحضاري وأخلاقي وروحي، وبوصفه مسؤولية إنسانية لا تخص مجتمعاً محدداً فحسب بل تخص البشرية جمعاء فالإرهاب صفة تطلق على الإنسان في شروط محددة تبين مستوى وعيه ومدى انتمائه الأخلاقي لجنسه أو عدم انتمائه لهذا الجنس إذ أكدت جميع الأديان السماوية الأصل الواحد للروح البشرية والمنبت الواحد لهذا الجنس، ومن ثمَّ ضرورة وحدة هذا الجنس بصفته مخلوقاً متميزاً بقدرته على الإدراك والفهم لكينونته كجنس واحد، ولذا علينا دراسة الإنسان في أصل وحدته وجوهر هذه الوحدة وضرورة استمرارية هذه الوحدة بشكلها الأكثر نقاءً والعمل على إزالة كل ما هو عائق أمام وحدة هذا الجوهر بعد وضع اليد على أصل المشكلة، لأن الإنسان هو الأصل وهو المشكلة بالنسبة إلى ذاته، ولذا أطرح على نفسي وعلى القارئ الكريم بدايةً الأسئلة الآتية والتي على الرغم من محاولتي الإجابة عنها إلا أنني أترك لكم أيضاً حق الإجابة ومناقشة ما قمت بتقديمه:

هل الإرهاب مشكلة دينية بحتة؟

أو هو مشكلة سياسية؟

أو مشكلة اقتصادية؟

أو مشكلة أخلاقية نفسية؟

التصقت صفة الإرهاب في العصر الحديث بالدين وتحديداً بالدين الإسلامي إذ أصبح الإسلام حسب مفاهيم الشعوب العالمية العصرية المنتج الوحيد للإرهاب فهل تعدُّ هذه المسألة بريئة؟

وكي تستطيع إلصاق صفة ما بجهة ما فأنت تحتاج إلى دلائل ملموسة على أرض الواقع، دلائل تؤكد حقيقة هذه الصفة، وتمثلها حقيقةً جلية تراها العيون وتلمسها الأيدي.

وهذا ما استطاع تحقيقه أصحاب المصلحة في تشويه صورة الإسلام.

فالعدو لا بدّ أن يكون قبيحاً كي يتمكن صاحب الحجة من إثبات حجته في عدوانه ولذا لا بد من صناعة الوجه القبيح وتجميل هذا القبح في عيون أبناء العدو أولاً. فالرداء يحتاج من يلبسه وكي يرغب الشخص المقصود في هذا اللباس لا بد أن تتوافر لديه القناعات الكاملة بجمال هذا الرداء، وهذه العملية تحتاج إلى مصمم أولاً وخبير دعاية وإعلان ثانياً ومن ثمَّ يمكننا أن ننفي فكرة المصادفة عن هذه المحاولات المستمرة لربط الإسلام بالإرهاب لكن يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: هل يمكن إقناع إنسان يعرف قيم الجمال ومعانيه الحقيقية بارتداء لباس رديء أو وجه قبيح؟

وهنا يبرز الجانب الثاني من المشكلة وهو في الحقيقة الخطوة الأولى، فعدم إدراك الإنسان معاني الجمال الحقيقي أو عدم توافر شروط هذه المعرفة لديه هو البداية التي لا بد منها لجعله قابلاً للذوق الآخر أو الفهم الآخر.

وللإرهاب أصل واحد وجوهر واحد هو العنف، وللعنف أصل أو مركز هو بنية النفس البشرية المريضة التي تسعى إلى انتزاع حصة الآخر أو حق الآخر، ونستطيع عدّ قتل قابيل لهابيل أول مثال عن العمل الإرهابي في تاريخ البشرية. إذن، هو العنف بأقسى أشكاله أو صوره مستنداً إلى غايات أنانية يُغلِّبُ فيها الإنسان غرائزه على إنسانيته فيظهر الجانب الوحشي منه.

ارتبط ظهور الجانب الوحشي في هذا المثال بحب التملك أي الرغبة في حيازة ملكية أكبر بغض النظر عن طبيعة الملكية المرغوب في حيازتها مادية كانت أم معنوية، لأنها تحمل الرغبة في انتزاع حصة الآخر أو حقه، أي حرمان هذا الآخر من حق ما. فالمسألة في

جذورها نفسية أي متعلقة بالملكات الدماغية والعصبية من جهة، وبمستوى الوعي أو النضج المعرفـــي عند الإنسان من جهة أخرى، وهذا ما تؤكده قصة قابيل وهابيل في جزئها الأخير عنـــد الشعور بالنـــدم وبالذنب من القاتل بعد وضوح الرؤيـــة واكتشاف مدى تفاهة المكتسب مقارنةً ببشاعة فعل الجريمة، ومن جهة أخرى فالندم دليل على إدراك الإنسان مقدار جهله، ودليل أيضاً على أن امتلاك المعرفة هو حصانة من الإقدام على فعل السوء.

وبعد تقديم هذا المثال وبالتحليل البسيط نستطيع التأكيد أن العامل النفسي هو الأساس، ولكن السؤال الضروري هنا: كيف يتكوَّن العامل النفسي وما محرضاته؟

الفـــرد بوصفـــه بنيةً عصبيـــة نفسية مرتبط بالعلاقـــة مع المحيط، ومن ثـــمَّ فإنَّ البنية العصبية النفسية خاضعة للمحيط وتأثيراته، وهذا ما يجعل للاقتصاد التأثير الأول والأقوى، لأن الاقتصاد في جوهره يُشبع الحاجات الضرورية لهذه العضوية، وكلُّ مادة حاجةٌ ضرورية، بنوعيهـــا الأولي /البسيط، والمركـــب/ المعقد، أو المؤقت والدائم، كما أنَّ لها أيضاً تأثيرات فـــي البنية النفسية للأفراد، ولتلبية هذه الحاجة هناك طرائق كثيرة وأساليب مختلفة، وكلما كانـــت الطرائق أو الأساليب معقدة أو غيـــر واضحة أو غير سليمة ازدادت صعوبة الحل ومن ثـــمَّ تضخمت الأزمة داخل النفس البشرية، ومن ثمَّ تصبح الجريمة أسهل الطرائق وأقصرها للوصـــول إلى تحقيق الغاية ولا سيَّما عندما تمتلك المسوِّغات الكافية للفعل الإجرامي وهذه المسوِّغات من شقين: الأول فردي/ذاتي، والثاني عام/ جمعي.

١-العامل الذاتي:

وهذا يقسم إلى قسمين:

أ- **وراثي**: وهو ما يتعلق بطبيعة الأعضاء المكونة لهذا الجسد عصبية وعضلية وعظمية ومـــدى سلامتها وقدراتها، وهـــذا الجانب ما يجعل ردود الأفعال حـــول الموضوع الواحد أو المشكلة الواحدة متفاوتة بين الأفراد.

ب- **مكتسب**: وهو كل ما يفرضه المحيط على الإنسان /الفرد/.

ولهذا الجانب الأثر الأكبر في تحديد سلوكيات الفرد وتوجهاته وقناعاته لأنه يشكل القوة الضاغطة الحاكمة للفرد.

إذن، ضعف القدرات الدماغية الذاتية الموروثة مع ضعف الاكتساب المعرفي يؤدي إلى خلل في القدرة على معالجة الأمور، ويتمثل هذا في ردود أفعال غير سليمة أو ردود أفعال مرضية،

وهكذا تمثلت الخطوات الأولى في انقسام المجتمع البشري إلى قسمين، وانتقال هذا المجتمع من مرحلة المشاعة البدائية إلى مرحلة العبودية عبر خطوات إرهابية تمثلت في إكراه طرف لطرف على الرضوخ والعمل لصالحه، ولذا نستطيع التأكيد أن العمل الإرهابي الأول كان بدافع الأنانيــة الذي أسهم في تحويل المجتمع إلــى مالك ومملوك فقصة هابيل وقابيل قصة دينية ترويها الأديان السماوية بغض النظر عن طريقة السرد الروائي، لأنها تعبر عن مضمون واحد وجوهر واحد هو الحرب بين الغريزة والعقل، بين الأنانية المريضة والجمعية الأخلاقية، بين العنف والسلام، وهذا ما يؤكد أنَّ /العقل يُصلح ورأس المال يُفسد/.

إذن، فالشــر المتمثــل في العنف قــد حرَّكته بداية غريزة الأنا /حــب التملك/ وهو في معركتــه هذه قد عمل على إخراج الفكر من دائرة العقل، وتوظيفه لمصلحة الغريزة أي جعل الفكــر خادماً للغريزة، ومن ثمَّ خلق منظومة فكرية تدعــم هذه الخطوات وتسوِّغ وجودها كحقائق لا بد منها، بل على أنها الحقيقة الوحيدة وبتحول الإرهاب البدائي /الفعل الإجرامي الفردي/ إلى منظومة فكرية تمارسها مجموعة أفراد ضد مجموعة أخرى انتقلت الجريمة من شكلهــا الفردي واسمها الأول /الجريمة/ إلى /الجريمة المنظمة/ بوصفها ممارسة جماعية وهذه الجريمة المنظمة الجمعية استحقَّت حيازةَ مصطلح جديد هو /الإرهاب/.

إذن، الإرهاب هو انتقال من الفعل الوحشي الفردي العشوائي إلى الفعل الوحشي الجمعي المنظــم وهذا ما استدعى عبــر التاريخ تدخل العقل بصفته المنظومــة الفكرية الصحيحة فــي محاولــة لإعادة التوازن إلى الحياة البشرية وقد تمثل تدخــل العقل بظهور رسل السماء /الأنبيــاء. فالأنبياء هم ممثِّلو العقــل /المنظومة الفكرية الصحيحة/ ولكن سرعان ما كانت تتغلب /المنظومة الفكريــة الخاطئة/ وتعود إلى الواجهة فتعيد بذلك مسيرة العنف المنظم أي /الإرهاب/.

إذن، الإرهــاب ليســ صفة دينية بل هــو محاولة تشويه للدين وليســ خاصاً بمنهج ديني محــدد، لأن مجرد انتقال السلطــة الدينية إلى أيدي المتطرفين مــن أسياد المال أو مجرد سيطرة هؤلاء المتطرفين من أسياد المال على المجتمع أدى إلى انتكاسة وتحريف في المنهج الديني، وهذا ما أكدتــه الحوادث التاريخية خلال مراحل تطور الرسالات السماوية كلها من اليهوديــة إلى المسيحية وصولاً إلى الإسلام. كمــا أن الإرهاب لم يتوقف عند الممثلين غير الحقيقيين للدين بل تجاوز ذلك ليصل إلى قمته، كإرهاب دولة منظم عند أصحاب النظريات

العرقيــة فكانت النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا، وهذه أخطر مراحل الإرهاب عندما يتمكن من الوصول إلى السيطرة على مجتمع بشري ما فيمارس ما يسمى إرهاب الدولة وهو أعلــى مستوى للإرهاب. إذن هو انتقال من الجريمة الفردية /الأنانية/ الفردية إلى الجريمة الجمعيــة /الأنانية/ الجمعية، ومن ثمَّ فهو تجسيد للملكية الفردية بشكلها البدائي وانتقالها إلــى الشكل المنظم، إذ لا يمكن تجسيد الأنا الفرديــة كقوة دائمة دون مساندة مجموعة من الأنوات التي تحمل الهدف نفسه، وبذلك تتشكل مجموعة من (الأنوات) المريضة التي تصبح عصبــة أو منظمة تستخدم لتحقيق غاياتها كل فكرة ممكنــة وبغض النظر عن الأيديولوجيا لأن الدافع النفعي الخاص هو الأصل وكي تتمكن من الثبات والمتابعة فهي تحتاج إلى برنامج فكــري محدد ينقلها إلى المستــوى السياسي بصفتها قوة بشرية تطمح لبسط سيطرتها على مجتمع بشري محدد في بقعة جغرافية معينة.

وهكــذا تبين معنا أن الإرهــاب من أصل نفسي تتبعه جملة مــن العوامل المشجعة وهي اقتصادية بالدرجة الأولى.

إذن، ما الحلول الممكنة؟ وما الطرائق والوسائل أو السبل الكفيلة بالتخلص من هذه الآفة أو الحد منها إلى الدرجة التي تلغي إمكانية تأثيرها على المجتمع؟

عندما تتداخــل الحالة النفسية مع الحاجة الاقتصادية تداخلاً مشوهاً لا بد من توظيف العلم المناسب لحل هذه المشكلة، والعلم المناسب للعلاج هو التربية لأن التربية هي بالتعريف: جملة المؤثرات المادية والفكرية على الكائن البشري.

وهي بهذا المعنى قوة الأثر الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي ومن ثمَّ القانوني الذي يحكم و يضع الحدود المناسبة للأفعال وردود الأفعال، وله قوة التنفيذ على أرض الواقع بوصفــه قوة زجر من ناحية وقوة إباحة من ناحية أخرى لأنَّه القوة المنظمة للحركة البشرية أفراداً وجماعات.

إذن، يعــدّ مجال الحركــة وحدودها وأبعادها وخطوط سيرها ومــدى سلامة الخطوات، وخطوط السير المقياس الذي عليه يمكن بناء النقاء النفسي أو بالعكس يمكن بناء التشوهات النفسية.

تطــورت قدرة التأثير الدعائــي والإعلامي من أساليب بسيطة فــي العصور الغابرة إلى أساليــب وقدرات كبيرة في العصر الحالي إذ أصبحــت إمكانية التأثير على النشاط الفكري

والحركة البشرية أكبر وأخطر بما لا يقاس مقارنة مع ما مضى من زمن فللتطرف وجود في المجتمعات البشرية كافة، ولكن بدرجات متفاوتة، وتعدُّ المجتمعات الأكثر فقراً وتخلفاً التربة الخصبة لنمو وتكاثر أفكار التطرف، وهناك وسائل كثيرة ومتنوعة لنشر التطرف منها استخدام المال أي شراء النفوس بالمال ومنها أساليب التضليل التي تعتمد بشكل أساسي على الترهيب والتخويف والترغيب والتحبب لعالم الغيب، واستخدام الغيبيات المبهمة وغير المدركة هو من أهم الأساليب المتبعة مع الضحايا الذين هم في الأساس يعانون من غربة حقيقية عن الواقع، وضعف في ملكات التحليل والتركيب وضعف في الحياة المادية ورهبة من الحصول على ملذات الحياة مع الرغبة الجامحة في امتلاكها، وكثيراً ما يكون هذا الخلل النفسي تربة خصبة ومكاناً مفتوحاً لاستقبال الأفكار المتطرفة. إذن، الخلل هو في الرغبة في امتلاك شيء ما وعدم القدرة على امتلاكه بالوسائل البسيطة والصحيحة، ولذا تبدو الحاجة للدعم المالي إحدى مقومات نشر الفكر المتطرف وهذا يعني بالضرورة وجود جهات تمتلك إمكانات مالية ضخمة تقف خلف ثقافة التطرف ونشر الإرهاب. فالصراع الحقيقي يبدو غير واضح للعيان لكن جميع الدلائل تشير إلى الصراع بين قوى الرأسمال المتناحرة أو المتنافسة التي تجد أن حشد أعداد كبيرة خلف مصالحها يتطلب أمرين أساسيين هما:

١-المكان الجغرافي والطبيعي الذي يحتوي على الثروات.

٢-البيئة الحاضنة أو القابلة لدخول الفكر المتطرف إليها.

فالعامل الاقتصادي هنا يظهر بوجهيه:

الوجه الأول هو أسياد المال، والوجه الثاني هو الفقر والعوز، وباجتماع الطرفين المتناقضين على هدف واحد تتكون الكارثة فهو اجتماع مشوَّه أو غير منطقي ولا يمكن تسميته بالتحالف لأن التحالف يكون بين متساويَيْن أو متعادلين بشكل ما أو ظرف ما، ولكن الاجتماع هنا يكون بين نقيضين هما السيد والعبد ولا يجتمع السيد والعبد إلا على ما يعني مهمة تحقيق الغرائز الأنانية، وكل حسب مستوى الأنا لديه والفارق كبير جداً بين مستويي الأنا، فمستوى الأنا لدى السيد ليس من أجل إشباع الغرائز الآنية الجسدية التي لا يمتلكها فحسب، بل تلك التي يعاني من التخمة فيها. إنها الأنا المركبة /المعقدة/ التي نمت نمواً كبيراً بعد تحقيق التخمة من فائض الفعل الغريزي ووصلت إلى المستوى الفكري الذي تحاول تحقيق استمرارية هذا التفوق المادي والغريزي بوساطته، في حين نجدها عند العبد في مستواها البدائي والأولي إذ

يعاني بسبب العجز عن تحقيقها من الكبت المَرَضي الذي يتجلّى في محاولة تحقيق غرائزه بأساليب مبالغ فيها، وتتصف بالشراسة والعنف ولكي يستطيع السيد إقناع العبد بتنفيذ مخططاته لا بد له من أن يزين له الطريق في مستوييه الدنيوي والديني /العالم الآخر/ المجهول وهكذا يُربَط بين موضوعة الغرائز الدنيوية وإمكانية تحقيقها في العالم الآخر في حال فقدانها في الحياة الدنيا أو جعل الحياة الآخرة استمرارية للمتع الحسية والغريزية في العالم الآخر، ولا يمكن ربط العالمَين إلا عن طريق الدين، فيكون الدين المطية التي يستخدمها السيد وما يسهل المهمة هو إمكانية تفسير الموضوعة الدينية بكثير من التفسيرات وهذا الاختلاف في تفسير النص الديني أدى عبر التاريخ إلى انقسام المجتمع الواحد إلى تكتلات دينية متناحرة ومتصارعة حول المفهوم الديني، وتؤدي هذه الصراعات إلى تفكيك المجتمع الواحد وهذه هي الظروف التي تمنح الفرصة لتدخل القوى الخارجية في المجتمع ومن ثمَّ العمل على زيادة حالة التفكك عبر دعم قوى التطرف والعصبية.

إذن، الحل هو في بناء النفس البشرية بالشكل الأمثل أو العمل على تنقية النفس البشري من شوائبها وهذه المهمة ليست نظرية بحتة ولا يمكنها أن تكون كذلك، بل هي مهمة عملية تتمثل في طبيعة إدارة الحركة المادية بأفضل شكل ممكن ومتوافق مع الفكرة النظرية إذ يمكن تحقيق حالة الانسجام بين النظري والعملي وتكامل التأثير المشترك لتحقيق الغاية الواحدة أو الهدف الواحد، وهنا لابد من تأكيد مقولتي التي قدمتها في بحث سابق أنَّ /الماديات أساس للروحانيات/.

فتحقيق حالة إرواء أو إشباع الغرائز بالشكل الطبيعي هو الضرورة التي تتطلب تأمين ظروف امتلاك هذا الأمر لأن هدوء النفس يتطلب المصالحة ما بين الرغبة وسبل تحقيقها أو إروائها، ولأنَّ الإنسان كائن عضوي أولاً أي حيوان مادي بداية فالضرورة تتطلب تحقيق الهدوء لهذه العضوية الحيوانية بما يتناسب مع سلامتها وقدرتها على الاستمرار والبقاء، والمعادلة هي في جعل هذه العضوية بكل ما تحمله في خدمة النمو العقلي والتطور الفكري أي خادمة للعقل لأن أصل الشذوذ يكمن في جعل العقل خادماً لهذه الغرائز.

مواقف ومخاطبات سعد الدين كليب

الأصل الذي لا يتـأصّل

د. وفيق سليطين

يبنـي «سعد الدين كليب» قصيدته «مواقف ومخاطبات»[1] على غرار نصّ النفّري الشهير، فيثبت لها العنوان نفسه، وإن كان مخفوضاً عن رتبة الكلية والإحاطة التي ينطق بها العنوان في النصّ القديم. فبين «المواقف والمخاطبات» للنفّري و«مواقف ومخاطبات» كليب تحوّل، علـى مستـوى العنونة، مـن الكلية إلى التبعيض، ومن الحصر إلى النثـر، ومن المطلق إلى النسبي. وهذه إشارة أولى، سيكون لها أثرها البنيوي في إنتاج هذه القراءة وإدارتها على قواعد الاختلاف.

صحيـحٌ أن الشاعـر يتخذ من تجربة النفّري منطلقاً له، فيقف على أرضها، أو يصدر عن إطارهـا العـام، ويُصـدّر الكلام بلازمة مواقفهـا: «أوقفني وقال»، لكنّ مـا يحدثه بعد ذلك هو نقضٌ للأسـس المستقرّة داخل هـذا الإطار، وخلخلة للتكوينات، وإعـادة تأسيس تُدير منوال القـول على غير ما كان عليه هناك، مـن الوضعية الموهمة بالمطابقة، والامتداد، والتحقّق الجديد بصوت النفّري المستعاد.

فـي تأطير القول وإزاحة ثوابت مـا ينطوي عليه الإطار، تكسيـر لصلابة الإطار نفسه، واختـراق له، وإحداثٌ فيه، بحمله علـى الاستجابة للمتغيّر، الاستجابة التي هي تغيير له من واقـع الاحتفـاظ به، لإجرائه على محـكّات التجربة الحادثة، بما يقتضـي ذلك من توسعته وتعديله وإعادة خلقه، بتوجيهه من هنا على خلاف ما كان عليه في تجربة الماضي المستقرّة

فيــه. وعلى ذلــك، تتوالى علامات التحوّل، منــذ الفاتحة النصيّة التــي تنشئ الوصل وتنتج الفصل، وتؤسس لهذا الازدواج الذي يسم النص بين طريقة القول ومضمون القول؛ فإذا كان الجانب الأول يصــل بصياغة النفّري، فإن الجانب الثاني يفتح على إحداث التحوّل المقولي الــذي يرسّخ الفصل بانشقاقه عن الصوت المتكلّم في تجربة النفّري والنهوض في مواجهته علــى نحو مــن التقابل الضدّي. وهــذه الحركة المزدوجة في قيامها علــى الفصل والوصل ستكون الركيزة البنائيــة للتأسيس المقطعي في تعاقب الوحدات النصيّة كما تجلوها البادئة في صيغة «**أوقفني وقال**».

من خلال تعقّب ظهور هذه البادئة وفحص العلاقة المتشكّلة في كلٍّ من المقاطع المتتالية، يمكن الوقوف على ما يمدّ المسافة بين التجربتين من داخل ما يوهم بارتفاعها، وهي مسافة فنيــة وقيمية في الآن نفسه، يتمخّضُ عنها جدل الشكل والمحتوى في حركته المتجددة مرّة بعد مرّة. ولنا أن نمثّل لذلك بما يأتي في مطلع القصيدة:

أوقفني في بستان الوجد

وقالْ

من ضلع الأنثى

تبتدئ الأحوالْ

لو أنّ العارفَ

يعرفُ حقّاً

ما كان استلقى كالمجذوب

على سُرّتها

ثمّ تلاشى...

في الموّالْ

لو أنّ الجاهلَ

يجهلُ حقّاً

ما كان تلعثم

فيما قالْ!

هناك مسافة أولى بين لازمة المواقف وما يفضي به قولها؛ فاللازمة «**أوقفني وقال**» تشدُّ إلى أفق التجريد الذي هو إعراض عن كلّ متجسّد، ونفورٌ منه على مقتضى الوقفة. لكنّ لازمة النفّري تصطدم هنا بما يتكشّف عنه القول من عشق الصورة المجسَّدة «الأنثى»، ومن اصطلام الرغبة فيها، فكأنّ مضمون القول يتفلَّتُ من قيد شكله، أي من دلالة ما تختزنه اللازمة بذاتها من تحوّل على أفق التجريد المطلق الذي هو شرط تلقي القول، أو شرط الاتصال بأفق اللغة المطلقة. وبين حدّي التثبيت القولي والتحويل المقولي تهتزُّ المسافة المشار إليها، وتترجّح بينهما من واقع اتصالها بكل منهما وانفتاحها على الآخر في الآن نفسه. وما ذاك إلا لأن شاعر المواقف والمخاطبات الجديدة يستبقي شكل القول، ويستولد منه معاكسة له، أو مواجهة لما يفترض أن يسفر عنه. ومن هذا الاحتكاك بين الجانبين يقدح شرارة الانبثاق الشعري في صدمة المفاجأة، بما يترتب عليها أو يحدث معها من معاكسة الكتابة النفّرية ومجادلتها. وعلى هذا الأساس تنتقض أوضاع التراتب السابقة، ويعاد إنتاجها باختلاف، هو اختلاف الرؤية عند شاعر الأزمنة الحديثة الذي يخضع ما يأخذ به من أمشاج الثقافة الصوفية لمنظوره الخاص، فيعيد فتح ما يكتبه أو يشتبك به من هذه المواقف على الجسد والعالم.

هكذا يكون الرجوع إلى المواقف والمخاطبات إعادة كتابة لها في ضوء التجربة الحادثة ومنظورها المختلف. ومن شأن ذلك أن يحرّر مخزون التجربة الصوفية القديمة من ثبات النظرة، ومن التلقي الجامد الذي يكفّها عن التفاعل والتجدّد، فيغلق عليها، ويطوّقها مرة أخرى بشروط ما كان، في دعوى مطابقتها بفعل الاستعادة لها الآن. ولا شكّ في أن ما تضطلع به البنية الجديدة من إعادة تنضيد العناصر وشبكها في علاقات مغايرة سيرتد على ما يبدو صيغة ثابتة في بناء الموقف، ليحدث أثره في هذه الصيغة داخل نظام العلاقة المتغيّر، وهو ما يقتضي إعادة تعيين الفاعل، فاعل الوقفة وفاعل القول، باختلاف عمّا كان من ذي قبل.

إذا كان النفّري «قد أدار الظهر للكون كلّه [...] ابتغاء الاتصال بالموجود المحض»[٢]، فإن صاحب المواقف الجديدة يعيد توجيه الحركة فيها، ليجعل من ذلك الإعراض إقبالاً على الوجود المتعيّن، وعشقاً له، ومحاولةً للالتحام به. وليس أدلّ على ذلك من نشدان الجسد المؤنث ورفعه إلى رتبة القداسة بجعله أصلاً بدئياً للخلق والصدور. وهذا التأسيس النصيّ ينقض ما استقرّ عليه التقليد الصوفي، إذْ يقيم ضلع حوّاء مكان ضلع آدم، فيقلب ثنائية الأصل والفرع، ويعيد تركيزها على المبدأ المؤنث الذي تنشط المواقف في قصده، ويستوي

مركــزاً تقاس عليه الأشياء وتُعايَرُ به. وعلى ذلك تنهضــ البنية التقابلية القائمة على تبديل الموقــع لكل من طرفـــي الثنائية وقلب منطق العلاقة الحاكمة بين حــواء وآدم، وبين الأصل والفــرع، وبين حركة المواقف التي تروم الانعتاق من كثافـــة العالم المادية وحركتها الضدية المتجهـــة للانغراس في قلب هذا العالم، وفي داخل النسيج الحـــي لآياته الجسدية. وبحكم ذلك يلاحظ. كما يثبت توزيع الكتلة اللغوية في النص. أن فاعل المعرفة الصوفية وشاعرها الجديــد ينتسب إلى سلفه في الوقت الذي يخرج فيـــه من نطاق حدوده الأبوية. وهذا شرط تحقيق الإضافة إليه في عملية الاستمداد منه وإعادة بناء المنظور المهيمن.

فاعليات القلب والتحويل في النصّ الجديد

استنـــاداً إلى عمليات القلب والتحويل التي تحدّد طرائق الاشتباك بنصّ النفّري وثقافته، يُبنى المنظور الجديد، ويحكم بما يتولّد منه نحوَ النصّ المركّب. وأول ما يطالعنا به من ذلك هـــو قلب المبدأ المولِّد والتحوّل به من الذكورة إلـــى الأنوثة، خلافاً لما تنصّ عليه الأدبيات الصوفية من التمركز على الأصل المذكّر، وهي، في ذلك كلّه، تنبثق من ثقافة مكوَّنة، وتنتظم فيها، وتُراكم عليها.

في تأسيســ القول على المؤنث سندٌ لتمدّد علامات حضـــوره، ولتمكّن موجبات الإحالة عليها في النصّ، وهو حضور يستدعي مقابلاته الغائبة في إزاحته لها:

أوقفني...

كانت رائحةُ التفاح

تسيل من الكلمات

وكنتُ أحسُّ

بطعم الروحْ!

تأخذ «رائحة التفاح» في هذا الموقف دلالة خاصة مقرونة بطاقة التفتّح الإنساني والإنعاش الروحي، على خلاف ما لازمها من معنى الغواية، أو من الدلالة السالبة الموصولة بالأنثى في السرد الذي تحفل به المدوّنات الشارحة في التراث الديني الفقهي. وفي «رائحة التفاح التي تسيل من الكلمات» تأنيث مضمرٌ لفاعل القول، وهو ما يشير ضمناً إلى نسق المذكر، ويسرّب ما يقترن به إلى مجال التلقي، في الوقت الذي يستوي فيه مقابلاً له.

إلــى جانــب ذلك، يلاحظ أن هنــاك مسافة مظلّلة بين لازمة الموقــف وما يعقبها. هذه الرقعة المغيَّبة هي الحيّز الذي يملؤه القول في الأصل. لكنّ الفراغ القولي، في هذا المحل، لا يلبث أن يحضر بدلالة أثره «رائحة التفاح». ولا شكَّ في أن هذه الفجوة الماثلة في السياق تفتــح مسافة أخرى في البناء اللغــوي للموقف؛ فالاستغناء عن جملــة القول يفسح المجال لتعبيــر الواقف فــي صدوره عن ذات نفسه. ويضاعف من أمر هــذه الفجوة ما تنطوي عليه الصيغة من تخالف الضمير وازدواجه بين التذكير في «أوقفني» والتأنيث في «رائحة التفاح» الملازمــة للنطــق. وهذا الملمح هو في أساس ما تقوم عليــه المواقف الجديدة في عمليات اشتباكها بالمرجع وتحويلها له.

فــي عمليات التحويل والإنتاج النصيّ، لا يقتصــر الشاعر على نص النفّري الذي ينطلق منــه ويبني عليه، بل إن عمله هنا يمتدّ ويتسع ليشمــل الثقافة التي ينتمي إليها النصّ، وهي الثقافــة الصوفية كما تتركّز فــي آثار أعلامها الكبار. ومن هنا كانــت تتوالى الإشارات إلى البسطامــي والحلاج وابــن عربي، فضلاً عن النفّري، كما كانت تتوالــى القرائن النصيّة في الإحالة على المقدّس، وفي العمل على الانزياح بلغة القداسة، لإعادة تأسيسها على الحضور بدلاً من الغياب، وعلى المجسّد بدلاً من المجرد، وعلى الرغبة بدلاً من الرهبة، وعلى الحبّ الإنسانــي والحيّز الذي يقــوم فيه. ونورد على ذلك، فيما يأتي، بعض الشواهد المقتطعة من نصّ القصيدة، لنتبيّن فيها موضع الإحالة على التراث الصوفي.

١ . شاهد الإحالة على الحلاّج:

وبين الجرّة والينبوع تحارُ خطايَ

خطايَ تحارُ

وما في الجبّةِ إلا السُّكرْ.

٢ . شاهد الإحالة على البسطامي:

مُذ أوقفني

وأنا أنظر في المرآةِ

فلا أبصرُ إلّاهْ

يا الله

أتراني ابيضّتْ عيناي

تراهُ انفرط النورُ

فما ثمَّ سواهْ!

ومن ذلك أيضاً قوله:

فانظرْ فيك فسوف تراني

سوف تراني حين تراك

كأنك تنظر في المرآةْ.

٣. شاهد الإحالة على ابن عربي:

أوقفني... وقالْ

شيخي أنثايَ

فلا تجعل من ذكَرٍ شيخاً لكْ

إمّا أن تعبده

وتكونَ له ظلّاً

أو يستبعدَ ظلَّكْ

ما لا يتأنّثُ يابن أخي

لا يغويكَ

وإنْ أغواكَ، فلن يلدَكْ.

بناءً على الشواهد المثبّتة، يمكن أن نتأمّل حقل البدائل في عمليات التحويل النصيّ، من خلال الخطاطة الآتية:

المرجع النصيّ	النص الجديد
ـ الحلاج: «ما في الجبّة إلا الله»[٣].	ما في الجبّة إلا السُّكرّ.
ـ البسطامي: «كان الحقّ مرآتي، فصرتُ اليوم مرآة نفسي»[٤].	سوف تراني حين تراك، كأنك تنظر في المرآة.
ـ ابن عربي: «المكان إذا لم يؤنّث لا يعوّل عليه»[٥].	ما لا يتأنّثُ يابن أخي لا يغويك...

فـــي النظرة الأولى، يبدو أن العلاقة بين جانبي الخطاطة تقوم على المطابقة، حتى لكأن القـــول المرجعي يحلّ في النص الجديد، ما خـــلا علاقة الإبدال «الله ≠ السُّكْر» في موضع الإحالـــة على الحلاج. ويبدو أن العلاقة الجامعـــة ـ كما ترتسم في نحوها التزامني ـ يحكمها مبدأ التوازي، من حيث هو تكرير بنية تملأ بعناصر جديدة[٦]. لكنّ النظرة الفاحصة لا تستتيم إلى هذا المظهر؛ لأن السنن الثقافي الذي يتأسس عليه القول مختلف كلّ الاختلاف بين النص المرجعـــي والنص الجديد. وفي تحرّي هذا الاختلاف، يتّضح أن مدار الأقوال الصوفية في الجانب الأول منعقد على «المطلق الإلهي» و«الأنوثة المطلقة». أما مدار التحويل الذي ينهض بـــه النص الجديـــد، فينعقد على «الإنساني» و«الدنيوي» والأنوثـــة المجسدة في المرأة، وهو اختلاف يشدُّ الكلام إلى دائرتين متقابلتين ضدّياً، كما في مثال المطلق والنسبي، والمقدّس والدنيوي.

فـــي الحقل الأفقي الأول، تجمع علاقـــة الإبدال بين الله والسكر في دلالة الغياب، غياب الصوفي عن الذات والعالم ليفنى في الحقّ، وغياب الشاعر عن كلّ ما يعطل الاندفاع الحيوي للاتحـــاد بالأنثى. وبهذا نجد أن دلالة الغياب الموحّدة تنقسم بين الجانبين في نحو التقابل. وذلـــك ما يحدث، اعتماداً على تقابـــل المرايا، من تحقق الصوفي بالإلهي، في مقابل التحام الشاعـــر بأنثاه، وقيامهما معاً في هوية تذوب فيها ضمائـــر القسمة والانغلاق الفردي، على غرار التحوّل الأخير من الأنوثة المطلقة عند ابن عربي إلى الأنثى المتعينة في علاقة الحب الإنساني.

ما يلاحظ من غياب الأنثى عن نصّ النفّري لم يَحُلْ، في عملية التحويل الشعري له، دون الاشتباك بالثقافة التي يتجذّر فيها، كما سبقت الإشارة. لكنّ هذا الغياب عند النفّري تعوّضه اللغـــة نفسهـــا في مظهر التأنيث، ولعلّ في ذلك ما يلتقي باحتفـــال ابن عربي بالعلّة المؤنثة، وبالمبدأ الكوني للأنوثة السارية في صور الوجود. وهذا ما يمكن ردّه، في حوار ثقافة النصّ، على مطلع القصيدة في قول الشاعر:

أوقفني في بستان الوجدِ

وقالْ

من ضلع الأنثى

تبتدئ الأحوالْ.

الصوت النصي: من الواحد إلى المتعدد

في مواقف النفّري ومخاطباته استغراق تام في الإنصات للكلام الإلهي. وهذا الاستغراق يقضـــي بصمت المتلقــي (النفّري) صمتاً مطبقاً، هو ضرب من فــراغ الذات المهيّئ لمطلق الاستقبــال؛ لأن الخروج عن حدّ الصمت إلى إمكان المشاركة هو تشويش للقول وانقطاع عن مصـــدره. ولهذا كانت الكتابة النفّرية مثالاً للصمت الصوفـــي أمام انفتاح اللغة المطلقة، بل ربما كان هذا الصمت نفسه شرطاً لذلك الانفتاح. وهذا ما تشهد عليه لازمة المواقف ولازمة المخاطبات، إذ «تكشفان عن وضعية الذات في خطابها، فهي تتلقّى ما يُلقّن لها، فتكتبه بقلم التسليـــم إلى الله وليـــس بقلم الذات»(٧). ويعني ذلك أن القول هنا كان موجَّهاً على الدوام من أعلـــى إلى أدنى، كمـــا يعني أن التلقي كان إنصاتاً متصلاً لفاعـــل النطق المضمر في صيغة اللازمة.

صحيحٌ أن النصّ الشعري يصدرُ، في مواقفه الجديدة، عن لازمة المواقف نفسها، ويُصدِّرُ بهـــا المقاطـــع الشعرية التي هي مواقـــف النصّ، لكنّ الفاعل الأوحـــد المضمر في الصيغة يتكشّف هنا عن اختلافه وتعدّده كلما تقدّمنا في القراءة والتحليل. وبهذا يكون التقاء المواقف الجديـــدة بسابقتها على الصيغة الثابتة منتجاً للافتـــراق والتغاير؛ ذلك أن المواقف الحادثة تكفّ عن أن تكون اتجاهاً واحداً بقول يتنزّل من أعلى، ويستأثر به فاعل مطلق؛ أي إنها تتحوّل مـــن التلقين إلى الحوار، ومن رسوخ الصوت المفرد وتحكّمه إلى تجاوب الأصوات، ويلزم من ذلك أن يتغيّر موقع التلقي من حال الخضوع هناك إلى طور المشاركة هنا، وأن يتحول فاعله مـــن سلبية الاستقبال إلى فاعليـــة الإرسال. وإذا كان هذا التحول مـــن داخل الصيغة الثابتة للمواقف إيذاناً بفتح الصيغة على الاختلاف فيما يخصّ وضعية المتلقي، فإن ذلك يقتضي، في الوقت نفسه، تغيّر هوية الفاعل تغيّراً مواكباً لانشعاب جهات القول.

هكذا يغدو مخاطب المواقف الجديدة صوتاً متكلماً فيها، يصدر عن رؤيته، ويأخذ موقفه على عاتقه، ويبني استجابته الذاتية، أو يطلق رؤيته وينهض بعبء فعله الخاص:

أقسمتُ

بمن

في يده

ملكوت الذوقْ

لن أبرحَ هذا الباب
حتى أسقطَ مغشيّاً
في ماء العشقْ.

وعلى أفق هذا التحول في بنية الموقف الشعري، يحدث تبادل للأدوار، إذ تشفّ صيغة القول عن انطلاق الصوت الإنساني في الحيّز الجديد، وعن قيامه مقام سابقه الإلهي، بآية الانعطاف بالكتابة الموقفية إلى الحب الإنساني، وإلى الرغبة في المرأة، وإلى عمارة الموقف بفتنة الجسد المؤنث، بديلاً من الفكرة المجردة هناك:

قالَ...
كأني كنتُ أقولْ
ما بالُ الوردْ
يتفتّتُ حين تمرُّ المرأةُ عاريةً
كالوجدْ
ما بالُ المرأة
إذْ تسترقُ السمعَ إلى خطوتها
تملأ سُرّتها بالشهدْ!

في تكثير فاعل القول وتغاير صوته بين المتكلم والمخاطب، وبين الرجل والمرأة، وبين الأنا والهو، فضلاً عما يتسرّب من صوت باني الموقف الجديد الذي هو فاعله ومخاطبه أيضاً، ينتزع الشاعر كلام المواقف من مرجعية الصوت الواحد، ومن قرائنه ومحدداته النصيّة. فإذا كان النفّري. وهو متلقي النداء الإلهي. يكتب انسحابه من دائرة الكلام، فيما يكتبه من المواقف والمخاطبات، فإن متلقي مواقف النص الجديد يقتحم دائرة الكلام، ويسجّل حضوره في القول، جاعلاً ممّا يُتلقّى حصيلة حوارية تتقاطع فيها الأصوات وتتناوب، فيكون الكلام مرّةً بصوت العارف موجّهاً إلى المريد:

لا تنظرْ للجُبّة يابن أخي
دعْ أقنعةَ الناس لبعض الناسْ
أغمض جفنيك إذا ما احترتَ
فما يعنيكَ هو الأنفاسْ.

ويكون مرّةً أخرى من المتكلم المنقسم على نفسه بصوت الشاعر مرسِلاً ومخاطَباً، أي من الهو إلى الأنا، ومن الغائر في اللاشعور إلى سطحه الظاهر:

ما قالَ... ولكنّي أصغيتْ

مُذاكَ،

وما بي منه سوى يا ليتْ

أتكسّر وحدي

في بادية الشهواتِ

ووحدي أتخبَّطُ في ظلمات البيتْ

هل حقّاً قالَ،

وهل حقّاً أصغيتْ؟

أم أني أتكهَّنُ وحدي

وأنا ما بالحيِّ...

وما بالميْتْ؟

وقد تكون المبادرة من المحب في استجابته إلى المحبوب واندفاعه إليه في خطّ صاعد يقلب المنحى الثابت للإرسال والاستقبال في الموقف القديم:

لبّيكَ حبيبي لبّيكْ

هذي خابيةُ الدهشة بين يديكَ

وليس عليكَ إذا ما انكسرتْ ليس عليكْ

فلسوف تعود لسيرتها الأولى

سوف تعود كساقيةٍ إنْ شئتَ

فقط

أغمضْ جفنيكْ.

علــى الرغم ممّا يضطلع به نصّ الشاعر الحديث مــن تعديل المواقف والمخاطبات في كتابــة مواقفه ومخاطباته هو، فإنه لا يبارح حقل الــكلام الصوفي في قلبه له نحو ما يمكن تسميته تصوّفاً دنيوياً، بل إنه. على الرغم ممّا وقفنا عليه من طرائق التحويل. يظلّ محفوفاً

بظلال صوفيــة كثيفة، يستثمر إشاراتها فيما ينتجه بمخالفــة مرجعها. وعلى هذا الأساس، تبقــى موجّهات المدوّنة الصوفية على نشاطها، داخــل أفعال التحويل نفسها، في ترجّح بين الحضــور والغياب، وبين الإلهي والإنسانــي، وبين المعنى والصورة، أو بين المظهر والمخبر، وبين كلام الرَّب وكلام الوجود. وفي ذلك كلّه لا تني تتجدّد المحاولة في امتناع الوصول الذي يتقرّر معه أن الواصل بلا حاصل:

فما لي إمّا قلتُ وصلتُ إليكَ

أعود كما لو أني ما أسريتُ!

من الصمت إلى كلام الجسد

فــي تلقي اللغة المطلقة والانقطاع إليها، كان صمت النفّري خروجاً من قيد الذات وقيد العالم، ومضيّاً «إلى الجذور الأولانية للوجود»[٨]. ولا شكّ في أن التحقق بسماع اللغة المطلقة . من حيث هو اتصال مباشر بمصدرها . يقتضي أن يكون الواقف بلا «أنا».

هذا الاتصال هو، من الوجه الآخر، انقطاع عمّا يصل بالذات والوجود. وفي هذا الانقطاع تنفتح هــوّة الصمت، وتنبثق معها إمكانية الإنصات للخطــاب الإلهي. ومن هنا نجد مدخلاً لفهــم ما يثبته النفّري في الموقف السابع والثلاثين: «لــن تعرف مَنْ تسمع منه حتى يتعرّف إليــك بــلا نطق»[٩]. ومع هذا المحو المتمثّل في انعدام القدرة على النطق، يكون لنا أن نفهم أيضاً لماذا « كاد الواقف يفارق حكم البشرية»[١٠].

فــي بُعد الانقطاع إلــى السمع نفي للزمان والمكان، لا يتحقّق مــع الرؤية؛ فالعين «بوابة لصــور الأشيــاء المحسوسة». ومن هــذا المنطلق. كما يقول اليوسف. يبيّــن النفّري «الدور السلبــي الذي تلعبه مقلة العين في الحيلولة بين الروح و[بين] المبتغى. فمن شأن العين أن تجذب الروح إلى المادة وتجعله أسيرها، وبذلك تصدّه عن كلّ علو أو تجاوز»[١١].

وعلــى ذلك يسوق مــا جاء في المخاطبة الرابعة والثلاثين: «يــا عبد اكفني عينك أكفك قلبك»[١٢]. يلي ذلك: «يا عبد احرس قلبك من قبل عينك، وإلاّ فما حرسته أبداً»[١٣].

إذا ما انتقلنا الآن إلى نصّ «مواقف ومخاطبات» للشاعر سعد الدين كليب، فقابلناه، بما سبــق، أو قسناه عليه، أمكن لنا أن نتبيّــن أن التحوّل الأساسي الذي ينهض به، في تأسيسه علــى نص النفّري واشتباكه به، هــو تحوّل من الأذن إلى العين، يلــزم منه ويواكبه التحوّل

فــي الموقف بوضعية التلقــي من الصوت إلى الصورة، ومن الصمــت إلى النطق؛ ذلك أن نقض نزوع التجريد المطلق بالتجسيد، بما يترتب عليه من انفتاح العين على صور الوجود وانفعال النفس بها، يقتضي الخروج من الصمت إلى التعبير عما تحدثه الصور في ولوجها من بوابة العين.

وفــق ما تقدّم، نجــد أن النص الجديد ينطوي على افتتان أساســي بآيات جمال الوجود وصــوره المجســدة، ولا سيما ما تعلّق من ذلك بالجسد المؤنث الــذي يفتَنُّ الشاعر بتصوير خلجاته، وبالغوص على ما خفي من مكان اللذة، ومن رعشات الرغبة المنسرية منه والمندفعة إليه، دون أن يكون ذلك منفصلاً عن مطلق التأنيث الصوفي. يقول:

ضَعْ يدكَ اليمنى

في البرزخ

بين الوردة والصلصالْ

ثمَّ استرقِ السمعَ

تشمَّمْ

رائحةَ الشهوة إذ تتختَّرُ

أو تنثالْ.

لــم يعدِ السمعُ هنا سوى عنصر في مركّب الحواس التي تأتلف في التقائها على قراءة الجســد وكتابته والاستمداد منه، فيردُّ كل منها حصيلة فعله على غيره في معايشة أقصى أحواله العشقية الانصهارية. والملاحظ هنا أن كتابة الجسد هي كتابة له به؛ أي بالفاعلية الجسديــة التي يتوافــق عليها مخاطب الموقف والمتكلّم فيه. وبهــذا يكون الانغماس في العالــم -وليس تعليق الوجــود فيه- وعياً مختلفاً مداره الجسد فــي حضوره المباشر في العالــم، وفــي إدراكنا له وتفتّحنا فيــه من خلال هذا الحضور. وبنــاءً على ذلك نجد في التحوّل الشعري بنصّ المواقف أن الجسد هو الذي يتكلّم، ويمنح العالم لغته، فيسبغ عليه المعنى عبر هذا التأسيس. ونكتفي ههنا بإيراد هذا الشاهد من «مواقف ومخاطبات» سعد الدين كليب:

خاطبني بأصابعه العشرْ

فطربتُ

طربتُ

كأني تعتعني السُّكْرْ

عبَّادُ الشمس يصلّي بين يديهِ

وبين يديه تصلّي أسماكُ النهرْ

وأنا في البرزخ كالمجذوبِ

أفكُّ طلاسمه

بالسّحرْ

قال: ألم نشرحْ

قلتُ: شرحتَ

وفاض الجمرْ.

إن الكلام بالجسد يقتضي أن تكون الاستجابة فعلاً جسدياً من طبيعة الكلام السابق. وفي علاقــة التفاعل وتزامن الإرسال وتناوبه مــن الجسد وإليه، يبدو أن العالم يتكلم لغة الجسد، فيفضح بالهيئات والأشكال والصور، على خلاف لغة المواقف النفّرية. وعلى الرغم من ذلك، فــإن سعــد الدين كليب -فيما يبنيه من التحوّل بالموقــف والتحويل له- لا يخرج عن الإطار الصوفــي العام، وإن كان يُحدث في توظيف لغته ومصطلحه وثقافته، ويعيد توجيه ذلك نحو صوفية جسدية. ومن هنا كان ما يعمل عليه من الانزياح بلغة المقدَّس، في مثال «ألم نشرح» وغيره، مقصوداً في مسعى إعادة تأسيس القداسة على الجسد، وتوطين النظرة الصوفية هنا، في المجال الإنساني داخل العالم.

هناك، كان الاستماع إلى اللغة المطلقة يتأسس خارج هذا الوجود، أي بشرط الانعتاق من قيده. أما هنا فتجري معايشتها في مصحف الوجود الكبير ولغته الناطقة بالأوضاع الجسدية للهيئات والأشكال. وجرياً على ذلك كان فاعل المواقف الجديدة. وهو مخاطبها أيضاً. يفتح عينيــه على آيــات الجمال المجسَّد، ويباسطها، من حيث هو تعيّــنٌ من تعيناتها، ومفردة في كتــاب لغتها الوجودية. إن هذه المعايشة جوهرها الحبّ الذي لا يستنفد، بل يتجدّد اكتشافه دائماً في حركة الوجود نفسها.

الأصل الذي لا يتأصل

في محاورة النص الجديد لما ينطلق منه ويتخذه «أصلاً» نصياً إنتاجٌ لما عُدّ «أصلاً» باختلاف عن نفسه، أو عن «أصلانيته»، ونفاذٌ إلى بُعد محتجب، يختلف معه السؤال عن الفاعل، وعن القصد والمعنى، بحيث يتكشّف «الأصل» عن أصول، أو عن تأويلات متباينة لا يستقرّ معها القول بثبات أصلي لا معدل عنه، لأن كلّ تأويل يعيد مساءلة ما يُفترض أصلاً، ويزحزحه عن القواعد التي رسّخته وضربت عليه نطاقاً يحجب رؤيته على خلاف المتوهَّم فيه.

على هذا النحو، يمكن القول إن اشتباك النص الجديد بنصّ النفّري لا يُبقي عليه في ثباته ومنعته، وهو، في الوقت نفسه، لا يزيحه بأكثرَ مما ينتجه إنتاجاً آخر يعيد إليه الحياة، ويصله بنسغ العالم، في مناكبته له وإقباله عليه. وفي عمليات التحويل المختلفة التي يتعرّض لها النصّ «الأصل»، يتجدّد السؤال عن المحدّدات التي ينبثق منها التكوين النصيّ، بعدما توارت خلف الركام الذي انهال عليها.

ربما كان مما لا شكّ فيه أن البدائل، أو الممكنات التي يرشّحها الاشتغال النصيّ على مرجعه، تفتح آفاقاً متمايزة، يغدو كلٌّ منها «أصلاً» في قلب ذلك «الأصل». وهنا يكون المقترح الحادث، في اشتقاقه من هناك، نقضاً للأصل بخلخلة تماسكه الأصلي وانتظامه النهائي، أو يكون اكتشافاً له، بوصفه إمكاناً في سلسلة التعدّد الإمكاني. وبهذا يبقى قابلاً لحركة الهدم والبناء بِعَدِّه «أصلاً» لا يتأصل. فهل كانت «مواقف ومخاطبات» سعد الدين كليب تأويلاً آخر لنصّ النفّري، أو اكتشافاً له في ضوء المتغيّر، يحمله على شيء أو آخر من مبارحة ما كان عليه، لينطق هنا بحكم الفرق الذي تستوجبه محركات الكتابة الحادثة؟!

خاطبني وهو يموتُ

حبلُ السُّرة أشبه بالملكوتْ

لا أعمدةُ الحكمةِ

تُمسكُ بالمعنى

حين تهبُّ الريحُ

ولا شجرُ اللاهوتْ.

الهوامش

(١)- سعد الدين كليب: ملحق الثورة الثقافي، دمشق، عدد ٧١٠، تاريخ /٢٨/٩/٢٠١٠م.

(٢)- يوسف سامي اليوسف: مقالات صوفية، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٧م، ص٢٤.

(٣)- السيرة الشعبية للحلاج، تحقيق: رضوان السحّ، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص٥٩.

(٤)- ينظـــر: جمهرة من المستشرقين: تراث الإسلام، ومن ضمنه مقالة نيكلسون «التصوف»، بإشراف توماس أرنولد، تعريب جرجس فتح اللّه، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ١٩٧٨م، ص٣١٣، ٣١٤.

(٥)- ابن عربي: رسالة لا يعوّل عليها، ضمن رسائل ابن عربي، ضبط محمد شهاب الدين العربي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، ص٢٥٥.

(٦)- ينظر: لسانيات النص، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص٢٢٩.

(٧)- خالد بلقاسم: أدونيس والخطاب الصوفي، دار توبقال، الدار البيضاء ـ المغرب، ٢٠٠٠م، ص١١٣.

(٨)- يوسف سامي اليوسف: مقالات صوفية، ص٢٤.

(٩)- النفري: كتاب المواقف ويليه المخاطبات، بعناية آرثر يوحنا أربري، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م، ص٦٧.

(١٠)- المصدر السابق، ص١١.

(١١)- يوسف سامي اليوسف: مقدمة للنفري، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٧م، ص٥٣.

(١٢)- النفري: المواقف والمخاطبات، ص١٨٨.

(١٣)- المصدر السابق، ص١٨٩.

العقل والحقيقة

عبد الكريم ناصيف

لعل فضول الإنسان وحب الاستطلاع لديه هما اللذان دفعاه، منذ البدء لأن يصنع لنفسه عالماً من الأوهام يفسر بها ظواهر الكون ويجيب نفسه عن أسئلة لا يملك من أسباب العلم والمعرفة ما يمكّنه من الإجابة عنها. ولعله منذ عهد الأسترالوبثيكوس يتساءل ويحاول أن يعرف أسرار الحياة، أسرار الكون، لكن قدراته الفكرية لم تكن تسمح له بذلك. مع نمو دماغه وتطور وظائفه، كما ذكرنا من قبل، نمت لديه ملكة التفكير على نحو استثنائي بالنسبة إلى الكائنات الحية الأخرى. مع هذه الملكة نمت ملكة أخرى هي ملكة الحكم التي راح يستخدمها للتمييز بين الصحيح والخطأ، الحقيقة والزيف، ويتوصل بوساطتها إلى وضع قواعد دائمة ومبادئ ثابتة كانت له خلال سيرورة تطوره منارات ترشده سواء السبيل وصور تهديه إلى الطريق الصحيح فلا يضل في هذه المتاهة أو تلك. بذلك تكوَّن لديه العقل الذي يدرك به ما لا يدركه بالحواس الخمس الأخرى، صار لديه أداة تعقله عن توريط نفسه المهالك أي تحبسه وهي مهمة بالغة الأهمية، أثبتت أنها الوحيدة التي أخرجت الإنسان من ظلمات الجهل إلى أرض النور، إذ راحت تخلصه من أوهامه واحداً تلو الآخر لتبني له الحقيقة بالبرهان والتجربة وتكشف له الزيف بالبرهان والتجربة أيضاً.

إنَّ الفرضية الشائعة في علم النفس أنَّ العقل هو وحدة مستقلة قائمة بذاتها، تعمل، تسترخي، تركز، تغفل، تنتبه، وكل ذلك كوحدة مستقلة هي نتاج نهائي لوظائف كثيرة من أفعال

ارتكاسية وانفعالات ورغبات وتأملات وذاكرة تكيفها جميعاً الظروف الاجتماعية، فيما يعتقد الإنســان العــادي أن العقل هو عضو خفي يدير الإنسان ويوجهه كمــا يوجه الربان السفينة، والعقــل، كما يعتقد هو أيضاً، حكر على الإنسان، وربما على الرجال فحسب، فالمرأة بنصف عقــل، أما الحيــوان فهو مجرد من العقل نهائياً ربما لأن الناس كلهم كانوا يماهون بين العقل والــروح، ويعدُّونهما شيئاً واحداً، ولأنَّ الروح، وقف علــى الإنسان فحسب، فالحيوان ليس له روح، إذن ليســ لــه عقل، والإنسان وحده هو الذي يتمتع بملكــة التفكير ولديه من الذكاء ما يستطيــع تفعيل الدماغ وتشغيل خلاياه وتلافيفه بطريقة توصله إلى اكتشاف الخفايا ومعرفة الأســرار، وذلك الذكاء والعقل هما اللذان نقلا الإنسان مــن إنسان غابة إلى باني حضارات ومشيِّد صرح للعلوم لا يضاهي.

صحيــح أن بعض الحيوانات تملك ذكاءً يمكنها من أن تعايش الإنسان وتتكيف مع شروط جديــدة للحياة، غيــر أن الذكاء الذي يملكــه الإنسان لا يقاس بــه أي ذكاء آخر، وهو نفسه الــذي مكّنه من تحريك الدماغ وتكوين العقــل وتطويره مع الزمن، ولا شك أن العقل البشري تطــور أكثــر وأكثر بمقدار ما أتيح له الحصول على قدر أكبر من المعرفة وتراكم كمٍّ أكثر من التجربة.

العقل والمعرفة

منــذ أن تكوَّن العقل لدى الإنسان كان شغله الشاغل تحصيل المزيد من المعرفة، وهكذا هــداه تفكيره إلى أن الاحتكاك يصنع شرارة والشــرارة تشعل النار في الهشيم، بذلك حصّل معرفــة جديدة وهي كيف يصنع النار. صحيح أنــه في البداية عرف بوجودها من الصواعق وحمــم البراكين، لكنه لم يكن يعرف كيف يصنعها بنفسه لكن بمعرفته هذه فيما بعد اكتسب فوائد كبيرة دفعته قدماً على طريق الخلاص من التوحش والتقدم نحو المدينة. وقد اكتشف بصنعــه النار أنه بــات باستطاعته أن يقهر ظلام الليل، أن يخيــف الحيوانات المفترسة، أن يتدفَّأ من البرد، وحين وقعت قطعة من اللحم الذي يأكله في النار فشوتها، ثم ذاقها الإنسان، وجــد أنها أطيب مذاقاً وأسهل مضغاً وهضماً عليه، صار يشوي اللحم قبل أن يأكله ثم يطبخ عليهــا أعشابه ودرناته وبذلــك اكتشف الطبخ، كما اكتشف أن بإمكانــه أن يصنع من عجين الحبوب خبزاً إذا وضعه على النار، فصار يعجن ويخبز وبذلك تقدَّم خطوة مهمة على طريق معرفتــه وتطويــر غذائه. إذ إنه بصنعه النار لم تعد هذه مصــدراً لرعبه إذا جاءته مع حمم

البراكيـــن أو نزلت عليه مع صاعقة، أو اشتعلت حريقاً في غابة، بل باتت النار عنصراً مفيداً ومساعداً للغاية في الحياة، فإضافة إلى كل ما اكتشفه من فوائد للنار، اكتشف مع الزمن أنها يمكــن أن تصهر له المعادن وتحولها إلى أدوات بالغة الفائدة نقلته شوطاً جديداً على طريق المدينة والتقدم.

كذلــك هدته ملكـــة التفكير والحكم إلـــى أن الخشب يطفو على المـــاء، إذ رأى بأم عينه غصـــون الأشجار وجذوعهـــا يجرفها تيار الماء، فقاده ذلك إلـــى أن يستفيد من الخشب في صنـــع الأداة التي يطفو بها علـــى وجه الماء وينتقل من ضفة نهر إلى ضفته الأخرى، بل صار بإمكانـــه أن يركب البحر، يصطاد السمـــك وينتقل إلى جزيرة قريبة كان قبل ذلك لا يستطيع الوصـــول إليها. إذ حملته المشاهدة وقاده تفكيره إلـــى أن ذلك الطفو يمكن أن يتحرك على سطح البحر إذا ما استفاد من الريح في تحريكه، فركّب عليه شراعاً صارت تدفعه الريح إلى حيث يشاء الإنسان.

والإنســـان الـــذي كان لا يستر جسده بشيء، بدأ يستر وسطـــه بأغصان الشجر وورقه، ثم هداه عقله إلى أن يستطيع صنع لباس من جلد الحيوان، فصار يسلخ جلد الفهد أو النمر الذي يصطـــاده، يكشطه ثم يعالجه بتعريضه للشمس إلى أن ييبس تماماً، بعدئذ يلبسه فيقيه الحر والبـــرد، لكنه بعد ذلك اكتشف، وقد قام بتدجين الحيـــوان، أن باستطاعته أن يتخذ من شعر الماعز وصوف الشاة لباساً يقيه الحر والقر، كما يقي الماعز والشاة، فظل يعمل تفكيره إلى أن صنـــع الأداة التي تغـــزل الشعر والصوف ثم الأداة التي تنسجهما وتوفر له اللباس. صحيح أنـــه كان يمشي بخطاً بطيئة على طريق المعرفـــة لكنه كان يمشي ويراكم تلك المعرفة، ذلك التراكم الذي أدى مع الزمن إلى نشوء علم حقيقي له مبادئه وقوانينه، هو نفسه أدى إلى تغيير نوعي في حياة الإنسان، وكل تراكم كمي، كما نعلم، يؤدي إلى تغيير نوعي.

أدرك الإنسان أن المعرفة تعطي مالكها قوة وقدرة على السيطرة على غيره ممن يفتقر إلى المعرفة، في كل زمان ومكان... لذلك شعر أن عليه أن يكتسب المعرفة من مناهلها وأن يكتسب أكبـــر قـــدر منها، فالإنسان بمعرفته سر النار لم يعد يخشاها ولم يعد يرفعها إلى مرتبة الآلهة التـــي يُركَع لها ويُسجَـــد، بل صار يسخّرها لمصالحه وفوائده إلى أن أصبحت أداة أساسية من أدوات صنـــع الحضارة. كما أنه باكتشافه علاقة الخشب بالماء، طوّع الأنهار والبحار لخدمته واكتسب قدرات جديدة جعلته يندفع خطوات جديدة على طريق التقدم والحضارة.

إنــه العقل الذي هــدى الإنسان إلى صنع الأدوات التي تخدمــه وتقضي حاجاته، وبذلك تميز من كل ما حوله في مملكة الحيوان، لقد أراد أن يصنع لنفسه ظفراً وناباً يدافع بهما من نفسه فاختــرع العصي من أغصان الأشجار والحراب الحادة من الحجارة وعظام الحيوانات الأخرى ثم هداه عقله إلى أن يحمي نفسه من غضب الطبيعة وغدر الحيوان فقاده ذلك إلى أن يبنــي لنفسه المأوى بدلاً من تسلــق الأشجار أو اللجوء إلى كهوف الطبيعة. كما كان عقله يعمل كل يوم لتطوير أدواته التي تسهل له العيش وترتقي به نحو الأمام والأعلى. إذ مع كل أداة يكتشفها أو يبتكرها كان يكتسب قدرات جديدة تزيده قوة في كسب عيشه والدفاع عن نفسه. كذلك كان لاكتشافه الزراعة والاستقرار في مكان آمن دور بالغ الأهمية في تطويره لأدواتها، إذ اكتشف أنه لا يمكن أن يزرع إلا بوجود أداة حادة يحفر بها الأرض فاخترع المعول فالفأس فالمحــراث... إلــى آخر ما تتطلبه الزراعة من أدوات، كان لكل منها دور مهم في زيادة علمه وتراكم معرفته ومن ثمَّ زيادة قدراته على مجابهة الحياة. المعرفة قوة، ذلك ما أدركه الإنسان مع الزمن والعلم نور يكشف له الظلمات من حوله، وقد كانت ملكة التفكير والحكم لديه، أي العقــل الذي كان يتطور كل يوم بتطور علمه ومعرفته، هــو الدافع والمحرك الدائم للإنسان باتجاه اكتشاف المزيد من العلم وتراكم المزيد من المعرفة.

وقــد ساعــده في تحقيق ذلك قفزة نوعية قفزها الإنسان، حيــن اكتشف الكتابة إذ استطاع بذلــك أن يحقق لتراكم المعرفة وسيلة جديــدة وأكيدة لا مجال معها لفقدان أو ضياع، كما هي الحال مع الانتقال الشفاهي للمعرفة الذي كان يعرض كثيراً منها للفقد والتشويه. وقد بدأت هذه الكتابة بالصور والرسوم كما في الهيروغليفية لدى قدماء المصريين ثم تطورت إلى المسمارية كما لدى السومريين في بلاد الرافدين. ثم جاء الإنجاز الأكبر باكتشاف الإنسان للأبجدية، اثنين وعشريــن حرفاً يكتب بها كل ما يعرفه الإنسان مــن كلام. فكان هذا الاكتشاف أحد الإنجازات العظيمــة التي قدمتها منطقتنا العربية للبشرية، ولا غرو في ذلك فهي مهد الحضارة بلا منازع سكنها الإنسان المتطور أول ما سكن، وفيها خطا أهم خطواته على طريق المعرفة.

إذن، تــدل الدراسات الحديثة اليــوم على أن بعض آثار الإنسان الذي سكن يبرود ومعلولا تعــود إلى مئة ومئتــي ألف سنة، حين كان الجليــد يغطي بقية النصــف الشمالي من الكرة الأرضيــة. هنــا ازدهر الإنسان وبدأ يدرج على طريق الحضـــارة، صانعاً ما يحتاج من أدوات مطــوراً ما يلزمه من وسائل، فهنا ابتكر الزراعة ودجــن الحيوان وعرف بناء القرى والمدن، وهنــا أقدم مدن العالم: حلب (١٢٢٠٠) سنة، دمشق (٩٧٠٠) سنة، الإسكندرية (٧٩٠٠) سنة،

أريحـا فلسطين (٧٦٠٠) سنة، وفي الساحل السوري تـوج الإنسان كل ما قدمه من إنجازات باختراعـه الأبجديـة التي مكنته من تدويـن معارفه، وتسجيل علومه وكتابـة أحداث حياته وتاريخـه، وهـو ما جعل ذلك يتراكم جيلاً بعـد جيل ثم ينتقل إلى الأمـم والبلدان الأخرى. فالفلسفـة والآداب التـي كتبها اليونانيون القدمـاء إنما كانت بفضل انتقـال تلك الأبجدية إليهـم من الساحل الشرقي للمتوسط، وما تركـوه للبشرية من تراث عظيم لا يشك أحد فيه إنمـا هو بسبب قربهم واحتكاكهم بالحضـارة الفينيقية في بلاد الشام والفرعونية في مصر والبابلية في بلاد الرافدين، فمن هؤلاء استمدُّوا معارفهم وأخذوا علومهم من فلك ورياضيات وفلسفة... ثم طوروها إلى أن صارت مصدراً أساسياً من مصادر المعرفة البشرية.

إذن، بمعرفته الأبجدية صار باستطاعة العلم أن ينتقل من مكان إلى آخر وبإمكان المعرفة أن تتحـرك من جيل إلى جيل فيصـح منها ما يصح، ويضاف إليها ما يُضاف، وقد كان لهذه المنطقـة المتوسطة من العالم القديم - المنطقة العربيـة اليوم- قصب السبق بالنسبة إلى البشريـة كلها في تحقيق الإنجاز تلو الإنجـاز على طريق الحضارة والاكتشاف تلو الاكتشاف فـي ميدان العلم والمعرفة. ففي هذه المنطقة بُنيـت الأهرامات وشيدت الزقورات وأقيمت الحدائق المعلقة كما عرفت (المدينة/الدولة) ثـم (الدولة/المملكة) فالإمبراطورية، وكانت النمـط الذي سار عليـه العالم في كل مكان، كمـا عرفت هنا العبـادات والأديان فأوجدوا عشتـروت وتموز وبعل وإيزيسـ ووضعت الأسس الأولى للمعتقـدات الدينية والعبادات التي انتشـرت فيما بعد إلى كل مـكان من العالم. تموز، عشتار، قدموس، كلهم كانوا أصولاً للآلهة في الأساطير الإغريقية التي انبثقت منها بعد ذلك الأساطير الرومانية.

إن الخـوف هو أصل العبادات والأديان كلها، الخوف من المجهول، الخوف من الموت وما بعد الموت... كل ذلك دفع الإنسان لأن يعبد النهر والحية، النار والجبل. لكنه مع تطور معارفه ونمو عقلـه، اكتشـف أن ذلك كله أوهـام، إذ طوع النهر لخدمته، ركبه وسيّـر فوقه الزوارق، كما شق الأقنية، يسقي بها زراعته وأشجاره فأزال بذلك وهم ألوهيته. لم يعد النهر يخيفه ولم يعد يقدم له القرابين أضاحي بشرية عله يخفف من غضبه ويهدئ من ثورته، كما أنه لم يعد يخاف الجبال لارتفاعها ووعورتها فيحسب أن الآلهة تسكن قممها، إذ صعد هذا الجبل وذاك ثم اكتشف أنه لا يوجـد هناك شيء وبذلك أزال عقـل الإنسان وهماً آخر، كما اكتشف بالتجربة أن هناك أعشاباً وعلاجـات تقضي على سـم الحية، فبَطُلَ وهمها وخفَّ الخوف منهـا، وبذلك أسهمت المعرفة البشريـة في دفع العقل لتخليص الإنسان مـن كثير من أوهامه وذلك مع تطور العلم والحضارة

وانتقالهما، من خلال الأبجدية واحتكاك البشر بعضهم ببعض، من مكان إلى آخر، إذ أخذ اليونان أسباب الحضارة من جيرانهم في المشرق ثم جاء الرومان فأخذوا الحضارة من الإغريق ثم جاء العرب فأخذوا الحضارة من البيزنطيين والرومان، وهكذا، لم تتوقف الحضارة في مكان ولا كانت حكراً على أمة، بل هي تداول وإسهام، نتيجة لتراكم العلم والمعرفة وحصيلة الانفتاح على التجارب الحضارية الأخرى، فصناعة الزجاج لم يكن يعرفها الإغريق، لكن باحتكاكهم بالفينيقيين وحركة هؤلاء بين شواطئ البحر المتوسط جعلتهم يعرفونها. إذ كلما ازدادت فرصة الشعب للتعلم من شعب آخر أكثر حضارة وتطوراً، أصبح أقرب إلى ارتقاء سلم الحضارة وجعل هذه الحضارة دينامية متطورة أكثر، أي بعبارة أخرى كلما ازدادت فرص الالتقاء بين الحضارات ازدادت معها فرص التعلم والتطور على صعيد المعرفة.

لذلك، تظل الشعوب المنعزلة بدائية لانعدام تواصلها مع شعوب أخرى أكثر ارتقاء على سلم الحضارة ومن ثمَّ استحالة تعلمها طرائق جديدة في الحياة، فتبقى على ما هي عليه، ذلك شأن كل الشعوب البدائية التي ما تزال موجودة حتى اليوم في غابات إفريقيا، أو جزر نيوزيلاندا، حيث الماوري البدائيون، أو قارة أستراليا المنعزلة التي لم يستطع أقوامها أن يحتكوا بأقوام أخرى ولم تتح لهم فرصة التعلم من حضارات أخرى مجاورة يمكنهم الاستفادة من تطورها فظلوا بدائيين متوحشين أقصى ما يعرفونه هو القوس والسهم، جني الدرنات والثمار، الصيد والقنص. لقد كوّن الإنسان خلال مسيرته التطورية أفكاراً ومفاهيم لا أدلة عليها ولا براهين، بل هي فرضيات أو تصورات ليس إلا، هدفها إشباع رغبته في إيجاد الأجوبة عن الأسئلة التي تحيره، ولأنّه لا يملك المقدرة على الإتيان بالأدلة والإثباتات فقد كان يؤكد أن فرضياته وتصوراته صحيحة إذ لا يمكن إثبات عكسها ولا يمكن إثبات خطئها، إذ كيف كان بإمكان الإنسان أن يثبت أن القمر ليس مصنوعاً من جبن أبيض إن قال له العراف ذلك، أو ليس هو وجه الإله؟ وإذا قال كاهن المعبد أن البَرَد هو حجارة ترمي بها آلهة الأولمب البشر عاباً لهم على ما ارتكبوا من ذنوب وآثام، كيف يمكن لأحد إثبات العكس؟ أو إذا قال ساحر القبيلة إنَّ جنون أحدهم هو بسبب دخول جني إلى جسمه والسكنى فيه، وإنَّ علاجه الوحيد هو ضربه ضرباً مبرحاً إلى أن يخرج ذلك الجني، أنى لأحد أن يكذبه؟ فالمعتقدات، وإن كانت مغالطات واضحة كعين الشمس، كانت تنمو وتزدهر ثم تجد مدافعين عنها وأنصاراً. لذلك عانى عقل الإنسان كثيراً في حربه الضروس معها عله يزيل الغشاوة عن عينيه ويقضي شيئاً فشيئاً على تلك المغالطات والأوهام.

من تلك المغالطات والأوهام، مثلاً، طريقة التشبيهات. لقد قاد هذا التفكير في الماضي إلى نظرية التشبيهات في الطب مثلاً، إذ كان الأطباء يصفون لب الجوز لأمراض الدماغ، لأن لب الجوز يشبه شكلاً مصغراً للدماغ، كما وُصفت رئات الثعالب للذين يعانون من صعوبة التنفس، إذ كانوا يعتقدون أن الثعالب تتمتع بقوى تنفسية متفوقة، كذلك كانوا يصفون شحم الدببة لمعالجة الصلع لأن الدببة تتميز بفرو سميك. وهكذا إلى آخر المغالطات والأوهام التي كان على العقل المدرب المتطور أن يكافحها ويقضي عليها، فهو لا يؤمن إلا بالأدلة والإثباتات ولا يطلق الاستنتاجات ويعترف بالنتائج إلا من الحقائق المثبتة، لكن لم يكن على العقل البشري أن يكافح الفرضيات الخاطئة ويصححها وحسب، بل كان عليه أن يكافح كثيراً من طبائع الإنسان وصفاته الذاتية أيضاً وعلى رأسها:

آ- **التحيز**: فالإنسان بطبعه خلق ذا هوى أي إنّه يحب هذا ويكره ذاك ويصل به ذلك الحب إلى درجة التحيز وذلك الكره إلى درجة التعصب، ومع التحيز والتعصب يلغي الإنسان عقله ويتبع هواه، كما تنتفي كل محاكمة منطقية تبين الحقيقة من الزيف، ذلك لأن الإنسان لا يرى في معتقداته تحيزاً، بل يعدّها، عادة، النتائج المنطقية أو الحقائق الناصعة الوحيدة في العالم. ولعل أخطر التحيزات هي تلك التي تؤثر في طريقة تفكير الإنسان نفسها والتي تكمن دون مستويات الشعور، إذ يتأثر بها الإنسان دون أن يعلم وتملي عليه تعليماتها وأوامرها ليطيعها دونما تردد. إذ يتعلق تفكيره ضمن إطار من المفاهيم لا يستطيع الخروج عنه، لذلك، ربما، تكون أكثر الأفكار أهمية ورسوخاً لديه، هي مجموعة من أسخف الأوهام، فهو لا يرى إلا ما يريد أن يراه، وهذا ما جر على البشرية ويلات كثيرة في مختلف عصور الإنسان ومراحل تطوره. وما الحروب الصليبية التي دامت قرابة مئتي عام وسببت كثيراً من الخراب والدمار، وفي العصر الحاضر حدثت وتحدث مجازر مروعة يذهب فيها الأبرياء من البشر نتيجة التحيز المطلق والتعصب الأعمى فلا يعود الإنسان قادراً على رؤية الحقيقة والمعرفة الحق، بل يساق بقوة عمياء تحوله إلى ما يشبه الوحش الذي تسيطر عليه غرائزه البهيمية وحسب وتنفي عنه كل محاكمة منطقية وعقل.

ب- **الغيبيات**: سبق وذكرنا أن الإنسان، لجهله بكل ما حوله وعجزه عن إيجاد تفسير للظواهر الطبيعية ولكثير من الأشياء في الحياة، أطلق لخياله العنان متجاوزاً الواقع صانعاً عالماً من التصورات كلها ما وراء الواقع، لكنها ترضي رغبته في إيجاد الحلول لكثير من المسائل التي لم يستطع أن يجد لها حلاً. وهكذا حل المصريون القدماء مشكلة الموت،

باختراعهم فكرة الروح الخالدة التي لا تموت مع الجسم بل تبقى في مكان ما لتعود ذات يوم إلى الجسد وتبعثه من جديد، كما صنع البابليون والفينيقيون لأنفسهم عالماً من الميتافيزيق فيه آلهة تتحاسد وتتقاتل، تحب وتعشق، وبنوا لها معابد يشرف عليها كهنة مقدسون لهم طقوس وشعائر يتبعها الناس في عباداتهم لكي ترضى الآلهة عليهم وتبعث لهم المطر فيحيي الأرض ويسود الخصب. في عالمهم ذاك عشتروت ذات مكانة عالية تفوق، ربما، مكانة أعظم الآلهة، هي ربة الحب والجمال والخصب وهل هناك أهم من الحب والجمال والخصب؟... تغار منها أختها ربة العالم السفلي فتخطف منها حبيبها تموز وتحبسه في عالمها السفلي هناك تعذبه وتنتقم منه، لكن حب عشتروت وإصرارها على إنقاذه يجعل كبير الآلهة يتوسط لدى ربة العالم السفلي أنّ تعيده لعشتروت المتيمة، إلا أن الربة الحاقدة تلك لا ترضى أن تحرره إلا لستة أشهر في السنة يخرج بها إلى حبيبته، ثم يعود ستة أشهر أخرى إلى العالم السفلي.

هكذا أفروديت وأبولو في الأساطير اليونانية، أثينا وزيوس، مارس وهيرا، لكل مكانته ووظيفته، حشمه وخدمه... عالم كامل من الأوهام صنعه الإنسان وسماه ما وراء الواقع، متصوراً أنه موجود في الأعلى حيث السماء وفي الأسفل حيث طبقات الأرض. هذا العالم الغيبي أخذ أشكالاً شتى لدى المجتمعات البشرية، حسب مراحل تطورها. فإذا كان مجرد عالم من التخيلات لدى المجتمعات الأقدم كالبابليين والسومريين، الإغريق والرومان، فإنه تجسد لدى العرب الجاهليين على شكل آلهة من حجر وشجر: هبل، اللات والعزى... إلى آخر الأصنام التي كان يعبدها الناس في ذلك المجتمع صانعين لهم عالمهم الخاص القائم بذاته فيما وراء الواقع، مضيفين عليهم قدرات عجائبية خارقة، فهم الذين يشفون المرضى ويردون الأعداء، ويبعثون المطر... ذلك العالم الغيبي المتكامل هو الذي كان يسيطر على أذهان الناس وكان على العقل البشري أن يجابهه. إن الإيمان الأعمى بذلك العالم الغيبي هو الذي جعل الناس تؤمن بالمعجزات التي يصنعها أولئك الآلهة أو حتى البشر الذين يؤمنون بهم، فهذا رجل يمسح بكفه على عيني أعمى فتنفتحان وتبصران، وهذه امرأة تشير بيدها إلى الجبل فينشق نصفين فاتحاً لها ممراً تهرب عبره من الأعداء، وهذا مزار يزوره الكسيح فيخرج من لدنه وهو يسير على قدميه. إنه العالم الغيبي الذي يجعل الإنسان يؤمن بكل ما ليس معقولاً.... أي بكل ما يرفضه المنطق والعقل... فالسماء تمطر سمكاً، والإنسان يمشي على الماء، كما أن هناك جِنّاً وعفاريت، تملأ الغابات وما تحت الأرض، بعضها مؤمن لا يؤذي الإنسان، لكن أكثرها شرير خبيث، من نسل إبليس، ولا هدف له إلا إلحاق الأذى

بالإنسان. على أن أخطر ما في عالم الغيبيات ذاك أنه بدأ مع بدايات الإنسان، لكنه ما يزال مستمـــراً حتى اليوم، يهيمن على عقول كثيرين، ولـــه سطوة في كل مكان من العالم الراهن. مـــا المنجمون وقرّاء البخت إلا نموذج على ذلك. إذ ما يزال عدد المنجمين في ازدياد وهم يمارســـون تنجيمهم في الولايـــات المتحدة وحدها في خمس عشـــرة مجلة شهرية متفرغة للتنجيـــم ودوريتين سنويتين ضخمتين، بل ظهرت في أربعينيات القرن العشرين في الولايات المتحـــدة موجة تطالب بتعيين منجم خاص لرئيســـ الجمهورية. هناك حتى اليوم الملايين ممن يعيشون على الأوهام، والمعتقدات غير المعقولة والخرافات، وهؤلاء إما أنهم طفيليون علـــى تلك الخرافات عن قصد وعهد وإما أنهـــم يعيشون عليها من خلال جهلهم ومن خلال جهل الآخرين وأوهامهم.

كذلـــك كان على العقل البشـــري أن يحارب اللاعقلانية حيث وجـــدت. كما كان عليه أن يواجه الاعتقاد دون أدلة، وكثير من الناس يؤمنون بأشياء لا أدلة عليها، وهو خطر كبير على البشريـــة، مثله مثل تشويه الأدلة لتسند رأياً معيناً. إذ من المريح لكل من يستفيد من خضوع النـــاس وخنوعهـــم أن يجعلهم يعتقدون أنهـــم ليسوا أسياد مصائرهم، بـــل هناك قوى غيبية هي التي تملك المقدرة على توجيه تلك المصائر، ومن المريح لهم أيضاً أن يجعلوا الغموض يلفهم من كل صوب لإيهامهم بأن عليهم أن يخضعوا لما هو فوق طاقة البشر. لقد كان ضباب الغيبية دائماً ستاراً مهماً للغاية لأولئك الذين لا يودون أن يتفحص أحد ما يفعلون. لكن العقل البشـــري اكتشف أنه ليس من حق الإنسان حرية التفكيـــر وحسب بل على كاهل الإنسان تقع مسؤوليـــة التفكير وإعمال العقل للتمييز بين الصحيح والخطأ، الحق والباطل،كما عدّ رفض أي إنسان عاقل قبول أية نتيجة لا إثبات لها عنصراً مهماً من عناصر فهمه وعقلانيته. كذلك نظـــر إلى الدعوة للإيمان الأعمى علـــى أنها دعوة إلى البربرية والعبوديـــة، عادّاً أن الدعوة للإيمان دون إثبات دعوة للتنازل عن الكرامة، إذ ليس هناك معنى مطلق لحرية العمل وحرية القـــول دون حرية التفكير، وليس ثمة حرية تفكير دون عنصر الشك، ذلك أن الإنسان العاقل ملـــزم خلقياً بالشك كي يصل إلى اليقين. إنه ملزم خلقيـــاً بالبحث عن الأدلة والبيانات لكل جملـــة تدّعي أنّها حقيقة. والرجل العاقل يرفضـــ أن تضطهده أي فرضية لم تثبت كحقيقة، إذ إنَّ كل اضطهـــاد واستبـــداد يركز في جوهره على الخديعـــة.. والخديعة تقوم على الوهم والإيهام.. والعقل البشري عدو لكل وهم وإيهام، حاربهما مذ تكون لدى الإنسان العقل ونمت ملكة تفكيره وحكمه، لكن كيف؟ هو ذا السؤال الذي سنحاول الإجابة عنه باختصار.

ج- **العقل والعلم**: أدرك العقل البشري منذ البدء أن عليه أن يبحث عن الحقيقة وأن يميز ما بينها وبين الوهم. طريقه الوحيد هو ما يستطيع إثباته بالأدلة والبراهين، ووسيلته التجربة والمشاهدة. بذلك شق الإنسان طريقه نحو العلم والتعلم، فهو يتعلم كل يوم شيئاً جديداً، يكسب معرفة يضيفها إلى معارفه السابقة ويقود مركبة العلم باتجاه الأمام والأعلى من خلال اكتشافه أشياء جديدة وقوانين جديدة وضعها أسساً للمعرفة البشرية. إذ أدرك العقل البشري أنه بالقوانين والمبادئ العقلية وحدها يمكن أن يطور العلم لدى الإنسان، ويجعله يثبت أقدامه على حساب الوهم والزيف. إنه يستقرئ ويستنتج، وبذلك توصل العقل البشري إلى قانون ثابت: الإنسان فانٍ، سقراط إنسان، إذن سقراط فانٍ... كما توصل في بدايات استنتاجه إلى أن عناصر الطبيعة أربعة: الهواء، الماء، النار، التراب وعدّ ذلك قانوناً، لكنه بمزيد من التمحيص وتقدم العلم اكتشف أن عناصر الطبيعة أكثر بكثير من أربعة، بل إن تلك العناصر الأربعة ليست عناصر أولية بل هي مركبة من عناصر أخرى، فالهواء مثلاً يتألف من الأوكسجين والآزوت والماء من الهدروجين والأوكسجين...إلخ. إلى أن توصل العقل البشري اليوم لأن يتعرف إلى أكثر من مئة عنصر أولي من عناصر الطبيعة.

كما وضع العقل البشري للإنسان أقانيم أساسية يجب أن يسعى من أجلها ويحصل عليها ألا وهي أقانيم الحق والخير والحب. هذه الأقانيم وضعها العقل لكي تنظم سلوك الإنسان وترشده إلى ما يحب أن تكون أولوياته في الحياة. فمن أجل الحق يجب أن يكون ضد الباطل، ومن أجل تحقيق الخير يجب أن يكون ضد الشر، ومن أجل الحب يجب أن يبتعد عن الكره ويتجنب العدوان. كذلك سعى العقل البشري لوضع القوانين التي تنظم الحياة الاجتماعية. فها هو حمورابي البابلي يسن أول قوانين لتنظيم حياة البشر وجعلهم يسيرون عليها لتهديهم سواء السبيل فلا يعتدي أحد على أحد ولا يتجاوز أحد حدود القانون والنظام، بل يأخذ ماله من حقوق ويؤدي ما عليه من واجبات.

كذلك أدرك العقل البشري أنه بالقوانين وحدها يمكن ضبط السلوك البشري وحفظ المجتمعات وتطويرها، فوضع المبادئ الأخلاقية التي تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، علاقة الجماعات البشرية بعضها مع بعض وسَنَّ لمن يخالف تلك المبادئ العقوبات التي تردع الإنسان، فمنع السرقة والقتل، الاعتداء والزنى، فيما حرم زواج القربى الشديدة كالأم أو الابنة أو الأخت ووضع ممنوعات كثيرة وقيوداً تحد شيئاً فشيئاً من تسيب السلوك البشري وفلتانه.

كمـــا توصل من خلال التجارب العلميـــة إلى أن التجربة هي المصدر الوحيد للحقيقة، فهي وحدها يمكـــن أن تعلمنا شيئاً ما، ووحدها يمكن أن تمنحنا اليقين، فيما اكتشف العقل البشري مـــن خلال التجربة والعلم خطأ الاعتقاد القديـــم أنَّ النار تشتعل بسبب الفلوجستيك أي السائل الحـــارق الذي يتخلل الأجسام، والصحيح أن الأوكسجين فـــي الهواء هو الذي يسبب الاحتراق. وقـــد سار العلم بخطاً حثيثة يدفعه العقل ويطوره ليثبت قوانين على كل الأصعدة استطاع العقل بهـــا أن يطرد الوهـــم ويضيق عليه في كل مجـــال، فأرخميدس اكتشف قانون تـــوازن السوائل، وفيثاغورس قال بكروية الأرض، والخوارزمي استنبط قوانين الجبر ومعادلاته. كما جاء لافوازيه بقانونـــه الفيزيائي الشهير: المادة لا تفنى بل تتحول. كذلك اكتشف العلم قوانين للهندسة فقال مثـــلاً زوايا المثلث، أي مثلث، تعادل زاويتين قائمتين، والضلعان في المثلث أكبر من القاعدة... كذلـــك اكتشف في ميدان الكيمياء قوانين غيرت مجرى الحياة البشرية، وهكذا في علم الطب، الجيولوجيـــا، علم الكون، الفلك... إلـــخ، وهو ما جعل الإنسان يقفز سريعاً على طريق الحضارة والتطور وينجز في بضع مئات من السنين ما يفوق كل ما أنجزه في تاريخه السابق كله.

إن القوانيـــن الدائمة والثابتة التي توصل إليها العقل البشري، هي التي فتحت الباب على مصراعيه أمام العلم لكي يحقق ما حقق وينجز ما أنجز فالمعرفة برهانية استدلالية أو حسية تجريبيـــة والعلاقة بين الأشياء سبعة أنواع: تشابه، تضاد، هوية، سببية، تجاور في الزمان أو المكان، تناسب في الكم أو العدد، والدرجة في أيِّ صفة، كذلك فإن الجوهر هو الشيء الذي يمكن أن يوجد بذاته، كما أن كل ما هو مختلف يمكن تمييزه وكل ما يمكن تمييزه هو مختلف ويمكن فصله. مبادئ مهمة جداً، اكتشفها العقل البشري وقوانين أخرى بالغة الأهمية وضعها خلال مسيرته التطورية فكانت مرتكزات أساسية للعلم لولاها ربما لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة على طريق الإنجاز والتطبيق. إن العلم هو البحث عن المجهول والسعي لجعله معلوماً، وهو بذلك يبحث عن الجديد، عن الاكتشاف والاختراع تحت ضغط الحاجة والواقع التجريبي والنظريات الجديدة الأكثر فأكثر تكيفاً من أجل وصف الواقع.

استخـــدم العلم تلك القوانيـــن الدائمة والثابتة التي توصل إليهـــا العقل البشري من أجل المزيد من الاكتشافات والاختراعات التي غيرت مجرى العالم وأهمها:

أ- قانـــون الهوية الذي يقول ما هو هـــو، فالشجرة شجرة فحسب، والفيل فيل فحسب، ولا يمكن أن يكون بناية ولا الشجرة إلهاً...

ب- قانون السببية، فلكل نتيجة أسباب ومقدمات، ولا شيء يأتي من لا شيء. النار تشتعل لوجود الأوكسجين والمادة القابلة للاحتراق، والمطر يسقط بسبب بخار الماء والعناصر الأخرى من انخفاض ضغط ودرجة معينة من الحرارة، الرطوبة، حركة الرياح... إلخ.

جـ- قانون وحدة الأضداد: فالأضداد لا تلغي بعضها بل تتكامل بعضها مع بعض وتتشكل الثنائيات: الحياة/ الموت، الخير/ الشر، الظلام/ النور... إلخ.

د- قانون نفي النفي الذي يشكل إثباتاً للشيء لا نفيه.

هـ- قانون الجاذبية، الذي اكتشفه نيوتن وأثبت أن هناك قيمة محددة للجاذبية على الأرض وبين المجرات.

و- قانون النسبية وهو الذي اكتشفه أينشتاين مؤكداً أن لا مطلق في الكون بل كل شيء نسبي...

وهكذا إلى آخر القوانين التي اكتشفها العقل وأثبتها العلم من خلال تطبيقاته وتقنياته، مزيلاً بذلك كثيراً من المغالطات، قاضياً على كثيرٍ من الأوهام. لقد أثبت العلم، بالتجربة والبرهان، أن الأرض ليست مسطحة وليست هي مركز الكون بل هي مجرد كوكب كروي سيار من كواكب كثيرة تدور حول الشمس وتستمد منها الضياء والحرارة، كما أثبت أن البرق والرعد ليسا لمع سيوف الآلهة في السماء، وهي تتحارب، ولا صرخاتهم وهدير عرباتهم، بل شحنة كهربائية في غيمة تصطدم بشحنة أخرى مخالفة لغيمة ثانية فتنطلق شرارة كهربائية يصحبها قصف هواء شديد يشكل الرعد... كذلك أثبت باستور في تجاربه العلمية المتطورة أن أمراض الإنسان ليست بسبب جن وعفاريت تدخل إلى جسمه بل هي بسبب جراثيم تدخل عن طريق الغذاء أو الماء أو حتى الهواء فتسبب خلل العضوية ومن ثمَّ أمراضها، فيما وصل الإنسان إلى القمر وأرسل سفنه الفضائية إلى المريخ والزهرة وسواها، ليكتشف أن هناك فضاء أسود خاوياً من كل شيء، لا زيوس ولا أفروديت فيه، ولا أي شيء مما تصوره الإنسان من قبل، كذلك حفر بحفاراته الأرض ليصل إلى أعمق أعماقها بحثاً عن النفط والغاز دون أن يلتقي بجن أو عفاريت ودون أن يصادف هادس ولا مملكة عالمه السفلي...

لقد سجل العقل البشري- بدفعه مركبة العلم قدماً- الاكتشاف تلو الاكتشاف والاختراع تلو الاختراع، وأثبتت أنه قادر على اكتساح عالم الغيبيات والأوهام الذي يتراجع أمامه

منحسراً يوماً بعد يوم، وبذلك يؤكد أنه سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه عالم الأوهام تماماً. حينذاك يتعامل الإنسان مع الحقائق التي يثبتها العلم بالحس والتجربة والبرهان فحسب، ويكون عالمه نقياً من الوهم، خالصاً للحقيقة واليقين.

المراجع

(١)- برجن إيفانز، لم العقل؟ ترجمة: موفق الحمداني ومريم شرارة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٢م.

(٢)- عدد من المؤلفين، العلم يواجه تخوم المعرفة، ترجمة: محمد حسن إبراهيم، وزارة الثقافة، ١٩٩٤م.

(٣)- إيسايا برلين، عصر التنوير، ترجمة: د. فؤاد شعبان، وزارة الثقافة، ١٩٨٠م.

نَظَرَاتٌ في شعر فَتَاةِ غَسَّان

فاطمة سُليمان الأحمد

(١٩٠٨ - ١٩٨٥م)

د. محمَّد عبد الله قاسم

الطَّبيعـةُ الحيَّةُ حيـثُ تشمخُ الأَشجارُ، وتفيضُ السَّماءُ بدموعها بسخـاءٍ، تبعثُ عِطْرَها وأنغامَهـا في شعر فتاةِ غَسَّـان، وتمدُّ معجمها بالمفردات والصور والمجاز وشهوة القول حتى غدا شعرها كأنَّه آيٌ مرتَّلات.

والبيت الذي ترعرعتْ فيه وأتاح لها حرية التّعبير، وشَجَّعَها على القول، ورعاها رعايةً أيَّ رعاية، كان له أبْلَغُ الأثر في الفِكْرِ الذي حَملَه شِعْرُها.

ومـا جُبِلَـتْ عليه فاطمةُ مِن سمُـوٍّ في الرُّوح، وعُلُوٍّ في الهمَّة، ورفعةٍ فـي النزعة الإنسانيّة، وغيريَّةٍ تُفنيها لينهضَ مَنْ حَولَها، وما اجتمعَ لها مِنْ مخزونٍ وافرٍ من الشِّعر العربيِّ القديم الـذي كان أساطينُـهُ ماثلينَ في مخيّلتها لحظةَ ما يقتدح الشّعر زنادَه يريدُ الخروجَ مِنَ النُّور إلى النُّور، وما وَرِثَتْهُ فاطمةُ مِنْ مَوْهِبَةِ الشِّعر من أَبيها علّامةِ الجبل الشّيخ سُليمان الأحمد = كُلُّ أُولئك ظَهَرَ في شعر فتاة غَسَّان، وتحوَّل أَريجًا يتضوَّعُ سحرُهُ في الزّمان.

١- نهضة المرأة العربيَّة:

آلَـمَ الواقع الـمُزْري للمرأة العربيّة فتاةَ غَسَّان، الّتي دَعَتْ إلى تخليص المرأة من براثن التخلّف وأنيـاب الجهل، وأنَّهـا ينبغي أَنْ تخرج إلى الحياة لتشاركَ في بُنيانهـا لا أَنْ تظلَّ حبيسةَ الجُدْران، وكانتْ ترى أَنَّ الحجابَ زِيٌّ خارجيٌّ لا يُقدِّمُ ولا يؤخِّر حتَّى تتحصَّنَ المرأةُ بالعِلْم والأَخْلاقِ؛ تقول:

قالوا: الحِجَابُ ذريعةٌ لصِيَانَةِ
الفَتَيَاتِ والفِتْيَانِ والأَحْبَابِ
غَالوا بِقَوْلِهِمُ، وما مِنْ مُنْصِفٍ
يُبْدِي الحقيقةَ مِنْ ذوي الأَلْبَابِ
ما للحِجَابِ يدٌ على أخلاقنا
الفَضْلُ كلُّ الفَضْلِ للآدابِ
الصَّوْنُ مِنْ دُوْنِ القِنَاعِ غِنًى لها
عن ألفِ بَوَّابٍ وأَلْفِ نِقَابِ

وهذه الدّعوة من فتاة غَسَّان تتناغمُ مع دعوة عَصْرِيِّها شاعرِ النِّيل حافظ إبراهيم:

مَنْ لي بتربيةِ النِّساءِ؛ فإِنَّها
في الشَّرْقِ علَّةُ ذلك الإِخْفَاقِ
الأُمُّ مدرسةٌ إذا أعددْتَها
أعددتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعراقِ
الأُمُّ روضٌ إِنْ تعهَّده الحَيَا
بالرِّيِّ أَوْرَقَ أَيَّما إِيْرَاقِ
الأُمُّ أُسْتَاذُ الأَسَاتذة الأُلى
شَغَلَتْ مآثرُهم مدى الآفاقِ
أنا لا أقولُ دعوا النِّسَاءَ سوافرًا
بين الرِّجَالِ يَجُلْنَ في الأَسْوَاقِ
كلا ولا أدعوكُمُ أَنْ تُسْرِفُوا
في الحَجْبِ والتَّضييقِ والإِرْهَاقِ
ليستْ نِسَاؤُكُمُ حُلًى وجواهرًا
خَوْفَ الضَّياعِ تُصانُ في الأَحْقَاقِ
ليستْ نِسَاؤُكُمُ أَثَاثًا يُقْتَنَى
في الدُّوْرِ بين مخادعٍ وطِبَاقِ
فتوسَّطُوا في الحالتَيْنِ وأَنْصِفُوا
فالشَّرُّ في التَّقييدِ والإِطْلاقِ
ربُّوا البناتِ على الفضيلةِ إنَّها
في الموقفَيْنِ لهنَّ خيرُ وَثَاقِ

ورَأَتْ فتــاةُ غَسَّان أَنَّ أَنْجَعَ طريقة لحماية المرأة من الفساد والانحلال ومن أَنْ تكونَ نَهْبًا لكلِّ طَامعٍ = تعليمُها وتَثْقِيفُها، ذلك أَنَّ الثَّقافَةَ تَرْبأُ بصاحبها أَنْ يَمْتَهِنَ نَفْسَه؛ تَقُولُ:

عُــوْدُوا عليها بالثَّقافَةِ تَكْشِفُوا
عن أيِّ مَكْرُمَةٍ، وعَيْنِ صَوابِ

وتَعَهَّدُوها بالعُلُومِ نَضِيْرَةً
فالعِلْمُ أَكْبَرُ حَارِسٍ غَلابِ

وكذلــك تُحَمِّلُ فتاةُ غَسّان المجتمــعَ الذكوريَّ الشّرقيَّ مسؤوليةَ انهيــارِ المرأةِ وافتراسِ الجَهْــلِ لها، ذلــك أنَّ سهامَ النَّقدِ تُسَدَّدُ إلى الأُنثى دُوْنَ الذَّكَــرِ، وإنْ كان كلاهما مُشْتَرِكًا في الخطأ؛ تُرْمَى المرأةُ، ويُحْمَى الرَّجُلُ؛ تقولُ:

صُوْنُوا فَتَاكُمْ مِثْلَ صَوْنِ فَتَاتكُم
عَنْ كُلِّ مَفْسَدَةٍ وقَــوْلِ كِذَابِ

تَجِدُوا الطَّهارة تَسْتَعِيْرُ عَبِيْرَها
مِنْ كُلِّ وَاضِحَةِ الجَبِيْنِ كَعَابِ

شعــر فتاة غَسَّان هذا صرخةٌ إصلاحيَّةٌ تَقِفُ إلى جانبِ أَصْوَاتِ أَعْلامِ النَّهضة مَنْ سَبَقَها أَوْ عَاصَرَهــا كالمعلِّم بطرس البُسْتانيّ ورفاعة الطَّهطاويّ وحافظ إبراهيم وأحمد أمين وميّ زيادة ومــاري عجمي، كُلُّ أولئك نَــادَى بالتخلُّص مِنَ الجهل المُطْبق الّــذي تركه الاستبدادُ العثمانــيُّ، وقَنَّعَ المرأةَ بالتَّخلُّفِ، وغَــرَزَ فيها خنَاجِرَ العُبُوْدِيَّةِ، وسَعَى هؤلاءِ الأعيانُ أَنْ تأخذَ المرأةُ دَوْرَها الإنسانيَّ، وتستردَّ ما غُصِبَ من حقوقها.

٢- الشَّبابُ مَعْقدُ آمال الوطن:

توجَّهــتْ فتاةُ غَسَّان فــي غيرِ ما قصيدةٍ إلى الشّبابِ ترى فيهــم نجاحَ البلادِ وازدهارَها وعُمرانَها ونهضتَها؛ تقولُ:

يا فتيةَ الوطنِ العزيزِ مَتَى أَرَى
هذي البِلادَ زَهَا بكم عُمرانُها

نَفَضَتْ غُبَارَ رُقَادِها فَتَيَاتُها
وكذاك قَدْ نَفَضَ الكَرَى فتيانُها

مُتكاتفينَ على نجاحِ بلادِهم
متعاضدينَ ليزدهي عِرْفانُها

وأولئــك الفتيةُ النَّاشئون هــم مَنْ يُخَلِّصُ الوطنَ مِنْ براثنِ الجهــلِ وأنيابِ الطَّائفيّة الّتي تُمَزِّقُ الجسدَ وتشرخُ في بنيانِه، وتحولُ دونَ اللَّحاقِ برَكْبِ الشُّعوبِ المُتَحَضِّرةِ الّتي بلغتْ مِنْ هناءةِ العَيْشِ ورَغَدِه كُلَّ مبلغ؛ تقول:

يــا نــاشــئــونَ تــعــلَّــقــتْ آمــالُــنــا
بــكُــمُ، وأَنْــتُــمْ لــلــجِــراحِ ضِــمَــادُ

هُــبُّــوا لــنَــيْــلِ عــلائِــكــم، لا تَــرْتَــدُوا
ثَــوْبَ الــخُــمُــولِ؛ فــإِنَّــهُ اسْــتــعــبادُ

لــلــذُّلِ أَبْـــــرادٌ تُــحَــاكُ مــتــيــنــةٌ
لا تــلــبــسُــوهــا، بِــئْــسَــتِ الأَبْـــرادُ

إِنَّ الــعــلــومَ تَــحُــلُّ مــا قــد أبْــرَمَــتْ
كَــفُّ الــخُــمُــولِ، تــقــودُه فــيُــقــادُ

إِنْ تُــصْــدِرُوا أَوْ تُــوْرِدُوا فــي كَــسْــبِــهــا
مــا خَـــابَ إِصْـــــدَارٌ ولا إِيْـــــرَادُ

وإِنْ تَعْجَــبْ فاعجبْ مِنْ صدورِ هذه الأَشْعارِ عَنْ فتاة غضَّة في رَيْعَانِ الصِّبا، ولو لم يقف القــارئُ على صاحبتِها لجَزَمَ أَنَّ قائلَها رَجُلٌ مُحَنَّكٌ قد خَبِــرَ السِّنينَ، وعَرَفَ الدَّهْرَ، وتَوَالَتْ عليــه التّجاربُ، فإِنَّ الحكمةَ والرَّصانةَ الّتي فيهــا لا تَنْضَحُ إِلّا عن عَقْلِ رَجُلٍ عالمٍ أَتَى عليه دَهْــرٌ، ويزولُ عنك العجبُ إذا علمتَ أَنَّ هذه الفتاةَ سليلةُ الأَبِ الرُّوحيِّ سُليمانَ الأحمد الّذي كان كالبيــتِ يُفْضي إليه مُلْتَقَى السُّبُلِ، وقد كانتِ الفتاةُ مُعْجَبَةً بأَبيها الشَّيخ، مُتَقَمِّصةً لثرائِه وحكمتِــه وغِنَاهُ، مَحْظِيَّةً لديه دانيةً منه، فاتَّفَقَ لهــا ذلك الشِّعرُ الإصلاحيُّ على النَّحْوِ الّذي رَأَيْتَ.

٣ - الوطن مَهْوَى الفؤاد وشُرْفة الرُّوح:

عاصــرتْ فتاة غَسَّان نكباتِ الوطن وجراحَه النَّازفة مِنْ خروجِ للمستبدِّ التّركيِّ إلى دخولِ المستعمرِ الفرنسيّ وغَدْرِه، إلى مَنْ تَوَاثَبَ إلى السُّلطة ولم يكنْ أَهْلًا لها؛ تقول:

يــا بــلادًا أَعْـــدَتْ عليها الــعَــوَادي
وأَلَــــحَّـــتْ بــجَــوِّهــا الأَرْزَاءُ

ومثــلُ ضيقِ الشَّاعــرةِ وتبرُّمِها مِنْ سَكَنِ المصائِبِ المتواليةِ أَرْضَ الوطنِ وجُثُومِها على صَدْرِه، قَوْلُ خيرِ الدِّين الزِّركليّ:

بَلَدُ تَبَوَّأَهُ الشَّقَاءُ، فكلَّما
قَدُمَ استقامَ لَهُ بِه تجديدُ

لانَتْ عريكةُ قاطنيه وما دَرَوا
أَنَّ الضَّعيفَ مُعَذَّبٌ منكودُ

مَنْ للحِمَى؟ أيقيه مِنْ عَثَراتِه
طُولُ الأَنَاةِ وفي الأَنَاةِ جُمُودُ

تَفِدُ الخُطُوبُ على الشُّعُوبِ مُغِيْرَةً
لا الزَّجْرُ يَدْفَعُها ولا التَّنديدُ

وفَتَاةُ غَسَّانَ على إعجابها بالماضي والتُّراثِ أَبَتْ أَنْ نتقوقعَ فيه أَوْ نستسلمَ له، إنَّما الصَّوابُ أَنْ نَطَّلِعَ عليه، ونستخلصَ مِنْهُ العِبَرَ، وهو ما يُفيدُ في بناءِ الحاضر، ويجعلُ الطَّريقَ إلى المستقبلِ لاحبةً مُطْمَئِنَّةً:

أَيُّها العاملونَ دعوةَ صِدْقٍ
لم يَشُبْهُ تصنُّعٌ أَوْ رياءُ

لا تَعُدُّوا الأَمسَ البَعِيْدَ فَقَدْ طا
حَتْ فُتُوحٌ وردِّيَتْ كبرياءُ

ذاك جزءٌ مِنَ الزَّمَانِ تَوَلَّى
ولنا اليَوْمَ غيرُهُ أَجْزَاءُ

لا يَفُتْكُمْ رَكْبُ الشُّعوبُ فما تَحْـ
ـنو على مَنْ تَخَلَّفَ الصَّحْراءُ

هذا هو الفِكْرُ الإصلاحيُّ المتنوِّرُ الّذي يَأْبَى أَنْ يعيش المرء حالماً بأَمجاد الماضي دونَ أَنْ يفيدَ منه وينقل ما هو قَيِّمٌ ونافعٌ وجميل منه إلى الحاضر، يجعل منه لَبِنةً حَسَنَةً في بنائه، ومن هذا الحاضر المطعّم بالأصالة والجذور يُولد أبطال الغد الآتون مع الشّفق الأحمر.

٤- التَّأَمُّلُ نُزُوْعٌ أصيلٌ في نَفْسِ فَتَاةِ غَسَّان:

الطّبيعة السَّاحرة التي تُطْبِقُ على دفقات فتاة غَسَّان الشّعوريّة وتسكنُ مُخَيِّلَتَها، والأجواء الرُّوحانيّة الصّوفيّة العرفانيّة التي كان قلبها يتأزَّر بها، ومخزون من المعرفة متراكم في ذاكرتها الوقَّادة = كلّ أولئك التحم، فتحرَّك أسئلةً تتوق إلى فهم الوجود وأسرار الكون:

آهِ أُمَّ الأَسـرارِ كَـمْ رُحْـتُ يـومًا
بـافـتـكـارٍ، وكـم كَـدَدْتُ الـعَـقْـلا

فـتـراجـعـتُ حـرَّةَ ذاتَ عَـجْـزٍ
وضـلـلـتُ الأبـحـاثَ، لـم أُهْـدَ سُـبْـلا

صـانـعٌ أَوْجَـدَ الـطَّـبـيـعـةَ لُـغْـزًا
ولأَمْـرٍ أَرَادَهُ، كَـانَ سَـهْـلا

انتقدتْ فَتَاةُ غَسَّان العِلْمَ الّذي قاد إلى تدمير الإِنْسانيّة التي أَنْشَبَتْ أظفار طَمَعِها، وأَوْقَدَتْ نيرانَ الحروبِ، فدُنِّسَ مُحَيَّاها، وخَرِسَ منها الضَّمير:

ذا رُقِـيُّ الإِنْـسَـانِ، فـانـظـرْ إلامَ
قـادَ هـذا الـرُّقِـيُّ والاعـتـداءُ

أيّ فـرقٍ بـيـن الـضَّـواري وبـيـن الـمـ
رءِ إذ بـاتَ يـحـتـويـه الـعـداءُ

آه لـو لـم تـكُ الـطِّـبـاعُ لـئـامًـا
مـا أُريـقـت فـي حُـكْـمِـهـنّ الـدِّمـاءُ

يـذهـبُ الـفـارسُ الـشُّـجـاعُ وتـمـضـي
لـلـمـنـايـا الـكـتـيـبـةُ الـخَـضْـراءُ

على أنَّ مِنْ تأمّلها ما لفَّه نورُ التفاؤل، وإيمانٌ بتجدّد الحياة وتغيُّرها:

هـذي الـحَـيَـاةُ جِـهَـادٌ والـمُـنَـى عُـدَدٌ
تَـبْـلَـى الـحَـيَـاةُ، وآمَـالُ الـفَـتَـى جُـدُدُ

حُـلْـمٌ تُـحَـقِّـقُـهُ الأَيّـامُ نَـاشِـرَةً
وآخَـرُ يَـتَـوَلَّـى طَـيَّـهُ الأَبَـدُ

لـولا الأَمَـانـيُّ تُعْطِي النَّفْسَ حَاجَتَها
مِـنَ الـسُّـرُورِ بـهـا لـم يَـهْـنَـهـا الـرَّغَـدُ

٥- النَّزْعَةُ الإبداعيّة الرُّومانسيَّة في شعر فتاة غَسَّان:

آ- الحُبُّ:

سَاقَت المقاديرُ الشَّيخ كاملًا إلى بلادِ المهجر سَعْيًا في طَلَبِ الرِّزْقِ، فَتَحَرَّكَ شوقُ فاطمة إلى زَوْجِها، وكَتَبَتْهُ شعرًا أَصْفَى ما يكونُ الشِّعر الّذي يرشحُ صدقًا وعُذُوبةً تَأْخُذُ بمجامع القَلْبِ:

رَعَى اللهُ أَيَّامًا قضيتُ بقُرْبِكُم
وشَمْلُ الهوى بالرَّقْمَتَيْنِ جميعُ
تذكّرْتُها وَهْنًا فهاجت صبابتي
وقلبي إلى داعي الغرامِ سميعُ
وغَرَّدَ في جنبي حمامٌ أَلِفْتُهُ
ففاضتْ لَهُ مِنْ مقلتيَّ دُمُوعُ
يُعَاوِدُ قلبي ذِكْرُكم كُلَّ لَيْلَةٍ
إذِ العَيْشُ مُخْضَرُّ الجَنَابِ مَرِيعُ
لعلَّ ليالينا تجودُ بِرَجْعَةٍ
فتَلْتَامُ أَكْبَادٌ بِهِنَّ صُدُوعُ

هـذا شعرٌ عربيٌّ عالِ الدّيباجة يُوْشِكُ أَنْ يكونَ في شعر شعراء الطَّبقة الأُوْلى مِنْ طبقات ابـن سلّام: امرئِ القيس وزُهيرٍ والأَعْشى ولبيـدٍ، فالرَّقْمتان ميراث من الشّعر الجاهليّ وقع في شعر زُهير:

ودارٌ لها بالرَّقْمَتَيْنِ؛ كأَنَّها
مراجيعُ وَشْمٍ في نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

والرَّقْمتـان روضتـان إحداهما قريبٌ من البصرة، والأخرى بنَجْـدٍ، أو الرَّقْمتان روضتان بناحية الصَّمَّان، ورقمة الوادي: مجتمعُ الماءِ فيه.

وتَشَهِّـي عودةِ الأَيَّامِ الرَّافلةِ بالدَّعَةِ والرَّغَدِ والسُّرورِ مَعْنًى مُستفيضٌ تَهَالَكَ عليه الشُّعراءُ في العُصُور:

هلْ ترجِعَنَّ لَيَالٍ قَدْ مَضَيْنَ لنا
والعَيْشُ مُنْقَلِبٌ إذْ ذاك أَفنانا

ومَشْهدُ تداني الحَمَام وما يَبْعَثُهُ في نُفُوسِ عُشَّاق الشُّعراءِ مِمّا فَنِيَتْ فيه قرائحُهم:

أَقُولُ لِوَرْقَاوَيْنِ في فَرْعِ نَخْلَةٍ
وقد طَفَّلَ الإمْسَاءُ أَوْ جَنَحَ العَصْرُ
وقد بَسَطَتْ هاتا لتِلْكَ جَنَاحَها
ومَالَ على هاتيك مِنْ هذه النَّحْرُ:
لِيَهْنِكُما أَنْ لم تُرَاعا بِفُرْقَةٍ
وما دَبَّ في تَشْتِيتِ شملكما الدَّهْرُ

وَلَمْ أَرَ مِثْلِي قَطَّعَ الشَّوْقُ قَلْبَهُ
عَلَى أَنَّهُ يَحْكِي قَسَاوَتَهُ الصَّخْرُ

ب- الحَمَامُ ودلالاتُهُ في شعر فتاة غَسَّان:

١- غناء الحمام يهيج الشَّوقَ إلى الأهل وإنْ بَعُدَ المزار وشطّت الدَّار:

قالتْ فتاةُ غَسَّان:

تغنَّتْ على الغُصْنِ الوَرِيْقِ حَمَائِمُ
لَهَا كُلَّمَا ذَرَّ الصَّبَاحُ رَنِيْنُ

تغنَّتْ فهاجتْ ما تُجِنُّ ضَمَائِرِي
مِنَ الشَّوْقِ وانْهَلَّتْ عليه شُؤُوْنُ

لَقَدْ هِجْتِ بي ذِكْرَ الأَحِبَّةِ والهَوَى
يُهَيِّجُهُ التَّذْكَارُ وَهْوَ دَفِيْنُ

لَيَالِيَ أَلْهُو والرَّبُوعُ نَضِيْرَةٌ
أَزَاهِرُ تَزْهُو بَيْنَهَا وعُيُوْنُ

وأَهْلِيَ ما أَهْلِي هُمُ رَوْضَةُ المُنَى
لَهُمْ في فُؤَادِي كَعْبَةٌ وحُجُوْنُ

فقَلْبِي وإنْ شطَّ المَزَارُ بِحُبِّهِم
وَفِيٌّ على رَيْبِ الزَّمَانِ أَمِيْنُ

لمَّا كَانَ غناءُ الحمام بكاءً وعَويلًا على فَرْخِها الّذي التقمهُ نَسْرُ لقمان، وهو ما صَيَّرَ صَوْتَها أَنينًا وبَثًّا وحَزَنًا والتياعًا، وسَلَبَها الاستقرارَ، فبَنَتْ بُيُوتَها على عَجَلٍ لا طمأنينةَ فيه = هَيَّجَ ما اكتتم بَيْنَ حنايا الأَضْلُعِ مِنْ تباريح الشَّوقِ ولوعاتِ الهَوَى، ومِثْلُ هذا عند مجنون بني عامر:

أَلا قَاتَلَ اللهُ الحمامةَ غُدْوَةً
على الغُصْنِ ماذا هَيَّجَتْ حِيْنَ غَنَّتِ

تَغَنَّتْ بِلَحْنٍ أَعْجَمِيٍّ فهَيَّجَتْ
هَوَايَ الّذي بَيْنَ الضُّلُوعِ أَجَنَّتِ

فقُلْتُ لها: قد هِجْتِ صبًّا على البُكا
بِشَجْوِك، فازدادتْ بكاءً وحَنَّتِ

وقال الأَحوصُ:

أَأَنْ نادى هديلا ذاتَ فَلْجٍ
مَعَ الإشْرَاقِ في فَنَنٍ حَمَامُ

ظَلِلْتَ كَأَنَّ دَمْعَكَ دُرُّ سِلْكٍ
هوى نَسَقًا، وأسْلَمَهُ النِّظَامُ

٢- غناء الحمام يُحَرِّكُ عِنْدَ الغريب الشَّوق للوطن:

قالت فتاة غَسَّان:

تَغَنَّتْ على مائِسَاتِ الغُصُونِ
بِلَحْنٍ رقيقٍ شَجِيٍّ حَسَنْ

تُرَدِّدُه مُطْرِبًا مُبْهِجًا
بِصَوْتٍ لطيفٍ رخيمٍ أَغَنّْ

حَمَائِمُ رَوْضٍ زها يافعًا
تَنُوحُ، فتُوْرِي شَرَارًا كَمَنْ

فقُلْتُ، ولم أَمتلكْ عَبْرَتي
وجاءَتْ وفي الخَدِّ منها سَنَنْ:

عفا اللهُ عَنْكِ لقد هاجني
هُتَافُكِ فوقَ أعالي الفَنَنْ

أَمثلِيَ أنتِ شَجَتْكِ الهُمُومُ
وذكرى النَّعيمِ مَضَى بَعْدَ أَنْ

أمثلي طريدةُ ظُلْمِ القويِّ
فتبكينَ مأوى بأَعْلَى القُنَنْ

أَثَرْتِ بِيَ اليومَ داءً دفينًا
وأَوْقَدْتِ في القلبِ نَارَ الحَزَنْ

وأَذكرتِني وَطَنًا نائيًا
وحَرَّكْتِ فِيَّ كمينَ الشَّجَنْ

كلانا شقيٌّ بهذي الدُّنا
أليفُ الهمومِ أليفُ الغَبَنْ

أتبكين أنت على منزلٍ
وأبكي دياري معًا والدِّمَنْ؟!

ألا هل يُلامُ إذا ما بكى
وأجرى المدامعَ قَطْرًا وحَنْ

قريحُ الجُفُونِ، عليلُ الفؤادِ
غريبُ الدِّيارِ، بعيدُ الوطنْ

أخرب نسر لقمان بيت الحمامة، واغتال فرخها، فغادرها كَلِيْمَةً مفطورةَ الفؤاد تبكي فرخها وترثي لبيتها ولا يبارحُها الحزن، وصارت من بَعْدُ مَفْزَعًا لكلّ والهٍ ثاكلٍ أضناهُ البَيْنُ، يناغيها، ويشاكيها الوجد، ويبثُّها تباريح الهوى ومحارق الشوق، ولهذا ما اتخذتْها فاطمةُ خِدْنًا تباسطه الحديث، وتبوح بما يعتلج في صدرها من حنين إلى الوطن النَّائي، ومثل هذا الضَّرْب من حديث الحمام الذي يُفضي إلى هياج الحنين إلى الأوطان المركوز في النَّحيزة الإنسانيّة = ما قاله شيخ المعرَّة أبو العلاء وكان في بغداد وقد استبدّ به شوق إلى معرَّة النُّعمان مسقط رأسه ومقطع سُرَّتِهِ:

وغَنَّتْ لنا في دار سابورَ قَيْنَةٌ
مِنَ الوُرْقِ مِطْرَابُ الأَصَائلِ مِيْهَالُ

رَأَتْ زَهَرًا غضًّا فَهَاجَتْ بِمِزْهَرٍ
مَثَانيه أَحْشَاءٌ لَطُفْنَ وأَوْصَالُ

فقُلْتُ: تَغَنَّيْ كيف شئتِ، فإنّما
غِنَاؤُك عندي يا حمامةُ إعوالُ

إذا سألتْ بغدادُ عنِّي وأهلُها
فإنِّيَ عن أَهْلِ العَوَاصِمِ سَآّلُ

وماءُ بلادي كان أَعْذَبَ مَشْرَبًا
ولو أَنَّ ماءَ الكَرْخِ صهباءُ جِرْيالُ

ويا وطني إنْ فاتني بك سابقٌ
من الدَّهْرِ فلينعمْ لساكنِك البالُ

وإنْ أستطع في الحشر آتِك زائرًا
وهيهات لي يومَ القيامةِ أَشْغَالُ

القينـة هَهُنا حمامة ورقاء تُطَرِبُ في العشيَّات، والمهيال: الفَزِعَة القلقة من الوهل، وهو الفزع، ودار سابور: دار العلم ببغداد، بناها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير، والغضّ: النّاعم الذي لم يُصِبْه ذُبُولٌ ولا يُبْسٌ، وهاجت: تحرّكت للغناء، والمِزْهر: عود الغناء، والأوصال: جمع وِصْـل العضو؛ شبّه مخرج صوتها مِنْ جوفها بعود الغناء، وشبّـه أحشاءها وأوصالها بأوتاره، ولـم يمكنه ذِكْرُ جميـع أوتار العود، فذكر بعضها، اكتفاءً بعلْم السّامع بأَنَّ الـمَثْنَى لا بُدَّ له مِنَ الـمَثْلَثِ و زِيْرٍ وبَمٍّ.

صوتُك أَيَّتُها الحمامة ليس عندي غناءً يُلْهي ويُطْرِبُ، وإِنَّما هو إعوالٌ يُشْجي ويُكْرِبُ.

وكانــت العربُ تختلفُ في صوت الحمام، فــكان بعضهم يجعلُه غناءً، وكان بعضهم يَجْعَلُهُ نِيَاحًا، ويزعم أَنَّها تنوح على الهديل، وهو فَرْخٌ زَعَمُوا أَنَّهُ هلك في زمن نوح عليه السلام، فليس من حمامةٍ إلّا وهي تبكي عليه؛ قال شيخ المعرَّة:

أَبَـكَـتْ تـلـكم الـحـمـامـةُ أَمْ غَـنْـ
ـنَـتْ عـلـى فَــرْعِ غُـصْـنِـهـا الـمَـيَّـادِ؟!

لو علمــت الحمائمُ حسن أَطواقها التي أُلْبِسْنَها، وأَنَّ البِيْضَ الحسَانَ يَحْسِدْنَها عليها ويَرَيْنَها أجملَ مِمَّا لَبِسْنَهُ من الوَشْي، وأَحْسَنَ مِمّا تَقَلَّدْنَهُ مِنَ الحَلْي؛ لكان لهنَّ زَهْوٌ بما مُنِحْنَهُ مِنَ الجمال، ولباهَيْنَ بها ذوات الأَسْوِرَةِ والحِجَال، ولكنّهنّ لا يعلمْنَ أَأَطواقٌ هي أَمْ أَغْلالٌ؟ فلذلك لا يُعْجَبْنَ بما لَبِسْنَ، ولا يُباهين الحسان بما طُوِّقْنَ، وخَصَّ الضُّحَى؛ لأَنَّهُ وَقْتُ ظهور الأطواق.

ثــمَّ قاد الحديثُ عن الحمام إلى تَحرُّكِ مَشَاعِرِ الشَّوْقِ إلــى مَسْقَطِ رَأْسِهِ، فكَأَنَّهُ هاجَ ما سكن، وأيقظ ما رقد، وحرَّكَ لها حوارَها تَحِنّ.

وتحسن الإشارة إلى أنَّ قول فتاة غَسَّان:

قــريــحُ الــجُــفُــونِ، عَــلِــيْــلُ الــفُــؤادِ
غــريــبُ الــدِّيــارِ، بــعــيــدُ الــوَطَــنْ

كأَنَّما بنته على قول النساء:

حَــمَّــالُ أَلْــوِيَــةٍ، شَــهَّــادُ أَنْــدِيَــةٍ
هَــبَّــاطُ أَوْدِيَــةٍ، لــلــجَــيْــشِ جَــرَّارُ

٣ - الحمام رَمْزُ الدَّعة والأَمْنِ والسَّلام:

قالت فتاة غَسَّان:

أَلا يا حَمَامَ الأَيْكِ لا زِلْتَ ناعمًا
وروْضُكَ فَيْنَانُ الغُصُونِ وَرِيقُ

وجادك مُخْضَلُّ النَّباتِ فلا دَهَى
فراخَكَ عَضْبٌ للمنونِ ذليقُ

ولا خاتلٌ يُدْني بِخَتْلٍ حِبَالَهُ
ولا نابلٌ منه الدِّماءُ وثيقُ

فأنت لأسرارِ السَّعادة ناشرٌ
يُعَرِّفُها عيشٌ لديك رقيقُ

إخاءٌ وحبٌّ في الرُّبا وقناعةٌ
وقلبٌ على الأُلّافِ منك شفيقُ

وكدحٌ لأفراخِ الأراكِ تحوطُهُ
محبَّةُ بِرٍّ لَيْسَ فيه عقوقُ

وأُقْسِمُ ما الإنسانُ مثلُك طاهرٌ
وإنْ ضمَّه للصالحينَ عُرُوقُ

فالحَمَامُ نورُ السَّلام، وشهابُ السَّعادة، بل هُوَ آلةُ الوَحْي بَيْنَ السَّماءِ والأَرْض، فلهذا دَعَتْ فتاةُ غَسَّانَ له بالسُّقيا ونُعُومة العَيْش، وهناءة البال، وأَنْ يُبَاعِدَ القَدَرُ بينه وبينَ أَلاعيب الصّيّادين ومُخَاتَلَتهم؛ إذْ لا يَحْسُنُ أَنْ نُطْفئَ قناديلَ السَّعادة، وعارٌ على الإنسانيّة وَأْدُ الحُبِّ الذي يُشيعُه في النَّاس هذا الطَّائرُ المترنِّمُ الّذي يملأُ دُنْيانا حُزَمًا مِنَ النُّور، ويُفَجِّرُ حَوْلَنا العِطْرَ والسِّحْرَ، بل إنَّه عندَ فتاةِ غَسَّانَ رمزٌ لطَهارة متناهية لَيْسَ يَبْلُغُها الإنسانُ مهما تسامتْ به الأحسابُ، ومهما اجتهدَ في قمعِ السُّوء الّذي تُزَيِّنُه له نَفْسُهُ الأَمَّارةُ به.

ومثل هذه الصُّورة البهيّة المشرقة للحمام والسّقيا لأيكته والدّعاء لصونه من حبائل الصّيّادين، وأَنَّها رمز السلام، صورة أتاها شقيق الشّاعرة بدويّ الجبل حين قال:

غَسَلَ الأَسَى قَلْبِي، وحَسْبُك بالأَسى
مِنْ غاسلٍ حِقْدَ القُلُوبِ ومَاحِ

ووَدِدْتُ حِينَ هَوَى جَنَاحُ حَمَامَةٍ
لَوْ حَلَّقَتْ مِنْ خافقي بِجَنَاحِ

حُبٌّ قَدِ انْتَظَمَ الوُجُوْدَ بِأَسْرِه
أَسَدَ الشَّرَى وحَمَامَةَ الأَدْوَاحِ

٤- الحَمَامُ على غِنائه وشَدْوه ليس بمَأْمَنٍ مِنْ عاديات الدَّهر:

قالت فَتَاةُ غَسَّان:

قد تَغَنَّتْ أَلحَانَها الوَرْقَاءُ
فأَثَارَ الشُّجُونَ ذاكَ الغِنَاءُ

فَوْقَ غُصْنٍ من الأراكِ نضيرٍ
يترامى في مِعْطَفَيْهِ الهَوَاءُ

حُرَّةٌ في رِيَاضِها حَيْثُ شَاءَتْ
غَابَ عنها الصَّيَّادُ والرُّقَبَاءُ

أَسْكَرَتْنِيَ الأَنْغَامُ أَنْغَامُها العَذْ
بَةُ حتَّى كأَنَّها الصَّهْبَاءُ

إِيْهِ وَرْقَاءُ تَأْمَنِيْنَ اللَّيَالي
وَهْيَ رُزْءٌ وغَارةٌ شَعْوَاءُ

أَتُرَى تَسْلَمِيْنَ دَهْرًا وقد
أَعْوَزَ رَبَّ القَصْرِ الرَّفيعِ البَقَاءُ

كم يَغُرُّ الإِنسانَ من باطِلِ الدَّهْ
رِ خِدَاعٌ وزُخْرُفٌ ورُوَاءُ

الحمامة على لحنها ذي الشجن وعلى ترنُّمها على فَرْعِ غُصْنِها المَيَّادِ وعلى حُرّيتها في التَّنَقُّل بين أغصان الرياض = ليستْ في حِرْزٍ حَارِزٍ عاصم لها من غوائل الدَّهر، فاللّيالي حبَالٌ لا يُدْرَى ما يَلِدْنَ، فإذا كان صاحب القصر المنيف الباذخ ليس يدفع عن نفسه الفناء والزَّوال، أفيقدر هذا الطّائر الهزيل البنية أَنْ يدفع عنه غدر الموت أو كيد صائدٍ مخاتل؛ كأَنَّ فتاة غَسَّان تنظر إلى قولِ شيخ المعرَّة:

كُلُّ بَيْتٍ للهَدْمِ ما تَبْتَني الوَرْ
قَاءُ والسَّيِّدُ الرَّفِيْعُ العِمَادِ

٥- غِنَاءُ الحمام سَلْوَى العاشقين:

قالتْ فتاة غَسَّان:

ووَرْقَاءَ غَنَّتْني على فَرْعِ دَوْحَةٍ
بِغَنَّاءَ فِي أَرْجَائِها الطِّيْبُ فائِحُ

تُسَاجِلُني شِعْرَ العَوَاطِفِ ضَلَّةً
وأَيْنَ لها في الشِّعْرِ هذي المَنَائِحُ

وهلْ تَسْتَوي عُجْمُ القوافي وعُرْبُها
إذا رام إيْضَاحَ الحقيقةِ شَارِحُ

على أنَّني لا أَبْخَسُ الوُرْقَ حقَّها
إذا طارحتْ أُلَّافَها ما تُطَارِحُ

تُرَنِّمُ أَلْحَانَ الغَرَامِ فتَشْتَفي
بِأَلْحَانِها هذي القلوبُ القَرَائِحُ

وتُمْلي لها الأَوْرَادُ والزَّهْرُ والشَّذا
حديثَ الهَوَى والغادياتُ النَّوَافِحُ

ولَمْ أَرَ أَوْفَى مِنْ حمامةِ أَيْكَةٍ
تَرُوْمُ على نَجْوى أَلِيفٍ تُرَاوِحُ

وتحفظُ ذِكْرَ الحُبِّ عَذْبًا مكرَّمًا
إذا بَعُدَتْ بالإِلْفِ عنها المَطَارِحُ

لعَمْري لقد أَشْجَيْتِني منك بالبُكا
وهَيَّجْتِ بي ما أَضْمَرَتْهُ الجَوَانِحُ

فهاتي دُمُوعًا للوفاءِ تُعينُها
على الوَجْدِ من عيني الدُّموعُ السَّوَافِحُ

وفاؤُك في شرعِ المحبَّةِ راجِحٌ
كذاك وفائي يا بنةَ الأَيْكِ راجِحُ

فدومي على عهدِ المودَّةِ بيننا
فعيشٌ كهذا بالتعاونِ صالحُ

الوَرْقَاءُ شاعرةُ الخمائل تُنْشِدُ أنغام شعر الحبّ على أغصان الأَيْكة، وهي وإنْ تبوَّأَتْ هذه المنزلـةَ في البيانِ ليستْ ببالغة مـا بَلَغَتْهُ فتاةُ غَسَّان من سُمُوِّ البيان وعُلُوِّ الإفصاح وإشراقة التّعبير، وأنَّى لشاعرة الخمائل أنْ تبلغَ ما بلغتْه شاعرةُ الإنس فتاة غَسَّان، فلِسَانُها لسان عربيٌّ مُبِيْنٌ، ولسان الورقاء يَرْتَضِخُ عُجْمَةً لا يُبين. على أنَّهُ من الإنصاف القول: إنَّ الورقاء تُمَحِضُ إِلْفها صافي المودَّة وذوب العشق الذي لا تشوبُهُ شائبةٌ، كقول حبيبٍ:

غَنَّى فشاقَكَ طائرٌ غِرِّيدُ
لمّا تَرَنَّمَ والغُصونُ تميدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمْرِيَّةً
فدَعَتْ تقاسِمُهُ الهوى وتصيدُ

فإنْ طوّحت بالإِلْفِ المطاوح وبات غريب الدَّار بعيد المزار حفظت الورقاء الوُدّ، ودامت على عهد الوفاء له صافية الحبّ لا يتمكّن من فؤادها غيرُ إلفها القابع في حناياه.

ثمّ آبت فتاة غَسَّان إلى شريعة المحبّة، وانتهت إلى أنَّها وشاعرة الخمائل شبيهتان في التَّغَرُّبِ والنَّوَى وبُعْد الحبيب، وأنهما متعاضدتان في سَفح الدموع السوافك على إلفيهما، وأَنَّ الوفاء شريعة راجحة في قلوبهما.

ج- تمجيد الطَّبيعة:

طغت الطَّبيعة على غير قليل ممّا جُمع من شعر فتاة غَسَّان، هذه الأُنثى التي تسرب الطّبيعة في روحها وتخالطُها حتّى كأَنَّها مسكونةٌ فيها، وهذا ما فعله الرومانسيّون الأوائل شلي ووُردزورث وجورج بايرون الجيل الرُّومانسيّ الذي صعد نجمه في النصف الأوَّل من القرن التاسع عشر، إذ رأوا الطبيعة البِكْر حُضْنًا ارتموا فيه، وبثّوه آلامهم وأنينهم وأوجاعهم، والتمسوا في صمتها تعاطفاً مع تباريحهم ومحارق الشوق فيهم؛ تقول فتاة غَسَّان:

قِفْ فوقَ عاليةِ الرُّبا
واسرحْ بطَرْفِكَ في المَسَارِحْ
وانظُرْ جمالَ الواديين
وما تضمّن من مَنَائِحْ
الوردُ فيّاحُ العبيرِ
وعندليبُ الأَيْكِ صادِحْ
والرَّوْضُ باكره الحَيَا
ونسيمُهُ بالطِّيبِ سارِحْ
واسمعْ أناشيدَ الهَزَا
رِ وشَدْوَ أَطْيَارٍ جَوَارِحْ
كلُّ الطبيعة بَهْجَةٌ
والكونُ مخضرُّ الوَشَائِحْ

فالطّبيعــة جسدٌ طافح بالحسن والغواية والإغراء، ويحثُّــك على التّأمُّل والتفكير، وسحر الواديين وما طوى بين جوانبه متعة للنّاظرين، ومن حكمة الطبيعة أنَّها تستنفر حواسّك دفعة واحــدة، فعليك أنْ تستنشقَ العبير، وتطرب لنوح العنادل، يراقصُك النسيم المندّى، ثم تنعقد (سيمفونية) من اختلاط أصوات طيور الخميلة باعثةً بهجةً وسعادة في قلب الحالم.

هــذه أهمّ الموضوعــات التي نظمتْ فاطمةُ فيها مِمّا جُمع مــن شعرها: المرأة والشّباب والوطن والطبيعة، وكانت مالكة لزمام الرأي وجمال الصّورة، ولعلّ شعر الطّبيعة والحمام قد استحوذ على جملة صالحة من ديوانها، وهو شعر عالي الطبقة صافي الرونق عربيّ الدّيباجة والهوى.

وإنّــي لآمُلُ أنْ يُهَيَّأَ لهذه الشّاعــرة مَنْ يجمع ما تناثر في الصحف والمجلّات والكراريس مــن أشعارها حتى تغدوَ مجتمعةً فــي ديوان مفردٍ على حياله، ثمّ تنعقــد على هذا الديوان رسالــةٌ جامعيّةٌ مستحقّةٌ تكشف عــن الجوانب الفنّيّة في شعر هذه الشّاعرة التي تستحقُّ منّا كلّ الإعجــاب والوفاء والتّقدير، ولئن مضت فإنّ عطرَ شعرها الأُنثويّ وإرثَها فيما صنعت من عقولٍ مملوءةٍ علمًا ونفوسٍ أبيّاتٍ = باقيان، قال الأوّل:

أنـا إنْ رحـلـتُ فليس ذاك بضَائري
وعـلـى الـخـواطـرِ غُـدْوتـي ورواحــي!

تنويه: اعتمد البحث على ما استطاعتْ جمعه من أشعار فتاة غَسّان نجلتها السّيّدة أمامة أحمــد، فلها خالص الشكرِ وعظيــم الامتنان، وكانت قد طبعت هذه الأشعار في كتاب أسمتْه «فتاة غَسَّان فاطمة سليمان الأحمد شاعرة الإنسان والوطن ١٩٠٨ – ١٩٨٥م»، وصدر عن دار الحارث بدمشق سنة (١٩٩٩م).

ما بَعد الحداثة: بَعد البِنْيوية التفكيكية الاتصالوماتيّة

د. معن النقري

بَعد الثورة الصناعية في أوروبا بدأ مجتمع الصناعة والحداثة وعصرهما، أمّا الآن ومنذ أواسط القرن العشرين، وفي صلةٍ واضحة بالثورة الصناعية الثانية أو ما عُرف بالثورة العلْمية - التقنية، فقد لاحت في الآفاق مواصفات المجتمع الصناعي والحداثي الجديد والنَاضج، وصولاً، إلى حواف الثمانينيّات، إلى مجتمع ما بعد الصناعة وما بَعد الحداثة وعصرهما وهما في حالة التبلّور، تواكباً وتزامناً مع اندلاع ثورة صناعية ثالثة أو ثورة علْمية - تقنية ثانية وجديدة هي الثورة العلْمية - التّقانية (التقَانية أي التكنولوجية وليس التكنيكية)، وهي التي نالت في الغالب تسميةَ ثورة المعلومات والاتصالات تبسيطاً (الاتِّصالوْماتيّة في تسميتِنا المقْترحة منذ سنواتٍ طِوال)[1].

وهكذا كانت تتضح وتتبلور باستمرار وتدريجياً امتداداتُ الحداثة والصناعة باتجاه ما بَعد الحداثة وما بَعد الصناعة وفي تمرْكز متزايد لاحقاً صوب طروحات مجتمع المعرفة ومجتمع المعلومات للحالتَين، وذلك على مدى النصف الثاني من القرن العشرين وحتى الآن. وللحداثة وما بَعدها شعاب كثيرة ومتنوعة مِن بينِها البنْيوية وما بَعد البنْيوية، كما أنَّ لِما بَعد البنْيوية بدورها تشعبين أساسيين رئيسين متفارقَين أحدهُما التفكيكية، وهذه الأخيرة - التفكيكية - خضعتْ بدورِها ومجدَّداً لمعالَجات وتحديثات إضافية في عصر المعلومات والاتصالات (عصر الاتصالوماتية) مما لم يفعلْه إلاّ باحثون قلائل بعْد، ومِن هؤلاء الباحثين

القلائـــل «مارْك بوستير» أستـــاذ التاريخ في جامعة كاليفورنيا الأمريكيـــة[٢] الذي انطلق مِن آراءِ وطروحات أعلام ما بَعد البنْيوية التفكيكية المشهورين والمعروفين جيداً ليُضيف إليهـــا بصّمَته الخاصة تقييماً وتقويماً إيجاباً وسلْبـــاً، محتَسِباً مستجدّات وسياقات عصـــر المعلومات الأحدث لإضفاء هوية وسِمات أجدّ على هذا الاتجاه بَعد الحداثي ما بَعد البنْيـــوي التفكيكي وبنكهـــةٍ أخرى. وفي مركز ومحور طروحاتِه مفْهـــوم «أسلوب المعلومات» تصعيـــداً وتطويراً لمفهوم «أسلوب الإنتاج» عند ماركس، وهو نفسه يوضح ذلك، مع العلْم أنه يستخـــدم كلمة mode للتعبير عـــن دلالة «أسلوب»، الذي هو في الروسيـــة – مثلاً (وتطبيقاً على مركَّب «أسلوب الإنتاج» ضمناً ـ سبوْسَب= cnócob: الكلمة التي تُقابلها إنكليزياً دلالات: طريق، طريقة، مود ↔ mode وméthod وway، وهكذا يُصعّد «بوستير» أسلوب إنتاج ماركس باتجـــاه عصر المعلومات باستخدام مفهوم أوْ تعبير the mode of information، أي على ما يبدو ويلزم أن يكون تناظراً: أسلوب المعلومات مقابل أسلوب الإنتاج. والحديث عن المعلومات وعصر المعلومات يعني ضمناً في الدلالات الأشمل: المعلومات والاتصالات وتقاناتها وعصر المعلومات والاتصـــالات (الاتصالوماتية اختصاراً)، مع أنَّ طروحاتِـــه تمثَّلت وتشرَّبت أفكار وطروحات الفيلسوف المنظر الكندي ماكْلوين (ماكْلوهان في اللفظ العربي الإشكالي الجدلي) بعمـــق، غير أنه لا يذكره بالاســـم صراحةً وعلانيةً على ما يبدو: اقتباسات وتناصّات من غير إسنـــادٍ ولا إرجاع أو توثيق، كما يَفعل كثيرون عندنا وفـــي عالم الجنوب بعامة عادةً للأسف. إنـــه يُبدي أريحيةً أكبر في الإرجـــاع والاعتراف صراحةً بأمثال: دانييل بيلّ، وفيبر، وبوْدريار، ودريدا، وغيرهم من ممثّلي الاتجاه بَعد البنْيوي، أي ما بعد البنْيويين المعروفين في عصرنا أمثال: م.فوكو، ج.ف.ليوتار، ج.ديليوز، إضافةً إلى: ج.بودْرييار، ج.ديريدا.

وهـــو يُتابع هذا الاتجاه بَعد البنْيـــوي، الذي اشتهر وبات معروفاً مـــع فرسانِه، ولكنْ في ظروف جديدة اتصالوماتيّة، ممَّا يُضْفي لمسةً جديدة وتجديدية متميزة على ما بَعد الحداثة بنسختها بَعد البنْيوية التفكيكية[٣].

يُحـــاول مارك بوستير إيضاحَ طبيعة الأشكال الجديدة من الحياة الاجتماعية التي ظهرتْ نتيجةَ صعود وسائط اتِصالات حديثة مرتبطة بالتقانات الإلكترونية – وهذه الوسائط تصوغ تجربة لغوية جديدة متمايزة عن الكلام (الحديث) الاعتيادي وعن الكتابة.

إن النظريات الاجتماعية كلها، مِن ماركسية وماركسية جديدة (نيوْماركسية) وفيبرية (مِن فيبــر) وحتمية تكنولوجية، وعلى الرغم من تبايناتها في المقارَبات، تعترف على الأقل بنمط واحــد من التغييرات الناشئة عن الاتصالات الإلكترونية، ألا وهو أن تبادل الرموز بين الناس بــات الآن أقلَّ خضوعاً بكثيــر للحواجز والتحديدات الزمكانية. وتصبــح المعلومات مُتاحةً لحَظياً في سائــر أرجاء الكرة الأرضية وتعتمد على وصول الكهرباء. وهذا المستوى الجديد من الارتباطات المتبادلة يخفض أيضاً استقرار وثبات الشبكات الاجتماعية. ومن أمثلة ذلك وشواهدِه «الفيروس» الحاسوبــي، فالحواسب مترابطة عميقاً إلى درجةٍ أنها تتصرف كما لو أنها جزء من جسدٍ حيّ.

إنّ دراســةَ الاتصالات الإلكترونية تتطلب الانتباهَ إلى التِّقانات الجديدة من منظور فعالية التبادل العلامي (الإشاري)، كما تطرح أسئلة اجتماعية مهمة من قبيل أهمية الأشكال أو الصيغ الثقافيــة والاجتماعية فــي تشكيل وصياغة نماذج جديدة للاتصــالات بحسبان التجديدات التكنولوجية. والفهْم الملائِم الجدّي للاتصالات الإلكترونية يفترض وجود نظرية قادرة على فكّ شيفْرة المعيار اللساني للأشكال الجديدة من التفاعل الاجتماعي.

وكخطوةٍ فــي اتجاهِ نظريةٍ كهذه يُقَــدّم بوستير مفهومَ «أسلــوب المعلومات»، في محاكاةٍ ومماثَلــة للمفهــوم الماركسي - أسلوب الإنتاج. ثم يُقدم بوستير ويُفــرز مراحلَ لتطور أسلوب المعلومــات من حيث أشكال أو صيغ التبادل العلامــي (الإشاري)، وهي مراحل لا تختلف في شيء عن مراحل سَبق أن اشتغل عليها وقدَّمها مارشال ماكليوين سابقاً، وإن اختلفت عنها فإنما لأنها أضيق وأبسط وأقلّ تماسكاً وعمقاً في رأيي. هنا مراحل بوستير لمقارنتِها لاحقاً:

١- «وجْهاً لوجْه»، التبادل الجاري شفوياً. ٢- التبادل الكتابي، بوساطة الكتابة. ٣- التبادل الجــاري بوساطــة الإلكترونيات. ثم ينتقل بوستير إلى الاستخلاص والاستنتاج الاجتماعي: في كلٍ من هذه المراحل تتبايــن وتختلف علاقات اللغة والمجتمع، والأفكار والأفعال، والأنا والآخــر. وهذه الاستخلاصات والاستنتاجات الاجتماعيــة المنبثقة عن «أسلوب المعلومات» ومراحل التواصُل المذكورة هي بدورِها تكرار فجّ لروْية ماكْليوين مع التبسيط وبعض التسطيح، كما توضح مقارنة الأطروحتين:

سبق أن حــدَّد ماكليوين مراحل اتصالية/تواصلية في تاريخ البشَرية: شفوية مباشرة حسّياً وجهــاً لوجْه، وكتابيــة - تدوينية، وطباعية (بعْد غوتنبــرغ)، وإلكترونية - تلفازية (في عصرنا

- عصـــر الكهرباء والإلكترونيات) مع تفاصيـــل وَتعمُّقات أخصب، كما سبق أن أشار إلى تأثير عصـــر الطباعة فالصناعـــة (العصر الطباعي - الصناعي) على الإنســـان (مُسَمِّيَهُ: الإنسان الطِباعي الصناعي) وعلى تشكُّل الـــدول والقوميات وظهور اللغات القومية أيضاً رابطاً ذلك كلــه بهذا النمط مِن طريقة التواصل والاتصال وتقاناتهما، وقد أثَّرت أفكارُه وطروحاتُه على الفكـــر الغربي المعاصر وعلى كثيرٍ من أعلامِه بمن فيهـــم ألفين توفلر المشهور، وليس على بوستير الحالي فحسب، ومفهومُه الناشئ عن وسائط الاتصال و(الميديا) (مفهومه الميديوي) عـــاد إلى (الميديا) مجدَّداً ليكونَ العصب والشغْل الشاغل في تنظير وتدوير مصطلح القرية الكوكبية (العالمية). ولأنَّ التعريف بذلك كله يقتضي غير قليل من السرْد، - حتّى في الحدود الدُنيا - فسأكتفي بالإرجاع والإسناد لِما سبق وكتبناه ونشرْناه عربياً في هذا الخصوص[٤].

أشير إلى توصيفاتٍ بعضهم لفكْر ماكليوين أنّه فلسفة شعبية pop philosophy (اجتهادي هـــذا في التسمية من أواخـــر التسعينيات قدَّمـــتُ مثله وحينها في صيغـــةٍ شعبوية (ولاحقاً باستمـــرار) وكان ذلك فـــي توصيف الفهم الشعبوي للعولمة عربيـــاً، فهي هنا فلسفة شعبوية إذن) تحـــوي جزْئيـــاً وضمناً نظريـــةَ الاتصال الاجتماعي، كمـــا لقَّبَه الغـــرب بـ«نبيّ العصر الإلكتروني» بَعد كتابِه الأول - «مجرة غوتنْبرْغ» سنة (١٩٦٢م)، وصار علَماً ونجماً في الأدبيات السوسيوْفلسفيـــة باللغة الإنكليزية، وهو الذي تَنبَّأَ بحلـــول «المجرّة الإلكترونية» في عصرِنا محلّ «مجرة غوتنبرْغ» (الطباعية) وبإشراقةِ الوسائط الجماهيرية mass media، مع العلم أن مفهوم وسائل/وسائط الاتصال لديه واسعٌ جداً ومتميز تماماً إذْ يتضمن ظواهر متنوعة مثل: «الطـــرق والنقود واللغة والكتابة والطباعة أو المطبوعات والعلم والتلفزة والحواسب والهاتف والكتب وورق البرْدي والطيران وما إلى ذلك. إن كل ما يستطيع ربط الناس فيما بينهم داخل المجتمع بأي صورة هو وسائط جماهيرية (أوْ «ماسّ ميْدْيا»)...»[٥].

ولا يختلف بوستير في شيء عن ماكْليوين في خصوص تنظيرات وتأثيرات وسائط الاتصال المجتمعية سوى في أنَّ بوستير يُنوّع في مصطلحات التعبير متجاوزاً الاكتفاءَ بمفاهيم الاتصال والتواصـــل... إلخ، بإغنائِه المنظور ككل بمفردات المعلومات: «الأغنياء» و«الفقراء» معلومياً، الفرد أو الشخْص «المعلومي»، أسلوب تراكُم ونقْل المعلومات، وتقوم بتنسيق ذلك كله وسائط الاتصال مع تركيز بوستير على الصيغ اللغوية الجديدة ودورِها وأهميتها، وأكثر هذه المحاور هـــي الشغْل الشاغل لنظريات مجتمع المعلومات ومجتمـــع المعرفة منذ ردح من الزمن غير يسيـــر، ولاسيما منذ السبعينيات، وبالأخص منذ حوافّ الثمانينيات، وبحضورٍ مكثّفٍ ثم طاغٍ

بعد صدورِ تقارير التنمية البشرية/الإنسانية دولياً، أي بعد عام (١٩٩٠م) سنوياً إلى الآن. إن «أسلوب» المعلومــات لدى بوستير ينّفذ عميقاً في شَبكة العلاقات الاجتماعية: في الأحداث السياسية، وفي أشكال التجمُّع والاجتماع، وفي المنظومات الاقتصادية حسب رأيه.

لطالما قصد القاصدون من استخدام مفهوم المعلومات وتقاناتِها التعبير الواسع الشامل والمــزدوج عن المعلومات والاتصالات وتقاناتهما أي ICT اختصاراً، وبوستير هو أحد هؤلاء باستخدامــه مصطلح المعلومات وشقيقاتِها «وأسلوب» المعلومات، مما يعبّر عنه بدقةٍ ونجاحٍ أكبر مصطلحُنا - الاتصالوماتية.

يتطــرّق بوستير إلى مسائل تتصل بما بَعد البنْيويــة وبالتوتاليتارية (الشمولية الطغْيانية) ومــا بَعد الصناعة (ولا سيما عند دانييل بيــلّ)، وتضخيم دور وأهمية الوَضْع الإبستمولوجي للعِلْم مَرَضِيّاً، والسياق الاجتماعي لوسائط المعلومات الجماهيرية (ربما لم يعتد المتابع على وسائط مِن هذا القبيل في التعبير بَعدَ تجذّرِ مفاهيم وسائط الاتصال أساساً)، كما أنه يُبدي اهتماماً ضافيــاً بالتطبيقات اللغوية في التلفَزة وبلغة الوسائــط (الميديا)/اللغة الميدياوية وخصائصهــا، وله وقفات مع أفــكار وآراء بودرييار مِن منظورِه المستجدّ وفي ظروف أحدث فــي ثقافــة نهايات القرن العشرين، ويطمــح إلى تطوير نظرية نقْدية بالارتــكاز إلى أسلوب المعلومــات، كما يتوقف مليّاً عند الدعايــة التلفازية (تيلي/ريكْليــم) وأبعادِها واشتراطاتِها وتأثيراتِهــا، وهو في ذلك كله يتصيَّد ويَرصد ويُشرِّح لحظات التفكيك في كل مكان. وإضافةً إلــى تحليل ومعالجة طروحات بودْرييار بَعد البنْيوية التفكيكية يتطرق أيضاً إلى حالةِ نظريةِ الرسالــة عند ج.دريدا في عالَم جديد يتعامل تطبيقياً مــع الحاسوب ولم يعد مقتصراً على رسائــل تقليدية، متسائــلاً: ألاّ يشهد إنجاز وتحقيق الرسالــة الحاسوبية (الكمبيّوترية) على مرحلــة اتصالات غير متوقعــة ولا مُتَنبَّأً بها وغيــر مشروحة ولا مفسَّــرة بمساعدةِ طريقةِ ديريــدا في التفكيك النَّصّــي؟ أم أنَّ القضية أعمق من ذلك، وبالعكــس، بمعنى أن التفكيك نفســه يفتتح التحليل النظري للرسالة الحاسوبية بوساطة الكتابة الهادمة للاستقرار والتوازن والمتزايدة تعقيــداً على عتبات العصر («القرنِ») الإلكتروني؟ ويتمادى في استنتاجاتِه، حتّى سياسيــاً، على هذا الصعيد، معلناً أن المشكلــة السياسية هي إبداع وهي ولادة الجديد، وأن برنامج التفكيك deconstruction يَظهر عندما ينتهي عصر («قرن») الكتاب، وعندما تستنفد السياسة المرتبطةُ بعصرٍ (عهدٍ) كهذا: منْطق يُذكِّرك تماماً بمقاربات ماكْليوين مجدَّداً.

وفي خصوصــ مسألة استخدام التفكيك مــع الرسالة الحاسوبية يطــرح بوستير مسألةَ التعالــق والترابُط بين السِّياق والسياسة. والرسالةُ الحاسوبية المتاحة تزامنياً للكرة الأرضية كلها تعيــق ذاتها وتقع في ورطة «الإيقاع غير الخطّي/غير المتناغِم» مما يهدم العلاقات مع الــذات الكاتبة، وتنْحلُّ الذات مع مواصفاتٍ وخصائص زمكانيــة لا خَطِيّة، وبما أن الرسالة الحاسوبيــة غير ماديّة وهدَّامة للهوية الثابتــة المستقرَّة، فإنها تُدخِل وتجلب مصنعَ الذاتّويّة subjectivity بعد الحداثية، وآلةَ قوننةِ الذواتِ مسلوبةِ الهوية.

وفي عالم السياسة يعود بوستير إلى ماركس وأهمية العمل لديه مما بات الآن متحوّلاً مِن حدث أو فعْل فيزيائي إلى فِعل أو تأثير عقْلي/ذهْني (مينتال mental) مما يمكن تمديدُ آثارِه وتأثيراته على تنظير البروليتاريا إجمالاً.

ويتوقّف بوسّتير عند أعمال بَعــد البنْيويّين المعروفين: ج.بودّريار، وَ م.فوكو، ج.ديريدا، وَ ج.ف ليوتــار، وَ ج.ديليوز، والتــي ظهرت بعد أحداث أيار عــام (١٩٦٨م)، وقليلاً جداً ما يعرف العرب أو يهتمّون بأنَّ أحد المشاركين في تلك الأحداث «برناردْ هينرّي ليفي» اليهودي الفرنسي مِن أصل جزائري الذي بدأ (روْداجاتِهِ الثورجية) حينَها وهناك في باريس مع هؤلاء القــوم لإنجاز وتحقيق واختيار تجربة تفكيكية بازغــة على صلة بمدارس الفوضوية العالمية تاريخياً، والذي سُوِّق واُشْهِر في السبعينيّات على أنه أحد ممثّلي «الفلاسفة الجدُد» بطروحاتهم الفضفاضة المتواضِعة الخاوية التي لم تُعجِبْ أحداً مِن أصحاب ودوائر الفلسفة المحترَمة منذ ذاك، ولا حتَّــى سيمون دي بوفوار الوجودية، على الرغم من أريحيتِها واقتحاميَّتِها وحداثيتّها الفائقــة (هايْبر مودِرن)؛ ثم تابع برنارد هينري ليفي مساره حثيثاً وصولاً إلى اشتغالِه كعرَّاب للثــورات الملوَّنة عالميــاً، ولا سيما للربيع العربي، في آخِر طبعاتِه، علناً وجهاراً بلا خجل أوْ وجل، مع ركوب حصان طروادة في عولمةٍ حاسوبيةٍ شبكية للفوضى الهدَّامة (الخلّاقة؟!).

ويــرى بوسّتيــر، في هذا السياق بَعد البنيــوي التفكيكي بأعلامِــه المذكورين توّاً – عدا ليفــي؟! – أنــه في روْية العالَم بَعد الحداثيــة يَتَدَسْتَر الأفراد عبر مــا يشغلونه من موقع أوْ مــكان في دورة/دارة التيّارات المعلوميّــة عادّاً أنَّ «وضْعية التوَلُّف على المعلومات هي الفعْل السياسي الأساس».

يتوقّف بوستير مليّاً أيضاً عند ليوتار عادّاً أن مسألةَ السياسة لديه مطروحة بأكبر جَزالة علــى أنها مشكلةُ ما بَعد الحداثوية (postmo dernism)، ولا سيما أن ليوتار يُقرّ رابطةً بين

اللغة والوسائط الإلكترونية - مِن جهة، والسياق الاجتماعي المعاصر مِن جهةٍ أُخرى، ويُقدّم بيانَــه في أننا موجودون في حالــة بعد حداثية بإمكاناتٍ ومشــكلاتٍ جديدة نوعيّاً. وحسب ليبوتار يكون المستوى الأساس للتحليل الاجتماعي في العصر بعد الحداثي هذا هو اللغة، ولا عجــب هنا أن اللغة الهزيلة في التحليل التي قد لا تعجبنا هي بالذات محطّ إعجاب ومحور تحليــلات أكثر منظّري وأعلام الفكر الاجتماعي الغربي في عصرنا هذا، وليس ليبوتار أكثر مــن واحدٍ من كثرتهم ورقم إضافي في القائمة مِن قَبْل ومنْ بَعد، تأسيساً منه نشوء الوضعية الفلسفيــة فالوضْعية المنطقية الجديدة صعوداً صــوب مَا بَعد البنْيوية؛ وسائر اتجاهات «ما بَعد ...X» غربياً هي في حالة قرابة رحم وتجمعها وشائج متينة وروابط مشتركة، وسعْياً نحو سياسةٍ بَعد حداثية تلائــم أسلوب المعلومات لديه، يُحاول بوسْتير «شلْبنَة» ليبوتار وغيره مِن بَعد البنْيويين التفكيكييــن وتكييفهم مع الظروف الاتصالوماتية المستجدة، وهو يقترح مثلاً «تقديــم نفاذ/وصول/وُلوج حرّ مجتمعياً إلى ذاكرة وقواعد المعطيات/البيانات» بوصف ذلك نافعاً ولكنه غير كافٍ ولا يقدّم حِراكاً كبيراً في اتجاهِ فهْمٍ بَعد حداثي للعدالة.

ويجاهد بوستير لتحديث (وبَعد بَعد تحديث) ليبوتار ورفاقه مع تقديم وتوليف مفهومه في أسلــوب المعلوماتِ ومحاولاتِ بناء نظريتِه الخاصة - النظرية الاجتماعية النقدية، ولنلاحظ مجــدّداً، أثر عقلانية بوبــر النقدية ودورها في تواشجِ وتلاحمٍ وتفاعــلِ الاتجاهات الفكْرية الغربية مِن كل الحقول والأطياف وتَلاحمَها.

هوامش

(١)- بسبــب كثرة وسعة استخــدام لازِمات: المعلومات والاتصالات وتقاناتِها أينمــا كان ارتأينا أهمية ابتكار مصطلــح مركّب ومكثّف هــو الاتصالوماتية، ورد ذلك في منشوراتِنا الدوريــة الآتية مثلاً: ١- المهندس العربي... العدد ١٧١/ ٢٠١١م: نحن والمعلومات وأخواتها، ص ٥٠- ٥٢: المعلومات لا الإعلام، المعطَيات... المعلوميــاء وليس الإعلاميــاء... الاتصالوماتية مقابل تكنولوجيا الاتصــالات والمعلومات ICT... نحن ومجتمــع المعلومات؛ ٢- الاتصالوماتية غربياً - عربياً، أسبوعية «الأسبوع الأدبي»، دمشق، ع. ١٠٢٤، في ٢٣/٩/٢٠٠٦م، ص ٥؛ ٣- الاتصالوماتية: ابتكار مصطلح، ج.الثورة، ع ١٣١٢٤، في ٢٩/٩/٢٠٠٦م، ص ٦؛ ٤- برامج اتصالوماتية دولية/ العرب وقمة المعلومات؛ مجلة المهندس العربي، ع/١٥٠/- أيلول ٢٠٠٦م،

صـــ ٢٦- ٢٨؛ ٥- تقانـــات المعلومات في الجيل القـــادم: الاتصالوماتية والعالَـم العربي، مجلة «النقل» (الفصلية)، دمشق، ت١، ٢٠٠٦، ع ١١، ص ٢١.

(٢)- م.بوسّتيـــر: أسلوب المعلومات: ما بَعد البنّيوية والسِيـــاق الاجتماعي (دورية مراجعات: الفلسفة خارجاً - ٩١.٠٥.٠٣٩)

Poster M.the mode of information: Poststructuralism and social context. – Cambridge;oxford: Polity press, 1990.

(٣) لإغناء رؤية ما بعد الحداثوية بَعد البنّيوية التفكيكية يمكن مراجعة بعض منشوراتِنا الدورية الأخيرة مثلاً:

آ- فوضى ما بَعد الحداثة، دورية «الأسبوع الأدبي»، ع ١٥٥٨، في ٢٠١٧/١٠/١م، ص ١٤- ١٥.

ب- مـــا بَعد حداثويـــات تفكيكية: بين الفلسفـــة والأدب، البعث ميديا ثقافة وفنّ شبكيـــاً /على الإنترنت في ٢٠١٧/١٠/١٥م.

ج- ما بعد الحداثيات كإطار إجمالي شامل من منشوراتنا الأخيرة في مجلة المعرفة الشهرية السورية مثلاً:

١- رأي في نشوء وتطور الحداثيَّات؛ العدد ٦٤٦ تموز ٢٠١٧م...

٢- في الحداثويّات: الحداثة والحداثية ثم ما بَعد؛ العدد ٦٥١ كانون الأول ٢٠١٧م.

٣- وفي إحدى مجلات وزارة الثقافة الفصلية - «الخيال العلمي»؛ ع ٢٠١٨/٦٥م: مِن تجربتِنا مع الحداثويات وما بَعدها، ص ٦- ١٥.

(٤): آ- المجتمع الصناعي وبَعد الصناعي: قضايا التصنيف والفروق؛ فصلية «الفكر العربي»، بيروت، ع ٨٨، ربيع ١٩٩٧م، ص ٢٥٠- ٢٦٠.

ب- تحوّلات دانييل بيلّ: مِن ما بَعد الصناعة إلى المعلومات؛ «السفير الثقافي»، بيروت، ١٩٩٧/٨/١٥م، ص ١٣.

ج- الهوية في عصر الإنترنت؛ مجلة «المعلوماتي» (الشهرية)، دمشق، ع ٥٩، أيلول ١٩٩٧م، ص ٧٤- ٧٦.

د- مـــن المجتمـــع الصناعي إلى مجتمعات ما بَعـــد الصناعة: منجزَات العلم والتقنيـــة هل هي عوامل تغيير اجتماعية؟؛ جريدة الكفاح العربي، بيروت ١٩٩٧/٩/٤م، ص ١٣.

هـــ- الاتجاهـــات والنظريات الاجتماعية المعاصرة: قريـــة فكرية عالمية أم كوخ إلكترونـــي؟؛ جريدة الكفاح العربي، بيروت، ١٩٩٧/٩/٢٦م، ص ١٥.

و- المعلوماتيـــة وصلتهـــا بإنجازات الفكر الفلسفي الاجتماعي (٢): «مارشـــال ماكّليوين» أول من طرح مفهوم القرية الكونية، جريدة الكفاح العربي، بيروت، ١٩٩٧/١٢/٢٥م، ص ١٣.

ز- المعلوماتيـــة وصلتهـــا بإنجازات الفكـــر الفلسفي الاجتماعـــي: ماكّليوين والمعلوماتيـــة /مجرة غوتنبرغ «الإلكترونية»؛ مجلة «كتابات معاصرة»، بيروت، العدد ٣٢، ١٩٩٧م (ك١- ك٢)/٩٧- ٩٨/، ص ٣٦- ٤٩.

ح- حـــول بعض أهـــم الموجات الفكرية المعاصـــرة (ح)- ظاهرات مجتمع ما بعد الصناعـــة؛ جريدة الكفاح العربي، بيروت، ١٩٩٨/٣/٢٨م، ص ١٣.

ط- بين ماكّليوين وتوفّلر؛ جريدة الكفاح العربي، بيروت، ١٩٩٨/٤/٢٩م، ص ١٣.

ي- بريجنسكي و ما بعد الرأسمالية.... جريدة السفير- الملحق الثقافي- السفير الثقافي، بيروت، ١٩٩٧/١٠/١٧م، ص ١١.

ك- مراحل التاريخ/من إنسان الطباعة إلى ما بَعد الصناعوي... مجلة «كتابات معاصرة»، بيروت، ع ٣٥، ت١- ت٢- ١٩٩٨م، ص ١٣١.

ل- المعرفة والمعلومات/مناقشة المصطلح والمبنى اللغوي والفكري؛ السفير الثقافي، بيروت، ١٩٩٨/١٢/٢٥م، ص ١٣.

مِن كتبنا:

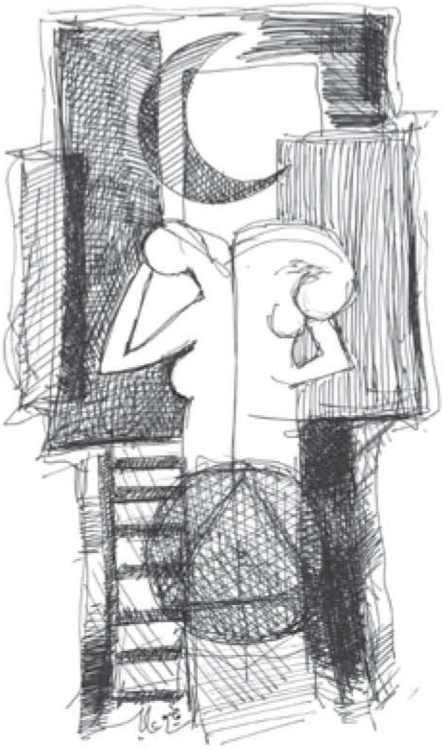
(٥): آ- النظرية الاجتماعية في عصر المعلومات؛ دار «الأنوار»، دمشق- بيروت، ١٩٩٩م: «بين ماكّليوين وتوفّلر»، ص ٤٢- ٤٦.

ب- المعلوماتية والمجتمع: مجتمع ما بَعد الصناعة ومجتمع المعلومات؛ دار المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ٢٠٠١م، ١٨٣ صفحة.. ولا سيما: «ماكّليوين» في مجرة «غوتنبرغ»، ص ١١١- ١٢٢.

الشعر...

عدوى من شباط

ليزا خضر



أحبّ الكذبَ على طريقة شباط
أبيعُ خطوط يدي لمتحف الحظّ
وأمشّي كذبتي فوق الأثر
لكن حالما يمرُّ حارس الضمير
أرتدي قفازاً بهلوانياً وأعاجله بحبةِ مهدئ
عادةً ألمّع ما أقترفه بفرشاة للتمويه
يوجد كثير منها في عليّة الحَيّ
لهذا ترى كلّ الأفعال في حيّنا
متأنّقةً باللون المناسب

❀❀❀

يحدث أن أكتب مثلاً عن جودة طعامي
و يدي ترميه في الحاوية لأنه مُرٌّ
أو عن دزينة الورود التي وصلتني في عيد الحب
مع أن ساحر النظم الذي يعجبني

- العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ليس عاشقاً لما أحسّ
عن الربيعِ المكتنز تحت جلدي
وأنا أحكُّ غيابه بأسفلِ القلم
أو عن طعمِ الدَّسَمِ في أمزجة العمر
وأنا أتّبع حمية

❀❀❀

أنا جنيّة المجاز التي تكذب
سألني عاملُ البار عن عمري
قلتُ: شلالُ ورد
سألني زوجي عن قلبي
صرتُ أضحك

❀❀❀

أراه في واجهاتِ المحلات
الكتابَ الذي يحمل اسمي
بريئاً جداً ومتأنّقاً بحشمةِ الوحدة
وخطوط يد على الغلاف
مكتوبٌ في أثرها
صُنِعَ لإطعامِ جوعى الخيال.

في مشفى المجانين

كنتُ أتمشى مع قلم الرصاص
كأني أصنعُ للصوتِ عُمراً
لا أسألُه شكلاً ولا ظلاً
ولا هو تطفّل على نظافة أوراقي

❀❀❀

في الليل كنتُ أتجاهل ثرثرةَ السرير مع جسدي
و أخرجُ من جيبي وزيراً أو شحاذاً
أو ربما حاشيةً من العرق البلدي
ونلعبُ معاً مسرح العرائس
حتى نثملَ
وتقعَ الشراشف في نوبة ضحك

❀❀❀

حين تأتي ساعة الإفطار
كنت أسرقُ قطعةً من قرص الشمس
وأدسّها في صحنِ الزعتر
كمن يدّخرُ بعض اللونِ لشحوبه الشتوي
وأصنع (برلماناً) من حباتِ الزيتون
أتواطأ معها
نهيِّئ أفخاخاً من أوراق النعناع
لروائح الفم المتسكعة في الخطب
ويبدأ رسمياً تنظيفُ المنبر

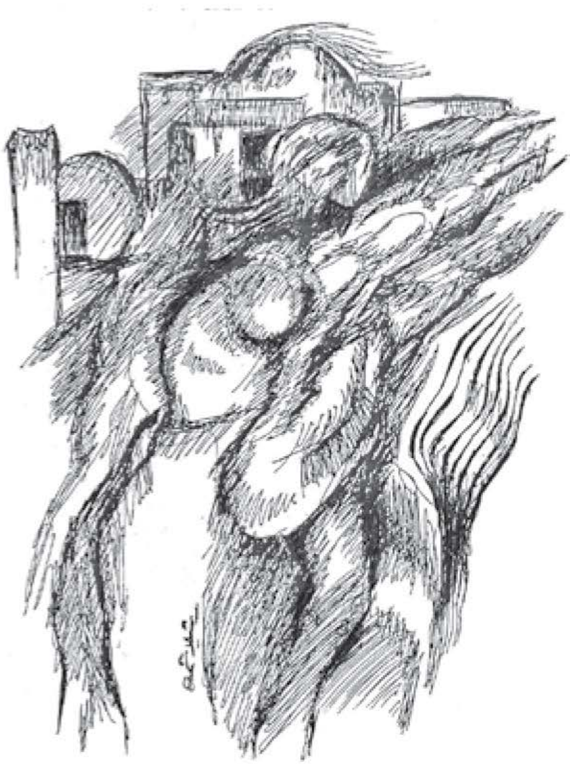
❀❀❀

كنتُ أقبضُ على الروائحِ
أنثرها على طاولتي
وأتناولها في رئتيّ كحلاوة الروح
لكني
أضعتُ سَكْرَتي في غمضةِ خيال
عندما غيّروا عناويني
وأفرغوا حقيبتي من الدروب والأفخاخ
وأقلام الرصاص
ووضعوا لي عنواناً لم أسكنهُ يوماً
هنا تقيم «مريضة الأنسنة»

❀ ❀ ❀

مطر يتلو غيمة

طلال سليم



-١-

الرّكوة حصّالة شجر البنّ

نستدين سوادها

عند كلّ ضيق

لنعلنَ الغنى

-٢-

العين حصّالةُ الدّمع

لماذا نُفْقِرُها

عند كلّ وداع؟!

-٣-

الغيمة حصّالة المطر

كلّما مرّ العطشُ

- العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

فتحتْ صنابيرها
بحبّ

-٤-

السّماء حصّالةُ نجوم
كلّما غاب ثغرُكِ
في النسيان
هطلتْ شهبٌ
ودلّتْ عليه

-٥-

الشّجرة حصّالةُ أوراق
كلّما اقترب الخريف
رمتْ أوراقها
قرباناً لحضوره

-٦-

أنا حصّالة دمي
«الأوسلبي»
غطّي أصابعكِ
واكتبي فوق دفتركِ الجريح
مات الحبرُ
عاش الدّم

-٧-

الأرض حصّالة دروب
ووقع أقدامنا
في خزائنها
كنزٌ

-٨-

الأسماك حصّالة بحر
لا يمنحها
إلّا لمن تعلّم الصّيد

-٩-

البيتُ حصّالة أبواب
تُفتحُ
عندما تضيء ابتسامتك
هذا الكوكب

-١٠-

يقول الصّلصال:
حصّالتي جسد إنسان
والمرأة ضلعي
المزهر

-١١-

خزّان الماء حصّالةُ نبع
لن أبعثرَ خزائنه
إلّا قرباناً
لجسدكِ

❀ ❀ ❀

لماذا عدتَ؟

وفاء صالح الواسطي ✵

أخيراً التقينا
ركض الفرح أمامي
فرش طريقي ورداً
كنت أسير بلا قلب
فهو أسير عندك
...
لماذا تنتزعني من صفحات أيامك
مثلما تنزع العاصفة أوراق الأشجار؟
صوتي نهر
لا ينصبّ إلا في أذنيك
قلبي مثل المراكب المحطمة التي تبحث عن شاطئ

قلبي عصفور صغير
لا يغنّي إلا حينما يراك
لا يأكل القمح ولا يشرب
إلا حينما يجثو عند قدميك
حلمي يحمل حقيبة
لا تسافر إلا إليك
إلى أن أرى العالم صامتاً حولي
سأبقى حتى تغيب شمس العمر
...
حين تقول لي أحبك
يرتعش قلبي
كأجنحة العصافير في يوم ماطر

✵ شاعرة عراقية.

- العمل الفني: الفنان مطيع علي.



وينقر الفرح زجاج نافذتي بمنقاره الصغير
تغني الأشجار
وينقلب الليل شعلة من الضياء
يمدُّ قلبي إليك آلاف الأيدي
سأغمض أهدابي عليك
...
حينما عدتَ كسبتُ أجمل جولة في الوجود
ثيابي قالت: أخرجيني من العتمة
حينما أمشي جوارك أشعر أني ملكة
وأنك تاجي الوحيد
أجمع العشب الذي صار هشيماً
وأغني للفرح المهاجر
أخيراً... انهمرَ صوتك مثل مطر الربيع
وابلٌ من الحزن داخلي
لماذا عدتَ؟
لقد أغرقتُ قصائدكَ في بئر النسيان.
...
ذات يوم
اختصرتُ المسافات لأكون بين يديك
وجهكَ في قلبي شجرة لوز
قلبي مربوط إليك بالسلاسل
أيها الجرح والحلم الذي لا يندمل
يجب أن أبتلع الماء... الماء المالح وأنكسر وحيدة

❀ ❀ ❀

البَرّاد

د. هزوان الوز

«لا أحدَ ينتصر في الحرب سوى الحرب
نفسها، فهي التي تنتصر على الجميع»

(ميخائيل شولوخوف)

تقرير صحفي لا بدّ منه

«وأوضحت الصحيفة أن عدد ضحايا الحرب منذ يوم (١٥ آذار سنة ٢٠١١م) تجاوز المئة ألف، بينهم عدد من الأطفال والنساء. كما تجاوز عدد السوريين اللاجئين عتبة خمسة ملايين لاجئ. وبحسب الأرقام البيانية، فإنّ الخسائر المادية التي خلّفتها الحرب الدامية تقدّر بأكثر من (٣٠٠) مليار يورو. وأكدت الصحيفة أنه بحسب تقرير نشرته منظمة الأمم المتحدة للطفولة، اليونيسف، فقد خلّفت الحرب السورية آلاف الجرحى، إذ يعيش عددٌ كبيرٌ منهم بإعاقة جسدية سبّبتها الحرب، فيما فقد مئات آخرون أحد أطرافهم أو أكثر».

- العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أحلام قابلة للكسر



ماذا فعلت الحرب بنا نحن الفقراء؟ قطعت أوصالنا كلّها، قضت على أحلامنا، لم نكن نريد أكثر من سقف يؤوينا وشارع ورصيف ووسيلة نقل ومدرسة وربطة خبز، تحققت أحلامنا البسيطة، وتحققت أشياء أخرى لم نكن نحلم بها، أصبحنا نملك براداً وتلفازاً وهاتفاً أرضياً وهاتفاً جوالاً واشتراكاً بالإنترنت ولاقطاً فضائياً، العالم كله بين يديك في هذا المكان المتواضع، بيت صغير في مناطق المخالفات، بُنِيَ من قروض حصلت عليها عن طريق الوظيفة التي أعمل بها، غرفتان وصالون، منزل بسيط، يضمني وزوجتي وطفلان رزقنا الله بهما. كنت دائماً أحلم وأسأل نفسي: هل يمكن أن أملك مفتاح باب منزلٍ خاص بي؟ لم أصدق ذلك، اشتريت وسائل الراحة كلّها، وفرشته بشكل يليق بأحلامي، كان ذلك بالدَّين وبالتقسيط، نوافذ صغيرة أعلى الجدران تتسلل أشعة الشمس منها صباحاً، كنت أنتظرها كل صباح حتى أشرب قهوتي مع زوجتي وأشعتها تتوزع عبر الدهاليز والممرات. أولادي لهم غرفة خاصة وأنا وزوجتي في الغرفة الأخرى، هذا حلم طفولتي لأننا كنا نعيش خمسة أخوة في غرفة واحدة، وكنت أعتقد أن هذا هو قانون الحياة... أن تعيش الأسرة في غرفة واحدة، لكن أن تملك بيتاً خاصاً بك ويضم غرفة لك وغرفة لأطفالك فتكون كسرت قوانين الحياة كلها، كنا نظن أن العالم مبني على ثقافة الفقر، لكن لا أعرف لماذا كنت أحسّ أن هذا المنزل البسيط سوف يزول وتُهدم هذه الأحلام جميعاً، شعرت أن هذه السعادة ليست لنا، إنها ضيف سوف يذهب ويرحل يوماً ما، وكل ما أرجوه من الله أن تطول إقامته أكثر.

الحرب

ثـورات... مظاهــرات... خراب بدأ يعم الوطن العربي، تغيير سريــع للحكومات، قتل وموت في الشوارع... على الأرصفة... وفي كل مكان.

يــا الله مــاذا حصل لهــذه الشعوب، ماذا تريـد... تغييــر أنظمة؟ تغيير حكومــات؟ تدمير البلاد؟! بدأت أخاف أن يطال هذا الخراب وطني، وبدأت أخاف على منزلي المتواضع وعلى أحلامــي كلهــا، وبدأت علاقات الجيــرة والصداقة تتحول إلى عــداء، والتخلف والحقد أخذا دورهمــا، بعض الحكام العرب أصبح مناضلاً وينادي بالحريــة للشعب السوري وهو لا يعرف مــاذا تعني الحرية، حلمي الصغير هــذا البيت المتواضع الذي حصلت عليه بكل ما أملك من تعب وصبر وحلم وقوة، لقد هُجِّرتُ منه، خُيِّرتُ بين الحياة والموت، تركت البيت بعد تهديدات ووعــود بالتصفية إذا لم أشارك معهــم، لا أريد الخروج منه، كنت أريد الموت فيه، لكن حياة زوجتي وأطفالي أهم.

تركت المنزل وتركت كل شيء فيه، لم آخذ معي إلا ملابس أسرتي لأنني كنت آمل بالعودة إليه، فوضى تطورت وتحولت إلى حرب وخراب، مازال حلمي وأملي قائماً بالعودة إلى منزلي الصغير، استأجرت منزلاً متواضعاً في منطقة المخالفات بجرمانا، إيجارات غالية جداً لم ترحم وضعنا، كنت مدخراً قليلاً من المال، وزوجتي تملك بعض القطع الذهبية حصلت عليها يوم زفافها، البيت مجهــزٌ بقليل مــن الفرش المتواضع، براد بردى، (تلفزيون سيرونيكــس)، سرير واحد في إحدى الغرفتين، والغرفة الأخرى خالية من الفرش.

بدأت أبحث عن المعونات المقدَّمة من الدول التي تعمل على تدميرنا عن طريق الصليب الأحمر والهلال الأحمر والنجم الأزرق...، أسماء عجيبة، دول ترسل مقاتلين مع أسلحة إلى سورية ترسل في الوقت نفسه مساعدات للشعب مثل الفُرُش والخيم وبعض الأغذية! عالم غريب وعجيب مملوء بالتناقضــات، لقد حصلت على بعض فرش الإسفنج والبطانيات مــن المساعدات ووضعتها في غرفــة أطفالي وغرفتــي لأن السرير غير صالــح للاستعمال، في أي لحظة يمكــن أن يسقط بك، ويطلــق موسيقــا نشازاً تصل إلى أطفالي إذا تحركت مع زوجتــي، لكن حلمي مازال قائماً بالعودة إلــى منزلي، أتذكر كل خطوة وكل جلسه فيــه، كيف كنا نجتمع، ومازالت المفاتيح معلَّقة ببنطالي الــذي أرتديــه، كلما جلست مع أشخاص أتحــدث عنه وعن ذكرياته، وكنت أتتبــع أخباره الكاذبة والصادقة أحياناً.

مــرت الأيــام والأشهر والحرب والغضب يــزدادان قسوة، وصاحب المنــزل كل ستة أشهر يزيد قيمــة الإيجــار بحجة ارتفاع سعر الدولار، بيت مخالفات... طابق خامس... يتكون من غرفتين له علاقــة بالــدولار! إذا هبط أو ارتفع سعر صرفه، وصل الإيجــار إلى خمسين ألف ليرة في الشهر، وهذا هو راتبي من الوظيفة، أقبضه من الصراف الآلي وأعطيه لصاحب المنزل.

بــدأت أشعر بقسوة الحيــاة، بقسوة الوطن، بقسوة النــاس، أين الرحمــة؟ أين العمل الإنساني؟ أين الأخلاق؟ نحن مهجرون يا ناس، لسنا سياحاً، وأكثر عبارة كانت تقهرني عندما يكرر الإعلام الوطني – وحتى الشارع السوري– عبارة: (نحن استقبلنا النازحين اللبنانيين في حرب (٢٠٠٦م) وأسكناهــم فــي منازلنا ضيوفاً). (طيب يا أخــي السوري طالما أنك تملك هــذه النخوة الوطنية والعروبية سكّن أخاك السوري المهجر والنازح والذي هُدِّم منزله، ليس مجاناً لكن خذ منه مبلغاً مقبولاً يمكنه أن يدفعه ويبقى معه ثمن الخبز فحسب).

بــدأت النجدة وطلب المساعدات الخارجية من الإخوة والأهــل الذين هاجروا إلى الغرب فيما سبــق، وأصبحوا مدللين هناك وداعمين للاقتصاد الوطني، كثير من العائلات السورية أصبحت تعيشــ على هذه الحوالات المالية. استنجدت بأخي الذي يعيش في ألمانيا منذ مدّة فخصص لي كل شهــر مئــة يــورو، أي ما يعــادل سبعين ألف ليرة سوريــة، مبلغ لا بأس به يكفــي أجار المنزل، أصبح همي الجديد هو ألّا ينخفض سعر الدولار لأن صاحب المنزل له علاقة بصعود الدولار وليس بنزوله، مثل التجار يعترفون بصعود الدولار، وعندما يهبط سعره فلا علاقة لهم بذلك، بحجة أن بضاعتهم مستوردة بالسعر القديم للدولار.

يخفف عنك همك وظلمك وبؤسك أن المنطقة التي أعيش فيها أغلب سكانها من المهجَّرين، كل شخص يملك هماً يضاهي هموم الآخرين، وجع كبير نعيشه لكن الأمل كان أكبر. جرمانا أصبحت تجمعاً للبؤساء من كل المحافظات، الحرب لم ترحم أحداً، طالت الجميع بكل طوائفهم ودياناتهم وثقافاتهــم، وكلمــا اجتمعت بشخص كانت عــدة أسئلة تفرض نفسها على حديثنــا: من أين أنت؟ كــم فقــدت من أفراد عائلتك؟ كــم تدفع إيجاراً لبيتك؟ من هاجر مــن أسرتك؟ كيف تعيش؟ هذه هــي أسئلــة المهجرين بين بعضهم، المأساة تكبر، والأسئلة تكثــر، وتعمقت في السؤال، حتى إنني صادقــت أناساً يبيعون الخضرة على الرصيــف كانوا أصحاب محلات مفروشات ضخمة في سقبا وحموريــة، وآخرون باتوا عمالاً فــي المعامل بعد أن كانوا أصحاب معامــل، خسرت النــاس أموالها وأرواحهــا ومنازلها وكل شيء، لكن تمني الفرج والصبر والإيمان والابتسامة والأمل مازالت تعيش في قلوبهم، أصبح شاغلي اليومي أن أقارن مصابي مع مصاب غيري حتى أخفف قلقي وحزني.

براد المنزل من نوع (بردى) صناعة وطنية، كان صوت محركه مزعجاً، أشبه ما يكون بموسيقا لسيمفونية الحرب، لذا كنت عندما أنام أطفئه، وعندما يشتد القصف والضرب أعيد تشغيله حتى يخفف قليلاً من الخوف في داخلي.

منطقة جرمانا مستهدفة بقذائف الهاون، كل يوم تسقط قذائف في كل مكان، على أبواب المدارس، في الساحات العامة، حتى في المنازل، كانت تدخل القذيفة القادمة من الغوطة إلى إخوانهم المهجّرين من الغوطة والساكنين في جرمانا، كل يوم هدايا قذائف الهاون تنهال على جرمانا، تسمع صوت الهاون في كل مكان، وما عليك إلا أن تدخل الـ(فيس بوك) على صفحة (يوميات قذيفة هاون) حتى تعرف أين وقعت القذيفة، وعدد الضحايا، هذه الصفحة من أشهر المواقع الإخبارية، وأكثر المواقع جذباً للناس إذ إنَّها كانت تؤرشف الموت والخراب في الوطن.

في إحدى المرات اشتد القصف فظهر الطيران، وبدأت تتساقط عشرات القذائف، خوفٌ ورعبٌ تصدَّرا المشهد في الشوارع، وضعت (فيش) البراد في مأخذ الكهرباء، وبدأ صوته العالي المزعج يسيطر قليلاً على الحدث، وبعد دقائق اختفى صوت محرك البراد، أصابه خرس وأصبح جثة هامدة، ماذا حدث لا أعرف، وقف قلبي معه لأنني لا أريده أن يتعطل، فإصلاحه مكلف وسعر البراد مكلف أكثر، بعد التحقيق والمعاينة من خلال أصحاب الخبرة تبين أن البراد تعطل ويصعب إصلاحه، يحتاج إلى محرك جديد، سعر المحرك خمسون ألف ليرة وأجرة تركيبه عشرون ألف ليرة، أصبحت التكلفة سبعين ألف ليرة، والبراد ليس لي، هو لصاحب الشقة ومستعمل وقديم لكنه من ذكريات الزمن الجميل، ذكريات المؤسسة العامة الاستهلاكية، ذكريات مجمع الأمويين الذي كان يبيع برادات بردى بالتقسيط.

كيف صمت؟ وكيف تعطل؟ لا أعرف، علماً أن معلوماتي الوطنية تقول إن هذا البراد يملك قوة وصموداً مثل الشعب السوري، يتحمل الصدمات والضربات وهزات البدن وانقطاع التيار الكهربائي، والتجارب تؤكد هذا، والشعب السوري -ولا سيّما الفقراء- مع هذا الرأي، تواصلنا مع أحد معلمي إصلاح البرادات فقال: (حرام تصليحه، هذا البراد مهترئ، عمره أكثر من ٣٥ عاماً، عمره انتهى). فقلت له: (كيف يا أخي... هذا براد بردى صناعة وطنية، ومعروف بقوته وصموده مثل الشعب السوري). فأجابني بنظرة فهمت منها كثيراً من المعاني...

بعد الحديث والحوار والتفاوض بيني وبينه على انفراد، وبعيداً عن زوجتي، قال: (عندي براد جديد (معفّش)، نوع (هاي لايف) سعره مئة ألف ليرة، (تعفيشه حلال) من مستودع، التحق صاحبه بالمسلحين، البراد سعره في السوق أربعمئة ألف ليرة قياس ٢٦ قدماً، وهذا

رقم هاتفي إذا قررت اتصل بي، لم يبقَ إلا براد واحد، يجب أن تقرر اليوم أو غداً قبل أن يُباع).

بدأت أفكر في الموضوع، كيف سأقنع نفسي أولاً؟! وثانياً كيف سأقنع زوجتي؟! عندها موقف ثابت وغير قابل للتفاوض في موضوع الحلال والحرام، أنا أقنعت نفسي بذلك فوراً لأن وضعي المادي لا يسمح لي بشراء براد جديد سعره أربعمئة ألف ليرة، وبيتي مُستأجَر، وإذا لم آخذ هذا البراد سيأخذه غيري، ويمكن أن يكون برادي في منزلي قد سُرق أو (تعفّش)، وهذا البراد بدلٌ منه، وحسب كلام معلم البرادات هو من أموال الداعمين للمسلحين.

بدأت أبحث عن أعذار دينية ووطنية واجتماعية، وسألت أصدقائي - أصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أغلبهم شجّعني إذا كانت النية صافية وليس هدفي السرقة أو التجارة به، لكن آخرين رفضوا رفضاً قاطعاً، لا يوجد تفاوض في هذا الموضوع، أما أحد معارفي السابقين، الذي أصبح فجأة مع بداية الحرب محللاً سياسياً، ينتقل من قناة فضائية إلى أخرى، فقد أحلّ الموضوع لأنها أموال مسلحين إرهابيين، أما أنا فأقنعت نفسي لكن استغفرت ربي لأنني فعلاً بحاجة إلى البراد. قلت لزوجتي: غداً سوف أشتري براداً من صديقي، اشتراه ولم يستعمله منذ زمن ويريد أن يبيعه، نوع البراد (هاي لايف) وسعره مئة ألف ليرة.

حكى البرّاد، فقال:

شَكَّت الزوجة في مصداقية كلام زوجها، فسألته: مَنْ صديقك؟ أجاب: أنتِ لا تعرفينه، محامٍ وعنده مكتب، ويريد أن يبيع مكتبه مع العفش.

فكَّرتْ طويلاً وهزت رأسها، وقالت: أرجوك ألّا يكون (تعفيشاً)، وإذا كان (تعفيشاً) فلن يدخل منزلي... قولاً واحداً.

قال: يا زوجتي أيعقل أن أكذب عليك! وتعلمين أني صادق منذ تعارفنا.

قالت: صحيح، لكن الزمن تغيَّر وأصبح الكذب (موضة) وعادة، والآن نظرية حلال على الشاطر هي الدارجة في هذا المجتمع، ولا سيّما في ظروف الحرب. نحن في أمسّ الحاجة للأخلاق حتى ندافع عن مستقبلنا، هل تعلم ما الذي جعل المجتمع السوري متماسكاً مدَّة طويلة؟ هو الحلال والحرام، مقياس الحلال والحرام هو صمام الأمان في مجتمعنا، وإذا فقدنا هذا المقياس فسنخسر كثيراً من الأمان في حياتنا، لا نريد أن نحلل السرقة مهما كانت

الأسباب، نحن ننتقد ونحارب الإرهاب لأنه يسرق ويقتل وينهب ولا نريد أن نكون مثله، نحن دولة، نحن وطن، نحن جيش عربي سوري يدافع عن الوطن، استشهد الآلاف من الشباب دفاعاً عنه، لا نريد أن نسيء إلى الجيش العربي السوري، أعرف أن هناك من استغل هذه الحرب، ويريد أن يستثمر كل شيء فيها لصالحه، لكن يجب ألّا نشجع هؤلاء ونشتري منهم الأغراض المسروقة، عندها سنصبح جزءاً من الجريمة الوطنية، أريد أن أربي أطفالي على الأخلاق والقيم الإنسانية.

وكانت تعابير وجهها تتفاعل مع كل كلمة تقولها، ويداها تتحركان في كل الاتجاهات لشدة تأثرها بالموقف، أما الزوج فقد سكت وهمد وجلس في زاوية البيت، كما لو أنه سيرتكب جريمة بحق الوطن والإنسانية، ثم بدأ يفكر في إلغاء الصفقة بشراء البراد (المعفش)، واستعاد القيم التي تربى عليها، واختار أن يرفض الموضوع رفضاً قاطعاً.

مبادئ للعرض

وضعي يجبرني على شراء البراد لأنني لا أملك ثمن براد جديد، وأنا أجلس في البيت مع أطفالي وزوجتي ولا يوجد عندي براد، ماذا سيكون موقفي أمامهم؟ هل سيقولون عني إنني إنسان شريف؟ ماذا سيقول الأصدقاء والأقارب؟ شريف وصاحب أخلاق أم يقولون عني ضعيف ومهزوز وجبان وقليل حيلة وأجدب؟! زمن المبادئ والقيم والأخلاق غير موجود الآن، أتذكر منذ زمن طويل أنَّ أيَّ شخص يشتري قميصاً أو بنطالاً كان يقول للجميع كيف حصل على ثمنه، كيف ادَّخر النقود، أو كيف حصل على مكافأة مالية من عمله حتى اشترى هذا القميص، يجب أن تسوِّغ كيف حصلت على النقود، أما الآن: الله يهنيه... حلال على الشاطر، الله رزقه. وإذا كنت فقيراً وشريفاً فستظل غريباً عن المجتمع ومهزوماً. لذلك قررت بعد هذا الصّراع أن أشتري البراد، اتصلت بالرجل وطلبت منه إحضار البراد غداً وسأدفع ثمنه بالتقسيط، على أربع دفعات، خمس وعشرون ألف ليرة كل شهر، وافق الرجل لأنه يعرف ظروفي.

وفي اليوم التالي أحضر البراد لكنه مضروب من جانبه نتيجة السرعة في التحميل عند اختطافه وليس سرقته! سوف أعدّ هذا البراد ليس لي لكن برسم الإعارة حتى يظهر صاحبه، عندما يظهر سأرجع له البراد لأنه كان عندي برسم الأمانة، هذا الكلام يخفف قليلاً من الحالة المرضية التي يعيشها ضميري ضمن هذه القضية العجيبة.

أربعـة عمـال يحملون البراد إلـى الطابق الخامس، البـراد أكبر من الباب لذا فُـكَّ البراد إلى قطعتيـن حتى دخل من الباب، وزوجتي تنظر إلى البراد بحذر وريبة، وتريد أن تكتشف أي علامة أو إثبات على أن هذا البراد (معفّش).

نظـرت زوجتي إلـى الضربة الموجودة على جانب البراد وسألت: مـا هذا الضرب؟ سوَّغت لها وقلـت: هذا من التحميل، لأن الـذي حمله في المرة السابقة كان عتَّـالاً أحول، اصطدم بالحائط عندما حمله.

هزت رأسها عندما سمعت هذا الكلام.

كوميديا الجدار

لـم يدخل البـراد في المكان المخصص له فـي المطبخ، فما الحلّ؟ الزوجـة تنظر إلى البراد بعينيـن حزينتيـن ومرتبكتين، والزوج لا يعرف ماذا يفعل، وكان الحـل تحطيم جزء من الجدار، (٢٣ سـم) مـن كل جانـب حتى يوضع البـراد في مكانه، وبـدأ الشباب بالتكسيـر والهدم، امتلأ المنـزل بالغبـار وبقايا حجارة صغيـرة، بعد ثلاث ساعات من الهدم والتخريـب دخل البراد إلى مكانـه المخصص، وبـدأ الشباب بإرجاع قطع البراد إلى مكانها، أحـد الشباب قال للزوج: هذا البراد (تعفيشة) جيدة وأنت محظوظ يا أستاذ.

وعندمـا سمعت الزوجة كلمة (تعفيشة) جنَّ جنونها، فأخذ الزوج يسوِّغ لها قائلاً إن المتحدث يمـزح، وأن البـراد لصديقـه. وجه الزوجة تغير، حـزن وكآبة رافقا سلوكها حيـن بدأت بتنظيف البـراد، لاحظ الزوج كيف تتساقط الدموع مـن عينيها عندما مسحت دروج البراد، وكانت تقول: يـا ربي سامحني... لمن كان هـذا البراد؟ ومن هم أصحابه؟ هل هاجروا أو ماتوا أو مازالوا على قيـد الحيـاة؟ هل هم مهجَّرون ويسكنون بالأجـرة مثلاً؟ هل كان عندهم أطفـال يفتحون البراد ويشربـون منه مياهاً باردة؟ وربّما بصماتهم ما تزال مطبوعة عليه، يا الله سامحني، هذا الخطأ الـذي ارتكبه أو هذه الجريمة هي جريمة العالم كلـه وفي كل أنحاء الكرة الأرضية، ولست وحدي مجرمة.

نظـرت إلى الزوج بغضب وصرخت بوجهه وهـي تبكي: لماذا فعلت ذلك؟ لماذا أحرجتني أمام ضميـري وأخلاقي؟ لماذا كذبت عليّ؟ تقول البراد لصديقـك وغير مستعمل، البراد مستعمل... فيه آثار طعام، كل الدلائل والبراهين تقول إن البراد مستعمل و(معفّش).

حرب أخرى

بعـد هذا الموقف المؤثـر، وعندما قاربت السـاعـة الثانية عشر ليلاً، قلـت لزوجتي الحقيقة، وبعـد أن وضعت المياه وبعض الطعام في البـراد عادت وأفرغته، وقالت: إما أنا في هذا البيت أو البراد؟! قالت أيضاً: لم أستطع أن أقترب من البراد أو أفتحه، لم أستطع أن أشاهد أطفالي وهم يفتحونه ويشربون المياه منه، تخيلت أنهم أطفال أصحاب البراد الحقيقيين.

بعد أن هدأ غضبها قليلاً سألتها: لماذا هذا الموقف المتشدد والعنيد من قصة البراد، الحياة تحتاج إلى ليونة و(أخذ وعطاء). فقالت: العبارة نفسها التي تكررها دائماً، الأخلاق هي الوحيدة التـي لا يوجـد تفاوض حولها، وإذا قبلنا وتفاوضنا في موضوع البراد وأقنعنا أنفسنا فسوف تكون هـذه الجولـة الأولى في موضوع التنازلات عن الأخلاق، وستكون الجولـة الثانية صفقتها أكبر في التنـازلات، وسيأتي يوم بعدها نتنازل عن الوطن. وأكملـت حديثها وأنا جالس أمامها أستمع مثل الطفـل، أو كمثل مرتكب جريمة بحق الوطن، مهما قالت فهي المحقة بذلك، وقالت: عندما نسوّغ الحرام ونجعله حقاً، ونعدّه موقفاً لا غبار عليه، هنا انتهى العالم بالنسبة إليّ.

سألتهـا: أنت فكرك وعقلـك علماني، كيف تؤمنين بالحلال والحـرام؟ أجابت: من قال لك إن الحـلال والحرام يتناقض مع العلمانيـة؟! هي توازي مقياس الصح والخطـأ، العلماني الحقيقي صاحـب أخـلاق، وكم نحن في حاجـة إليهم في هذه الظـروف، إذا ضاع الحـلال والحرام عند هـؤلاء النـاس سوف تأكل بعضها بعضـاً، المعركة القادمة في الوطن هي بيـن الحلال والحرام، هـذه الحرب سوف تخلق لصوصاً جداً، إذا جعلنا منهم أبطالاً وباركنا سلوكهم فسوف يفرخون لصوصاً آخرين، وهذا البراد هو بداية مباركة للمشروع اللصوصي. المهم أعطيتك مهلة إلى يوم غد، يجب إخراج البراد من هنا أو أرحل أنا، عليك الاختيار بيني وبين البراد.

وذهبت إلى النوم ولم تقل لي: (تصبح على خير)، أول مرة في حياتنا لم تقل لي: (تصبح على خير)، وهذه بادرة تهدد أمن الأسرة.

برّاد بالحلال

استيقظنـا صباحـاً، لاحظـت لوحة البـراد المتضمنة بعض المؤشرات مطفـأة، يبدو أن عطلاً أصابه، فتوقف عن العمل في أثناء الليل، وأعتقد أن غضب زوجتي وعلاقتها مع القوة الروحانيـة كانا السبب في توقف عمل البراد، والسعادة التي كانت مرسومة على وجه زوجتي

لا توصف، فقالت شامتة: أرأيت؟ مال الحرام لم يبارك الله به، الحمد الله أن القصة انتهت هنا.

اتصلت بصديقي صاحب البراد قائلاً: أرجوك يا صديقي تعطّل البراد.

أخذ صديقي البراد بعد أن شتمني في قلبه، لم أسمع الشتائم لكني شعرت بها، وبدأت أبحث عن الحل، قالت زوجتي: لا نريد براداً، الكهرباء تأتي بضع ساعات في اليوم، لذلك لا داعي للبراد.

لكن رجولتي لم تسمح لي أن يكون بيتي من دون براد، لذلك كنت مدخراً قليلاً من المال عن طريق الحوالات المالية التي يرسلها أخي، مئتي ألف ليرة، وباعت زوجتي قطعة ذهب بمئة وخمسة وسبعين ألف ليرة، وذهبت إلى صالة عرض برادات (الحافظ) في ساحة المرجة، اشتريت براداً جديداً لم تمسه يد، على مبدأ (العروس ما باسَ فمها إلا أمها)، وأخذت الأوراق الثبوتية والقانونية التي تثبت أن هذا البراد وكالة لأعرضها على زوجتي كي لا تظن أنه تعفيش من منطقة أرقى من الأولى، أخذت البراد إلى البيت وسعره تقريباً ثلاثمئة وخمسون ألف ليرة، كارثة، كان سعره قبل الأحداث ثلاثون ألف ليرة، لكن عزائي الوحيد بعد أن تنتهي الحرب أني سوف آخذه معي عندما أعود إلى بيتي الحقيقي.

انتهت الحرب في منطقتنا بعد أن دحرنا الإرهاب، وحرر جيشنا المناطق المحيطة، وأرغم المسلحين غير الراغبين بالمصالحة والتسوية على الاستسلام والخروج بالباصات باتجاه الشمال، لكن مع الأسف زرت منزلي، بحثت عنه ولم أعثر عليه، كان مهدماً على الأرض، ومازلت في البيت الذي استأجرته، ومازال البراد عندي أتمتع به كل يوم، وأتبارك به كل صباح، لأن هذا البراد يسجل موقفاً لكل شرفاء الوطن مثل زوجتي، نسيت سعره الغالي، لكنني أتذكر كل يوم موقف زوجتي.

أيتها الحرب

«والحرب، لو يعلمون، لا تستعر نيرانها في أجواف المدافع بل في قلوب الناس وأفكارهم أيضاً»... ميخائيل نعيمة.

❁ ❁ ❁

ضيف المواسم

عزيز اسمندر

راوَدَ السيّد معن الرميلي شعور بأنّ موسم مرضه المعهود لاحت تباشيره، وهو عادة يتفقّده بعد أزمة نفسيّة تعصف به، أو تعصف بالبلاد، أو بعد موجة برد حادّة تجتاحه، وغالباً ما يتفقّده صديقه الحميم هذا -مطلع العام- وإن كان على حياء يستمهله حتى منتصف شهر آذار، وكأنّه يريد أن يحمل له رسالة يقول فيها: إنّه عنصر من عناصر الطبيعة، يتجدّد مثلما تتجدّد، فألفه وآلفه، وله بين الحين والحين إطلالة حييّة، وقد يجافيه عاماً أو بضعة أعوام. وصداقتهما قديمة امتدّت زمناً؛ إثر الغزو الأمريكي للعراق الشقيق واحتلاله، فتسامرا، وتنادما، وقد قُدّر للرميلي ألا يناس به، فيدلّله ويجود عليه بالمغاطس الحارّة في حجرة الاستحمام لدى مقدمه، وطوال إقامته، ولدى انصرافه، فينشغل به عن سواه، وضيفه يمضي في سرحته، كامناً في موضعه، يمارس طقوس استضافته، بترفُّع وأدب، ولا يريم إلّا بعد أن يقيم فرح عرسه، فهو وريث السلاطين، وفرح عرسه لا يقلّ عن أسبوع، وعلى المضيف أن يمتثل لإيماءات قدومه ولنبضات حلوله، وكم يراه ودوداً متواضعاً. عندما تأزف ساعة رحيله، فتهرّ دموعه سخينة حارّة، تدفعه إلى تكريمه أياماً ثلاثة بالمغاطس الدافئة المعطّرة بالصابون، تكون تلك الأيام أشبه بأيام عزاء لفقده الموجع.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



في تلك الليلة خلد إلى الصمت ذلك الضيف الودود، وهو في استضافته الأخيرة، منتصف شهر آذار، وراح يصغي إلى صدى مشاعر مضيفه وآه توجّعه، فرقّ قلبه عليه، وأمر جنود أعصابه المستفزّة أن تتكفئ، ناسيةً رغاء غضبها، وعبر مخملية حلم هانئ غفا الرميلي المضيف، وكأنّه عاد من جديد إلى حضن أمّه، ينعم بهدهدة ترانيم صوتها الحنون، تغنّي له، كي يهنأ بنومه الذي حُرم منه، منذ أن رحلت إلى عالمها الآخر، ومع إطلالة فجر تلك الليلة راح يتقرّى مطرح كمون ضيفه الحميم، ظنّاً منّه أنّه ارتحل على عجل دون أن يوقظه إشفاقاً على غفوة الهناءة التي عايشها خلسة، وبغتة استنفر ذلك الضيف جنود أعصابه، مستفزّاً، يقرع طبول غضبه، يعلن شكواه، يقذف اتهاماته في وجهه، يدينه بقلّة الوفاء.

منذ أن تعارفنا تفاهمنا، لكن يا صديقي! لك مواقف تغفل فيها عن مدلولاتها، ولهذا يحقّ لي أن أثار وأغضب، وحقّ لي أنْ ألومك، أنا بالنسبة إليك خزّان الألم، وأنا أزورك في العام، ربّما في العامين مرّة أو مرّتين لا أكثرّ، وأرتضي منك تكريمك لي بمغطس ماء حارٍّ دافئ، فأنصرف مودّعاً، ممتنّا كرمك وحسن ضيافتك، في حين خزّان وجعك النفسي يظلّ هناك، مستفزّاً، جاثماً في قلبك، في روحك، في فكرك، في ذاكرتك. أنا أرحل، وهو لا يرحل، ويظلّ يكبر ويكبر، ولا يريم.

وإن سألتني: هل لي من علاقة مع هذا الخزّان الذي لا شفقة منه عليك؟ اعذرني إن تساءلت، أو تشاكيت، أو تباكيت، لائماً، وأنا أمقت النميمة، ولا أحبّ الثرثرة، وأنت تدري.

عندمـا جاءتك تلـك الطعنة النجلاء من حبيبتك الأولى؛ إذ غـدرت بك وخانتك، إثر مرضك الذي كاد يودي بك إلى الهلاك، افتقدتَ الحبَّ، فتفجّر لديك حينها خزّان الوجع هذا، فسال منه عرقٌ خفيف استقرّ، حيث تدري أسفل ظهرك، وبدا كندبة، فكان خزّان الألم، وهناك تستضيفني أسبوعـاً، أسبوعيـن لا أكثـر، أمّا ما أراده خزّان وجعـك النفسي، هو ألّا يكـون في مطرحه ندبة، ولا يرتضـي بمغطس ماء حـارّ دافئ، حتّى لو كان معطّـراً بالصابون، كما أرتضـي، بل يلحّ ومعه الحـق على مغطسه بالدم الحارّ الزكي، يتعمّد فيه، متطهّراً في جرن الخطيئة، ولا ينصرف، كما أنصـرف مودّعاً، ممتنّـاً، ولا أخجل أنْ أسمّي ندبة الوجع هذه ذيلاً، ولا سيّما بعد ما جرى للعراق الشقيق ما جرى!

اصدقني القول أيّها الصديق الشاكي!: ألست أنا رحيماً بك، وودوداً؟

قل لي إذن: بعد كلّ ما جرى في وطنك العربي ما جرى، وما زال يجري من تخريب ودمار، من قتـل وتهجير، من ارتكاب للمحـارم، وتدنيس للمقدّسات، وباسم الله، عزَّ وجلّ، وبأيدي بعضٍ من أبنائه الجاحدين، الجهلة، الكفرة.

أما تحوّلت ندبة الوجع لكلّ امرئ حرٍّ شريف فيه إلى ذيل يطول، ولا يحول، حتى تتحرّر العقول من الجهل والخمول...؟

لطفا من مملكة الحمير، وعذرا...!

❀ ❀ ❀

السّنديانة!

وجيه حسن

شـيءٌ واحدٌ كان يستثيـر الناظر إليه: أنّ وجهه كان معجوناً بالتحـدّي؛ في تلك القرية النائية، عاشـ حياته كلّها، لم يهبط إلى المدينة ولو مـرّة واحدة! كان صوت فيه رعد ورياح دائم الرّكض في أعماقه يدندن:

«الإنسان هو الإرادة، هو الإصرار، هو التحدّي».

الصـوت دائم الدّندنة، كان يلوّن صدره بألوان «قوس قزح»، يجعله يتموّج بفرح أزرق، من نوع رجولي.. «السّنديانة» في تلك الرّابية، كانت مظلّته الواقية، منْ لسعات الشمس المتوقّدة، سنواتها الخمسـون، تفترش المكان، تعانق الجذور، هي شجرة قوية، أحبّها «سعفان» وأحبّته، صار بينهما نوعٌ من التزاوج الفذّ، والصداقة الحميمة!

فـي غدوّه إلى أرضه، وفي رواحه منها، كان يواقفُهـا، يداعب خصلاتِ أغصانها المتدلية، أمّا هـي، فكانـت تنحني له بنوع من القداسة، أقرب ما تكون إلى التبتّـل والإعجاب! في كلّ مرّة، كان قلبـه يمتلئ بفرحٍ مزركش، وهو يراها مُتشبّثة بالأرض، صامـدة أمام فنون الرّياح والعواصف... مـن صمودها الواثق، استمدّ «سعفان» عزمـاً إضافياً، قال بصوتٍ تزمّله الثقة والكبرياء، وهو في طريقه إلى أرضه:

- العمل الفني: الفنان مطيع علي.



«لو أنّ الإنســان يتطهّر بالصّمود في وجه التحديات، لنَجَا منْ خطايا كثيرة»!

قلـب «سعفان» يـكاد يغـادر الجسـد، وهو يرى أغصــان السّنديانــة تتمايل طرَبــاً، كلما اقترب منهــا، أو طاف بها! ذات مســاء، وهو عائدٌ من أرضــه، فأسُه على كتفه، وكذا مـِزْوَدُ الطعام، حدّث نفسه بنفسه:

«السّنديانــة ســرّ صمـودي، والتصاقـي بالأرض، هي مرشدتي، كيف أكافئها؟! بل هي ضحكة عاشقين، ويَدَا مُحِبَّين، لا تتعبان من الدّفء والإبحار»!

ابتسم في سِرّه، تمتم منفرداً:

«ما هذه الأمواج الصغيرة التي تغزو شواطئ رأســي، فــي هذا الوقــت، لمــاذا تغـزوه»؟ لمّا وصــل إليها، قبّـلَ جذْعها الثّخيــن، وأغصانها المُتَرَجّحة، حدّثها بحديث منبعُه القلب:

«سنديانتي الجميلة، أنتِ ملاذي في الحرّ والقرّ، أنــتِ معلمتــي الجليلة، صمودك فــي كلّ الظروف يقــوّي عزيمتي، فأنــا أستمدّ العزم مــنْ عزمك، قوّتي لن تخور، لنْ أنسى ثباتك ما حَييت!

كانت السّنديانة تستمع إليه بإنصات كبير، تراقص أغصانهــا، تعبيراً عنْ إعجابٍ بالــذي تسمعه... أمعن «سعفــان» بالأفكار المتوهّجة التي اندلقتْ على لسانه بغتةً، انكفــأ منْ هذا التّداعي... السّنديانة وقتئــذٍ كانت تهزّ أوراقها اللمّاعة، مُسنّنة الأطراف، مُنتشية من معزوفة الاعتراف بالجميل! على عجــلٍ ودّعها هذه المرّة، تذكّرَ أنّ زوجتــه «فارعة» سبقتْه إلى البيت منذ ساعة، لتجهّز له الطعام قبل وصوله... «فارعــة» زوجة «سعفان» سنديانة هي الأخرى، بسلوكها وأخلاقها وإيثارها، أحبّت زوجها، أحبّــت الأرض، وكتفاً لكتف، تساعده بعمليات البذر، والحرث، والسقاية، والتسميد، و...

و... ذات يـوم وقعت عينُها عليه، رأت حبّـات العرق تسبحُ في وجهه الأسمر النّضير، وهو منهمك بحراثـة الأرض، يمنحها عرَقه وجهده، لتمنحه فيما بعد الغِـلال والجَمال! كان ذلك منذ سنين، حين قال لأبيه:

يا أبت أريدك أنْ تستريح، لقد وهبتَ عمرك للأرض، الآن جاء دوري، يمكنك اليوم أنْ تعتمد عليّ!

هزّ الأب رأسه موافقاً، لكن بعد أنْ هطلت منْ عينيه المُتعبتَين بضع دمعات سَخينات، لا يدري مـن فرح أم من سـواه! من يومها، جرّ «سعفان» الثورين؛ بفرح غامـر، انطلق إلى الأرض الغالية، مـرّت هي إلـى أرضها المجاورة، تزاوجت عيناهـا بحبّات العـرَق، وبعينيّ هذا الفلاح الشاب، في الريف صفاءٌ مستمَدّ منْ صفاء الطبيعة، حالتئذ تطلعت «فارعة» إلى السماء، بَدَتْ لعينيها خضراء مُورِقة، كما لو أنّها حديقة ياسمين! بالفرح امتلأ قلبها الأبيض، في لحظة سعيدة بُحَيْرة صدرها طافت بالحنين المبارك، انضمّ كلّ شيء إلى كلّ شيء، وغابت حدود الكائنات المُفرَدة! أمّا هو، فقـد امتلأ بشوقٍ مجنون، انبجسـتْ برأسه هذه الكلمات: «أيّ مشاعر سعيدة، يحملها قلبي الآن؟ أيّ عواصف جامحة تهبّ عليّ في لحظة عظيمة كهذه»؟

تحـت شجرة السّنديانة، كان ثاني لقاء، وعاشر لقاء... منْ تلك اللقاءات الورديّة، تجذّر الحبّ في قلبيهما! قال لها:

أنتِ مشتلُ وردٍ جُوريٍّ لقلبي!

ردّت:

أنتَ سِندِيانتي وسَنَدي!

مرّت على العلاقة الطاهرة أيام وأيام، وكان اللقاء الجميل، بِعَقد القران، من ذاك اليوم الأغرّ، صار الحبّ دماً يفور في الشّرايين، يركض في تضاريسِ جسديهما، بكلّ ثورة الفرح!

❀❀❀

مـرّت سنـة وسنتان، وثلاثٌ وخمسـ، لكنّ قمر السعـادة لا يكتمل! أحلام «فارعـة» و«سعفان»، أضحت مشنوقة بسقف المجهول! عَرَضَها على عددٍ من الأطباء، عَرَضَ نفسه كذلك، جاء الجواب مثل عبوةٍ ناسفة:

زوجتك عاقر، غيرُ ولود، (ما في أمل)!

جُـنّ جنونـه، الضياع يبتلـع الحقيقة، انتفضـتْ عروقٌ كأنها تريـد الانفجار! حمـلَ جسده إلى السّنديانة، طلب مساعدتها، هو في ضنكٍ وضيق، ألم يقل لها يوماً:

أنتِ سرّ صمودي، أنتِ معلمتي، ومرشدتي؟

جسدُ الشجرة كان لحظتها مُرْبدّاً، لم يجبْه إلّا بالارْبداد، أو هكذا خُيّل إليه! تركها، انكفأ إلى البيت، هناك كانت عينا «فارعة» تحرثان سقف الغرفة، علّها تستنبط منْ أعماقها المظلمة قراراً!! «سعفان» إلى جانبها، كان يتمتم بلغة فيها حبّ ولطافة:

أعشقك يا «فارعة»، هل منْ ولدٍ يحملُ اسم الأرض واسمي؟ يلعب تحت السّنديانة، يتسلّق البيادر، يحمل لي مِزْوَدَ الطعام، وفي المساء يُسمعني نشيداً مدرسياً عن صمود الوطن، وتحدّياته؟

أرْدف:

لنْ أطمئنّ إلى تقارير الأطبّاء هنا، وفي بلد أجنبي، جاءته كلمات الأطبّاء مثل مطارق تدقّ رأسه دقّاً:

زوجتك عاقر لا فائدة، هكذا تبيّن لنا بالكشف الطبي والتحاليل...

حمَلَ عصاه، عاد وزوجته إلى أرض الوطن، حبّه لـ «فارعة» أقوى منْ كلّ التخرّصات والأقاويل:

طلّقها!

«فارعة» امرأة عاقر، ما الفائدة منها؟

ما قيمة الرّجل من دون أولاد؟

ألا تريد يا «سعفان» ولداً، يحمل اسمك بعد عمرٍ طويل، ويخلفك في الأرض؟

كانت هذه الأقاويل والترّهات وسواها، تطعن قلبه مثل رماح مَسْنونة، فألسنة الناس سِياطٌ حادّة!

«فارعة» على سرير الأسَى، ترقد مفتّحة الأوْجاع، بدا وجهها لعيني «سعفان» تفاحة ضاحكة، همس في سرّه:

«ما ذنب هذه الإنسانة العظيمة؟ إنه أمرٌ فوق إرادتنا، هي مشيئة الله، لقد أفنت شبابها معي في العمل، ثمّ إنني أحبّها وتحبّني، كيف أطلّقها؟ جوهرتي الثمينة لماذا أفرّط بها؟ أأنا الوحيد في هذا العالم بلا أولاد؟ أمرُ الله، وأنا راضٍ بحكمته»!

وضع رأسه على المخدّة قرب رأس زوجته، وهو يتمتم:

أنتِ يا «فارعة» سعادتي الآسرة، وإلى الجحيم كلّ تخرّصاتهم الغبيّة...

كاد «سعفان» يسترسل بمناجاته، ومكرمات «فارعة» تكبر بعقله، وهو يتذكّر كلّ صمودها وجهودها... بقناعة تامّة غير منقوصة، وبرضاً لا يشوبه شائبة، غطّ هو الآخَر في نوم عميقٍ... عميق!

❁ ❁ ❁

دور التجارة في نقل المنجزات الفكرية في الشرق الأدنى القديم

د. عيد مرعي

تعود كلمتا «تاجر» و«تجارة» واشتقاقاتهما في اللغة العربية بأصولهما الأولى إلى اللغة السومرية التي سادت في جنوبي بلاد الرافدين في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. فالتاجر «دام- جار Dam Gar»، تحوَّل في اللغة الأكادية، التي سادت في بلاد الرافدين بعد اللغة السومرية، إلى «تمكاروم Tamkarum»، واشتُقت من هذه الكلمة الكلمة الدالة على التجارة «تمكاروتوم Tamkarutum»، وكلا الكلمتين مأخوذ من الجذر «مكر» الذي يعني الاتّجار والبيع والشراء. وهذا الفعل معروف وشائع في جميع لغات ولهجات المشرق العربي القديم، سواء في الأوجاريتية والعبرية (بمعنى يبيع)، أو في الآرامية (بمعنى يشتري)، أو في العربية (بمعنى يحتكر أو يحتال)، وهي كلها معاني لها علاقة بالتجارة والأعمال التجارية من بيع وشراء أو غيرها[1].

عرف الإنسان التجارة وزاولها قبل أن يعرف الكتابة في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد. ولكن لا يمكن تتبع مراحل نموها وتطورها بشكل واضح بسبب غياب الوثائق المكتوبة في عصور ما قبل التاريخ. إلا أن الوضع تغيَّر مع ابتكار الإنسان للكتابة، وانتقال البشرية إلى مرحلة العصور التاريخية (بداية الألف الثالثة قبل الميلاد).

من المعروف أن اختراع الكتابة يُعزى إلى السومريين الذين استوطنوا القسم الجنوبي من بلاد الرافدين منذ منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. فقد عُثر في الطبقة الرابعة في مدينة أوروك Uruk (حالياً الوركاء بالقرب من بلدة السماوة في جنوبي العراق) على أقدم الأدلة

علـى محاولة الإنسان الكتابة، وهي ألواح طينية مختلفــة الأشكال رُسمت عليها بأداة ذات رأس موشوري، مصنوعة من القصب أو الخشب أو العظم، صور حيوانات، أو نباتات، أو أدوات وأواني، أو أعضــاء من جســم الإنسان، ومن ثمَّ يمكن القول عنها إنها كتابة تصويرية Pictography أراد أن يعبِّر بوساطتها عن الأشياء المرسومة التي يُعتقد أن لها علاقة بالحياة الاقتصادية بالدرجة الأولــى[٢]، إذ يمكننــا القول إن ابتكار الكتابــة جاء نتيجة للتطــورات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة التي حدثت خلال المرحلة المتأخرة من حضارة أوروك (٣٣٠٠-٣١٠٠ق.م).

فقــد تطور المجتمع من مجتمع قرى بسيطــة وصغيرة، عُرفت في عصري حلف والعُبيد (الألفــان الخامسة والرابعة قبل الميلاد)، إلى مجتمع مــدن كبيرة تسيطر عليه سلطة دينية يرأسها كاهن الإله الأكبر المقيم في معبد المدينة المركزي. وكانت هذه السلطة مسؤولة عن كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

ورافقت هذه التطورات علــى الصعيد الاجتماعي، تطورات اقتصادية مهمة. ففي مجال الزراعة يُذكر المحراث أول مرة في هذه الحقبة، وأدى استخدامه الواسع في زراعة الحقول إلى زيادة الإنتاج، ومن ثمَّ إلى زيادة عدد السكان. ونتج عن تجمع فائض من النتاج الزراعي، وتنامي حاجات السكان المختلفة، نشوء علاقات تجارية مع مناطق مجاورة في سبيل الحصول على المواد غير الموجودة في بلاد الرافدين كالمعادن والأخشاب والأحجار. ومما ساعد على تحقيــق ذلك معرفة السكان للشراع الــذي ساعد على الإبحار عبر الخليج العربي، والدولاب الــذي استُخدم في صنــع عربات النقل، التي استُخدمت الثيــران لجرها. إن هذه التطورات الاقتصاديــة والاجتماعية المهمة، ولا سيمــا تجمع الثروة بأيدي السلطــة الدينية المتمثلة بالكهنة، كانت البواعث الأساسية لابتكار الكتابة، إذ لم يعد بالإمكان حساب شيء ذهنياً.

إضافة إلى الرُّقُم التصويرية المكتشفة في مدينة أوروك عُثِرَ أيضاً على رقُم تصويرية في تــل براك (الواقع بالقرب من مدينة الحسكــة في الجزيرة السورية)، وفي موقع حبوبة كبيرة وجبل عارودة (منطقة سد الفرات)[٣].

والســؤال الــذي يطرح نفسه هو: **هل عـرف الإنسـان الكتابة في هذيـن الموقعين بوحي وتأثير من السومريين في أوروك؟**

قبــل الإجابة عن هــذا السؤال لابد لنا من التذكير أنَّ حضــارة أوروك لم تنحصر في جنوبــي بلاد الرافدين فحسب حيث أقام السومريون، بل امتدت لتصل إلى شمالي سورية،

كمـا تبين اللقى الأثريــة المكتشفة في أوجاريت Ugarit وسهــل العمق والساحل السوري بشكلٍ عام.

وبنـاءً على ذلك يمكننا القول إن الإنســان حاول الكتابة في تل براك وحبوبة كبيرة وجبل عـاروده بوحي وتأثير من بلاد سومر، وتم ذلك على الأغلـب عن طريق الاتصالات التجارية التي كانت تجري عبر نهر الفرات.

وكما هو معروف تطورت الكتابة التصويرية في بلاد سومر إلى الكتابة المقطعية المسمارية أو الإسفينية التي شاع استخدامها وانتشر في معظم مناطق الشرق الأدنى القديم، إذ كُتبت بها لغات كثيــرة كالأكادية والإبلوية والحثية والحورية والأورارتية. ومن المؤكد أن ذلك تم نتيجة العلاقــات التجارية. فسكان أعالي بلاد الرافدين (الجزيــرة السورية وما ورائها) استخدموا الكتابــة المسمارية واللغة الأكادية فــي كتاباتهم منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد على الأقــل (ألواح تل البيدر الواقع في محافظة الحسكــة)[٤]. وكذلك كان الحال مع مملكة إيبلا Ebla التــي كان مركزها تل مرديخ الحالي الواقع على نحو (٥٥كم) جنوب حلب. والتي كانت تربطهــم علاقات تجارية وثيقة مع مدن جنوبي بلاد الرافدين. فكتّاب إيبلا استخدموا طوال تاريخهم الكتابة المسمارية لتدوين آلاف الرُّقم الطينية بلغتهم الإيبلوية[٥].

ولو ذهبنا أبعد نحو الشمال، أي إلى هضبة الأناضول، لوجدنا أن هذه المنطقة لم تعرف أي نــوع من الكتابة قبل قدوم التجار الآشورييــن إليها في القرن العشرين قبل الميلاد. ففي عهــد الملك الآشوري إريشوم الأول Erishum 1. (نحــو ١٩٠٠ق.م) قام تجار آشوريون بعقد علاقــات تجارية مع مدن هضبة الأناضــول، وتأسيس كثير من المستوطنات التجارية (كاروم Karum باللغة السومرية) هناك، وأشهرها «كاروم كانيش Karum Kanish» (موقعها الحالي يدعى كول تبي بالقرب من مدينة قيصرية وسط الأناضول). وقد ازدهرت تلك المستوطنات طوال القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد، وأدّت دوراً أساسياً في التجارة ما بين بلاد آشور وبــلاد الأناضول. وتبين الوثائق الاقتصادية الآشورية القديمة المكتشفة في موقع كول تبي أن التجــار الآشوريين كانوا ينقلون بقوافلهم القصدير والمنسوجات من مدينة آشور إلى بلاد الأناضول، ويحصلون مقابل ذلك على الفضة والذهب والنحاس وغيرها[٦].

ونتيجة لهذه العلاقات التجارية عرف الحثيون، سكان وسط الأناضول، الكتابة المسمارية، واستخدموهـا لكتابة لغتهم التي تعدُّ أقدم لغة هنــدو- أوروبية معروفة. وترد في النصوص

الحثية كلمات وتعابير ومصطلحات سومرية وأكادية كثيرة. بل أكثر من ذلك تأثَّر الحثيون بالمعتقدات والأساطير السومرية والأكادية، فأخذوا ملحمة جلجامش وأدخلوا عليها بعض التغييرات التي تناسب ثقافتهم، ووضعوا أسطورة عن إله الطقس تيليبينو Telepiun الشبيهة بأسطورة تموز السومرية، وأسطورة بعل الأوجاريتية[٧].

ومن الأمثلة الأخرى والمهمة جداً الدالة على دور التجارة في نقل الإنجازات الفكرية وتطويرها اختراع الأبجدية في مدينة أوجاريت الكنعانية على الساحل السوري (موقعها الحالي رأس الشمرة شمال اللاذقية)، تلك المدينة المهمة التي يرد ذكرها منذ تاريخ مبكر في نصوص إيبلا (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد)، ثم في نصوص ماري (النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد) التي يذكر أحدها إرسال كميات من القصدير من ماري إلى رجلٍ من جزيرة كريت، وإلى ترجمان، وإلى رجال من كاريا في أوجاريت[٨]، ما يدل على الدور التجاري الكبير الذي كانت هذه المدينة تؤديه كملتقى لتجار العالم القديم آنذاك. ويبرز ذلك الدور بشكلٍ أوضح في النصوص المكتشفة فيها والعائد إلى مرحلة زمنية لاحقة (ما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد)، والتي كُتبت بكتابة جديدة لم تكن معروفة سابقاً مؤلفة من ثلاثين حرفاً أبجدياً مسمارياً، وبلغةٍ جديدة لم تكن معروفة أيضاً سمّيت لغة أوجاريت، نسبة إلى مكان استخدامها.

بالتأكيد كان للتجارة الدور الأساسي في هذا الابتكار المهم جداً في تاريخ البشرية. فقد تبيَّن للتجار الأوجاريتيين أن الكتابة المسمارية المؤلفة من عدد كبير من الإشارات (أكثر من ألف إشارة) لا تتناسب مع الحياة التجارية النشطة التي تعيشها مدينتهم، وكذلك كان الحال مع الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية أو الهيراطيقية التي كانت معروفة عندهم أيضاً)، فأوجدوا كتابة مسمارية أبجدية مؤلفة من ثلاثين حرفاً يمثل كل حرفٍ صوتاً معيناً، وتُكتب من اليسار إلى اليمين على ألواح من الطين[٩].

وفي القرن العاشر قبل الميلاد ابتكر كنعانيو جبيل المدينة المعروفة منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل، ولأسباب تجارية أيضاً، نظاماً كتابياً جديداً مؤلفاً من اثنين وعشرين حرفاً وفق الترتيب المعروف: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت، لتدوين اللغة الفينيقية الكنعانية. واستخدم الآراميون والعبريون هذا النظام الأبجدي لكتابة لغاتهم. واقتبس الإغريق هذا النظام أيضاً لكتابة لغتهم التي لم تكن مكتوبة، ومنهم انتقل إلى الرومان وشعوب أخرى في العالم القديم[١٠].

كما أطلق الإغريق على مدينة جبيل اسم بيبلوس Byblos لاشتهارها منذ القرن السادس قبل الميلاد بتجارة البردي الذي كانت تستورده من مصر وتصدره إلى بلاد الإغريق حيث كان يُعرف هناك باسم بابيروس Papyrus. وقد سُمي العهد القديم بتسمية مشتقة من هذا الاسم Bible. وسُمي الورق باللغات الأوروبية الحديثـة أيضاً باسم مشتق منها، Paper بالإنكليزية، وPapier بالألمانية والفرنسية، وكذلك المكتبة Bibliothek ، Bibleoteca.

ويمكننـا أن نذكـر مثالاً آخر عن انتقال الأفكار بوساطـة التجارة، وهذه المرة من مدينة ألالاخ (تـل عطشانة الحالي بالقرب مـن أنطاكية في لواء إسكندرون المحتل من تركيا) التي عرفـت الاستيطان البشري منذ عصور ما قبل التاريخ، والتي كانت جزءاً من مملكة يمحاض (وعاصمتها حلب) فـي القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وشكلت مملكة مستقلة ذاتياً (مملكة موكيشـ) تابعة لمملكة حوري ميتاني في القرنيـن الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. فقـد بنى ملك يمحاضـ المدعو يا ريم ليم الأول. Yarimlim 1. قصـراً له فيها، عُثر عليه في السويـة السابعة من سوياتها الأثرية المكتشفـة، وكان يغطي مساحة قدرها ١٠٠×٣٠م، ويتألّف كما يظهر من طابقين، وجُهِّز بمغاسل من أحجار متشابكة، ومجارٍ لنقل مياه الصرف الصحي إلى خارج المدينة. عُثِرَ في قاعة الاستقبال في هذا القصر على بقايا رسوم جدارية مزخرفة بأشكال هندسية تشبه تلك الأشكال التي كانت تزين جدران القصر الملكي في مدينة كنوسوس Knosos في جزيرة كريت. كما أنَّ تصميم القصر وأسلوب بنائه وتزيينه وغير ذلك من تفاصيل معمارية يشبه ما هو موجود في قصر كنوسوس وفي أبنية أخرى في كريت[١١].

والسـؤل الذي يطـرح نفسه هنا هو: **أيهما أقدم قصر ياريم ليـم الأول في ألالاخ أم قصر كنوسوس في كريت؟** يجيب عالم الآثار البريطاني المشهور ليونار وولي L. Woolley مكتشف ألالاخ، عن ذلك بقوله: إن قصر ألالاخ أقدم بنحو قرن من الزمن من قصر كنوسوس أو غيره من القصور الكريتية. وتدين جزيرة كريت بهندسة أبنيتها وزخرفتها وزينتها إلى سورية[١٢].

إن ذلـك أُكِّدَ نتيجة علاقـات تجارية في المقام الأول، إذ إن كريت كانت تربطها علاقات تجارية قوية مع مدن الساحل السوري منذ أقدم العصور.

ولا بد من الإشارة إلى الإنجاز الحضاري المهم الآخر الذي حققه كنعانيو الساحل السوري (الفينيقيـون)، إضافة إلـى الأبجدية، نتيجة ممارستهم التجارة فـي حوض البحر المتوسط بكاملـه، وقيامهم برحـلات استكشافية كثيـرة (نذكر منها رحلة حنُّون إلـى مناطق إفريقيا

الغربيـة حتى خليج غينيا، والدوران حـول إفريقيا، وحملة حيميلكون التـي وصل فيها إلى يروتانـي غربي فرنسا، وإلى جنوب غربي بريطانيا[١٣]. ألا وهو تأسيس المدن والمستوطنات التجارية في مختلف مناطق حوض البحر المتوسط، التي ما زال بعضها قائماً، ويحمل أسماءه القديمـة مثل كيتيون Kition الواقعة بالقرب من مدينة لارنـاكا الحالية في جزيرة قبرص، وبانورموس Panormos، حالياً بالرموز في جزيرة صقلية، وجادر (الحصن، القلعة، الجدار)، حالياً جادس Gades على شاطـئ إسبانيا الجنوبي المطل على المحيط الأطلسي، وكارتاغو نوفا Karthago Nova (قرطاجة الجديدة) المعروفة حالياً باسم قرطاجنة Cartagena على ساحـل إسبانيا الجنوبي الشرقي، وأجادير (الحصـن، القلعة، الجدار) المغربية المطلة على المحيـط الأطلسي. ويجب ألا ننسى مدينة قرطاجـة Karthago (بالفينيقية قرت حدشت: المدينة الحديثة) التي أسسها تجار من مدينة صور الفينيقية على ساحل تونس الشمالي في القرن الثامن قبل الميلاد، وتحولت مع الزمن إلى مملكة كبرى نافست روما على السيادة في حوض البحر المتوسط الغربي، وبقيت لغتها «اليونانية» (الفينيقية) سائدة في شمالي إفريقيا حتـى بعد تدميرها على أيـدي الرومان في عام (١٤٦ق.م)، إذ يتحـدث عن ذلك اللاهوتي المسيحي القديس أوغسطين في كتابة المعروف «مدينة الله» (القرن الرابع الميلادي).

كمـا انتشرت اللغة الآرامية، لغة معظم مناطق سورية فـي الألف الأول قبل الميلاد، في مناطـق واسعة من الشرق القديم نتيجة مزاولـة الآراميين للتجارة البرية في مختلف مناطق الشرق القديم، ووصل الأمر إلى درجة أن أصبحت اللغة الرسمية في الإمبراطورية الفارسية هي الأخمينية (٥٥٥-٣٣١ق.م)، ووصل انتشارها إلى بعض مناطق شمال غربي الهند.

وكان للتجارة دور أساسي في نقل كثيرٍ من الأفكار والمعتقدات الدينية من سورية والشرق القديـم عموماً إلى العالمين الإغريقـي والروماني، كعبادة آلهة الخصوبـة ممثلة بأدونيس، وعشتـاروت، وفينوس، وإيزيس، وأساطير خلـق الكون والصراع بين الآلهة المختلفة من أجل السيادة والنفوذ.

وما زالـت التجارة حتى اليوم تؤدِّي دوراً أساسياً في نقل الأفكار والمعتقدات الدينية من سورية والشرق القديم عموماً إلى العالمين الإغريقي والروماني، كعبادة آلهة الخصوبة ممثلة بأدونيـس Adonis، وعشتارت Ishtart، وفينوس Venus، وإيزيس Isis، وأساطير خلق الكون والصراع بين الآلهة المختلفة من أجل السيادة والنفوذ.

ومـــا زالت التجارة حتى اليوم تؤدّي دوراً أساسياً في نقل الأفكار والمنتجات الفكرية بين أمم الأرض وشعوبها المختلفة.

الهوامش

1- Von Soden, W.Akkadisc Handworterbuch, S.1314 ff.

2- Walker, C.B.F.,Cuneiform, Reading the past, Berkeley and Los Angeles California 1987, P.2 ff.

٣- مرعي، عيد، الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٤١-٤٢، ١٩٩٢م، ص٨ وما بعدها.

4- Subartu II, Administrative Documents from Tell Beydar, Turnhout 1996.

٥- مرعي، عيد، تاريخ مملكة إيبلا وآثارها، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٥م، ص١٣١ وما يليها.

6- Orlin, L. L., Assyrian Colonies in Cappadocia, Paris 1970; Klengel, H., Handel und Handler im alten Orient, Wien- Koln- Graz 1979, S. 103 ff.

مرعي ، عيد، الآشوريون في الأناضول، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٣٣- ١٣٤، ٢٠١٦م، ص ٧٢-٩٢.

٧- مرعي، عيـد- عبد الله، فيصل، المدخل إلـى تاريخ الحضارة (كتاب جامعـي) دمشق، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، ص٣٢٦.

8- Dossin, G., La route de lEtain en Mesopotamie au temps de Zimri-Lim, in: Revue dAssyriologie et dArcheologie Orientale 64 (1970), P.97ff., Text A.1270,Line 28- 30.

9- Klengel, H., Geschichte und Kultur Altsyriens, Wien- Munchen 1980,s. 140.

١٠- يتحدث المؤرخ الإغريقي هيرودوت عن أسطورة قدموس الأمير الصوري وتعليمه الأبجدية للإغريق في الكتاب الخامس من تاريخه، ترجمة: عبد الإله الملاح، أبو ظبي، ٢٠٠١م، ص٣٩٦-٣٩٧.

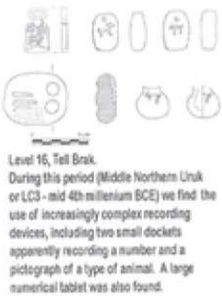
١١- وولي، ليونارد، ألالاخ مملكة منسية، ترجمة: فهمي الدالاتي، دمشق، ١٩٩٢م، ص٦٣، ٦٥.

١٢- المرجع نفسه، ص٦٤.

١٣- إلليغـر، فينفريد، قرطاجة مدينـة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة: عيد مرعي، دمشق، ٢٠٠٨م، ص٩٦ وما بعدها.



خريطة الشرق وعليها
أسماء أشهر المواقع الأثرية

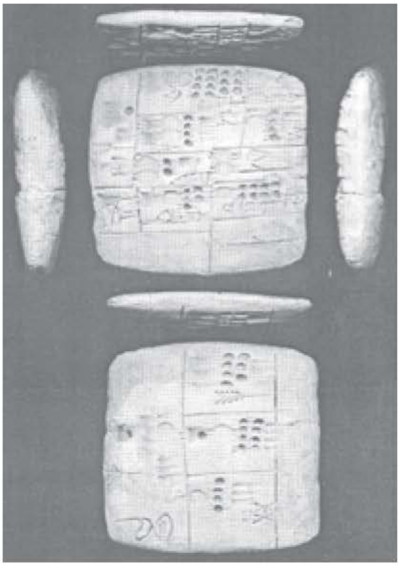



The McDonald Institute for Archaeological Research
http://www.mcdonald.cam.ac.uk/projects/brak/plans.htm

لوحان طينيان من تل براك



لوح طيني كُتبت عليه أبجدية أوجاريت



ألواح طينية مسمارية من
مدينة أوروك

قراءة في علاقة الموسيقا بالمجتمعات العربية

وبمناهج كتابة التّاريخ الموسيقي

د. فراس الطرابلسي ✿



من السّهل - في مجتمعاتنا العربية - أن يُدلي كلّ واحد منا بدلوه في بحر الموسيقا سواءٌ بإبداء الرّأي في الموسيقا الصّرفة أم الأغاني بجميع تمثّلاتها (قديمة-حديثة-تقليدية-شعبية-غربية-شرقية...) أم بالنّقد وحتّى الانتقاد، ويعود ذلك إلى أنّ مجال الموسيقا يسهُل «استباحته» - إن صحّ التّعبير- لأنّه يتعلّق في الظاهر بالذّوق الشخصي حتّى إنّ معايير الجمال فيه تتغيّر من مجتمع إلى آخر، بل أحياناً من فرد إلى آخر، والحال أنّ معايير الجمال لا يحدّدها الفرد أو المجموعات بصفة انطباعية بل يمكن الاتّفاق حولها بالعقل وحسب ما تحدّده الضوابط المتعلّقة بعلم الموسيقا. يكفي أن يرجع الباحث منّا إلى المدوّنة العربية الإسلامية حتّى

✿ أستاذ جامعي-جامعة صفاقس، اختصاص علوم ثقافية-موسيقا وعلوم موسيقية.

يعثر فيها على مئات المؤلفات الموسيقية ذات البعد العلمي التي تضبط قيمة النّغم، وتحدّد صفات المغنّي، ومناهج تناول الغناء، وكيفيّة الضرب على الآلات وغيرها ممّا لا ينبغي أن نغفل عنه قبل إبداء الرّأي وترك المجال للعواطف والانطباعات.

عموماً، أدّت هذه الحالة ممّا يمكن توصيفه بـ«قلّة الانضباط» تجاه المجال الموسيقي في مجتمعاتنا إلى انقلاب المعايير، فصار القبيح من الألحان جميلاً والصّوت الجيّد بمعايير تقييم الأصوات صوتاً متخلّفاً قديماً مُملّاً، كما أصبحت بعض الآلات الموسيقية التي تُعدُّ صُلب منظومة الرّداءة الذّوقية المتداولة آلات رجعيّة لا مكان لها، بدعوى التطوّر التكنولوجي وتغيّر نمط العروض الموسيقية بما يخدم ظهورها الفلكلوري السّطحي التّهريجي، فلا يُدرَك عمقها اللحني والثقافي.

والحقّ أنّ ما وصلنا إليه من هذا كلّه يعود إلى تراكمات تاريخيّة في المواقف التي اتخذت ضدّ الممارسات الموسيقية والنشاط الموسيقي عموماً بتعلّة تصنيفها من اللهو والمحرّمات والملهيات عن الدّين. إذ أدّى ذلك إلى تهميش الجانب العلمي والتربوي والنفسي في الموسيقا. وتمّ في المقابل تسليط الضّوء على أطر الممارسة الموسيقية في أوقات معيّنة حتّى توجد المسوِّغات لتحريمه ونزع الجانب الجماليّ منه. ولعلّ ذلك لا يشمل علم الموسيقا فحسب بل إنّ مرحلة ما بعد ابن باجة والفارابي وابن رشد وابن طفيل - وهُمْ مَنْ هُمْ في مجالات العلوم المختلفة والفلسفة- شهدت بداية انكماشات فكريّة متعاقبة وهجومات فقهية متراصّة بدأت بتكبيل العقل العربي.

لو نقف مثلاً عند بعض المواقف التي ملأت كتب التاريخ وذلك على الأقل منذ القرون (١٧ و١٨ و١٩) الميلادية حول قضايا قريبة من المجال الموسيقي في أبعادها الاجتماعيّة والنفسيّة والسّياسيّة والفقهيّة وغيرها من الأبعاد التي من شأنها أن تبرهن على مكانة الفنّ الموسيقي في صلب أنساق التفكير التي تنظّم الحياة الثقافية والعلمية في تونس وغيرها من البلاد العربية، ويكفي في هذا المجال أن نستحضر ما ورد في النصّ الآتي عن مُتَفَقِّهٍ تونسيّ من مدينة سوسة في القرن السّابع عشر:

«أمّا أحمد المريغي المولود عام (١٠٤٨هـ/١٦٣٩م) فقد تتلمذ بالأزهر لمشائخ أجلّاء مثل محمّد الخرشي ويحيى الشاوي، ثمّ رجع إلى سوسة وحارب البدع وكسّر آلات الطّرب واللهو التي عثر عليها»[1].

أمّـــا إذا تحدّثنا عن القرن الثامن عشر، فإنّ الأمـــر لا يختلف كثيراً، إذ نسجّل إلى جانب المعـــارك والصّراعات المحلّيّـــة والإقليميّة التي سيطرت على المشهـــد السّياسيّ العامّ بين القبائـــل والطامعين في السّلطة وأصحاب الحكم، مواقـــف أخرى التصقت بالنّخبة والسلطة الرّسميّة من كلّ ما هو خارج ثقافة «النخبة» في مجالات المعرفة المختلفة ولاسيّما الموسيقا، مواقف لم تسجّل اعترافـــات بتميّز الثّقافة «اللّانخبويّة» أو تفرّدها بل على العكس، من ذلك شملها الازدراء والاستهزاء والاستبعاد.

ويكفـــي أن يعـــود القارئ إلى عدد مـــن العناوين في مجال التّأريخ فـــي تونس حتّى يتأكّد مـــن خلال بعض الفقرات واستقراء بعض المواقـــف، أنّ النّخب من المؤرّخين كانت لا تنظر للموسيقـــا إلّا مـــن حيث هي مجـــال للأخلاق أو مجـــال العقيدة. وهم لا يشيـــرون إليها إلّا عندما تكون مرتبطة بالبلاطات أو بالمجال العسكري بما هي مظهر من مظاهر الاحتفالات التشريفية، مثل:

- ابن أبي دينار (ت.١٦٩٨م)، كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس.
- محمّد الصّغير بن يوسف (ت.١٧٧٠م)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي.
- حمودة بن عبد العزيز (ت.١٧٨٨م)، الكتاب الباشي.

ولقـــد تجاوز سقف المواقف السّلبيّة مجال الموسيقا بما هـــي تمثّل اجتماعي عامّ يشمل كلّ مظاهر الحياة ويلتصق بمختلف تجمّعات النّاس (قبليّة وعشائريّة وحضريّة وريفيّة وبدويّة وقرويّة، (...) وبكلّ مجال معرفي آخر يمكن أن تتوفّر فيه عناصر خارجة عن نطاق المنظومة الفكريّة الرّسميّة، ومن ذلك كتابة التّاريخ ونظم الشعر عندما يلتصقان بمنظومة «العامّة».

ففي حديثه عن أسلوب الكتابة التّاريخية في كتاب «المَشْرَعُ المُلْكِي في سلطنة أولاد علي تركي» لـ«محمّد الصّغير بن يوسف الباجي» (١٦٩٤-١٧٧٠م)، ذكر «أحمد عبد السلام» أنّه:

«ولئن غلب على المؤلّف الخروج في كتابته عن معايير الجملة العربيّة وقواعدها واستساغة الصّيغ العامّيّة والأمثال الشّعبيّة فهو يرى في ذلك خلوّاً من التكلّف والتّصنّع وميزة يمتاز بها كتابه الذي صدّره في الصفحة الأولى من مخطوطه الأصيل بالتّصريح التّمهيدي الآتي: «هذا المشرع ساهل (كذا) المقطع والمجتمع، يروي منه الكاتب والنّاظر والسّامع، سالم من تعقيد افرنقع وتكعكع»[٢] (...).

ويؤكّد في موضع آخر أنّه:

«يكفي أن نقرأ صفحة واحدة من «المشرع» لنلمس أنّ صيغ العامّيّة وتعابيرها طغت على الفصحى (...) وجليّ أنّ «الصّغير بن يوسف» يريد أن يثير انتباه القارئ وأن يجلب اهتمامه ويبهره بالطابع المثالي للمغامرات التي يرويها وكذلك بنوع من البهرج في صياغة الأخبار. وإذا لم يستطع منافسة الكُتّاب الكلاسيكيّين الذين لم يكن متمكّناً من اللغة مثلهم فقد سار على منهج القُصّاص الشعبيّين (...) ولاشكّ أنّ المتمسّكين بالتراكيب القويمة والعبارات المُلائمة قد يتضايقون من مطالعة «المشرع» إذ أتت لغته -شأنها شأن لغة القصص الشعبي- وسطاً بين الفصحى والعامّيّة، فيها أثر لمطالعات مختلفة وعبارات سوقية. وتضايُقُ المثقفين التونسيين من تلك اللغة هو الذي جعلهم يصدرون أحكاماً صارمة على أسلوب الصّغير بن يوسف. ولا يمكن التغلّب على هذا الشعور بالضيق إلّا بغضّ النظر عن القواعد وإعطاء اللغة قيمتها الأولى كوسيلة تعبير باستثناء غير ذلك من القيم»[٣].

من جهة أخرى ذكر المؤرّخ التونسي «محمّد حسن» كذلك أنّ موقف ابن خلدون من شعر البوادي في البلاد التونسية لم يكن على:

«مذهب (الخاصّة من أهل العلم بالمدن) الذين استنكفوا من رواية هذه الأشعار وزهدوا فيها بناء على الخلل النحوي الموجود بها، ولم يعدّ مثلهم أنّ النّحو والإعراب هما أصل البلاغة، وهو موقف متقدّم ينمّ عن سعة اطّلاع ورؤية شاملة للثقافة الشعبية غير متوقعة في «الثقافة العالمة»[٤](...) أمّا رؤية الخاصّة من العلماء بالمدن لهذه الثقافة الشعبية، فهي لا تخلو من الاحتقار والتهجين رافضة الاختلاف في اللسان وغياب الإعراب في الشعر (...)[٥]».

وقد تعرّض ابن خلدون «لأنصار الثقافة العالمة الذين دعوا إلى نسق واحد من الشعر والبلاغة موضّحاً: «إنّما البلاغة مُطَابَقَةُ الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الموجود فيه، سواء كان الرّفع دالّاً على الفاعل، والنّصب دالّاً على المفعول به أو بالعكس وإنّما يدلّ على ذلك قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه»[٦].

والحقيقة أنّ إشكالية التعامل النّخبويّ مع كلّ ما هو خارج عن مجالات النّخبة في الأدب والشّعر والعلوم والفلسفة والدّين والموسيقا، هي إشكالية قديمة لها ترسّبات تاريخية وتؤيّدها مواقف ونصوص مكتوبة أصحابها ممّن لا يرون في «ثقافة العامّة» منبعاً لأيّ مجال معرفي أو جماليّ. وهي بذلك إشكاليّة تتجاوز المجال الجغرافيّ التونسيّ بوطنيّته وهويّته وغيرهما من مصطلحات تحديد الهويّة أو تفرّد الهويّة-إن جاز التّعبير- إذ إنّ سطوة النخبوي على

العمومـــي كان تاريخيّاً -على الأقل في مجالنا المغاربـــي- مشهداً تكرّسه كثيرٌ من النّصوص التّاريخيـــة عن طريق تعريـــة مواقف أصحابها العلنية فيها، ممّـــن تعدّهم المدوّنة الأندلسية والمغاربية أعلاماً خالدين في مجالهم. فهذا:

«ابـــن بسّام يصـــل به التطرّف حدّ رفضه إدراج ليس الأزجـــال فحسب، وإنّما الموشّحات أيضـــا في كتابه الذخيرة إثر ذكـــره لأوّل الوشّاحين عبادة بن ماء السّماء، قائلاً: «وأوزان هذه الموشحـــات خارجة عن غرض هـــذا الدّيوان». وكذلك فعل ابن عبد ربّه إذ تحفّظ على إيراد نمـــاذج من الموشحات. والشيء نفسه فعله عبد الواحد المراكشي في «المعجب» إذ قال: إنّه «لـــولا أنّ العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلّدة والمخلّدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك»[٧]، وهو ما جعل الموشّح يعيش «حيناً من الدّهر لاجئاً بين مجالس اللهو والغناء ممنوعاً من دخول السّجلّات الشّعرية التّاريخيّة الكبرى»[٨].

يبـــدو أنّ النّمـــوذج التونسي يعبّر بدوره عن حقائق لا نـــودّ إسقاطها من دون إثبات على باقي المجتمعـــات العربية ولكنّنا نفترض- إلى حين إنجـــاز دراسة شاملة - أنّها مثّلت ولعلّها لا تزال- واقـــع كثير من الأقطار والتجمّعات العربية الإسلاميـــة مَشرقاً ومَغرباً، إذ مثّلت الموسيقا «عائقاً ثقافيّـــاً» أمام المنغلقين على فكرهم التقليـــدي «المحافظ» ورغباتهم الجامحة في الوقوف أمام الجمال، نظراً لأنه خطابٌ فنّيٌّ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نسكنه غرفة بأقفال من الحديد لأنّها ستمـــرّ عبر الوجدان من وراء كلّ المنافذ مُحكَمَة الإغلاق، ستمرّ عبر الذاكرة، عبر التواتر الشفـــوي، فهي ليســـت كتاباً يمكن حرقه أو عالماً يُغدر به ويُغتـــال، هي نغمات تدافع عن نفسها بنفسها بما يمكن أن تؤدّيه من دور في النفس والمجتمع، كلّما ضُيِّقَ عليها وجدت منفذاً إلى قلوب الناس تسكن فيها، وهي تسكن في قلوب رافضيها رغماً عنهم في تشكل تمثّلات أخرى تتأقلم مع تفكيرهم الضيّق المحدود (الدّعاء المنغّم، تلاوات قرآنية بديعة، قصائد صوفية مغناة...).

أمّـــا من ناحية حركـــة التّأريخ ومناهج الكتابة الخاصّة بكتابـــة تاريخ الموسيقا والممارسات الموسيقيـــة في العالم العربي، فهـــي لا تبعد كثيراً عن علاقة الموسيقا بالمجتمع. إذ إنّ الكتابة التّأريخيـــة لهـــذا المجال تأثّرت كما أشرنـــا من خلال أنموذج الشّعر بالمواقـــف المتصلّبة ضدّ الموسيقا، فكان الجناح العلمـــي مُبجّلاً على مجال الممارسة، وفي الممارسة الموسيقية نفسها كان كلّ ما يرتبط بالمجال الحضري أوفر حظّاً في التّأريخ من المجالات الأخرى (لاسيّما الريفية والبدويـــة). ولعلّ حركة التّأريخ الموسيقي لم تشهد انتعاشاً في أقطارنا العربية إلّا عندما حاول

بعض المستشرقين الخوض في عوالم الموسيقات المحليّة في بلداننا (مثل جيل رواني، ولافاج، البارون رودولف ديرلانجي، بول روفسينغ أولسن، وغيرهم كثيرون)[9] وهو ما شجّع بعض الأقلام المحليّة على النسج على منوالهم (مثال الصادق الرزقي في تونس/المتوفى سنة ١٩٣٩).

نشأ العربيّ -إلى حدود سبعينيّات النصف الثاني من القرن العشرين- بعقليّة تمنعه تربوياً ومن ثمّ تلقائيّاً من ممارسة الموسيقا، فما بالك أن يكتب حولها أو يؤرّخ لها. والحقّ أن انتعاش الكتابة من انتعاش الممارسة. ولا يمكن أن يكون التّأريخ أو الكتابة حول نمط موسيقي ما صادقاً ومطابقاً للحقيقة إلّا إذا تمّت ممارسته أو على الأقل مشاهدته والاستماع إليه في عمل ميداني. لذلك فإنّ التّأريخ الموسيقي بقي إلى حدّ ما نخبويّاً ورسميّاً -إن صحّ التّعبير- في الأنماط المؤرّخ لها (موشحات- (مالوف)- شخصيّات موسيقية ذات علاقة بالمشهد السياسي- موسيقا المدن...) إلى زمن غير بعيد. وهو اليوم يرتقي إلى مراتب أفضل بفضل وجود المراكز الدولية والوطنية المهتمّة بالتراث الشفوي واللامادّي عموماً أي بالتراث الذي خلّفته الطبقات الاجتماعية الأقل حظّاً في التّأريخ لتراثها الموسيقي، إذ عدّل ذلك من ضعف المشهد التّأريخي وأسهم في تعديل الكفّة بين التّأريخ الموسيقي «الرّسمي» والتّاريخ الموسيقي «الهامشي».

تزداد هنا مهمّة الباحث في مجال التّأريخ الموسيقي تعقيداً كلّما وجدا الهوّة متسعة بين صنفي التّأريخ المكتوب والشفوي، بين الوثيقة والذاكرة، بين ما يُعدّ أقرب إلى الحقيقة وما هو متواتر يتغيّر بعاملي الزمان والهوى. ومن ثمّ يجب أن تعتمد آليات التّأريخ للمشهد الموسيقي منهج التوفيق الموضوعي بالتركيز على المقارنات بين المكتوب والذاكرة، ولاسيّما أن المادة الموسيقية والممارسات الموسيقية عموماً في المجال العربي لم تخضع تاريخياً للتدوين والتوثيق إلّا نادراً جداً، إيماناً من أصحاب الصناعة بقدرتها على المرور عبر الزمن ومواكبتها التحولات الثقافية إذا كانت صادقة ومعبرة عن حاجات الفكر والواقع. من ذلك نجد أن نصوصاً شعرية تراثية مصحوبة بالغناء تردّدها الألسن في البلاد نفسها جنوباً وشمالاً وهي لا تنتمي تاريخياً إلى النسيج نفسه القبلي أو الاجتماعي. أو كذلك أغاني أخرى تُردّد بين اليمن وتونس بألحان موحدة ونصوص شعرية مختلفة متأقلمة مع اللهجة المحلية[10]، ما يدعو الباحثين في التاريخ الموسيقي العربي والإسلامي إلى استنباط خرائط جغرا-موسيقية تضرب عرض الحائط ونهائياً بكلّ تقسيم سياسي حديث[11].

الهوامش والإحالات

(١)- عبد السّلام، أحمد، المؤرّخون التّونسيّون في القرون ١٧و١٨و١٩، نقلها من الفرنسيّة إلى العربيّة أحمد عبد السّلام وعبد الرّزّاق الحليوي، تونس-قرطاج، بيت الحكمة (المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون)، ١٩٩٣م، ص٤٧.

(٢)- عبد السّلام (أحمد)، المرجع السّابق، ص٢٧٤.

(٣)- عبد السّلام (أحمد)، المرجع السابق، ص٢٨٧.

(٤)- حسن، (محمّد)، المدينة والبادية بإفريقيّة في العهد الحفصيّ، الجزء الثاني، تونس، كلّيّة العلوم الإنسانية، والاجتماعية، ١٩٩٩م، ص٧٧٩.

(٥)- حسن (محمّد)، المرجع السابق، ص٧٨٠.

(٦)- حسن (محمّد)، المرجع السابق، ص٧٨٠. (عن ابن خلدون، كتاب العبر، الجزء الأول، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ص١١٢٦).

(٧)- نجمي، (حسن)، العيطة، ط١، المغرب، دار توبقال للنشر، الجزء الأوّل، سلسلة المعارف الأدبية، ٢٠٠٧م، ص٣٥.

مع الإشارة إلى أنّ الوشّاحين أنفسهم كانوا يرفضون إدراج الموشحات والأزجال ضمن قواعد العروض المتعارف عليها في أوزان الشعر العربي الفصيح.

(٨) كنفاوي، (عبد الإلاه)، البنية الإيقاعية للموشحات الأندلسية: دراسة عروضية بلاغية، تقديم محمد العمري، المغرب، إفريقيا للنشر، ٢٠١٦م، ص٢٦.

(٩)- يمكن التوسّع في هذا الموضوع بالرجوع إلى:

الآلوسي، (عادل كامل)، التراث الموسيقي العربي وأثره في أوروبا، ص نسخة إلكترونية.

(١٠)- انظر: العرباوي، (محمّد مختار)، اللغة البربرية لغة عربية قديمة، دار نقوش عربية، تونس، ٢٠١٢م، ص٢١٩.

(١١)- راجع: الطرابلسي، فراس، «التراث الموسيقي العربي»، البحث في آليّات التّأريخ، مجلة تراث، الإمارات العربية المتحدة، العدد ١٩٢، تشرين الأول، ٢٠١٥م، ص٨٧-٩٠.

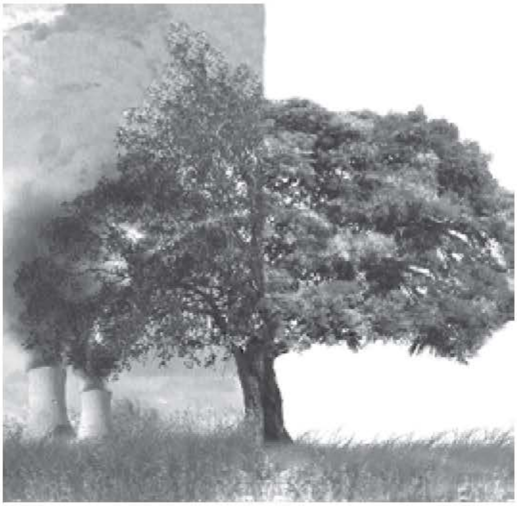
أفسدنا أرضنا ومحيطاتنا

د. محمود حريتاني

يهتم الخبراء منذ عام (١٩٥٦م) بقياس غاز ثنائي أوكسيد الكربون لفهم التأثيرات المناخية المحتملة لخمسين سنة مقبلة، أي إنَّهم أرادوا فهم الوضعية المنذرة بالكارثة المقبلة التي ستنجم عن الإنتاج الصناعي الكبير المقبل، وقد اعتقدوا أنَّ ثنائي أوكسيد الكربون المنطلق من عوادم الآلات ومداخن المعامل، يمكن أن يتراكم فعلاً في الغلاف الجوي وقد اعتقد بعضهم قدرة مياه البحر على امتصاص جميع ثنائي أوكسيد الكربون وقدرة نباتات اليابسة على امتصاصه.

اختار الخبراء مكان وضع معداتهم في أمكنة بعيدة عن المصادر المحلية لإطلاق ثنائي أوكسيد الكربون وامتصاصه وقد اختاروا القطب الجنوبي ومحطة أرصاد جوية في جزيرة هاواي، وقد لاحظوا هنا أنه في نهاية كل سنة يصبح تركيز هذا الغاز الحابس للحرارة أعلى مما كان عليه قبل اثني عشر شهراً وأن جزءاً مهماً من هذا الغاز ينتهي في البحر.

كان واضحاً لدى أحد الخبراء أن هذا الجزء الذي انتهى في البحر سيغير كيميائية مياه البحر تغيرياً جوهرياً، وبخلاف بعض مظاهر التغيير المناخي فإن حقيقة هذا التأثير هي بصورة أساسية ازدياد في حموضة مياه المحيطات، لم تناقش بصورة جدية مع أن تأثيراتها الكاملة قد بدأ كشفها.



جــرى قياســ الفقاعــات الهوائيــة المحبوسة في لباب الجليد، وتبين أنَّ تركيز ثنائي أوكسيد الكربون في الغلاف الجوي كان ثابتــاً تقريباً لعــدة آلاف من السنين وبعدهــا بدأ بالزيــادة بسرعة مــع بداية عصر التصنيع في القرن التاسع عشر، إن نسبة هــذا الغاز في الوقت الحاضر أعلى بنسبة ثلاثين بالمئــة عما كانت عليه قبل عــدة مئات من السنين، ومــن المتوقع أنّ تصبح ضعفي أو ثلاثــة أضعاف مستواها السابق خلال خمسين سنة.

يأتــي المد المتنامي من الكربون في جزئه الأكبر من احتراق الوقود الأحفوري: الفحم الحجري والنفــط والغاز الطبيعي (تضاف صناعة الإسمنت واحتــراق الغابات المدارية)، إن احتــراق الوقــود الأحفوري سيتــرك بصمة متميزة في الغلاف الجــوي يمكن أنّ تتغير معدلات الامتصاص، وإن نحو أربعين بالمئة من ثنائي أوكسيد الكربون المنبعث من الوقود الأحفوري يبقى في الغلاف الجوي، أما الباقي فتمتصه نباتات اليابسة أو مياه المحيطات بنســب متساوية تقريباً، وقد تبين نتيجة قياسات حديثــة في عام (١٩٩٦م) أنَّ المحيطات امتصــت تماماً نصف الكربون الأحفــوري المنطلق إلى الغلاف الجــوي منذ بداية الثورة الصناعية.

ولــدى المقارنة بين دراسات أجريت خلال عشرين سنة تبين أن تركيز الكربون في مئات الأمتــار العليا من المحيط الأطلسي كان أعلى ممــا كان عليه سابقاً، والأمر ناتج بوضوح مع فكرة أن البحر يمتص ثنائي أوكسيد الكربون الجوي، وقد وجد علماء بحار آخرون اتجاهات مشابهة في المحيطين الهادي والهندي.

تسبــب امتصاصــ ثنائي أوكسيــد الكربون في خفضــ الرقم الهيدروجينــي في المياه السطحية، وإذا لم تعدل الحضارة ((شهيتها)) للوقود الأحفوري في القريب العاجل وبطريقة فعَّالة، فإن الرقم الهيدروجيني لمياه المحيط سوف يهبط عند حلول عام (٢١٠٠م)، وسيصبح بعد قرون أخفض من أي وقت مضى خلال الـ(٣٠٠٠٠٠٠٠٠) سنةً الماضية.

إنَّ هذا التغيير سيؤذي بعض أشكال الحياة البحرية وبصورة خاصة الكائنات التي تعتمد علـى وجود أيونات الكربونـات لبناء أصدافها مـن كربونات الكالسيـوم، وإنَّ خفض الرقم الهيدروجيني سـوف يعرقل قابلية بعض الكائنات الحية على تصنيع كربونات الكالسيوم إلى حد سيجعل نمو تلك الكائنات الحية صعباً.

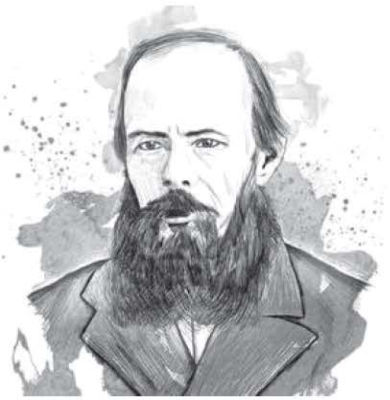
إن أكثر أشكال الحياة تأثراً بذلك هو نوع من العوالق النباتية (كائنات نباتية طافية) وأنواع أخـرى ومنها قواقع بحرية صغيرة تكـون مصدر غذائي رئيسي للأسماك وللثدييات البحرية التي تتضمن بعض أنواع الحيتان، ويخشى البيولوجيون أيضاً مما قد يحدث للمرجانيات التي على الرغم من مظهرها الذي يشبه النباتات، فإنها في الواقع مستعمرات من حيوانات صغيرة تنتمي إلى شقائق البحر، فهي تتغذى بترشيح العوالق البحرية (كائنات صغيرة طافية) من مياه البحر، وتفرز هياكل من كربونات الكالسيوم التي تتراكم مع الزمن لتشكيل ما يسمى الشعاب المرجانية التي تشكل النظم البيئية الأكثر إنتاجاً وتنوعاً من الناحية البيولوجية، وتوجد أمثلة أقـل وضوحاً في أمكنـة أعمق من البحار حيث تغطي جزئياً تجمعـات من مرجانيات الماء البارد الحواف القارية والجبال البحرية مكوّنةً مواطن مهمة للأسماك.

إن المستقبـل المتوقـع للشعاب المرجانية سيِّئ في هذه النظـم البيئية الثمينة، فازدياد حموضـة مياه المحيطـات ليس إلا واحداً مـن إجهادات بيئية كثيرة، وهـو هجوم يتضمن: احتـراراً دفيئياً وتلوثاً محلياً وصيداً جائراً وتدميـراً للمواطن، وكثيرٌ من الشعاب المرجانية حاليـاً في تراجع ويمكن أن يدفع ازدياد حموضة مياه المحيطات بعضها إلى الموت ومن ثم إلى الانقراض.

فيودور دوستويفسكي
المحبّة في مواجهة الأيديولوجيا

د. إبراهيم إستنبولي

ولد دوستويفسكي في ٢١ تشرين الثاني من عام ١٨٢١م.



Влюбиться. еще не значит любить...
Влюбиться можно и ненавидя

أن يُغـرم المرء فهذا لا يعني بعـدُ أنه يحبُّ... إذ يمكن للمرء أن يكون مُغرماً وأن يكره في آن معاً .

دوستويفسكي

ثمـة تصريح شهير لصاحب نظرية النسبية ألبرت أينشتايـن يقول فيه: لقد قدَّم لـي دوستويفسكي أكثر مـن أي فيلسـوف أو مفكـر آخـر، أكثـر ممـا قدّمه لي (هاوس كارل فريدريخ)[1]. وهذا لا يتطلب مني أن أقوم بتحليل أدبي أو أن أقوم ببعض التحليلات السيكولوجية الدقيقة - فالأمر سواء لأن جميع هذه الأبحاث لن تتمكن من النفوذ إلى لبِّ ذلك الإبداع الموجود في رواية «الإخوة كارامازوف».

بقلم آلِسّ دوبروفسكي:

يُعدّ فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي قامة باسقة في الأدب الروسي لم يتمكن أحد من بلوغ ذراها. ويجوز القول إنه أحد أعظم الكتَّاب «المسيحيين» في العالم، دون أن يخطر ببال

أحــد أن يُصنِّف إبداعه على أنه أدب ديني. وهذا الجانب لا يقلل بل يزيد من أهمية الكاتب. فـــي حين نجــد أن روايات دوستويفسكي، البعيدة كل البعد عن تلك السمة، تعكس وجهة نظر التعاليــم المسيحية بصورة كاملة. ونحـــن لا نعد العمل الأدبي «مسيحياً» لمجرد أنَّ مضمونه يحمل طابعاً دينياً، بل حين تنعكس فيه روح المسيح بشكل حقيقي.

ممـــا لاشك فيه هو أنَّ دوستويفسكي سبق زمانه: فالقراءة المعمقة والدقيقة لأعماله إنما هـــي من نصيب القرن العشرين (وربما الواحد والعشرين أيضاً). في حين أن موقف الكتّاب والنقـــاد المعاصريـــن له كان سلبياً تجاه إبداعه. وأكبر مثال على ذلك هو ردُّ الفعل الذي نشأ على صدور روايته «الشياطين» - والذي يتلخص فحواه في إعلان دوستويفسكي كاتباً رجعياً. في حين ينظر النقاد اليوم إلى رواية «الشياطين» بوصفها راهنة وعصرية جدّاً.

بصراحة، لم يكن دوستويفسكي يحظى بالمودة وبالإعجاب في عالم المحترفين في مجال الأدب لا في أيامه ولا في وقت لاحق، مع أنه كان، على الأرجح، أكثر الكتّاب قراءة في القرن التاسع عشر. أما في الحقبة السوفييتية فقد كان دوستويفسكي «كاتباً كلاسيكياً غير مريح»: لم يجدوا مكاناً له في المشهد الرسمي للأيديولوجيا السوفييتية، بعكس تولستوي مثلاً الذي استطاعــوا حجز مكان له فيها من دون أيّ صعوبة. وبالمناسبة، لقد مُنِعَت رواية «الشياطين» منذ منتصف ثلاثينيات القرن العشرين.

وإذا كان عــدم قبول دوستويفسكي لأسبـــاب أيديولوجية أمراً يمكن تسويغه وفهمه، فنحن سنلقي الضوء هنا على المسوغات الفنية لعدم القبول إياه.

ثمة من يحاول أن يضع دوستويفسكي بمواجهة كتّاب آخرين من أمثال تولستوي وتشيخوف. فيعــدون أن واقعيـــة دوستويفسكي ليست حقيقية، لأنه يصور أبطـــالاً «لا وجود لأمثالهم في الواقـــع». أي إن أبطال دوستويفسكي شخصيات مبالغ فيها و«استثنائية». ولذلك فهم يميلون إلى قصص تشيخوف المكتوبة بلغة شديدة الوضوح والواقعية.

إن مثـــل هذه المناقشات هـــي أكثر ما تصدر، على الأغلب، عـــن محترفي مهنة الأدب بالتحديد. في حين أن القارئ العادي لا تظهر لديه مثل هذه المزاعم والادعاءات. خصوصاً وأنها غير منطقية. والحقيقة هي أن تشيخوف عبقري بالضبط في تصوير «ما هو عادي». فـــي حيـــن واقعية دوستويفسكي تتميـــز بتنميط نوعي: حيث إنَّ الكاتـــب يكثِّف في أبطال رواياته مختلف الصفات والنزعات والأفكار الإنسانية. أي إن دوستويفسكي يستعين بتقاليد

علـم الجمال الرومانسي، ولهذا فـإن ما هو نمطي عنده يتضمن قرينـة الاستثنائي وغير المألوف.

لكن هذا لا يعني أنه «لا وجود لمثل هؤلاء الناس في الحياة»: فلو تأمّل كلُّ واحد منّا ذاته فـي العمق فسوف يرى هنـاك أبطال دوستويفسكي بالضبط. لأن هـذا الكاتب يقوم بعملية نقل المواصفات والمشاعر الإنسانية إلى الخارج. على هذا الأساس كثيراً ما ترفق بمصطلح الواقعيـة عند دوستويفسكي إضافات من مثـل: واقعية «صوفية» وواقعية «رمزية»... ومن ثمَّ يصبـح مـن الواضح أنه يمكن مقارنـة دوستويفسكي مع كتاب كلاسيكييـن روس آخرين من منطلق الحِرَفية الأدبية، إلا أن أحداً لم يبلغ درجة العمق الموجودة عند دوستويفسكي.

ودرجـة العمق في أعمـال دوستويفسكي لا يمكن تخيلها بعيداً عـن توجهاته ومعتقداته المسيحيـة. وقد كتب فيودور ميخائيلوفيتش بهذا الخصوص قائلاً: «لقد تعرفنا على الكتاب المقدسـ في عائلتنا منذ الطفولة الباكرة...» وأكثر مـا لاقت صدى عميقاً في روحه صورة أيوب كما وردت في العهد القديم.

جديرةٌ بالإشـارة تلك الخلافات الدينية التي كانت قائمة بين دوستويفسكي والناقد الأدبي والفيلسوف الروسي الكبير بيلينسكي الذي كان مأخوذاً في البداية بصاحب رواية «الفقراء».

وإليكـم ما كتب دوستويفسكي في دفتر مذكراته «يوميـات كاتب» عن بيلينسكي: «كمفكر اشتراكـي كان عليـه قبل كل شيء أن يعمل على إسقاط المسيحية: فقد كان يعلم أن الثورة لا بد أن تبدأ من الإلحاد...» هل تعلم، راح يزعق في مساء يوم من الأيام... متوجهاً إليَّ – أتعلم أنه لا يجوز محاسبة الشخص على آثامه وإثقال كاهله بالواجبات وبهمّية الخدّين في حين أن المجتمع مبني بطريقة دنيئة إلى درجة أن الإنسان يصبح عاجزاً عن ارتكاب المعاصي وحين يتم اقتياده اقتصادياً يفعل الشر...».

كمـا تبيـن أن ثمة خلاف كبير بينهما في مسألة الأخلاق. إذ كان بيلينسكي يطالب الأدب بتبنـي منحىً نقديٍّ. «كنت أعترضـ عليه قائلاً: يشير دوستويفسكي أنك لن تستطيع أن تشدَّ أحـداً عن طريق المرارة، بل على العكس، سوف تسبب الملل عند الجميع ... في حال رحت تقدِّم المواعظ والنصائح لكلِّ واحد عنوةً».

أود التوقف عند إحدى خصائص الروايات العظيمة لدوستويفسكي: «الجريمة والعقاب»، و«الشياطيـن»، و«الأبلـه»، و«الإخوة كارامـازوف». فنحن نجد أن الشخصيـة المحببة عند

دوستويفسكـي هي شخصية البطل – المنظِّـر الأيديولوجي. ولكن، هل هذه أيديولوجيا؟ لا، إنهـا منظومة قيم محـددة، لكنها منظومة غير صائبة وغير عقلانيـة إلى درجة كبيرة على الرغم من أنها تبدو نابعة من الإدراك. هذه نداءات عاطفية تتخذ شكل تنظير مجرّد وتتحول إلى مبادئ رئيسية في الحياة.

تحوَّل القـرن العشرون إلى قرن السيطرة التامة للأيديولوجيا، أيديولوجيا مفروضة على المجتمع وعلى الشخصية الفردية للإنسان محدثة تشوّهاً كبيراً في شخصيته. فالأيديولوجيا تشـكل مصدراً للحواجز والتباعد بين الناس. وقـد أدرك دوستويفسكي هذا التأثير المدمِّر للأيديولوجيا المرتبطة بآثام البشرية فقام بإصدار حكمه عليها.

فمعلـوم أنه فـي أساس الأيديولوجيا إنمـا تقوم المشاعر الدونية للإنسـان. هكذا نرى أن المناقشات الأيديولوجية عند راسكولنيكوف في «الجريمة والعقاب» هي التي تقوده إلى ارتكاب الجريمـة البشعـة. والأفكار الثورية نفسها نجدها عند أناس بـلا رادع أخلاقي وبلا مبادئ في روايـة «الشياطين». ويُعـدُّ التعجرف المفرط واحداً من المشاعر الآثمـة التي تقوم في أساس الأيديولوجيا البشرية. هذا الشعـور بالتعجرف المفرط وبالتكبّر هو الذي يعمي راسكولنيكوف في «الجريمة والعقاب» وهذه الناحية هي التي تؤدي إلى هلاك ستافروغين في «الشياطين».

إن دوستويفسكـي يهتم بشكل خاصـ بشخصية «الإنسان التافـه، المُضطهَد والمُهان». واللافـت أن التعجرف المبالغ فيه، التعجرف الذي يتظاهر بأشكال عجيبة، هو الذي يصيب وينخـر جوهر مثل هؤلاء الناس أيضـاً! وإذا كان دوستويفسكي يتعاطف معهم، فإنه لا يسعى إلى تسويغ سلوكهم إطلاقاً.

لن يكون صائباً الاعتقاد أنَّ دوستويفسكي يواجه الأيديولوجيا البشرية الآثمة بأيديولوجية أخرى. فهو يرى أنـه بالمحبة الإلهية فحسب يمكن مواجهة الأيديولوجيا البشرية. على هذا الأساس يمكن عدّ أبطال دوستويفسكي شخصيات أيديولوجية بالمعنى المباشر للكلمة: سونيا مرميلادفـوا والأمير ميشكين وأليوشا كارامـازوف. ويطلق النقاد على هؤلاء مصطلح أبطال أيديولوجيين. وهذا أمر مشكوك فيه.

لأن هؤلاء الأبطال، أولاً، هم أبطال محِبّون. فالصدام بين الأيديولوجيات يؤدي إلى مزيد من الضجيج، لكنه ضجيج لا ينتج حلّاً للمشكلة. والأيديولوجيا الكاذبة لا يمكن الانتصار عليها إلا بالمحبّة، محبّة تتجلى في حل أخلاقي، في الممارسة وفي التضحية والتفاني، في التسامح

وتقبّـل القريب. ولذلك نرى أن الأمير ميشكين عندما يحاول الإعلان عن نظرية أيديولوجية ما فإن هذا يخرج عنده بطريقة غير صحيحة (المقصود خطابه ضد الكاثوليكية).

والأيديولوجيـات تتغـذى دائماً على الكراهيـة، في حين أن التعاليـم المسيحية ترفض مشاعر الكراهية. ودوستويفسكي على مدار السرد يعرّي رياء الأيديولوجيات البشرية ويفضح جوهرها المدمـر والمهلك، مع أنه هو نفسه، كغالبية الناس، لم يكن بعيداً عن تأثير التفكير الأيديولوجـي؛ وهـذا ما يفسر خطاب الأمير ميشكين في روايـة «الأبله»، وكذلك تلك الآراء المعادية للغرب وللكاثوليكية عند دوستويفسكي بالذات. لكن التفكير الأدبي عند دوستويفسكي أضحى هو الأكثر قوة والأكثر حضوراً من «تنظيراته» الخاصة، كما يجب أن يكون عند الأدباء المبدعيـن العظماء. وما هذا سوى تفكير خاصٍّ بـه، محمود ومدهش بأن: فالصورة الأدبية للبطـل تنتصر علـى الفكرة الغريبة عنهـا، ولذلك نلاحظ أن كراهيـة ميشكين للكاثوليكية «تغيب» من بنية صورته فتبدو كما لو أنها جانب طارئ وغير أصيل.

إن ما يميز أعمال دوستويفسكي الإبداعية تعددية في الأصوات وغياب الوعظ الأخلاقي الاستحـواذي، وهو تميُّز جدير بأن يكـون مثالاً يحتذى بالنسبة إلى كل مَن يحاول إرساء أدب مسيحي. فنحن نرى كيـف أن دوستويفسكي يسمح لجميع شخوص رواياته «بأن ينطقوا وبأن يعبروا عن وجهات نظرهم» بكل حرية.

لا يمكـن تقسيم أبطال دوستويفسكي إلى معسكرين: أبطال إيجابيون وأبطال سلبيون. بل يربط ما بينهم نوع ما من العلاقة الجدلية بطريقة أكثر تعقيداً مما يُتصَّور. فاهتمام الكاتب لا ينصبُّ على أشرار خياليين، بل على شخصيات غنية ومتنوعة ومتصارعة «رَاسْكولنيكوف، ستافروغين، دميتري وإيفان كارامازوف، وناستاسيا فيليبوفنا». وغالباً ما يَحدث تماهٍ بين هذه الشخصيات وشخصيات مثيلة لها «أصناء أو صنوانٌ لها» تجسِّد بعض ملامحها بدرجة مطلقة أو تعكسها بصـورة مشوَّهة «لوجين وسفيدريغايلوف، بيوتـر فيرخوفينسكي وسمِرْدياكوف». فهـذه النماذج بالتحديد هي التـي تسمح بأن نرى بكل وضوح تلك الصورة الدميمة المشوهة للأيديولوجيـا ولطاقاتها المدمِّرة. وأخيراً، ثمة أبطال «إيجابيـون» رائعون من أمثال الأمير ميشكين وأليوشا كارامازوف. فهاتان الشخصيتان هما الأكثر صفاء والأكثر إشراقاً في سماء الأدب العالمـي، إذ يمثلان المُثل المسيحية عن حق، لكن ليست كأيديولوجيا وإنما كمنظومة قيم صميمية.

أحياناً يجري النظر إلى الأمير ميشكين على أنه تفسير أدبي لشخصية المسيح. لكن هذا ليس دقيقاً، مع أنَّ هذه الشخصية بالذات تعدّ الأصدق والأشد قوة في الأدب كحاملة للمحبّة المماثلة لتلك التي عند السيد المسيح. كما أن الرواية بحد ذاتها حافلة بالرموز والمقارنات الدينية دون أن تتحول على الرغم من ذلك إلى عمل فني ديني. فالأمير ميشكين يتقيد بوصايا الإنجيل حتى النهاية محاولاً أن يفتدي الآخرين بنفسه.

وليست أقل تعبيراً وإدهاشاً صورة أليوشا كارامازوف، ذلك المسيحي الذي يأبى أن يهرب من العالم إلى داخل جدران الدير (مع أنه يعرض عليه مثل هذا الاحتمال)، بل على العكس نراه يخوض الحياة إلى جانب إخوته الأقربين.

وإذا كانت رواية «الجريمة والعقاب» تمثّل قمة الفن السردي عند دوستويفسكي، فإن آخر رواياته «الإخوة كارامازوف» تشكّل قمة فلسفته. ففي سياق الموضوع الذي تعرضه الرواية نجد أمامنا ذلك الحكم الصارم والفاتك عن حق بشأن الأيديولوجيا البشرية الفاسدة، التي تلبس، علاوة على ذلك، رداء الدين (في إشارة إلى الرواية الشعرية الشهيرة عن قاض في محاكم التفتيش).

وقد عدَّ الفيلسوف المعروف أنتاناس ماتصين من ليتوانيا أن تلك القصيدة عن قاض في محاكم التفتيش هي عمل «أكثر كونياً» مما هي رواية «فاوست» لـ(غوتيه)، وأن القاضي نفسه في محاكم التفتيش ذاته هو الشخصية الأبشع والأكثر فظاعة في تاريخ الأدب العالمي بمجمله. والأرجح أن الأمر هو كذلك لأنه يجسّد الأيديولوجيا البشرية الأكثر إثماً والتي تنافس للوصول إلى مكانة ديانة إلهية، فتعمل باسم الرب لتتستر على العنف الشيطاني ضد الإنسان، وتفرض على البشر المُثُلَ الكاذبة «للسعادة» الآثمة بدلاً من نعمة الحرية التي قدّمها يسوع.

فها هو إيفان كارامازوف الذي صاغ دوستويفسكي القصيدة بلسانه، يريد أن يسوّغ بوساطتها عدم إيمانه وإلحاده، إلا أنَّ أليوشا يؤكد بصورة عادلة تماماً أن القصيدة لا تشكّل تطاولاً على السيّد المسيح أو انتقاصاً منه، وإنما تمثّل مديحاً له. لنتوقف عند الكلمات الآتية التي تعود لألكساندر مينّيا: «كيف يرد أليوشا على ثورة الغضب عند إيفان؟ نجد أنه لا يقدم له نظرية لاهوتية متناسقة ومعقدة، بل يتطلع إليه بمحبّة عميقة وبتعاطف كبير ويشاركه معاناته. يبدو أنَّه بإمكاننا أن نفهم الإنسان بمشاعرنا، «بالقلب»، وهذا سيكون كافياً ...».

والمسيح أيضاً لا يرد على المفتش العظيم في قصيدة إيفان ولا يطرح في مواجهته أيّ أيديولوجيا خاصة به. فهو يظل صامتاً ومن ثم يقبّله في شفتيه الممتقعتيَن. هكذا نجد أن دوستويفسكي يجابه الأيديولوجيا بالمحبّة فحسب!

إن رواية «الشياطين»، التي لاقت معارضة كثيرين في حينها، إنما تهدف إلى فضح بشاعة لا الأيديولوجيا الدينية الكاذبة وحسب، بل أيضاً أيديولوجيا الثوريين الإرهابيين. وفي عصرنا هذا ينظر إلى تلك الرواية على أنها كانت بمنزلة نبوءة لتلك الأحداث الجسيمة والرهيبة التي حصلت في القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. وكتحذير منها.

والأيديولوجيا إنما تُهلك مؤسسيها كما هو واضح في مثال بطل الرواية ستافروغين. وقد أشار إلى هذه النقطة الفيلسوف الروسي المعروف بيردياييف في مقالة له بعنوان «ستافروغين» قائلاً: «هو لم يستطع ولم يشأ أن يختار بين المسيح والمسيح الدجال». كان ستافروغين شخصية غنية وجذابة، لكنه خسر نفسه «لأن الشخص الذي يريد أن يصون روحه هو مَن يخسرها ...» علماً أنه عُرِضَ عليه طريق النجاة، طريق المحبّة.

إن العالم المعاصر بحاجة لوعظ إنجيلي لا يقدِّم يقينيات كلامية (سكولاستيكية) ولا تنوّعاً في الدعاية الدينية التي سئمنا منها في المجتمع الاستهلاكي، وليس نظرية أيديولوجية جديدة مع منظومة قيم تتخذ لنفسها مظهر النظرية الحكيمة، تقوم على الكراهية وتسعى إلى السيطرة الشاملة والمتسلِّطة على حياة البشر... بل إنَّ العالم بحاجة لوعظ يقوم على المحبّة الإلهية وعلى التحرر الروحي الذي منحنا إياه يسوع، لوعظ يحمي الإنسان من التأثير المخدِّر للأيديولوجيا – وباء العصر الحديث.

والآداب «المسيحية» تمتلك طاقات جبارة للقيام بدور هذا الوعظ. ذلك أن الصورة الفنية يمكن فهمها واستيعابها حتى عندما تكون الصيغة العلمية أو العقيدة اللاهوتية الجامدة غير مفهومة. يتطلب الأمر فحسب أن نتعلّم قدر المستطاع عند أولئك الأساتذة الحقيقيين من الكتّاب والفنانين الذين أتحفونا بمآثر عظيمة من الفن المسيحي الحقيقي. وفيودور دوستويفسكي واحد من هؤلاء الكتّاب، بل لعله واحد من أعظمهم.

الهوامش

(١)- عالم رياضيات وفيزياء الشهير. المترجم.

ألكسندر بلوك
الشاعر الروسي الأكبر في القرن العشرين

د. هاشم حمادي



بعد قرابة نصف قرن من حالة الانحطاط، التي مر بها الشعر الروسي، وتبوُّؤ النثر القمة بقيادة عمالقة كبار، أمثال دوستويفسكي وتولستوي وتورغينيف وتشيخوف، عاد الشعر في نهاية القرن التاسع عشر ليحتل مكان الصدارة من جديد، وذلك مع ظهور المدرسة الرمزية، التي يرجع النقاد أصولها في روسيا إلى المفكر المثالي فلاديمير سولوفيوف (١٨٥٣- ١٩٠٠م)، الذي عرف بنزعته الصوفية، ولا سيّما الدينية في إنتاجه الشعري. وقد ساعد على انتشار الرمزية في أوساط المثقفين الصراعات الاجتماعية العنيفة، التي تجلت في مطلع القرن العشرين، وتمثلت في ثورة (١٩٠٥م) خاصةً... إذ غدت الرمزية وبعض المدارس الشعرية التي جاءت كردود فعل على الأخمية والمستقبلية، الاتجاهات السائدة في الشعر الروسي، وكان من أبرز حملة رايات الرمزية ألكسندر بلوك وأندريه بيلي.

وإذا كانت الرمزية مظهراً جديداً للرومانسية في الأدب الروسي، فإن النقاد يعدّون بلوك أكبر شاعر روسي في القرن العشرين، ويضعونه بعد بوشكين وليرمنتوف مباشرة، أي في

عـداد الشعراء صانعي الأساطير وفي عـداد أبطالها. ويرى فيه الناقد فلاديمير بوزنر شيئاً من دون كيشوت بروحه الفروسية، وشيئاً من دون جوان في تعلقه بالمرأة، وشيئاً من روبنسون كروزو، في حبّه للعزلة، وشيئاً من غولفر، في علاقاته مع الآخرين(١).

ولد ألكسندر بلوك في عام (١٨٨٠م) في بطرسبورغ في أسرة مثقفة. فقد كان جده لأمه عالمـاً بارزاً، ورئيساً لجامعة بطرسبورغ، أمـا أبوه فكان أستاذاً للفلسفة والحقوق في جامعة وارسو، ثم إن زوجـة بلوك هي ابنة الكيميائي الروسي المشهور منديليف. وكانت جدته وأمه تترجمان الأعمال الأدبية والعلمية.

نما بلوك، وترعرع في وسط يهتم إلى حد كبير بالأدب والفن. وقد ترك هذا الجو بصماته علـى ميول الفتى واهتماماته، وبـدأ قرض الشعر باكراً، وهو لا يـزال على مقاعد الدراسة الجامعية في كلية فقه اللغة والتاريخ، التي تخرج فيها عام (١٩٠٦م).

فـي عام (١٩٠٢م) نشر قصائده الأولى في مجلة «الطريق الجديد»، ذات التوجه الديني. ولم يكـن ذلك من باب المصادفة. فقد تميزت المرحلة المبكرة من إبداع الشاعر بالأحلام، ذات الصبغـة الدينيـة، نتيجة تأثره بفلسفة فلاديمير سولوفيـوف، التي تروج لعوالم أخرى، وللأفـكار القائلة إن يوم القيامة أصبح وشيـكاً. ومن هنا عُني في قصائده الوجدانية الأولى بالظلال والظلام، كما في قصيدته «حبذا ضوء القمر فالليل دامس...»، والتوحد والبعد عن مباهـج الحياة، وعن الصخب والغوغاء وعبيـد التفاهات المعيشة، وأصحاب الازدواجية في الاختيار بين «السماء» و«الأرض».

فـي ديوانه الثاني «أشعار عن السيدة الجميلة» (١٩٠١ - ١٩٠٣م) تتجلى بوضوح رمزية بلوك، وميلـه إلى الموضوع القروسطي، موضوع حب الفرسان لسيدات القلوب. إذ يطالعنا البطل في صورة فارس أو شاعر أو رسول أو عبد أو وصيف، يندفع نحو سيدة قلبه، ويبحث جاهـداً عن الوسيلة الكفيلـة بتأمين لقائه بها، والحب في هـذه القصائد الوجدانية ليس شعوراً أرضياً، بل نوعٌ من الخشوع الديني، بعيدٌ عن الحياة المبتذلة (المستنقع)، التي يرمز إليهـا باللـون الأصفر، أما اللون الليلكي والأزرق فيرمزان إلـى احتمال تداعي الأمل بلقاء الحبيبة.

نضـج بلوك كشاعر فحسب بعد خيبة أمله بثورة (١٩٠٥م) وبزواجه. فبدأ في وقت مبكر مـن عام (١٩٠٤م) يعكس في شعره الغوايات الجنسية خارج زواجه. وهكذا صور نفسه رجلاً

مخدوعـــاً... وتجري أحداث كثيرة من قصائـــده الغنائية، في هذه المدّة، في الحانات، حيث الشاعـــر يتمادى في فسقـــه، وينغمس في ملذاته الحسية. ففي قصيدتـــه «الغريبة»، العائدة إلـــى هذه المرحلـــة، يبرز أمامه مثله الأعلى السابق في صورة امرأة ليل، وحيدة، غامضة في حانة(٢).

فـــي ديوانه الثالـــث «مفترق الطـــرق» (١٩٠٢ - ١٩٠٤م) يطلق الشاعـــر على نفسه لقب «النبـــي» «الحكيم» و«ملك الجمال الأرضي» «أقف وراء دفة الحكم، لكنني أشعر بالوحدة...»، لكـــن نغمات الفراق وخيبـــة الأمل لا تلبث أن تتـــردد في أشعاره التالية. وبـــدلاً من الطريق الوحيـــد القديم، يظهر تقاطع الطـــرق، والتفرعات، ومن هنا عنوان الديوان. فنحن الآن أمام صور أرضية، مستمدة من واقع الحياة (في حدود المنظومة الرمزية)، وتسود الألوان الأصفر والأسود والرمادي، وتقوى لدى الشاعر النغمات الدوستويفسكية، كما في قصيدة «رجل أسود يعـــدو في المدينة...». ولا تلبـــث صورة السيدة الجميلة أن تتلاشى مـــن هذا الديوان، الذي يختتم بصورة الليل الدامس والطرق المجهولة(٣).

وفجـــأة يتخلّـــى الشاعر عن عزلته، ويندفع عـــام (١٩٠٥م) على رأســـ مظاهرة، والراية الحمـــراء في يده. لكن هذا لا يعني أن انعطافاً جذرياً حـــدث في أفكار الشاعر، وأنه اعتنق أفـــكار الثورة، وانضم إلـــى صفوف الثوار، فقد ظل بلوك بعيداً عن هـــذه الأفكار. ومع ذلك فقـــد طرأ تغير ملحوظ على نظرته إلـــى الحياة، وبدأ يتخلى عن عزلته، ويبدي الاهتمام بما يجري من حوله، دون أن يسمح للسياسة بأن تجرفه في مجراها. وإلى ذلك تشير الباحثة م. بيكيتوفـــا، فتقول: «لم يلبث ألكسندر بلوك أن تخلى عـــن لامبالاته تجاه الحياة، وحل محلها اهتمـــام حي بكل ما يجـــري. كان يراقب مسيرة الثورة، ويرصد مـــزاج العمال، لكن السياسة والحزب ظلا غريبين عنه»(٤).

مـــن أبرز قصائده في هذه الآونـــة «اجتماع» «البطرانون» «المعمـــل»، وفيها يتعاطف مع الثـــورة، ويصور بشاعة العمل القسري، ويعرب عن ازدرائه للمستغِلّين «البطرانيين»، الذين لا يعرفون الشبع.

لكن مواقف الشاعر ليست وليدة قناعاته الفكرية:

ففي قصيدته «أيها العامل» يهيب بلوك بالثورة أن تجرف مِنْ على الأرض الروسية المجتمع البرجوازي العفن والمتفسخ، وكل ما يقف حجر عثرة في طريق ترسيخ كل ما هو رائع:

هيا انهضي واشتعلي واحرقي

هيا ارفعي مطرقتك القاضية

لكي يقطع البرق الباهر

دابر الليل الدامس.

وبلـوك المفكر، الـذي يكن كل الحب لوطنه، الذي يتألم، إذ يـرى شعبه يقاسي الأمرَّين، سبق بلوك الشاعر في التخلي عن أدب الانحطاط(٥). وقد جاءت مسرحيته الشعرية «الهزلي» (١٩٠٥م)، فكشفت عن بداية تخلصه من فلسفة سالافيوف الصوفية، وانحسار تأثير الرمزية على إبداعه، فهو في هذه المسرحية يوجه نقداً لاذعاً للصوفيين(٥).

وفـي أعقاب «الهزلي» كتب بلوك مسرحيتين أخريين، الأولى بعنوان «الملك في الساحة»، والثانية «المجهولة».

وثمة رابط قوي بين هذه المسرحيات الثلاث، وقاسم مشترك يجمع بينها، وهذا القاسم، باعتراف بلوك نفسه، هو أن أبطالها «يبحثون عن الحياة الرائعة، الحرة والمشرقة».

«العالم الفظيع» - تحت هذا العنوان صدر ديوان بلوك الجديد، الذي ضمنه قصائده، التي كتبهـا في المدّة بيـن (١٩٠٧- ١٩١٦م)، والتي يصور فيها ممارسات الرجعية في روسيا، في أعقاب فشل ثورة (١٩٠٥م)، وكيف تحولت البلاد إلى مستنقع آسن، يعج بالبرجوازيين الصغار والأفاقين، ويطالعنا «الشاب، الذي يشيخ»، مصاص دماء، و«الشحاذ الأحمق»، والموتى، الذين يتظاهـرون أنهم أحياء، والأشبـاح، التي تبدو وكأنها حية ترزق، والهيـاكل العظمية المدثرة بالمعاطف «الشارع مقفر...» و«نشيد جهنم»:

ذكرتني هذه الصالة بالعالم الفظيع

الذي سعيت فيه، كما الأعمى في الحكاية البرية...(٦)

ومـن ملحمته «القصاص» (١٩٠٨- ١٩١٣م) يحاول بلوك رسم صورة الحياة الروسية على مـدى ثلاثة عقود ونيـف (سبعينيات القرن التاسع عشر وحتى الثـورة الروسية الأولى) على خلفية حياة ثلاثة أجيال من إحدى الأسر الروسية، وكيف تطور أنموذج الإنسان الروسي، عبر هذه الأجيـال الثلاثة، من الأنموذج «الزائد» إلى الأنموذج الثـوري، الذي يتحدى الموت في أحـداث عام (١٩٠٥م)، ويرى بلوك أن ذلك جاء قصاصاً للأسرة البرجوازية، على ما اقترف «آباؤها» من ذنوب.

وفي الوقت، الذي أخذت فيه البرجوازية تمتدح قدوم القرن العشرين، وترى أنه يشكل منعطفاً تاريخياً مهماً نحو التقدم والازدهار، عدّه بلوك أسوأ من القرن التاسع عشر، فكتب يقول:

القرن العشرون... أكثر تشريداً

وظلمة الحياة أكثر هولاً

وظلال جناح الشيطان

أكثر سواداً وقتامة

لكن بلوك لم ينجز هذه الملحمة. وفي المقدمة، التي كتبها في عام (١٩١٩م) يقول: «لست أشعر بالحاجة والرغبة في إنجاز هذه الملحمة، المفعمة بالأحاسيس المسبقة باندلاع الثورة، ما دامت هذه الثورة قد أصبحت واقعاً.

حتى عام (١٩١٧م) ظلت أشعار بلوك الوجدانية غنية بنغمات القنوط، والتشاؤم من المستقبل، وقد جاء ديوانه «أفكار حرة»، فشكل انعطافاً كبيراً في أفكاره الجمالية، ففيه استخدم الشاعر الوزن الشعري الكلاسيكي، الذي اشتهر به ألكسندر بوشكين. والواقع أن الشاعر أصبح في قصائده، في مرحلة النضج، أكثر تأثراً بعمالقة الشعر الروسي الكلاسيكي: بوشكين ليرمنتوف ونيكراسوف، ولم تلبث أشعاره أن تحررت من الاستعارات الضبابية والصور الرمزية، وأصبحت أكثر تماساً مع الواقع، ونقداً لهذا الواقع، وترحيباً بالمستقبل المشرق.

لكن الشاعر لم يستطع فهم كثيرٍ من ظواهر هذا الواقع، ومن هنا التناقض العميق في أشعاره، التي تعود إلى هذه الحقبة. فهو يشعر بالضياع في هذا العالم، ففي رسالته إلى ذويه، عام (١٩٠٨م)، كتب يشكو: «أجد صعوبة كبيرة في العيش... ياله من ملل قاتل... يا لها من وحدة فظيعة، من يأس قاتم».

وفي هذا الجو، المشحون بالسأم والقنوط، يكتب الشاعر قصيدته «رقصة الموت»:

الليل، الشارع، الفانوس، الصيدلية

والضوء الباهت والعقيم.

حتى لو عشت ربع قرن آخر

سيبقى كل شيء على حاله. عبثاً.

وتموت- فتعود من البداية

ويتكرر كل شيء كما في الماضي:

الليل. ترقرق القناة الجليدية

الصيدلية، الشارع الفانوس.

وحيـــن يلتفت الشاعر إلى وطنه، يشعر بالألـــم، وهو يرى الشعب الروسي يعاني من الفقر والجوع والمرض، فيخاطب روسيا، على غرار نيكراسوف:

روسيا، يا روسيا الفقيرة.

إن بيوتاتك المتجهمة

إن أغانيك الحزينة

كما دموع الحب الأول لدي.

وفي قصيدته «أمريكا الجديدة» (١٩١٣م) يحلّق بلوك على أجنحة الخيال، ويحدوه الأمل الكبير أنّ تتحول روسيا إلى دولة صناعية، من النمط غير الرأسمالي.

أما في قصيدته «الحدأة» (١٩١٦م) فيصور وضع الشعب الروسي البائس، وما جرته عليه الحرب العالمية الأولى من ويلات، ويتساءل:

إلى متى ستستمر معاناة وطني؟

إلى متى ستستمر الحدأة في الدوران؟

كان بلـــوك يعـــدّ المثقفين والشعب على طرفي نقيض، كل منهمـــا يكن العداوة والبغضاء للآخر، وهذا طبيعـــي برأيه، فالإنتلجنسيا هي حاملة الثقافة البرجوازية، المعادية للفن، في حيـــن الشعب حامل القوة العفويـــة الطبيعية، ومن هنا فإن الإنتلجنسيـــا تنتسب إلى معسكر «المتخمين»، في حيـــن يصنف الشعب في خانة «الجائعين»، ويرثي له، ويتعاطف معه. وهذا ما يبدو جلياً في مقالته «الشعب والإنتلجنسيا» (١٩٠٨م)، إذ يشكو من تضاؤل عدد المثقفين، الذيـــن يكرسون حياتهم للنهوض بالعلوم والفن وخدمـــة المجتمع، ومن تزايد أحداث التمرد والعنف، بدءاً بالتطاحن المبتذل في صفوف الانحطاطيين، وانتهاء بالانتحار البدائي الرخيص - الغـــرق في مستنقع الفسق والسكر والعربدة. ويؤكـــد الشاعر أن الأمر يختلف بالنسبة إلى الشعـــب، وفي الوقت، الذي تزداد فيـــه الإنتلجنسيا انقياداً لرغبة الموت والهدم، فإن الشعب يزداد تمسكاً بالحياة ورغبة في البناء(٧).

كان بلوك يشعر بأواصر القربى تشده إلى المعسكر الثوري في الأدب. ويزداد قرباً من الواقعية، التي كان يعدّها «قلب الرومانسية»، وإدراكاً لأهمية إبداع الكتاب الواقعيين، وعلى رأسهم مكسيم غوركي، ومن هنا إسهامه في مجلة «التأريخ» الغوركية، مما عرَّضه لنقد لاذع من جانب الرمزيين، زملاء الأمس، لكنه ردَّ على هذا النقد بكل جرأة: «إن مجلة غوركي لا تترك لدي انطباعاً سيئاً، كما تزعمون، وأنا أميل إلى التعامل معها بكل جدية... أنتم تكتبون أن هذه المجلة «ضد كل ما هو عزيز علينا»، بما فيه ضد الحلم، لكنني أظن أنكم لا تعرفونني أبداً، فأنا لا أطيق «الحلم»، وأفضِّل الواقع، الأكثر كآبة عليه»[٨].

وعشية الثورة بدا واضحاً أن بلوك يزداد قرباً من أفكارها، بما في ذلك تمجيد الشعب، بوصفه القوة الواقعية الوحيدة، القادرة على البناء، ودرء خطر الهدم، والتغني بالعمل والعطاء، وهذا ما يتجلى في قصيدته «بستان البلابل» (١٩١٥م)، إذ ينتقد أولئك الحالمين، الذين يفضلون الجلوس تحت الأشجار الظليلة، بعيداً عن الحياة وصخبها، عن الواقع ومشاكله، ويتجنبون السير في الطريق الشائك لتغيير هذا الواقع، فيلقوا مصير بطل القصيدة. صحيح أنه يهرب من «بستان البلابل» أخيراً، لكن هربه جاء متأخراً، فقد فات الوقت، وها هو يجد نفسه وحيداً، زائداً، لا لزوم له، وقد فاته قطار الحياة.

استقبل بلوك ثورة تشرين الأول بالترحيب، وأهاب بالجميع أن يحذوا حذوه. ففي مقالته المعروفة «الإنتلجنسيا والثورة» كتب يقول: «إن مهمة الفنان، واجب الفنان، أن يصغي إلى تلك الموسيقا، التي تتردد في الجو العاصف،... وأن يسعى من أجل تجديد كل شيء. ومن أجل أن تصبح حياتنا القذرة، المملة والمشوهة، عادلة وطاهرة مرحة ورائعة».

وعلى الرغم من أن بلوك لم يعمر طويلاً بعد الثورة، فإن أفضل أعماله يعود إلى هذه الحقبة القصيرة. ففي عام (١٩١٨م)، والثورة لا تزال تحبو، وشبح الحرب الأهلية لا يزال وراء الأكمة، كتب بلوك ملحمتيه المعروفتين، اللتين يعدّهما النقاد من أفضل ما كتب، وتحمل إحداهما عنوان «الاثنا عشر»، والثانية عنوان «السقيتيون».

نَذَر بلوك ملحمته الأولى للثورة، إذ يصف مدينة بيتروغراد، مهد الثورة، في شهر تشرين الأول من عام (١٩١٧م)، وهي تزمجر، كما الزوبعة الثلجية، التي أفلتت من عقالها- رمز الثورة العاصفة. وفي طريقها تكنس الزوبعة جميع من يقف في طريقها من أنصار العالم البائد - الكاتب المنمق، الكاهن والسيد الأنيق والعجوز الحيزبون.

منذ مطلع الملحمة نشعر بالقوة الجبارة للثورة، وبالكره، الذي يكنه الشاعر للعالم القديم، الخائف من المد الثوري الزاحف، فتراه يرتجف خوفاً، وهو يشعر أن أيامه أصبحت معدودة، وهاهم أولاء الثوار يزحفون، إنهم اثنا عشر جندياً من الجيش الأحمر:

يتقدمون، غير هيّابين
حاملين بنادقهم الفولاذية
والراية الحمراء تخفق
ويدوي وقع أقدامهم
فيستيقظ العدو اللدود
والزوبعة تدوم أمامهم
ليلاً ونهاراً...
إلى الأمام. إلى الأمام
أيها الشعب العامل.

وكمـــا في كل أعمال الشاعر السابقة، فقــد تجلى هنا، وبقوة أكبر، غموض موقفه، إن لم نقــل ازدواجيته وتناقضه. فهو، من جهــة يرحب بالثورة، بوصفها حفار قبــر العالم البالي، الكريه والمقيت، ومن جهة أخرى يجهل تلك الجهة، التي ستشيد الحياة الجديدة على أنقاض العالم البرجوازي الراحل.

الجنــود الحمــر الاثنا عشر يزحفون، وكلهم عزم وتصميم علــى دك قلاع النظام القائم، وقــد أراد الشاعــر تصوير العمال على أنهم أبطال الثورة وصناعهــا، لكنه صورهم في هيئة فوضوييــن، يهدمون عبثــاً، يسيطر عليهم الكره الأعمى والحقــد الدفين. كل هذا يدل على أن بلــوك لم يتخلص تماماً من فلسفته القديمة، وأنه لايــزال أسير أفكارها. وليس أدل على ضبابيــة فهمه للثورة وأهدافها من أنه يضــع المسيح في مقدمة الجنود الحمر الاثني عشر، وهو يتصدر مسيرتهم «في إكليل أبيض من الورد»، وهكذا يتضافر التصوير الواقعي للأحداث في الملحمة بالرمزية الصوفية.

حتــى بلوك نفســه يعترف أن المسيح غريب عن هذه الملحمة، وأنــه أدخله إليها لأنه لم يجــد تلك الشخصية المجسدة لقيادة الثــورة. إذ كتب في يومياته يقول: «ليست القضية في أن الجنــود الحمر «غير جديريــن» بالمسيح، الذي يسير في مقدمتهم، بل أنه هو بالذات من يرافقهم، وكان ينبغي أن يسير معهم إنسان آخر»(٩).

وعلى الرغم من ذلك فقد شكلت هذه الملحمة خطوة مهمّة في تقرب بلوك من معسكر الأدباء، الموالين للثورة، ولم يخف الشاعر اعتزازه بهذه الملحمة، وعدّها من أفضل ما كتب.

أما ملحمته الثانية والأخيرة «السقيتيون» فهي مفعمة بالفخر والاعتزاز بوطنه روسيا، وبجذورها الآسيوية، ويضعها في مواجهة الغرب وثقافته الآفلة، يقول مخاطباً الغرب:

عددكم بالملايين وعددنا لا يحصى لا يحصى.

جربوا أن تنازلونا.

نحن سقيتيون - أجل.

نحن آسيويون - أجل.

بعيون حولاء نهمة

وما تنجزونه في قرون ننجزه في ساعة

السنوات الأخيرة من حياته يعيد بلوك النظر في عدد من أفكاره الجمالية، ويتحرر من ربقة الطروحات الجامدة البالية، بما فيها مبدأ الفن اللامنتمي، أي الفن غير المسيَّس. فقد كتب في يومياته عام (١٩١٩م) يقول: «البعد عن السياسة؟ كيف يمكن هذا؟ هذا يعني الخوف من السياسة، والاختباء منها، والتقوقع على الفردانية». كل ذلك جعله يتبوأ مكاناً بارزاً في تاريخ الأدب الروسي في القرن العشرين، ويترك بصمات بارزة في إبداع كثير من الشعراء السوفييت، ولكن للأسف أنه لم يعمر طويلاً. يقول سولومون فولكوف: «تدهشك الصورة، التي رسمها بلوك في رسائله ومذكراته ويومياته، صورة شهيد الفن، الذي يحرق نفسه على نار الحياة، في سبيل انتصار القيم الثقافية السامية، وليس مهماً أن بلوك يبدو في ذكريات معاصريه سكيراً فاجراً. مشوهاً حياة زوجته، معادياً للسامية... ولم تستطع النيل من شهرته حملات النقد والتجريح، التي شنها عليه أعداؤه...»[١٠] عانى بلوك من الحرمان المادي بعد الثورة وخلال الحرب الأهلية، التي أعقبتها، ومات عام (١٩٢١م) بمرض ناجم عن الحرمان[١١].

الهوامش

(١)- في الأدب السوفييتي، جلال فاروق الشريف، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣م، ص٤٣ - ٤٤.

(٢)- تاريخ الأدب الروسي، تحرير: تشارلز موزر، ترجمة: د. شوكت يوسف. وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١١م، ص٤٨٤.

(٣)- الأدب الروسي في القرن العشرين، ي. روغفير، سانت بطرسبورغ- موسكو ٢٠٠٨م، ص٥١.

(٤)- ألكسندر بلوك، م. بيكتوفا، موسكو ١٩٣٠م، ص٩٤.

(٥)- الأدب الروسي في القرن العشرين/ قبل ثورة أكتوبر، موسكو. ١٩٦٤م، ص٤٦٠.

(٦)- الأدب الروسي... مصدر سابق، ص٥٨٠.

(٧)- ألكسندر بلوك، الأعمال الكاملة، موسكو، ١٩٥٥م، المجلد١٠، ص١٣١.

(٨)- الأدب الروسي، مصدر سابق، ص٤٦٥.

(٩)- ألكسندر بلوك، ١٩٥٥م، المجلد الأول، ص٧٧٣.

(١٠)- تاريخ الثقافة الروسية في القرن العشرين، سولومون فولكوف، ص٤٤.

(١١)- تاريخ الأدب الروسي، مصدر سابق، ص٤٨٧.

الجيو- اتصالية: منظار آخر لصراعات المنطقة

حسام مطر*

يشهد العالم سباقاً محموماً على إنشاء بنى تحتية عابرة للدول والتي تشمل خطوط سكك حديد وطرقات سريعة وشبكات اتصال وإنترنت وخطوط أنابيب لنقل النفط والغاز وخطوط لنقل الطاقة الكهربائية. إن حيازة الدولة لموقع وحصة في هذه الشبكات تتيح لها جذب الإيرادات والاستثمارات والموارد وخلق فرص اقتصادية وتعميق النفوذ السياسي الخارجي. اليوم يعاد تأسيس السياسة الخارجية للدول بما يتناسب مع الاستفادة من هذه الشبكات التي أصبحت مدخلاً مهماً في التحالفات والصراعات الدولية بما فيها تلك التي تجري في منطقتنا.

الجغرافية الوظيفية أم السياسية؟

يحاجج الخبير الأمريكي من أصل هندي في العلاقات الدولية، باراغ خانا، في كتابه «الجيو - اتصالية: رسم خرائط مستقبل الحضارة العالمية» (٢٠١٦م)، بأنَّ هذه البنى التحتية العابرة للحدود السياسية والجغرافية هي التي تنظّم العالم، فالعالم الواقعي مؤلف من هذه «الروابط الوظيفية». الحدود تخبرنا عن الجغرافيا السياسية، أما البنى التحتية فتخبرنا من متصل بمن عبر «الجغرافية الوظيفية» التي تصبح أهم من الجغرافيا السياسية.

قد يكون الصهاينة من أكثر المدركين في منطقتنا لهذه المسألة. في كل مرة تظهر خطط ومشاريع «سلام» لإنهاء «الصراع العربي الإسرائيلي»، يسارع الصهاينة مباشرة للحديث عن الاندماج الاقتصادي

* كاتب لبناني.

- نُشر المقال في جريدة الأخبار، ١٤ آب، ٢٠١٨م، واختارته المجلة لأهميته ومناسبته لمحور العدد.

الإقليمـــي الذي من شأنه تحويل «إسرائيـــل» إلى وجود طبيعي داخل المنطقة، بل يمنحها دوراً ريادياً، وهذا ما كان جوهر مشروع شمعون بيريز عام (١٩٩٦م) في كتابه «الشرق الأوسط الجديد».

بالمحصلــة يرى «خانا» أن «الجيو-اتصالية» تغيّر إدراكنا لما يشكّل «الأقاليم الطبيعية»، فتصبح سلاســل التوريد والاتصالية لا السيادة والحدود هما المبدآن الناظمان للإنسانية في القرن الحادي والعشريــن. من ميزة هذه الشبــكات هي ما تمثله من مصالح هائلــة مستدامة من الصعب تفكيكها نظــراً لما يبذل فيها من موارد واستثمارات. يضـــاف إلى ذلك أن هذه البنى التحتية العابرة للحدود لديهـــا شرعيـــة لأنّها حظيت بالموافقة الثنائية وبُنيت بما يجعلها أكثـــر حقيقية فيزيائياً من القانون والدبلوماسيـــة، يقول «خانا» في ظل التحولات الحالية لتصفيـــة القضية الفلسطينية عبر ما يُسمى «صفقة القرن» والجهود الممنهجة لدفع التطبيع العربي مع الكيان الصهيوني إلى مستوى غير مسبوق، ســـارع رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو ووزير المواصلات يسرائيل كاتس للمصادقة على مشـــروع «قضبان السلام» لإيجاد خط سكة حديد تجـــاري من البحر المتوسط وصولاً إلى السعودية مـــروراً بالحدود الأردنية ومدينة جنين شمال الضفة الغربية. بوضوح قالتها المحللة السياسية للقناة الإسرائيلية ١٢، دانة فايس، إنَّ هذا المشروع ينضم إلى جهود أمريكية للوصل بين «إسرائيل» والدول المعتدلــة في المنطقة لمواجهة التهديد الإيراني، إذ إنّه يهدف إلى ربط الشرق الأوسط بالعالم وإنّه سيغير وجه الشرق الأوسط.

يكمل «خانـــا» تحليله بتقصّي التحولات فـــي مفهوم وعناصر القـــوة والجيوبولتيك، فعندما نرسم «الجغرافيـــا الوظيفية» فنحن واقعاً نضع خرائط الروابط (لا الحدود) التي تجري من خلالها ممارسة القوة وممارسة النفوذ. القوة الأكثر اتصالية وسيطرة على خطوط النقل والتجارة والبنى التحتية العابرة للـــدول هي الأكثر نفوذاً في النظام الدولي لا تلك التي تحتـــل الأرض كما في الجيوبولتيك التقليدية. ومن ثمَّ إن أي قوة لن تصبح قوة عسكرية كبرى إلا بعد أن تصبح قوة كبرى في سلاسل التوريد، فتوازن الابتـــكار يقود توازن القوى وليس العكس. وهذا ما يسميـــه الكاتب «جيوبولتيك سلاسل التوريد» حيث السيطرة على هذه السلاسل أهم بما لا يقاس من السيطرة على مسارح المعارك التقليدية.

علـــى الرغم من السيطـــرة العسكريـــة الإسرائيلية الفائقـــة وإخضاعها للنظـــام الأردني والسلطة الفلسطينيـــة، إلا أن حكومة كيان الاحتلال لم تجد ذلك كافيـــاً. فبعد تمهيد بدأ منذ توقيع اتفاق وادي عربـــة (١٩٩٤م) وقّعت تل أبيب وعمان والسلطة الفلسطينية عام (٢٠٠٥م) اتفاقية لشق «قناة البحرين» برعاية أمريكية لنقل المياه من البحر الأحمر إلى البحر الميت لدرء الجفاف عنه ولإقامة محطة لتحلية المياه تغذي الأطراف الثلاثة. وفي تموز (٢٠١٧م) بدأ المشروع حيّز التنفيذ. بالنتيجة ربطت «إسرائيل» الأمن المائي للأردنيين والفلسطينيين بمشروع القناة المائية، حيث إنّها الأقدر على التمويل والتشغيل.

شد حبل سلاسل التوريد

يشبّـه «خانا» منافسات العالم المعاصر بمنافســة شد الحبل، اللعبة غير القتالية الأكثر وحشيةً، حيـث أغلب المجتمعات ليست فــي حال حرب، لكنها جميعها خاضعة للعبــة شد حبل عالمية. في هــذه اللعبة تأتي الجغرافيا السياسية والجغرافيا الاقتصادية معاً، حيث الحرب تزداد حول «سلاسل التوريد»، أي ليست حروباً لأجل حيز جغرافي بل على مسارات جريان الأموال والموارد والتكنولوجيا والبضائع والمواهب والمعرفة. كل طرف يريد شد «سلسلة التوريد في اتجاهه، ويصبح المنتج الأكبر للموارد والبضائع ويكسب القيمة الأكبر من التبادلات».

فــي ظل توتر العلاقات المصرية والإسرائيلية مع تركيــا، انطلق العمل منذ عام (٢٠١٤م) لعقد اتفاقيــة غاز مصرية - إسرائيلية. بحلــول عام (٢٠١٥م) أغلقت مصــر منشأتَي تسييل الغاز وخط الأنابيــب إلى «إسرائيل» بعدما تعرّضتا إلى هجمات عدة. فــي حين أن مجموعة «تمار» الإسرائيلية بــدأت منذ عــام (٢٠١٤م) بالتفاوض على إبرام صفقة غاز مع عملاء من القطاع الخاص في مصر. وفــي تموز (٢٠١٧م) أقر البرلمان المصري مشروع قانون لتنظيــم سوق الغاز والذي سمح لشركات القطــاع الخاص الدخول في تجــارة وتداول واستيراد الغاز الطبيعــي. وبعدها في شباط (٢٠١٨م) أعلنــت إسرائيل توقيع شركة «ديليــك» الإسرائيلية اتفاقية ملزمة لتصدير (٦٤) مليار متر مكعب من الغاز (حقل تمار) إلى مصر، بقيمة (١٥) مليار دولار مدّة (١٠) سنوات. جرى تظهير الصفقة على أنها مرتبطة بالقطاع الخاص ولا علاقة لها بالدولة المصرية. وسوّغت الصفقة بأنها ستحوّل مصر إلى مركز إقليمي للطاقة يشمل استقبال الغاز من دول عدة في شرق البحر المتوسط، ومنها إسرائيل وقبرص، إذ يجري تسييله وتصديره إلى أوروبا بما يحد من طموحات تركية لأداء هذا الدور. وصف نتنياهو الاتفاقية يومها بأنها تاريخية ويوم عيد.

يعتقــد «خانا» أن الاتصالية هي قــوة أكبر من كل الأيديولوجيات السياسيــة في العالم وتتوافق هذه الحالة مع قوله: «نحن في عالم لم يعد أحد يريد أن يؤسس مستعمرات بل يريد أن يكون محور الشبــكات». لذا الهدف الإستراتيجي في عالم سلاسل التوريد ليس السيطرة وما تجره من التزامات وأعباء بل التأثير وما يولده من قيمة. قد يكون طريق الحرير الجديد أو «مبادرة حزام واحد - طريق واحــد» الصينية التي يسميهــا «خانا» النموذج الصيني للعولمة من أبــرز الشواهد على هذا الشكل الجديــد من «الغزو». تستأجر الصيــن مساحات زراعية شاسعة في فييتنام وإفريقيا وتستثمر مناجم منغوليا وتخطط لاستئجار ميناء جوادر الباكستاني المطل على بحر العرب، كل هذا التوسع من دون طلقة واحدة.

إعادة تعريف الهويات والانتماءات

تتجاوز تأثيرات هذه البنى والمسارات التي تشبك الدولة بمحيطها الإقليمي والعالمي الأبعاد المادية إلى التأثير في إعادة تشكيل الهويات والانتماءات. المصالح والاتصال الدائم بين المجتمعات والأفراد لا بد أن يعيد تشكيل رؤيتهم لأنفسهم وهوياتهم وولاءاتهم، وهذا بطبيعة الحال لا يجري بطريقة متماثلة ومتوازنة. شعور المجتمعات المتباعدة بالانتماء إلى قضية أو ثقافة واحدة لا يضمن تحالفات مستدامة، لأن المجتمعات لا تبني انتماءاتها بطريقة محايدة بل تعيد تعريفها وفق مصالحها والتأثيرات التي تتلقاها. وهكذا، يرى «خانا»، أن الأفراد الذين ينتمون إلى واحدة من هذه الشبكات الوظيفية هم أكثر شبهاً بنمط الحياة من مواطنيهم في الريف المجاور، والمدن الكبرى أصبحت تنتمي إلى سلاسل التوريد العالمية بقدر انتمائها إلى الدولة الأم. المفارقة التي لم يلتفت إليها «خانا» بخصوص هذه النقطة أن هذا الأمر سيُنتج نزعات لا مركزية بأشكالها المختلفة داخل الدولة بين المراكز التي استفادت من الشبكات وتلك التي تهمشت بسببها ويُنتج أشكالاً من الشعبوية والتمرد.

تستند مقاربة «خانا» على الرؤية الليبرالية للعالم التي ترى في التشبيك الاقتصادي والاعتماد المتبادل وتدفق المنتجات المادية والثقافية وسائل قادرة على بث القيم الليبرالية في أرجاء المعمورة. بهذا المعنى يعتقد «خانا» أن الاتصالية هي قوة أكبر من كل الأيديولوجيات السياسية في العالم مجتمعة، مستشهداً أن دينغ فكَّك الثورة الثقافية من خلال ربط الصين بالاقتصاد العالمي.

يبالغ «خانا» في وضع الأيديولوجيا في مواجهة الاتصالية وفي منح الثانية كل هذا التأثير الحاسم، وهو ما يجعله عاجزاً عن تفسير صعود الشعبوية وسياسات الهوية في الولايات المتحدة وأوروبا على الرغم من أنها قوى تقع في قلب العالم وفي محور شبكات الاتصالية.

يحاجج «خانا» بأن التبادلية الناتجة عن الجيو- اتصالية تكبح الحمائية والحصرية الاقتصادية والوطنية، إذ كل طرف ضمن سلسلة التوريد التي تجري عبرها (٨٠٪) من التجارة العالمية قادر على الرد على خطوات الطرف الآخر، أي الحمائية. ما يعزز هذه الاتصالية ويقيد جدوى الحمائية هي أن التجارة بشكل متزايد تعمل من خلال الموجات الرقمية وليس المحيطات، فالخدمات (تأمين، البنوك، المحاسبة، التصميم، الاستشارة، البرمجة، الصحة والتعليم والعقود القانونية) اليوم توازي (٦٠٪) من قيمة التجارة الدولية.

إلا أن اندماج دولة ما في هذه الشبكات لا يعني البتة أن العوائد المادية الناتجة ستتوزع بشكل عادل داخل المجتمع، بل يُستحوذ عليها من المراكز الاقتصادية والمالية القائمة سلفاً والتي تمتص أي نمو وتزيد من حدة التباينات. وبمنطق «خانا» نفسه الذي يرى أنه «عندما توفّر المواطنة القومية منافع أقل، تصبح مواطنة سلاسل التوريد أكثر أهمية بكثير»، يمكن قول العكس تماماً. إضافة إلى

ذلك إن الوجود على خطوط تلك الشبكات يعكس ميزان القوى بين الدول ومن ثمَّ هذا الحضور ليس متوازناً ومتساوياً بل يعاني من علاقات استغلال وتبعية. نتيجة كل ذلك، ستنشأ كتل اجتماعية تفضل خيـــار الانفكاك ولأنها في موقـــع أضعف مادياً فإنها تعوض عن ذلك باللجـــوء إلى «ترسانة» ثقافية وأيديولوجية، وربما العنف.

انعكس «الموقف الرومانسي» لـ«خانا» حـــول الشبكات والاتصالية على التشكيك بصلابة الحدود السياسية للدول. ففي أثناء أعمال القمة العالمية للحكومات في شباط (٢٠١٧م)، رأى «خانا» أن القرن الحـــادي والعشريـــن قد يشهد منعطفاً مصيرياً، عندما تبادر دول العالـــم إلى إزالة الحدود السياسية - التي تصبح سائلة- من أجل الاندماج الاقتصادي، حيث سيحل الترابط مكان السيادة ليكون المبدأ الناظـــم للنظـــام العالمي الجديد. وقد بلغت به الحال أن يقول فـــي محاضرة على قناة «تيد» أن ربط الضفـــة الغربية وغزة من شأنـــه أن يجلب السلام إلى الصراع في فلسطيـــن. في حين تشهد الوقائع حـــول العالم صعوداً ملحوظاً للصراعات الحدودية كما في حالة روسيا وأوكرانيا وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي وتوترات بحر الصين الجنوبي وحتى في المشرق العربي كان التمسك بشرعية حدود «سايكس بيكو» جزءاً من مواجهة «داعش». هذه المسألة دفعت دانيال دريزنر (أستاذ العلاقات الدولية في معهد فليتشر) للقول في صحيفة «نيويورك تايمز» إنه يخشى أن «خانا» لا يعلم عمّا يتكلم.

تشوّه آخر يصيب عمل هذه الشبكات من البنى التحتية الاتصالية العابرة للحدود يتمثل في سيطرة المصالـــح الخاصة عليها، مع الاتجـــاه العالمي إلى خصخصة هذه البنى من باب تقليص الإنفاق العام. يشير «خانا» إلى أن شركات الاتصالات أنفقت تريليونَي دولار على البنى التحتية للاتصالات بين عامي (٢٠٠٩ -٢٠١٤م)، وستنفـــق أربعة تريليونٍ أخرى بحلول عام (٢٠٢٠م) لتحسين قدرة النفاذ إلى شبكات الاتصال حول العالـــم. يحوّل هذا التركّز شركات البنى التحتية للاتصال إلى «إمبراطوريات رقمية»، إذ هناك ثلاثون شركة تقريباً تتحكم بـ(٩٠٪) من الإنترنت حول العالم. هذا الاحتكار من المصالح الخاصة يقلّـــص من مساحات الحرية والديمقراطية التي تصبح مقيدة بجهات وأجهزة غير منتخبة تنظّمها وفق مصالحهـــا. كما يؤدي هذا الأمر إلـــى نوع من الأحادية والسيطرة (كما في قطاع الإنترنت) ولاسيما من برامـــج مراقبة لوكالة الأمـــن القومي الأمريكية، فيصبح الإنترنت مساحـــة جيوبولوتيكية معقدة بشدة، تتزايد فيها مطالب الدول بالسيادة الرقمية إما لحماية خصوصية مواطنيها أو للسيطرة عليهم أكثر.

حالة العالم العربي

يثيـــر «خانا» حالة العالم العربـــي داعياً إلى وجوب استعادة المجـــال العربي خرائطه التاريخية لاتصاله الداخلي. هذه الاتصاليـــة الداخلية، وكما يذكر فيليب مانسل، أدت في حقبة الإمبراطورية العثمانيـــة إلى خلق نظام مضاد للصراع الحضاري، وخلقت سلاماً إقليمياً واسعاً ولاسيما بعد القرن

الثامـن عشر في ظل تحسـن العلاقات مع الإمبراطوريـة الفارسية في ظل معاهـدة أرضروم عام (١٨٤٧م). يدعم «خانا» دعوته بالإشارة إلى أن الميزات الجيولوجية للعالم العربي أكثر أهمية من تلك السياسـة لأنّه يتألف من دول غنية وفقيرة بالمـوارد النفطية، وغنية وفقيرة بالمصادر المائية، ولذا من الأهم للعرب وجيرانهم بناء قنوات مياه وأنابيب للنفط والغاز وسكك حديد أكثر من إقامة نقاط عسكريـة حدودية. وهذا ما سيتيح للعالم العربي أن يشكّل محـور شبكات من التواصل بين القارات الثلاث، آسيا وأوروبا وإفريقيا.

بعد أن شهدت الحقبة العثمانية جملة مشاريع عملاقة للربط البري بالسكك الحديدية مثل سكة الحجاز وسكـة بغداد - إسطنبـول، تتقطع اليوم أوصال العالـم العربي وترتسم حدوده بالـدم والقواعد العسكرية الأجنبيـة. في حين أن العالم اليوم ولاسيّما في آسيا، يسير في مسار معاكس تماماً. فبحسب «إنترناشيونال ريـل واي جورنـال»، المجلة الشهرية التي تغطي منذ عام (١٩٦١م) صناعـة سكك الحديد حول العالم، في العالـم اليـوم (١٥٠٠) مشروع بنى سكك حديد مخططة أو تحت التنفيذ بكلفة (٢,١) تريليون دولار، وبطول (١٤٠,٠٠٠ كلم) (يمكن أن تُمد هذه الخطوط ٣ مرات ونصف المرة حول الكرة الأرضية عند خط الاستواء). حصة دول الدخل المنخفض والمتوسط هي ٨٥٪ من هذه المشاريع، و(٥٠٪) منها في آسيا.

خطر التقسيم الحقيقي للمنطقة لم يعد بخلق دويلات جديدة وإعادة رسم الحدود السياسية

ومـن فئـة «المشاريع تحت التنفيذ» تحوز آسيا ٧٢٪ بطول ٤٧ ألف كلم. لجعل الأرقام ذات معنى قليـلاً، تخيّل مثلاً أن المسافة بين لبنان على شواطئ المتوسط واليمن المطل على المحيط الهندي هـي مـا يقارب (٢٤٠٠ كم). من ناحية أخرى فيما تنفق آسيا (٩٥١) مليار دولار على هذه المشاريع، أنفقت الدول العربية بين عامي (٢٠١٠- ٢٠١٥م) نحو (٨٠٠) مليار دولار على ميزانياتها العسكرية، بحسب صندوق النقد العربي. تقود الصين جهود بناء الشبكات في آسيا، في حين في العالم العربي تقـود دول النفط جهود التفتيت والحرب لحرمان المنطقة وشعوبها من فرص النهوض والاستقلال. الجهـد الأبرز لدول النفط كان بناء أنابيب لضخ النفط والغاز باتجاه بحر العرب مروراً بحضرموت في اليمن وباتجاه البحر الأحمر عبر السعودية وذلك بهدف حرمان إيران من القدرة على قطع تدفق النفط من مضيق هرمز حين تدعو الحاجة.

منذ الاجتياح الأمريكي للعراق وحتى مرحلة «داعش» وما بعدها، يكرر الأمريكيون فكرة إقامة كيان سياسـي في غرب العراق يكـون بمنزلة منطقة عازلة في قلب محور المقاومـة لقطع التواصل البري بيـن إيران والعراق من جهة، وسورية ولبنـان وفلسطين من جهة أخرى. إلا أن خطر التقسيم الحقيقي للمنطقة لم يعد بخلق دويلات جديدة وإعادة رسم الحدود السياسية بل بإقامة هذه «الروابط الوظيفية»

التي تستلحق كل من يقبل بمشروع الاحتلال والهيمنة وبعزل الآخرين عنها ومنعهم من بناء إقامة روابط وظيفيـــة خاصة بهم. فتصبح هذه الخطوط الجيــو - اتصالية أداة تقسيم وأداة استتباع، تقسيم أعداء المشروع الإسرائيلي - الأميركي، واستتباع الخاضعين.

تتجــاوز الفكرة الأمريكية في إقامة مناطق عازلة بيــن دول محور المقاومة هدف قطع خطوط الإمداد العسكري واللوجستي، فطوال مدّة حكم نظام صدام حسين كانت طهران تمد قوى المقاومة في المشــرق العربي بترسانة تسليحية هائلة من دون المرور بالبر العراقي. يدرك الأمريكيون وحلفاؤهم الإقليميون أن بناء شبكات للاتصال والتواصل بين شعوب هذه المنطقة سيعزز من المصالح المتبادلة ومن الإحساس بالهوية المشتركة ومن ثمَّ يعظّم الإيمان بالمقاومة ومضامينها وكذلك الفهم المشترك للقضايــا والتحديات والأدوار، وكذلك يوسّع دائرة الكتــل الاجتماعية التي تنتسب إلى هذا المشروع داخل كل دولة.

يــرى «خانــا» أنَّ هذا زمــن «تحالفات البنى التحتيــة» حيث قوة الروابط تقاس برسم خرائط الاتصاليــة بين مجموعة الدول وحجم التدفقات على هذه الخطوط، في المحصلة لا يتصل الأفراد بعضهم ببعض بوساطة السياسة بل بوساطة السوق والإعلام.

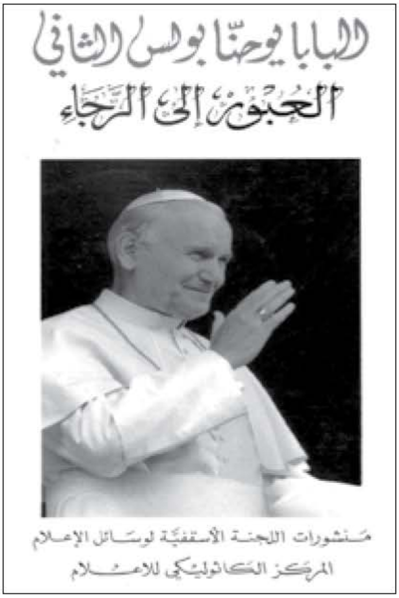
الفكــرة الأيديولوجيــة بحاجة إلى رافعة ماديــة تقدم للناس منافع وعوائــد ملموسة ومستدامة تزيــد من قدرتهم على المواجهة واحتمال المخاطر والتكاليــف. الأيديولوجيا كافية لـ«الخاصّة» من المواليــن للقضية التي يرونها فوق وجودهم، إلا أن ذلك لم يكن يوماً حال الأغلبية من «العامّة». في حزيران الماضي، وخلال زيارة مسؤول إيراني رفيع إلى دمشق جرى الحديث عن مشروع اتفاق تجاري إستراتيجــي بين إيــران والعراق وسورية يشمل إنشاء خط سكة حديــد. إقامة هذه المشروعات بين قوى محور المقاومة سيضمن تثبيتــاً مستداماً للمنجزات العسكرية ويمنحها بعداً ثقافياً واجتماعياً واقتصاديــاً. وهذه المشروعات ينبغي أن يشترك الناس العاديون في تمويلها والاستثمار بها وإدارتها والإشــراف عليها. على الرغم من الشوائب فــي مقاربة «خانا» إلا أن فكرة «الجيو- اتصالية» تصبح مدخلاً أساسياً في تحديد المنتصرين في صراعات المنطقة.

❁ ❁ ❁

«عبور عتبة الرجاء المأمول»
للبابا الراحل يوحنا بولس الثاني

إبراهيم سلوم

ما زال الكتاب الذي أصدره البابا الراحل يوحنا بولس الثاني (١٩٢٠-٢٠٠٥م) في عام (١٩٩٣م) باللغة الإيطالية بعنوان: «عبور عتبة الرجاء المأمول» يلقى رواجاً واسعاً في معظم دول العالم ولاسيّما في دول الغرب والولايات المتحدة الأمريكية، ولقد بيعت في مدينة ميلانو الإيطالية وحدها زهاء ٣٠٠ ألف نسخة منذ الأسابيع الأولى التي تلت صدور الكتاب، ومن ثم وُضِع قيد البيع خلف واجهات المكتبات الإيطالية. ومع صدور الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب فستكون مبيعاته قد زادت على ٢٠ مليون نسخة في ٣٥ بلداً وبمعظم لغات العالم. ومؤخراً قامت دار النشر الأمريكية «جوناثان كيب» بترجمته إلى اللغة الإنكليزية، مما درّ عليها مردوداً مالياً قُدّر بـ٩ ملايين دولار.



والجديـــر بالذكـــر أن البابا كان قد ألَّف كتابه هذا دفعةً واحـــدة وبكل نشاط وعفوية إذ عالج فيه مسائـــل اجتماعية كثيرة: كالطلاق، والشذوذ الجنسي، ومشاكل البيئة، وتزايد عدد الســـكان فوق كوكبنا الأرضي. ولما كان يعي جيـــداً عدم كفاية الوسائل التي يمتلكها من أجل إحيـــاء الرجاء في قلوب أبناء البشر فهو يحاول بأساليب شتى أن يعلن للناس البشرى السارة، وأن يؤكد للجميع أن الرجاء قائم ومتوافر لدى كل الذين يرغبون في الحصول عليه، ملخصاً ذلـــك بهذه العبارة التـــي أوردها في كتابه ومفادها: «اعلمْ جيداً، أيهـــا الإنسان أياً كنت، أنّك محبـــوب مـــن الله خالقك، وتذكّر أن الله محبة قبل كل شيء، وهـــو الرجاء المأمول في هذه الدنيـــا وفي الآخرة وأن العناية الإلهية هي التي تسدد خطـــاك باتجاه هذا الرجاء المأمول. وعليـــك ألا تنسى أنَّ هذه الحياة المادية - وإن كانـــت فانية- فستبقى لها دوماً قيمة خالدة، وهي أمور يدركها العقل البشري منذ بلوغ الإنسان سن النضج، لأن العقل بما هو عليه مفطور علـــى معرفة الله والوصول إليها من دون أن نجبره علـــى البحث والتفكير بذلك فهي معرفة تختلف عن كل أنواع المعارف الحسية والعملية والتجريبية».

وهنا يقف البابا في كتابه ضد أتباع المدرسة العقلانية الذين كانوا يعدّون أنَّ الله لا يمكن معرفتـــه إلا من خلال تسخير العقل للتفكير به، ويخص بالذكـــر الفيلسوف الفرنسي الشهير رينيه ديكارت (١٥٩٠-١٦٥٠م)، ونظيره الفيلسوف الاجتماعي الألماني كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) واضع دستور الماركسية والنظام الشيوعي في العالم الذي كان يعدُّ «أن الدين من صنع الطبقـــات الحاكمـــة تستعين به كأداة قمع أيديولوجية في وجـــه الطبقات الفقيرة والمحكومة لتبقـــى تحت هيمنتها وسيطرتها». وأيضاً الفيلسوف الألماني لودفيغ فيورباخ (١٨٠٤-١٨٧٢م) الـــذي ألف كتاباً بعنوان: «جوهر المسيحية»، وفيه يعـــدُّ «أن نشوء الدين يعود إلى سبب واحد ألا وهو حيرة الإنسان أمام ظواهر الكون، لكنّ بفضل ما يمتلكه الإنسان من عقل فقد استطاع علـــى مدى عقـــود طويلة إدراك هذه الظواهر التي أوصلته إلى ما نسميه اليوم بالخالق، وعلى ضوء ذلك فإن الله يأتي في هذا السياق وكأنه من صنع الإنسان، إنه شيء أرضي، وقد تتطابق صورته مع ما ورد في كتاب التوراة حين ذكر أنَّ الله عندما خلق آدم جعله على صورته ومثاله، وعلـــى هذا النحو فإن الإنسان عندما يتحـــدث عن الله فكأنما لا يتحدث إلا عن نفسه بمعنى أن عبادة الله تعتمد على عبادة الإنسان نفسه فحسب». ثم يأتي الفيلسوف الألماني «عمانوئيل كانط» ليقدّم البرهان على أن العقل يغلق الطريق أمام كل ميتافيزيقيا. ومع إسبينوزا وديكارت نلاحـــظ انتصـــار الحركة العقلانية. واللافت للنظر أن أتباع هـــذه الحركة يعدُّون أن الأنبياء

ليسوا وحدهم رسل السلام والخير والتنوير، فهناك كثيرٌ من رجال الفكر الذين لم يقفوا على جبل ولم ينزل عليهم الوحي لكنهم آمنوا بالإنسان قيمةً مطلقة وتعاملوا معه على هذا الأساس. كما تعاملوا مع العقل البشري محرّكاً للحياة ومنقذاً للبشرية بفضل إنجازاته العلمية، والدنيا تتسع للجميع، والحياة حق مشترك وحرية العمل والحركة والفكر حقوق مشتركة لكل الناس. وتميزوا بنصرتهم للعقل وجاهدوا لتحريره من سلطان الاستبداد وظلم الجهل الذي كان يجسده ملوك أوروبا ومعهم طبقة الأكليروس. بفضل هذا العقل أصبح الإنسان المالك الحقيقي للكون والطبيعة عن طريق معرفة قوانينها بحسب وجهة نظرهم.

وعلى هذا الصعيد ينتقد البابا أتباع المدرسة العقلانية الذين كانوا يعملون بأفكارهم وفلسفتهم كالمعاول الهدامة للمفاهيم المسيحية مركِّزاً اهتمامه بشكل خاص على الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت بوصفه أحد رواد الحركة العقلانية التي شهدتها أوروبا في القرن السابع عشر، والذي تقوم فلسفته على التحرر من الفلسفة التقليدية المدرسية واعتماد طريق الشك المنهجي وتحديد منطق الرأي الواضح الصريح والمبني على الحدس والاستنتاج. ومن المعلوم أن ديكارت كان يتجه إلى الشك في كل أشكال المعرفة حتى يصل إلى اليقين، وكان يعتقد أنه طالما هو يفكر فهو إذن موجود، من هنا استخلص المبدأ الشهير الذي يقول: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، فالله موجود أيضاً. «وبحسب رأي ديكارت» أن محاولة التعرف على ماهية الله وخصوصيتها من الأمور المستحيلة التي يصعب على العقل إدراكها نظراً لأن الخالق لا يخضع لأي ضرورة، ولاسيما أن الحقائق الضرورية لدى العقل البشري ليست ضرورية عند الله».

وضمن هذا السياق تأتي إدانة البابا أولاً لفلسفة ديكارت «لأنَّها بمنزلة ميلاد لفلسفة الشك وذلك حين أعطى ديكارت للعقل مجاله الواسع في التفسير والتأويل. ما من شك في أن العقل البشري ريَّاب، وهذا كل ما يقدر عليه، وعلى ضوء ذلك لا يمكن من خلاله العبور إلى عتبة الرجاء المأمول، وما منهج ديكارت إلا إستراتيجية تفكك كل المعتقدات. إنه النفي المطلق الذي يلقي بنار الشك على كل المسلمات ليحدث زعزعة في القيم الثانية. فالقوى المعرفية للإنسان مكونة من أجل الاقتناع بوجود الذات الإلهية من دون أن نجبر العقل على التفكير بذلك وننهك قواه كما كان يعتقد ديكارت، حتى لو لم يكن هناك أنبياء لهداية البشر فذلك لن يؤثر فيهم حيال معرفتهم لله وإرادته. فمعرفة الله ضرورية لأنها نابعة من التكوين الإلهي لبنية العقل الإنساني الذي يفرزه الدماغ البشري، فالله والطبيعة شيء واحد لأن الله يملأ هذا الكون من ذرة المادة الصغيرة الموجودة على الأرض وحتى طبقة السماء الزرقاء الواسعة.

ومــا الكون المادي والإنسان سوى مظاهر للذات الإلهية. ثمة مقاربة بين الفلسفة والدين لأنه بوساطة العقل السليم يمكن أن نبرهن على وجود الله وصفاته ونصل إلى المعرفة الحقيقية له من دون أن نبذل أي جهد فكري قد يتعب عقولنا، ولاسيما أن نظام الكون وتنظيم شؤون الخلق يستدعــي وجود الله. والله هو ما يحتاج إليــه الإنسان مثل حاجته إلى الماء والهواء والطعام، تلك الأمور التي لا يستطيع العيش من دونها، وهنا جاء فكر ديكارت ناقصاً وغير مكتمل».

وفي فصول أخرى يعالج البابا قضية وجود الله وحقيقة الإيمان وموقف الديانة المسيحية ولاسيّمــا المذهب الكاثوليكي من بعض الأمور المتعلقة بالأديان الأخرى إلى جانب تطرّقه إلى قضايا معاصرة كانهيار الشيوعية. كما أنه يخاطب أتباع الديانات السماوية الأخرى من مسلمين ويهــود وبروتستانت، وتتسع دعوته لتشمل حتى أولئــك الذين ليس لهم معتقدات دينية سماوية كالبوذيين وغيرهم. وحيال هذه القضايا كلها يؤكد البابا أهمية العناية الإلهية التي تمثل جميع أبناء البشر، فهو يعلم أن النفس البشرية تبحث دوماً عن البراهين حول جوهر الله وهو يكرس لذلــك صفحات مكثفة ليثبت حقيقة هدف الرجاء عنده من خلال وجود «عالم آخر يتلقى فيه كل إنســان ما يستحق وينال الحياة الأبدية بكل كمالها شريطة أن يرغب فيها وهو يعيش حياته علــى الأرض بقوله: ومهما كانت التجارب التي نمرّ بها مريرة وتحاصر حياتنا فعلينا ألا يعتري نفوسنــا اليأس بل أن نبقى نعيشــ بالأمل والرجاء مهما طال انتظارنا لذلك، وهذان الأمران لا يمكــن الحصول عليهما إلا بالإيمان. وهذا الإيمان هو طاقــة قلبية نورانية تولدها نعمة إلهية تفوق العقل في قدرتها الشعورية على اكتشاف الحقائق الغيبية. لقد أثبتَ الفلاسفة العقلانيون عجزهــم عــن إراحة النفوس لعدِّهم فكــر الله افتراضاً لا يمكن إثباتــه أو التحقق منه لكنهم أخطــؤوا بذلك، وما يفســر ذلك الخطأ هو عودة البشر مؤخراً إلــى الله واستشعارهم بأهمية الإيمان به. لقد سقط مشروع الفلاسفة التنويريين مؤخراً فتوجه الناس نحو الإيمان به ليسيروا فــي طريق أناره هذا الإيمان بعد أن أبقته الفلسفة في ظلماته. فالإيمان حكمة يعيشها المؤمن ويختبرهــا في هذه الليالي المظلمة التي تهدد إيماننــا المتأرجح أحياناً. من هنا يأتي الإيمان وحيــاة الإنسان وأعماله لتكون كلهــا الضمانة لذلك الرجاء المأمــول. ولسوء الحظ ظل هذا الإيمــان بما له من يقين بالخالق يعيش منذ عصر النهضة أزمات تهدده وذلك في مجتمعات لا ترى فيه إلا مجالاً للتعصب المذهبي وإنكار الآخر الذي لا يعتقد بالعقيدة الدينية نفسها».

وهنا نقرأ في الكتاب عدة فصول تتحدث عن هذا الجانب الذي يسيء إلى جوهر الأديان، وعــن التجارب التي اجتازها البابا خلال مسيرته الدنيوية والدينية على دروب كانت مفروشة

تارةً بالورود، وطوراً بالأشواك لكنه خرج منها منتصراً يستشفُّ منها الرجاء. ومن المعلوم أن البابـا يوحنا بولس الثاني الذي أخذ اسـم «كارول فوجيلا» ولد في عام (١٩٢٠م) في مدينة كراكـوف ببولونيا حيـث تلقى تعليمه في مدارسها الابتدائيـة والثانوية، ثم تحول إلى إحدى المدارسـ الإكليريكية في هـذه المدينة ليصبح كاهناً في عام (١٩٤٥م)، لكنه سرعان ما بدأ يتـدرج في سلم المراتـب الدينية إلى أن بلغ مرتبة رئيس أساقفة كراكوف في عام (١٩٦٤م). وبعد انقضاء (١٤) عاماً على ذلك عُيّن بابا في حاضرة الفاتيكان في أيلول من عام (١٩٧٨م) خلفاً للبابا يوحنا بولس الأول الذي توفي بعد (٣٣) يوماً على تعيينه في هذا المنصب الكهنوتي فـي (٢٣ آب) مـن العام نفسه. وضمن هذا السياق اتخذ اسم يوحنا بولس الثاني خلفاً لسلفه يوحنا بولس الأول، مع الإشارة إلى أن هذا الأخير الذي كان يحمل اسم البينو لوسياني اعتمد اسـم يوحنا بولسـ الأول. إلا أنه لم يبق سوى بضعة أسابيع في حاضرة الفاتيكان حيث توفي وهـو نائم على فراش البابوية. إثر ذلك تحدثت بعض الأوساط الإعلامية في أوروبا وغيرها عـن سبب موته الذي قد يكون محاولته الانخراط فـي التحقيق بفضيحة شهيرة طالت بنك الفاتيـكان، وما زالت تفاصيلها معقدة لأنَّها تتعلق بترف الكرادلة وعيشهم الرغيد ورفاهيتهم في الحياة. وقد جاءت هذه الوفاة المفاجئة رهاناً على أنه لا يحق لأحد أن يتحدث في مسائل تتعلق بأملاك الكنيسة الكاثوليكية ولا بأموالها، ولئن كان منصب البابا ذا قوة كونية منذ الأزل إلا أنـه لا يحق له أن يمس أملاك الفاتيكان لأن من ينوي فعل ذلك يجب تدميره على الأرض كما في السماء، بحسب ما أوردته بعض وسائط الإعلام وقتذاك.

كذلـك تضمَّن الكتاب مراحل مهمة من طفولته وشبابه في بولونيا وكيف فَقد أمه عندما كانـت تضـع له أختاً ماتت هي أيضاً قبل أن ترى النور، ثم تحدث أيضاً عن وفاة أخيه أدمون فـي عام (١٩٤١م)، وعن مسيرته الذاتية في سلك الكهنوت، وكيف تولى منصب البابوية وهو فـي عمر الـ٥٨ عاماً إذ كان أصغر بابا غير إيطالي في حاضرة الفاتيكان. وأيضاً عن ترحاله وهـو على عرش البابوية إذ أظهر تعلقاً شديداً بالسفر إلى أقاصي المعمورة ليكون قريباً من سـكان هذه الأرض وليظهر محبته للإنسانية جمعاء. وقد كانت بولونيا أول بلد يقوم بزيارته وهـي تحت الحكم الشيوعي، ثم تتالت زياراته إلـى العالم بأسره إذ قطع مسافة تقدر بـ ١،٥ مليـون كم، أي ما يعادل أربعـة أضعاف المسافة التي تفصل بين الأرضـ والقمر، فاستقبل فـي الأماكن العامة أكثر من ١٥ مليون نسمـة، وطوّب (٣٠٠) قديس من بينهم ثلاثةٌ لبنانيون (شربل، الحرديني، رفقة).

تعرض لمحاولتَي اغتيال، الأولى كانت في ١٣ أيار من عام (١٩٨١م) حين قام شاب تركي يدعـى علي آغا بإطلاق النار عليه في ساحة الفاتيكان، وعندما شُفي البابا من جروحه قال: «سأقوم بزيارة قاتلي في السجن وأطلب العفو عنه. وإذا كنت قد شفيت من جروحي فذلك قد تم بفضل «سيدة فاطمة» التي ظهرت لي وقالت: «ستنجو من هذه الحادثة». ومن المعلوم أن فاطمة هـي قرية تقع في البرتغال شمالي العاصمة لشبونة وقد ظهرت فيها السيدة العذراء فـي عام (١٩١٧م) علـى ثلاثة أطفال هم: لوسيا، وبنت عمها جاسينتـا وأخيها فرانسيسكو، الذيـن كانت أعمارهم تتراوح بين ٧ – ١٠ سنوات. كان هؤلاء الصبية في يوم ١٣ أيار من عام (١٩١٧م) يرعون الغنم في سهول هذه القرية التي حملت اسم فاطمة نسبة إلى أميرة أندلسية عربيـة تحمل هذا الاسم، والتي كانت مـن ضمن السبايا اللواتي تمكـن ألفونس الأول ملك إسبانيـا والبرتغال من الحصول عليهن بعـد أن استعاد مدينة سرقسطة الإسبانية من العرب فـي عام (١١١٨م)، فكانت من نصيبـه وتزوَّجها. ومن المعروف عنها أنها كانت أميرة جميلة جداً وذات خلق رفيع، وتتمتع بثقافة واسعة في مجالَي العلوم والآداب وتكتب الشعر، ما جعل أصدقاءهـا يصفونها خلال وجودها في الأندلس بالمكتبة المتنقِّلة. ونظراً لحبه الشديد لها فقد وهبها ملكية عقارية تقدر بآلاف الدونمات من الأراضي الصالحة للزراعة، وتقع بالقرب من لشبونة. ومع مرور السنين أصبحت هذه الملكية نواةً لولادة قرية أخذت اسم فاطمة نسبةً إلـى مالكتها الشرعية. وفي هذه القرية حصلت أعجوبـة حين ظهرت العذراء مريم في يوم ١٣ أيـار من عام (١٩١٧م) على الأطفـال الثلاثة عندما كانوا يرعون الغنم في أحد مراعيها ثـم قامت بتسليمهم ثـلاث رسائل، ويحكى أن هؤلاء الصبية عندما كانوا يرعون الغنم خطف أبصارهـم برق قوي، وسرعان ما ظهـرت لهم صورة امرأة ترتدي ثوباً أبيض يشع وهجاً أكثر من الشمس فـوق إحدى الأشجار، ثم عرّفتهم عن نفسها أنَّها مريم العذراء وبقيت تظهر لهم على مدى ست مرات في اليوم الثالث عشر من كل شهر تلا أيار، وكان آخر ظهور لها في يوم ١٣ من شهر تشرين الأول عام (١٩١٧م) إذ قامت العذراء بتسليمهم ثلاث رسائل. وبالفعل ما إن شفـي البابا واستعاد صحته حتى قام في يوم ١٣ أيـار من عام (١٩٨٢م) بزيارة إلى مزار فاطمـة، وهناك قام كاهن إسباني يدعى خوان فرنانديز بطعنه بالسكين فسقط البابا نصف سقطـة على الأرض وسال الدم من رجلـه، وعندما أُلقي القبض على هذا الكاهن حُكم عليه بالسجن مدّة ٦ أعوام مدعياً أنَّ البابا إنسان شيوعي دخل إلى الكنسية بحجة تخريبها. أُطلق سراح الكاهن في عام (١٩٨٨م) وما زال يعيش في بلجيكا حياة الوحدة والانفراد.

وفيمـــا يتعلق بهؤلاء الأطفال الذين شاهدوا العذراء فقــد توفي فرانسيسكو بعد انقضاء عـــام لإصابته بوباء الإنفلونزا، ثم تلته أخته جانسيتا التي توفيت أيضاً بعد ذلك بعامين جراء هـــذا الوباء الذي اجتاح أوروبا آنذاك، وتسبب في وفاة كثيرٍ من أبنائها. أما لوسيا فقد بقيت على قيد الحياة حتى منتصف التسعينيات من القرن الفائت بعد أن تحولت إلى سلك الرهبنة وأصبحـــت الشاهد الحقيقي على ظهور «سيدة فاطمة»، وعلى امتلاكها الرسائل الثلاثة ذات الطابع التنبؤي التي سلمتها العذراء لها ولأبناء عمها والتي حافظت عليها حتى عام (١٩٥٨م). ففـــي ذلك العام سلمت لوسيا البابا بيوس الثاني عشـــر الرسالة الأولى والثانية. أما الرسالة الثالثـــة فقد فكَّت رموزها في عهد البابا يوحنـــا بولس الثاني في عام (٢٠٠٠م)، وفيها دعوة النـاســـ إلى التوبة والتقوى، وأيضاً رؤيـــة أسقفٍ سوف يسقط أرضاً بعد إصابته بطعنة سكين في إشارة إلى البابا نفسه الذي تعرَّض إلى عملية اغتيال في ١٣ أيار من عام (١٩٨١م). وفي عام (٢٠١٠م) جاء البابـــا بينديكتس السادس عشر الذي اختير لمنصب البابوية خلفاً لسلفه يوحنا بولس الثاني إلى مزار فاطمة بالبرتغال ليؤكد أن الرسالة الثالثة لم تكتمل فصولها بعد لأن البشريـــة ما زالت ترتكب الفظائع والإرهـــاب والقتل، ما يمهد إلى اندلاع حرب كونية ما لـــم يرجع جميع أبناء البشر إلى أحضان الكنيسة. فقد يحدث أن تُقتل شخصية ذات منصب سياســـي مرموق حتى تندلع هذه الحـــرب التي ستدمر كل شيء خلال ٧٥ ساعة وتلحق الفناء بثلـــث البشريـــة بحيث لن يبقى سوى الناس الصالحين، كمـــا أن الأرض ستخرج من محورها بنسبة ٢٠ درجة ثم تعود إلى مركزها الطبيعي ويسود العالم ظلام دامس.

هـــذا وطوال سنوات عمره وحتى خلال وجوده في حاضرة الفاتيكان بين (١٩٧٨- ٢٠٠٥م) حيث وافته المنية في ربيع عام (٢٠٠٥م) بعد أن قضى قرابة ٢٧ عاماً في منصب البابوية في روما، ويعد أطول عهد بابوي في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ظلّ البابا يوحنا بولس الثاني مقتنعاً بأن الآخر ليس هو الجحيم الذي يجب أن أتحاشاه وأنفر منه كما كان يراه الفيلسوف الفرنسي جـــان بول سارتر، بل الوجه الآخر «للأنـــا» الذي يجب أن أحبه، إنه بحق بابا التسامح والوفاق. لقـــد كان يدعو إلى التآخي والوفاق بيـــن جميع الأديان لأنَّها تنهل جميعها من مصدر واحد ألا وهو عبادة الله الواحد خالق السماء والأرض، ويدل على ذلك موافقته على بناء مسجد في روما بعد أن طلب ذلك من محافظ روما وإلى جانبه مركز ثقافي إسلامي مجاناً.

دخـــل إلى الجامع الأموي في عام (٢٠٠١م)، في أثناء زيارته إلى سورية واستقبله الرئيس بشار الأسد. وقبل ذلك زار معبداً يهودياً في روما في عام (١٩٨٦م)، وأصدر في عام (١٩٩٠م)

الرسالة البابوية التي تدين العداء للسامية ولليهود بشكل خاص، إلا أن موقفه بقي ثابتاً حيال الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي الذي سبق وتبناه سلفه البابا بولس السادس الذي زار الأرض المقدسة في عام (١٩٦٤م) وأطلق عبارته الشهيرة من مدينة القدس ومفادها «لا يمكن للأرض المقدسة أن تعيش حالة سلام ما لم يتم إرساء العدالة فيها»، وهنا يشير البابا إلى الشعب الفلسطيني الذي طُرِدَ من أرضه واحتلَّها المستوطنون اليهود القادمون من كل أصقاع الأرض إلى فلسطين. وفي مجال آخر دعا البابا يوحنا بولس الثاني في عام (١٩٨٣م) المسيحيين إلى مشاركة المسلمين في صوم اليوم الأول من رمضان، كما طلب من المسلمين أن يصلوا من أجل إنجاح مؤتمر السينودس الذي عقد في الفاتيكان برئاسته في عام (١٩٩٠م) من أجل دعم لبنان. كما طلب الغفران مِن جميع مَن كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أساءت إليهم سواء أكان من أبنائها الأرثوذكس أم البروتستانت أم الكاثوليك الذين حُكموا ظلماً، وأيضاً من المسيحيين غير الكاثوليك الذين تعرضوا للاضطهاد، وأيضاً من المسلمين بسبب الإساءة التي لحقت بهم جراء الحروب الصليبية في العصور الوسطى.

إن هذا الكتاب يأتي بمنزلة اليد الممدودة للمصالحة عن كل عمل سيِّئ ارتُكِب باسم الكنيسة الكاثوليكية ولطمأنتنا حتى نعيش معاً على اختلاف أدياننا عيشة ممتلئة بالتوافق والمحبة، غير أنه لم يكن ليمر مرور الكرام بل أثار زوبعة من ردود فعل عنيفة في الأوساط الأدبية والفلسفية والدينية بين مؤيد ومعارض.

جاءت ردة الفعل أولاً من وسائط الإعلام في أوروبا إذ كتب الصحفي فيتوريو ميسوري واضع مقدمة الكتاب يقول: «إنه لكتاب مهم، ويجب على كل مَرْءٍ الاحتفاظ بنسخة منه ولاسيّما الكاثوليك الذين يبلغ تعدادهم قرابة ١،٥ مليار في العالم. ما من شك أن كل من يقرأ هذا الكتاب يرى أنَّ البابا يريد أن يعرِّفنا بماهية الله التي هي محبة قبل كل شيء، فهو ليس المهندس العظيم الذي أنشأ هذا الكون البديع، ولا هو العقل الصافي الذي كشفه التفكير الفلسفي لدى الفلاسفة العقلانيين بل هو محبة، مؤكداً أهمية العناية الإلهية التي تمنح الإنسان الإيمان الذي يجب أن يكون قائماً على الرعاية والضبط الأخلاقي. فالله يرعانا ويسهر على راحتنا، وبهذا انتقل الإنسان من ديانة الخوف إذ ابتدع كائنات وهمية أشبه ما تكون بالإنسان لتسيطر علينا فنقدِّم لها القرابين ونقيم لها الشعائر والطقوس إلى ديانة الحب والرعاية والمحبة، فغيّر الإنسان نظرته عن الكائن الإلهي وعدّه أخلاقياً يرعاه ويسهر على راحته، ناهيك عن أن الكتاب مملوء بالمنفعة لمن يقرؤه إذ يريح نفسه ويجلب

لها السكينة ويشجع القارئ على المزيد من التمايز ومن ثم على استخراج العبر من مقدمات إيمانـــه». وهذا الكتاب وثيقة لزمننا الحاضـــر وللتاريخ، وفيه يدوِّن مواعظه ويختار تعابيرها لفظة لفظة، وإنَّ أفكاره تحمل روحه تماماً مثلما جسَّدها في فصول كتابه.

في الواقع إن ما جاء في الكتاب هو بمنزلة اليد الممدودة لطمأنة البشر وتشجيعهم على المزيد من التلاحم والتماسك بعد إيمانهم بالله.

وبـــدوره أشاد الرئيســـ السوفييتي السابق غورباتشوف بمواقـــف البابا حيال هذا الكتاب قائـــلاً: «لقد استطاع البابا يوحنـــا بولس الثاني بفضل علاقته المتينة مـــع شعبه أن يسقط الشيوعيـــة في بلده بولونيا ومن ثم في أوروبا الشرقية، وإنه من خلال كتبه ورسائله عمل من أجل كاثوليكية جديدة وبناء عالم تسود فيه العدالة والمساواة بين البشر وذلك خلال اعتلائه سدة البابوية بين أعوام (١٩٧٨ –٢٠٠٥م)».

كذلك أولت الصحافة العربية اهتماماً خاصاً لمواقف البابا حيال القضايا التي تهم العالم بأســـره. وقد كتبت جريدة «الديار» اللبنانية الصـــادرة بتاريخ (٢٠١٤/٥/١٣م) تقول: «لقد قام البابـــا بتحرير العالـــم من المادية الملحدة، وغيّر وجه الدنيا، ووحّـــد أوروبا في نظرة إنسانية تجـــاه العالم بأسره، فزار سورية ولبنان. لبنان أكثـــر من وطن، إنه رسالة، رسالة للعيش الواحد المشترك الذي يمثل بنفسه رسالة للشرق والغرب، كل الغرب. لقد وضع لبنان في مرتبة البطولة والقداسة والمثاليـــة بالنسبة إلى العالم بأسره، وعقد مجمعاً خاصاً بلبنان، لم يختر البابا بلداً أخطر المجمع الكنسي بأن يُعقَد من أجله إلا لبنان، لأن البابا رأى فيه رسالة عظيمة».

وبدورهـــا أشادت صحيفة «لوموند» الفرنسية بأعمال البابا الراحل حين تحدثت في يوم (٢ أيـــار ٢٠١٠م) عن عـــزم الكرادلة وعلى رأسهم خلفه البابـــا بيندتكس السادس عشر على تطويبـــه قديســـاً بقولها: «في اليوم الأول من هذا الشهر أيـــار عام (٢٠١٠م) وبحضور عشرة آلاف فـــي ساحة الكنيسة القديس بطرس نُقِـــلَ جثمان البابا يوحنا بولس الثاني إلى القديس بطرســـ بالفاتيكان ليُطوَّبَ كقديســـ وذلك بعد أن أقدم على شفـــاء الراهبة الفرنسية ماري سيمـــون بيير التي كانت مصابة بمرس الباركنسون والبالغـــة آنذاك ٥٠ عاماً خلال رؤيا حل عليها وهي نائمة. ففي يوم ٢ حزيران من عام (٢٠٠٥م) أي بعد وفاته بشهرين قدمت الراهبة مـــاري سيمون استقالتها من الرهبنة إلى رئيستها بحجة أنها مصابة بداء الارتعاش، وأثناءها قدمت لها رئيسة الدير ورقة بيضاء وطلبت منها أن تكتب عليها اسم (جان بول) وعندما كتبت

ذلك كان خطها رديئاً، فوافقت الرئيسة على طلب الاستقالة. وفي ليلة ذلك اليوم سمعت ماري سيمون صوتاً غير معروف يقول لها: «خذي قلمك واكتبي». فأخذت القلم وكتبت نحو الساعة الرابعة صباحاً، وعندما أحست بأن جسمها لم يعد كما كان، تحركت يدها ولم تعد رجلها تؤلمها وكتبت خطاً صحيحاً وواضحاً، وعندما عرف طبيبها بذلك اندهش لما شاهد وعدَّ أن في الأمر أعجوبة. وما إن بلغ هذا النبأ مجمع الكرادلة حتى بادروا إلى الاجتماع معلنين تطويب يوحنا بولس الثاني إثر هذه الأعجوبة الأولى كمرحلة أولى تسبق الإعلان عن قداسته إذ تقضي التقاليد الكنسية أنّ يصبح المرء قديساً يجب أن يقوم بأعجوبة ثانية، وهذا ما ينتظره الكرادلة الذين يدرسون اليوم قصة طفل بولوني عمره تسع سنوات كان مصاباً بسرطان الرئة. ففي عام (٢٠٠٩م) جاء هذا الطفل وسجد أمام قبر البابا ثم شفي من مرضه. كما أن هناك حالة أخرى تتعلق بشاب أمريكي يدعى «جيري إيبلي» البالغ من العمر آنذاك (٢٦) عاماً من مدينة كليفلاند الأمريكية، والذي كان مصاباً برأسه نتيجة هجوم مسلح ضده. لقد قَدِمَ هذا الشاب إلى روما وزار قبر البابا في عام (٢٠١١م) لكنه سرعان ما شفي من إصابته التي كادت أن تكون مميتة. وقد يعتمد مجمع الكرادلة على هاتين الحادثتين لكي يعلنوا بعد التأكد من صحة أنهما أعجوبتان تكرسان قداسة البابا في السنوات القريبة القادمة، وينال إثر ذلك لقب قديس، ثم يخصص له يوم من أيام السنة حاملاً اسمه ليتم الاحتفال به رسمياً بحسب القانون الكنسي». وحتى أيامنا هذه ما زال السينمائيون في هوليوود بالولايات المتحدة الأمريكية يقومون بإنتاج فيلم عن حياة البابا يوحنا بولس الثاني.

والشيء اللافت للانتباه في عالمنا اليوم هو أن البابا الحالي فرنسيس خلافاً لسلفه يوحنا بولس الثاني يشدد كثيراً على أهمية العقل في عظاته الدينية التي يلقيها في كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان خلال أيام الآحاد والمناسبات الدينية إذ ينطق فيها بأفكار كانت تعدّ ثوابت لدى جلّ المؤمنين بالديانات السماوية ولاسيّما الديانة المسيحية إلا أنها أفكار ليست ثابتة على الدوام بل متغيرة ويجب إعادة التفحص فيها. وهذا ما نقرؤه في المقابلة الصحفية التي سبق لرئيس تحرير صحيفة «لاريبيليكا» الإيطالية أن أجراها معه بتاريخ (٢٠١٢/٥/٣٠م) وفيها يورد الكاتب الصحفي إيوجينو سكالفاري تصريحات للبابا فرانسيس حول جهنم والجنة رافضاً وجودهما. بقوله: «إن البابا فرنسيس لا يعتقد بجهنم حيث يعاني الناس من البكاء وصرير الأسنان، لأن الله، على حد قوله، ليس قاضياً بل صديقاً ومحباً للإنسان، الله لا يسعى إلى الإدانة وإنما إلى الاحتضان. إن جميع الأديان كلها صحيحة لأنها تحمل في

مضامينهــا روح الله وهي على حق لأنها كذلك فــي قلوب كل الذين يؤمنون بها. نحن جميعاً نعبــد الله وحب الإله نفسه. إن روح الإنسان مقدســة أينما حلت وفي كل الأديان والأجناس، لأنَّ كل هــذه الأديــان تحمل روح الله. لقد كانت كنيستنا قاسية تجاه هذه الأفكار التي تعدّها حقيقة. اليوم نحن لسنا قضاة وعلينا كرجال دين أن نكون بمنزلة الأب المحب الذي لا يمكن أن يدين أطفاله والكنيسة الكاثوليكية كبيرة بما يكفي لكي تسع ذوي الميول الجنسية المثلية، ومؤيــدي الإجهاض والمحافظين والليبراليين والشيوعييــن... إلخ، الذين هم موقع ترحيب. إن الكاثوليكيــة ديانة تحتاج إلى تطــورات مهمة لتكون عقلانية بامتياز على الرغم من بعض الجوانب العقلانية التي تمــلأ عقيدتها. حان الوقت للتخلي عن التعصب، فالحقيقة الدينية تتغيــر وتتطــور وهي ليست مطلقــة أو منقوشة على حجر، حتى النــاس الملحدون يعترفون بالإله ويعترفون أيضــاً بالحب والمحبة. ومن خلال الحب والمحبة يقر الملحدون بالله ومن ثــم بخلاص أرواحهم ليصبحوا بذلك مشاركين نشطين في فداء البشرية. والكنيسة يجب أن تكــون في حالة تغيير دائم كــي تتلاءم مع ظروف الواقع الحياتي، إن جهنم ليست سوى عجز الكتابة عن الروح المعزولة لأنها كانت آثمة خلال حياتها على الأرض لكنها سرعان ما تجعل هذا الإثم يضمحل لتتحد، على غرار بقية النفوس في محبة الله، نحن ننظر إلى جهنم كتقنية أدبية، كما في قصة آدم وحواء التي تتحدث عن أصل الإنسانية بخرافة.

وفي عظته الثانية التي ألقاها في شهر تشرين الثاني من عام (٢٠١٥م) كان كلام الباب حزيناً حيــن قــال: «إنه ليس من الضرورة بمــكان أن تؤمن بالله حتى تكون شخصــاً جيداً. إن التصور التقليدي عن الله بات منهي الوجودية، لأنه أصبح بوسع الإنسان أن يكون روحانياً من دون أن يكون متديناً. ليس من الضروري أن أذهب إلى الكنيسة وأتبرع بالمال لكي أظهر أني مؤمن. لقد اقترف أناس مؤمنون أسوأ الأعمال باسم الله في حين أن أفضل الناس في التاريخ لم يكونوا يؤمنون بالله بل كانت أعمالهم صالحة، وهؤلاء هم الروحانيون الذين يجب تقديرهم اليوم».

وهنــا نخلُص إلى أنَّ البابا رجل فكر بامتياز، وأنه إصلاحي يدعو إلى إحداث إصلاحات وتطويــر في الفكــر الكاثوليكي المسيحي وذلك علــى ضوء المتغيرات والتطــورات التقنية المذهلــة التي يشهدها عالمنــا المعاصر. وبحسب رأيه ينبغي علــى جميع الأديان أن تعيش بعضها مع بعض بكل وفاق ووئام بعد أن تكون قد تحررت من الأوهام والمعتقدات التي كانت مترنحــة في عقول البشر بشكل ثابت ودائم، ولقــد اختارته مجلة «تايم» الأمريكية رجل عام (٢٠١٣م) «نظــراً لما في أفكاره من تغييــر هائل في نظرة الكنيسة إلى المجتمع والعالم. إنه

يحاول إعادة النظر في بعض المعتقدات التي ترسخت في الكنيسة الكاثوليكية والتي تتناقض مع طبيعة المحبة الإلهية، إنه يقوم بثورة إصلاحية على غرار ما قام به الإصلاحي مارتن لوثر في القرن السادس عشر الميلادي، إنه يسير في اتجاه تصحيح الكنيسة التي يجب ألا تعتقد بالجحيم حيث يعاني الناس «من البكاء وصرير الأسنان»، لأنّ هذا المسار يتعارض مع الحب اللامتناهــي للإله الذي ليس قاضياً ولكنه صديق ومحب للإنسانية. وبالنسبة إليه لم يتطلب نشوء الكون والحياة تعليلاً لاهوتياً على الإطلاق يعتمد على الخرافات والأساطير، فالقضية عنده تدخل في باب الكشف الباطني للأمور.

كذلــك لاقى الكتاب ردود فعل معارضة لما جاء في محتواه الذي أثار حفيظة المنظمات البوذيــة التــي وصفت ما جاء في الكتــاب بأنه تكفيــرٌ للمذهب البوذي وإســاءة إليه، وقال بنجامامــوي ناريكا، وهو راهب بــوذي ومتحدث باسم اتحاد المنظمــات البوذية في مؤتمر صحفــي عقده في عاصمة سري لانكا بكولومبو، إن الاتحاد يتحدّى البابا أو ممثله الاشتراك فــي مناظرة عن النقاط المطروحة في كتاب البابا. ففي هذا الكتاب كتب البابا يقول: «يمثل الخلاصــ النقطة الأساسيــة أو النقطة الوحيدة في العقيدة البوذيــة، ومع ذلك فإن لاهوت الخلاص في النصوص البوذية، وما تفرّع عنها سلبي بشكل خاص»، وفي جزء آخر من الكتاب يقــول البابا «تعدّ البوذية إلى حد كبير نظاماً لا صله لــه بالأديان السماوية»، ما أثار غضب البوذييــن المنتشرين عبر العالم، إلا أن الفاتيكان سرعــان ما أصدر في يوم (١٩٩٥/١/٧م) بياناً أعرب فيه عن الأسف الشديد الناجم عن سوء فهم البوذيين لمضمون كتابه الذي لا يَتَّهِمُ أي دين من الأديان بالإلحاد في هذا العالم، ما دامت جميعها تنبع من منبع واحد وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «تعبِّر حاضرة الفاتيكان عن أسفها الشديد بعد أن أحست بأن مشاعر البوذيين السيريلانكيين قد جُرحت بعد الاطلاع على الكتاب».

ثمــة فلاسفة معاصرون وقفوا موقفاً منددًا بموقف البابا حيال الفيلسوف الفرنسي رينيه ديــكارت الذي كان يشذ في فلسفتــه عن العقل بشكل مطلق مسوِّغين موقفهم هذا من خلال وجود آباء في الكنيسة الكاثوليكية كانوا قد راهنوا أيضاً على العقل في فهم أسرار هذا الكون مثل القديس أوغسطينوس الذي يعد من آباء الكنيسة المشهورين في القرن الخامس للميلاد، والــذي ولــد في بلدة «عنابة» بالجزائر، هذا ولا تزال أطــلال ديره موجودة حتى يومنا هذا. لقــد كان هذا الراهب ينادي بضرورة أن يكون العقل هو الحكم وصاحب كلمة الفصل في كل الأمور الدينية وحتى المدنية، وهو على هذا النحو يتشابه به في نهجه الفكري مع الفيلسوف

رينيــه ديكارت الذي جاء من بعده بعدة قــرون. وبحسب أوغسطينوس: «إذا تماشى العقل مع السلطــة الحاكمة ومع المعتقدات الموروثة جيلاً عن جيل فإن الإنسان في هذه الحالة سوف يفقد حريته، يجب الإصغاء إلى صوت العقل لأن ذلك يبعث الطمأنينة والسكينة في النفوس. وإنَّ مــن يتنكر للفلسفــة ويعدّها عاجزة في محاولاتها، فإنّه يتنكّــر للعقل ويعود أدراجه من جديــد إلى مراحل الإنسان البدائية . وإذا تفشت هذه الظاهرة عند المثقفين كما هو حادث اليوم أمسُوا في حالة تجمد وتوقف عن التطور. العالم الحديث بحاجة إلى فلسفة اجتماعية تفكك أوضاعه الفئوية الطقسية، فلسفة لا تنبع من مذهب أو عقيدة دينية معينة أو مفاهيم غابرية ملتصقة بمرحلة معينة من مراحل حياتها بل تتدفق من الواقع الحياتي المتغير دوماً. فالفلسفــة خلاقة واللاهوت السياسي والاجتماعي والطائفي جامد. إن جميع الحركات التي شهدهــا العالم لإعطاء ثقافة جديدة كانت الفلسفة رائدتهــا الكبرى لأنها الثورة الكبرى في العقل الإنسانــي نتيجة الجرأة التي كانت تتخطى بها المحرَّمات لتناقش اللاهوت ومسلماته المطلقة. وعلى هذا النحو يجب على العقل أن يكون قوة تدفع بالمرء نحو الحقيقة والمعرفة والفهم من أجل إحداث النهضة وبناء المستقبل الزاهر.

والـلافت للنظر ردة فعل الدكتور عثمان أمين الذي عمل مدرساً لمادة الفلسفة في جامعة القاهــرة حين تطــرق إلى فلسفة ديكارت واصفاً إياها بأنهــا مستمدة من الأفكار التي كانت سائــدة في العصور الوسطى وذلك حين كتب في جريــدة «الجمهورية» المصرية بتاريخ (١٧ تمــوز ١٩٩٥م) مقــالاً يقول فيــه: «ليس سراً أنَّ يــذاع أنَّ أصدقاء ديــكارت كانوا يقولون له صراحــة: نظريتك الفلسفية حول إثبــات وجود الخالق من خلال المعرفة ليست جديدة فقد ذاعــت في القرون الوسطى. بدليل أن أفكاره قد سبــق أن ترددت في القرون الوسطى، وإذا قرأنا أفكار جعفر الصادق وهو الإمام حفيد الإمام الحسين السادس من بين اثني عشر إماماً ستقوم القيامة بعدهم كما يقول أتباعه فنراها معروفة قبل ديكارت بـ(١٠٠٠) عام بقوله: «إن التفكيــر في ذات الله يهلك العقل، وذلك لعدم قدرتــه على إدراك ذات الله مهما حاول ذلك جاهــداً. ومَنْ زعم أن الله تعالى في شيء أو مــن شيء أو على شيء فقد أشرك، لأنه لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً، والله يتعالى عن جميع ذلك ولهذا السبب حذّر الإسلام من التفكير الطويل بذات الله وذلك إشفاقاً علــى العقل، إذ لا يجب أن يُهلِك الإنسان عقلَه فــي الوصول إلى المستحيل طالما أن معرفة طبيعة الله مستحيلة على هذا العقل البشري».

ويضيف الدكتور عثمان أمين قائلاً: « وبعد ذلك بألف عام يأتي الفيلسوف ديكارت أبو الفلسفة الحديثة ليقول: «إني أفكر، فأنا موجود، إذن فالله موجود، ولما كنت كائناً غير كامل، إذن فالكامل هو الذي أوجدني والكامل هو الرب... هو الكمال المطلق. ومن يقرأ أقوال الإمام جعفر الصادق الذي تصدى للملاحدة في عهد العباسيين لظهر له أن ديكارت كان تلميذاً في مدرسة الحضارة الإسلامية».

❀ ❀ ❀

المراجع

(١)- مجلة «المجلة»، تاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٤م.

(٢)- مجلة «الكفاح العربي» اللبنانية، تاريخ ٢٨/ ١١/ ١٩٩٤م.

(٣)- جريدة «الجمهورية» المصرية، تاريخ ١٧/ ٧/ ١٩٧١م.

(٤)- جريدة «لوموند» الفرنسية، تاريخ ٢/٤/٢٠٠٧م.

(٥)- جريدة «لوموند» الفرنسية، تاريخ ٢/٥/٢٠١٠م.

(٦)- جريدة «الشرق الأوسط»، تاريخ ٢/٤/٢٠٠٥م.

(٧)- جريدة «لوموند» الفرنسية، تاريخ ٤/٤/٢٠٠٥م.

(٨)- جريدة «لوموند ديبلوماتيك» الشهرية الفرنسية، تاريخ أيار، ٢٠٠٥م.

(٩)- جريدة «لوموند» الفرنسية، تاريخ ١٨/١٠/٢٠٠٨م.

(١٠)- جريدة «لوموند» الفرنسية، تاريخ ١٤/٥/٢٠١٠م.

(١١)- جريدة «الديار» اللبنانية، تاريخ ١٧/٥/٢٠١٤م.

(١٢)- جريدة «لوموند» الفرنسية، تاريخ ٢٠/١١/٢٠١٥م.

(١٣)- موقع «الأزمنة» الإلكتروني، تاريخ ٤/١/٢٠١٤م.

(١٤)- جريدة «تشرين»، تاريخ ٨/١/١٩٩٥م.

❀ ❀ ❀

الحضيض
جولة في تضاريس الفكر العربي
للدكتور أحمد عمران الزاوي

عبد الله إبراهيم الشيخ

هذا الكتاب... لا يؤرّخ لمرحلة مؤقتة ولا يضع مشاريع تنويرية لمستقبل قادم... إنه يستعرض تاريخ أمة طويل، ويدعو الجميع إلى تصحيح طرائق إيمانهم وطرائق تعاملهم مع آلهتهم بحيث لا تتعارض مع مصلحة الوطن، فمحبة الوطن والإيمان بالله مترادفتان، فللجامع مهمته، وكذلك للكنيسة، وللعلم مهمته الخاصة به بالطبع.

فالدكتور الزاوي يرى أن محبة الوطن جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله ومحبته... ولعل الدكتور الزاوي أصاب فيما رأى حين حمّل المسؤولين ورجال الدين المتداخلين معهم مسؤولية التعلق بقشور التعاليم الدينية ولعل هذا ليس رجعية بالمعنى المألوف للكلمة... إذ ليس في العودة إلى التراث رجعية بل على العكس علينا الاستفادة من التراث والتفاعل معه بنضوج ووعي ليصار إلى أخذ العبر من هذا التراث... فالشجرة الواقفة تموت إن ماتت جذورها.

ويبدو لنا – كما يرى الدكتور الزاوي- أن أجدادنا الأوائل كانوا يتعاملون مع الدين من خلال فهمهم الصحيح له ببعدهم عن التعصب والشوفينية مما ساعدهم على بناء حضارة وثقافة وسع صداها كل أنحاء العالم ومازال الغرب يتحدث حتى الآن عن هذه الحضارة.

الفهم الحقيقي للدين يجب أن يرتكز على عدم نبذ الآخر واحترام إيمانه، بل على العكس، الإيمان بأن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي سوف يحاسبنا على أعمالنا وإيماننا مهما اختلفت طرائقهما.

من هنا، فالدكتور الزاوي لا يطالب بنسيان الماضي تماماً بل يطالب بأخذ العبر منه والتفكير فيه والتمحيص بصورة أوضح للاستفادة منه... ويشدد الدكتور الزاوي على تلازم وتعاضد الدين والعلم والأخلاق ليكون بمقدورنا الإسهام في خلق جيل جديد متميِّز مثقف يستطيع بناء وطن جديد قوي متماسك صلب العود، ولعل المشكلة الرئيسية التي وقعنا فيها هي تسلحنا بالغيبيات وتركنا قيمنا وأخلاقنا... ومن ثمَّ فإن علينا أن نجعل من أنفسنا مراقبين لكل أفعالنا وذلك يعني أن نتحكم بأخلاقنا ومُثلنا العليا.

يرى الدكتور الزاوي أنه يجب فصل الدين عن السياسة وعدم السماح لرجال الدين بالهيمنة على أمور أخرى غير الأمور الدينية، ففي كل أنحاء العالم ولدى الشعوب كافة يسير العلم والعلماء إلى جانب الجامع والكنيسة وعلى رجال الدين الاهتمام بما يعنيهم ومن ثمَّ لن يكونوا حجر عثرة في وجه طالبي العلم والعلماء.

ويرى الدكتور الزاوي أن هذا لا يعني طلاقاً بين العلمانية والدين فالتعايش والتلازم مطلوبان دائماً، فللكنيسة والجامع وظيفة وللعلم وظيفة أخرى فالعلم -كما يرى الدكتور الزاوي – والدين يهذبان الروح ويُبعدان الإنسان عن فعل الشر والاعتقاد بالغيبيات.

من ناحية أخرى قدَّمت الديانتان كثيراً من أسباب الهداية وأحلّت محل البغضاء الحب، والتواضع محل الغرور، والعدل محل التميز، والمساواة محل الطبقية- كما يرى الدكتور الزاوي – ولولا هذا لما وصلت الأمة إلى هذه الدرجة من التطور الذي وصلت إليه، ويرى الدكتور الزاوي كذلك أنه طالما كان هنالك حياة فإن تطوراً يصاحبها دائماً، ومن ثمَّ فإن علينا أن نتفاءل بمستقبلنا ومستقبل أجيالنا الطالعة، فالتطور طريق إلى الخلاص وهو الطريق الوحيد للصعود إلى سلم الحضارة والتقدّم، ولعلنا غرقنا حين غرق ملوكنا وأمراؤنا في الترف والثراء وأداروا ظهورهم إلى الأعداء فترهلت الهمم وبدأ الطامعون حمل سكاكينهم ليعملوا في الوطن العربي تقطيعاً وغزواً وتمزيقاً إذ قُسِمَ الوطن العربي إلى دويلات صغيرة تقاسمتها الدول الغربية، لكلٍّ منها حصتها.

على أن مذهباً آخر اعتمدته شعوب أخرى وهو إقصاء الفكر الغيبي وإلغاء رقابة الضمير ليحل محلها رقابة القانون والاعتماد على العقل مصدراً وحيداً للتعرف إلى الكون، وإلغاء الحكمة والمواعظ وغيرها، ويرى الدكتور الزاوي في ذلك احتقاراً لكل القيم التي نحملها وهو لا يطالب بالمقابل بإلغاء هذه الأفكار (المادية) لكن علينا أن نحسن التفكير في عدم إلغاء أي من هذين الرأيين وجعلهما يسيران جنباً إلى جنب -كما أسلفنا سابقاً- ومن ثمَّ فإن علينا أن نأخذ بالجديد المفيد دون أن نقوض الماضي لأن الشجرة التي تموت جذورها تسقطها الرياح.

ويــرى الدكتور الزاوي أن الغاية من هــذا الاسترسال في الشرح ليست الدفاع عن الدين أو المطالبــة بإلغائه بل على العكس فهو يرى أن النصوص التي يتضمنها الدين كافية للدفاع عن نفسها شرط أن نفهم اللباب من الدين لا القشور، وقد قدم لنا مقارنة بين كل هذه الأفكار وهذه الآراء يُضاف إلى ذلك أن الأنبياء كانوا بشراً مثلنا أي أرسلوا بالناسوت الذي نحن فيه «وهذا لا جدال فيه ولا شك به... وهو بعيد عن التأويل الغيبي الذي قد يدَّعيه بعض بسطاء الناس، ولعل الحضــارات التي تلت هذه الديانات السماوية جاءت نتيجة طبيعية لجدال الإنسان مع الإنسان وجدله مع آفاق الطبيعة، وهو يطالب أيضاً بالابتعاد عن التأويل، إذ ثمة آيات في القرآن الكريم – علــى سبيــل المثال – ضرب الفقهاء حولها جداراً وألبسوها ثــوب القداسة كي لا يجرؤ أحد على المساس بها ومع هذا كله فإن ثمة رجال دين تجرؤوا على الاجتهاد في تفسير بعض الآيات في القرآن الكريم وتأويلها، فالإيمان مطلوب من الجميع والتأويل محصور في صاحب الآيات، ولعــل امتداد التأويل إلى جميع نشاط الحياة أوثق العقل العربي، وغلَّ جناحيه، وحصر حركته ضمن دائرة المسؤولين وإلاَّ فسدت العقيدة وسادت الزندقة - كما يرى الدكتور الزاوي – ولعل هــذا الواقع المزري حفــز فئة من الناس على الإجهاز على الإنسان العربي وإلقائه في غابة أو وادٍ سحيــق لا قــدرة له على الخروج منه ليبقى دهراً وهو يحــاول تبين الخط الذي يقوده إلى الخروج من هذا النفق وكان على رأس هؤلاء الطامعين إسرائيل التي دخلت إلى الإنسان العربي على شكل عصابات مسلحة وبدأت بتهجيره بكل الوسائل والطرائق.

ادعــى «بنياميــن نتنياهو» في كتابه «موقــع تحت الشمس» أن فلسطيــن ليست إلا أرضاً مملوكة لليهود، ولعل عنوان الكتاب يؤكد أن اليهود لم يكونوا يريدون لفلسطين أن تكون مكاناً لتجميعهم والدليل على ذلك أنهم طالبوا العالم بأي مكان على هذه الأرض لتجميع شتاتهم.

ولمّــا ظلَّ الغرب حريصاً على إبقاء العرب في حالة من التجزئة والضعف والتخلف فقد عقــد مؤتمر في عام (١٩٠٦م) بطلب من «كامــب بيرمان» رئيس وزراء بريطانيا آنذاك ورأى المؤتمــر أن هــذا الشرق المليء بالثــروات الباطنية الطائلة لدى شعــب غير منتج وهو في الوقت نفسه يشكل ممراً طبيعياً لكل الاتجاهات، وعليه فقد اتفق المؤتمرون على فصل الرأس الآسيوي عن الجسد الإفريقي فكان أن وقع الاختيار على فلسطين، وكان هذا القرار أول ربط إستراتيجي بين المصالح الغربية والوجود اليهودي في فلسطين.

بالمقابــل لا داعي للحديث عن دور الأمم المتحدة في إدانة هذه التصرفات الإسرائيلية؛ فأميــركا كانت وما زالــت تستعمل حق «الفيتو» الذي يصدر عن هــذه الجمعية والذي يُدين التصرفات والخروق الإسرائيلية.

ملأت نداءات نابليون والأفكار التي وردت في كتاب «المسألة الشرقية» لمؤلفه «لاهادان» وغير ذلك من الدعوات عقول الصهاينة فاتجهوا إلى السلطان عبد الحميد لإقناعه بالموافقة على إعطائهم فلسطين كوطن قومي لليهود مقابل مئة وخمسين مليون ليرة ذهبية لكنه رفض قائلاً إن فلسطين لأهلها وليست ملكاً لنا ... حينها فكر اليهود بالبحث عن مكان آخر: الكونغو – موزامبيق – المكسيك – العريش – الكويت – سيناء، إلّا أن مؤتمر لندن ومقرراته رأت أن الأصلح بالنسبة إلى الطرفين اليهودي والغربي هو فلسطين.

في ظل تخلف الوطن العربي وتجزئته بدأ الغزو الصهيوني المنظم والمدروس لفلسطين وبدعم ورعاية من القوى الحليفة، أمريكا والغرب، استطاع الصهاينة الثبات وتحقيق أحلام كانت مختبئة في الصدور لثقتهم بأنه آن الآوان لإخراجها إلى العلن... بل لقد اتجهت أنظارهم إلى الولايات المتحدة بعد أن وجدوا أن الفكر الصهيوني بدأ يتجذر في ضمير الشعب الأمريكي.

وفي هذه البيئة انخرط الزعماء والصناعيون والتجار والصيارفة الصهيونيون في الحركة المالية ليكون بإمكانهم بسط سلطانهم على معظم المصادر المالية التي سوف تساعدهم على السيطرة على صناعة القرار في أوروبا وأمريكا.

وهكذا، وفي هذا الجو، ظلت (إسرائيل) وفيّة لمصالحها المرتبطة بالمصالح الغربية ولاسيّما الأمريكية منها: من حيث الإبقاء على الجهل والتفرق في الوطن العربي وزرع «الفاسدين» ودعمهم في كل بقعة من بقاع الوطن العربي لتسهيل السيطرة عليهم ومراقبتهم... إلى أن وصل هذا الوطن الكبير إلى «مهزلة التاريخ». بلدان متناحرة، ضعيفة، هزيلة، مجزأة.

عملت قوى التجسس الأمريكية والصهيونية على مراقبة تحركات الدول العربية التي تعلو فيها أي نبرة عربية فقامت الولايات المتحدة الأمريكية –ولأسباب واهية– بغزو العراق على الرغم من معارضة الأمم المتحدة وعاثت فيه خراباً وأخذت خيراته وبتروله وزرعت الأحقاد بين مواطنيه وأحيت الطائفية بعد أن كانت قد ماتت منذ قرون... ثم انتقلت بعدها إلى ليبيا، ثم إلى سورية فقامت بإدخال جماعات تكفيرية إرهابية وغيرها وجلبت مرتزقة من كل أصقاع العالم بمساعدة بعض «دول الخليج العربية»، ومن سورية أدخلت جماعات إرهابية إلى لبنان الشقيق وأخذت تعيث فيه تدميراً وتخريباً.

ويرى الدكتور الزاوي في هذا الصدد أن العولمة مرتبطة بالسياسة الأمريكية والعولمة العربية وأنها تستهدف الإنسان في كل مكان

وتفــرغ البلدان من «الديمقراطيــة» الحقيقية و«التنمية» وحقــوق الإنسان وحرية الفكر وتنمية ملكة الفكر والإبداع، ولعل الأمثلة كثيرة على ذلك كأفغانستان والسعودية ودول الخليج يضاف إليها العراق في زمن الاحتلال الأمريكي.

قــام شمعون بيريز بتأليــف كتابه عام (١٩٩٤م) بعنوان «الشــرق الأوسط الجديد» يدعو فيه إلــى الاندماج فــي نظام إقليمي عادل من النواحــي السياسية والاقتصاديــة أكثر منه في القوة العسكريــة، ويقول في مكان آخر: «نحن في حاجة إلــى حدود مرنة وليس إلى تلك الحدود التي تحولــت إلى جــدران، فليس بنا حاجة لأن نحيط أنفسنا بجدران!» وهــذه حيلة منه ومن أتباعه لتحقيــق حلم حدود الكيان الصهيوني من الفــرات إلى النيل؟ ثم يكمل: «ونعني بالحدود المرنة؛ الحدود المفتوحــة، ولاسيّما بين الفلسطينين والأردنييــن و(الإسرائيليين) وذلك يطور السياحة ويمثل الطريقة الأفضل لحل مشكلة المياه». فهو برأي الدكتور الزاوي «يعطيك من طرف اللسان حلاوة... بوصفه يعرف أنه مغتصب لأرض فيها شعب وهذا الشعب لن يرحب به بالطبع...

هذا «التمسكن» الظاهر وهذه الدعوات التي تخفي في باطنها كثيراً من الكراهية لم يعد ينفــع هذا الكيان في شيء، فالتاريخ القديم والجديد للصهاينة علّمنا أن احتلالهم لفلسطين ودعواتها للسلام تخفي نوايا جد سيئة... ومن هنا فإن (إسرائيل) تُزَوّد بأحدث أسلحة القتل والتدمير وتحوِّل جميع حدودها إلى جدران عالية جداً من الإسمنت المسلح.

إذن... فشمعون بيريز يدعو إلى وطن كبير أو كيان كبير جداً يشبه السوق الأوروبية وهي دعوة كريمة ظاهرياً ولكنها إلى النفاق أقرب كثيراً من الصدق -كما يصفها الدكتور الزاوي- ففي ظل هذه الدعوة يرفض الصهاينة أي وجود للفلسطينيين لا على أرض فلسطين فحسب، بل على سطح هذا الكوكب.

أمــام هذا الواقع كان على بعض المثقفين العرب على قلتهم أن يدقّوا ناقوس الخطر ولو متأخريــن، ومن هنا انطلقت جذوة المقاومة الفلسطينيــة والمقاومة اللبنانية يؤازرها بعض الــدول العربية يقودها رجال قادرون على استقبال الموت ويعتقدون أنه مهما كان صعباً فهو أهون من حياة الهوان كما يرى الدكتور الزاوي، وأمام هذه الحقيقة صار لزاماً على الصهاينة أن يغيــروا أهدافهم فلجؤوا إلى الغرب لمساعدتهم علــى إقامة إمبراطورية اقتصادية يكون لإسرائيــل فيها دور الريادة والقيــادة وصنع القرارات مما يسمح لها بالتحكم في كل مجالات الحياة ولاسيّما الجانب الأمني ومن ثمَّ التحكم بمصير البلاد العربية كلها.

فــي ظل هذا كلــه، يروي الدكتور الــزاوي أن الرئيس الأمريكي بوشــ اقترح على الدول إصدار بيان بالإجماع دمج إسرائيل في دول المنطقة تلاه «بوش الابن» الذي طرح بدوره فكرة

«الشرق الأوسط الكبير»، لكن فشل هذه الاقتراحات حَمَل الاستعمار الغربي وأمريكا تحديداً على انتهاج سياسة الحرق الكامل لكل البلدان العربية التي تعارض هذه الأمور فاحتلت العراق وطالبت بإخراج الجيش السوري من لبنان واتهمت سورية باغتيال الحريري، وهدّدت سورية وإيران بالاجتياح، وعملت على تجريد حزب الله والفلسطينيين من السلاح.

وأمام هذا الرفض العالمي لهذه الطروحات أعيد طرح فكرة «الشرق الأوسط الكبير» وهي فكرة تدخل بالطبع في سياق المصالح المتبادلة المذكورة سابقاً والتي تعتمد على تفتيت الدولة إلى «كانتونات» مع جيوش وقوات أمن مجردة من السلاح وحدود مفتوحة يُدخل إليها ويُخرَج منها دون سؤال أو جواب بالطبع مع الإبقاء على الكيان الصهيوني مدججاً بأخطر أنواع الأسلحة.

أمام هذا «الرفض العربي» الخجول للمشاريع التي تُطرح، لجأ الغرب والولايات المتحدة إلى «قضم» أطماعها شيئاً فشيئاً فقامت (إسرائيل) بدعم من حلفائها باحتلال أجزاء من الوطن العربي وتحويل أنهار وبحيرات إلى أراضيها وذلك بحجج واهية تحت اسم تهديد بالحرب أو «رد اعتداء» إلى آخر ما هنالك من الذرائع. حدث هذا في سورية والأردن ومصر ولبنان وكل ذلك تحت سمع وبصر الأمم المتحدة وبحماية الفيتو الأمريكي.

أمام هذا الواقع المزري الذي وقع فيه الفلسطينيون خاصة والمواطن العربي بشكل عام وجد المواطن نفسه أمام مرحلة جديدة مختلفة كلياً بعد أن أعيته الحيلة، وهو اللجوء إلى ما يراه حقوقه المشروعة من منطلق «قوة الحق» فحسب، وهذا ما أسماه الغرب والولايات المتحدة (بالإرهاب)؟ لكن أليس قتل المئات في العراق إرهاباً وهو يحدث يومياً؟! أوليس تهجير الفلسطيني من أرضه وداره إرهاباً؟!

ولعل التاريخ العربي قادر في قابل الأيام على أن يعطي تعريفاً صحيحاً ودقيقاً للإرهاب...

فالعرب حتى الآن لم يتعلموا من قراءة التاريخ، أو ربما قرؤوه لكن بذاكرة ملساء (كما يرى المؤلف)، ذاكرة لا تعلق بها الأحداث.

بعد هذا كله ثمة سؤال يطرحه كل مثقف في هذا الوطن... أيّ ضربة على الرأس أكثر إيلاماً من هذا الحضيض الذي نحن فيه ؟ ومن ثمَّ هل من سبيل إلى الخروج منه؟... هل نحن قادرون على الإمساك بالخيط الأبيض الذي قد يقود أجيالنا الآتية إلى اقتحام هذه المهمة النضالية الصعبة؟ هذا الجيل الذي وقف في الساحة تتجاذبه جبهتان، الأولى: معرفة التعامل مع الموروث والثانية: التخلي عن هذا الموروث وقناعته بأن «العقل المتحرك» أوصل الإنسان الغربي إلى مواقع متقدمة، وبأن عليه أن يسعى من أجل بلوغ هذه المواقع أو بلوغ أقصى ما يستطيعه منها، على أقل تقدير.

❁ ❁ ❁

إحياء شباب الصّور

«الله يا بريّة زرقاء... الله يا حنّاء... يا موّال يا قطعان يا زبدُ... الله يا بردُ»

أوس أحمد أسعد

امبراطوريّة العنوان



الرّاعي الذي «وضعَ راحته على أذنه وفتن الهضاب بالمواويل» صاحب المجموعة الشّعريّة الوحيدة المطبوعة عام (١٩٨٥م) بعنوان «رعويّات» الشّاعر «محمود عبد الكريم» بنصوصه ثريّة الجمال المقطّرة من أكمام الضوء ولثغة الينابيع، المقطوفة على غفلةٍ من هسهسة الأعشاب وثغاء حملان الرّيح التي ستفتتنا الآن أيضاً. بعرائشها الممتدّة على غصنين يانعين يغفوان بسلام تحت دالية العنوان العام. نما الأوّل على هيئة تساؤلٍ ملتاع، عجنته هواجسُ الحريّة، هو: أين السماء يا أجنحة العصافير؟ بدوره فرّخ عسلوجاً آخر، لثمره الطّيب طعمِ المرارة، تلك التي تذكّر الكائن بحالة الفقد الكبير الذي عاشه يوماً في جنّة حلمه البكر، أو رحمه البدئيّ، هو: آه...آه..أيّتها البراري المؤلمة!

ليبدو القسم الثّاني «مديح التّراب» وكأنّه يجافي الأوّل ظاهريّاً، لكنّه في الحقيقة يشرب وإيّاه من دلوٍ واحد يتدلّى عميقاً في بئر الوجد. هذا العنوان يتشاطأ وآخر مكمّلٍ له، هو: أناشيد لسورية. ستقتصر قراءتي على القسم الأوّل الأكبر من الرّعويّات، أملاً بفسحةِ قراءة أخرى للقسم الثّاني، في وقتٍ آخر.

والسؤال الآن، هو ما الذي يستطيع فعله كائن الحريّة هذا، الذي امتلكتْ روحه فضاءات الأرض والسماء يوماً، وهي الآن تقبعُ مسجونة في مساحةٍ لا تتعدّى الأمتار الإسمنتيّة القليلة المختنقة بجدرانها المطفأة الرئات، المعلّقة من شهقتها على ضباب المدينة؟ أقصدُ ما الذي يستطيع فعله الرّاعي/ الشّاعر وقد دجّنته الحياة الجديدة وأجبرته على خلع وجه براءته النقيّ ككائنٍ برّي، ليتزيّا قناع التحضّر وأيّ تحضّر! فمن يُنتزع من رحم أمّه/الطبيعة ما الذي يمكنه فعله،سوى التّحسّر وتقليب صفحات الذّاكرة الموشومة بأختام الجرح الكبير؟ تلك هي طبيعة عطاء الحياة، فهي تأخذ بيدٍ ما تهبه بالأخرى. لكن الروح المفطورة على حبّ الجمال والحريّة مازالت هناك تحاول استرجاع سمائها المفتقدة التي كانت يوماً بوسع أجنحة العصافير وبراريها الخضراء التي ضاهت بشساعتها مملكة أحلام الطفولة، ولكن هيهات! الراعي هو إله مطرود من جنّته أو مشروع نبي/ شاعر ك«سليمان» في «نشيد إنشاده»، كما تروي السرديّات المقدّسة. فهو يلتحم كعاشق بسرّة الطبيعة ونبضها عبر ولادات دائمة، يوشوش كائناتها، يتلاسن معها بلغتها، يجدل ضفائر غدرانها، يمسد أثداء قطعانها الولودة لتدرّ اللّبن أكثر فأكثر وترضع صغارها، يحيّي أعشابها وديكتها وثعالبها كلّ صباح آمراً شمسها بالشروق من وراء الجبل والغروب في البحر كلّما أراد إظهار معجزاته لأبناء التّيه. هكذا تستمرّ دورة الخلق بالبقاء تحت ناظري الإله «رع» الراعي الذي استقال من مهامه متغاضياً عن كلّ شيء إلّا شرط الحريّة. ليمتهنَ الشّعر متجوّلاً حرّاً في فضاء مملكته القديمة، مملكة الفطرة والبداهة الأولى، للتسرية عن نفسه، علّه يحظى بأنثى تسرّ النفس وتغسلُ القلبَ من سخامه، فيخطفها ويتزوّجها. ألا يحقّ لإله شابٍّ أن يلهو ويحبّ؟ وهل لأحدٍ عليه سلطة إلا «بانثيون» الآلهة نفسه، وحده من يقرّر محاسبته؟ لقد فعل قدموس بأوروبا فعلته في أثناء إحدى جولاته، حين حوّل نفسه إلى ثور وأغراها أنْ تركب ظهره ثمّ اختطفها وذهب بها بعيداً. شاعرنا الرّاعي لم يفعل في «رعوياته» أكثر من ذلك. وقد ساعدته في مهمّته النّبيلة قوى فوق طبيعيّة صديقة، مهيّئة له كامل طقوس الجنس المقدس لتكتمل خلوته بأنثاه، أنثى المصادفة والتواطؤ الجميلين. أليس هو ربيب الأم الكبرى/ الطّبيعة، وفتاها المدلّل المنتمي

إلـــى سلالة الدهشة نفسها كما قلنـــا؟ ما الذي سيخشاه وهو بحمايـــة أمومة وأنوثة الكون، سيمارســـ طقسه بكامل الحريّة والبساطة، هو سيّد المشهـــد الملبّى النداء. والطقس الذي سيؤديـــه، ستبرعُ كاميراه المبدعة في التقـــاط أدقّ تفاصيله لتنقلها للقارئ بكامل طزاجتها، مخترقةً الحجب والرعود والعواصف والتّابوات. مشهديّة أسطوريّة عالية النكهة والسورياليّة، تلخّصت بلقائه مع امرأة المرعي في الكهف المنفيّ بين الشّعاب الجبليّة. حيث ألقت السماء شآبيبهـــا ظلالاً كثيفة حولهما وأعلتّ النار خيمة دخانها حتى سقف المشهد لتحميهما. وقد تعرّى الجسدان حتى من أوراق توتهما الأخيرة، وبدأا بسرد ملحمة جنونهما المشتهى. طقس حلمـــيّ فريد لا تزيده الأسطورة جمـــالاً إلّا بإمكانية حدوثه كواقع. وأظنّه قد حدث ولم يبقَ حبيســـ التّخييل، لقد اجتاز الجسدان مطهّر «دانتي» ليصعدا إلى جنّة غفران المعريّ، وإلى سابع سماء قشيبة أعلنتّ عنها عوالم الغيب.هذا ما سنراه في المقطع التّالي – الذي لا يمكن اجتزاءه- السّرديّ السينمائيّ بجدارة، وقد سرقتُه من سفر الراعي على غفلة منه، وسفحتُ مياهـــه أمامكم، يقول: (أشعلتُ نـــاراً عالية ورحتُ أرقصُ، وثيابي المبتلة معلّقة على حوافي المغـــارة الهرمة، كنتُ أصرخُ وأقفزُ حـــول النار المقدّسة كهنديٍّ أحمر في عيد اللّهب. فجأة دخلتّ سمراء غامقـــة ومكتنزة مثل «بكّيرة» صلبة الكفل وحشيّـــة الأرداف... رمتّ سروالها المبتلّ عارية... صارت كسيف... كغيمة... كعيد مبهج. قطرات مطر تسبح من جدائلها بين نهديها إلى خط السّرة... عارية... عارية... يا ناس مثل كون يولد... مثل برّيّة تفور... كنتُ كعصفورٍ خائف... لا.كنتُ كنسرٍ ينقضّ... كحملٍ ينكمش... كذئب يتحفّز... كفهدٍ يتمطّى... وكدتُ للحظة أصرخُ. يا إلهي يا إله الشّهوات... ما أجملك...! إنّه الكون يبوح بأسراره دفعة واحـــدة... كلّ شيء استحال لهاثاً: البريّة الشجر البلّوط العشب الضّباب النّار... لكأنّ الكون كأســـ خمر... كهـــف صغير ونار تلظى وثياب تجفّ، جســـدان يحترقان وحيدين وعاليين... كانـــتّ تحتطبُ وكنتُ ألهو، جـــاء المطر فاندلعتّ نار وحين صـــارت جمراً اخترقتّ جسدي سكيـــن من برد وسكون ونعاس.كنّا محترقين كقشّ فـــي نار ضارية... كلّ شيء راح يخبو في جسدين ملتحمين كفصلين غريبين فجأة تداخلا في كرنفالٍ شهيٍّ ومخيف). ولكن الراعي/ الإله الشّاب مالك زمام أموره لا يجوز أن يعاني الفقد، فهو من فضّله إله أكبر منزلةٍ منه في محفـــل الآلهة يوماً، على أخيه المزارع فقبـــل هديّته ورفض هديّة الآخر. فللسّيد إذن الحقّ فـــي التجوال واللّهو في مملكته، أقلّه على مستـــوى الحلم، كشاعر. وهنا مفارقة الفقد تبدو مؤلمة بشكلٍ لا يطاق، إذ كيف يمنحه إله ما حقوقه هذه، وتتجرّأ ظروف حياتيّة معيّنة على

سلبها منه؟ هكذا اجتمعتْ ضفيرتا السرد الاجتماعي لوعي الحريّة، والسّرد الميثولوجيّ في شخصيّــة الرّاعي لتطرّزا منمنمات «الرعويّات» العالية الجمــال، لقد اختار الشّاعر عنواناً للوحاتــه الشعريّة بصيغة جمع المؤنّث السّالم ليؤكّد انتماءه للأمّ، الطبيعة/ ورحمها الكوني، تلــك الذّات الكلّيّة المتساميــة الواعية لقدراتها وصفاتها المكتفيــة بحضورها كمبتدأ في جملــة اسميّة تدعى الكون، يعاد تشكيل خبــره دوماً حسب المقتضى وضرورات الخلق. هي أوّلٌ ولــودٌ، منه تكاثرتْ الأشياء وولدتْ. مبتدأ يوحي باكتمــال خبره ولا يقوله تاركاً للقراءة المتفاعلــة شرفَ إنجاز مثل هذا الفعل. الرّاعي المفطــور بطبعه على حبّ الطبيعة، الذي خبرتــه البراري بكائناتها وأساطيرها، هو نفسه الذي أعادتْ أنسنته وتشكيل جغرافية روحه من جديد ثقافة الحياة العالية التّنوّع، لتصوغَ وعيه الوطني الاجتماعي أيضاً، فتلهج حنجرته بأناشيــد الامتداح لتراب الوطن العربي عموماً وشعوبه المستضعفة. «رعويّات» هي التّعاويذ التي رماها «رع»/ الشّاعر على أشياء الطّبيعة فانوجدت من العدم وظهرتْ لمعرفتنا كعنوان، كاسم، كعتبة نّصيّة خضراء زاهية تناسلتْ منها أعشابُ النّصوص وأطلّتْ ببتلاتها من العتمة لتبهجنــا. تحت إشراف الينبوع وحده يمكن سقي الغراســ وإنعاش شتول ووعول وعصافير وإناث المراعي الشّبقات المتشوّفات لعبور «رع» جديد أو شاعر مجنون بحبّ الحياة. أليستْ المراعي كتاب الطبيعة الذي تطوى إحدى أسفاره كلّما اكتملت ملحمة خلق وعشقٍ جديدين؟! هو أكثر من عنوان، بل دالية عناوين وأعناب. حديقة ثمار شهيّة، لكَ أن تقطف منها ما تشاء. هــو نصٌّ مــوازٍ لمجمل المتن. فضاء أوّليٌّ مجازيٌّ «يزعم أنّه جرمٌ صغير وفيه انطوى العالم الأكبــرُ» عالم النّصوص الخصبة الذي لا بدّ للقارئ الذوّاق من أن يحلّق بمخيّلته في أرهائه مسافــة تيهٍ، إذا أراد اصطياد شوارده الهائمة، أقصد عصافير دلالاته الماطرة، قبل هبوطه الأكيد إلى سهوب وفيافي النصوص والتّنقيب في التّلعات عن المياه الجوفيّة الغزيرة، حيث كلّ نصّــ من النصوصــ سيحيلك بالضّرورة إلى حكاية ربوةٍ ولهــى، أوعيد مبتهل من أعياد الطبيعة التي تغتسل دوماً بفضّة بهائها، أو فراشات تنتظر قوسَ قزحكَ لتكمل رسم أجنحتها، أو.. لست أدري!

لذّة الكتابة والدرجة صفر، تناصّات الذّاكرة الثقافيّة

طبعاً المقصود هنا بالدرجة صفر، هو المعنى التّركيبي النّحوي اللّغوي لا المجازي الدّلالي أو التّخييلــي، أيّ أن تترك المفردة لنداوتها المقلقة، تستحمّ بعفويتها منثالةً برقّةٍ وغنج، بلا

تلاعــب أسلوبي، وبكامل أفقيّتها من فعــل وفاعل ومفعول به واسم مجرور ومضاف أو مبتدأ وخبــر، بلا تقديم أو تأخير، مع حضور أدوات الربط المعروفة وأدوات التشبيه البسيطة. كلّ هذه البدايات النثريّة قبل أن تُشَعّرِنَها ريشة الضّوء، تبدو ضروريّة لتتنفس مفردات المجموعة الشّعريّــة «رعويّات» برفيرها العالــي. ثمّ لتبدو كالمتخارجة توّاً مــن أفواف زهرها وتربتها بكامل لثغتها المحبّبة التي تتطلّبها دهشة الحضور الأوّلي للجمال وهو ينشقّ توّاً عن حلمات فجره، لينزّ ببطء تدريجيّ مذهل سائلاً على حوافّ البرهة. ثمّ ما الذي يمكنك وأنت الشاعر أن تبتكــره من مفردات أجمل ممّا تمنحك إيّاه الطبيعة بسخاء، سوى أن تترك حبرك لسجيّة رعافه. متشبّهاً بيراع الطبيعة، مبدعة الجمال الدائم والفوّار وهي تشكّل لوحات هذا الوجود البهيّ، بلا تكلف أو زخارف أو تذويقات. هو الأسلوب الأبسط الذي اتخذه الشاعر نزار قباني طــوال حياته مذهبــاً وكذلك الشاعر «صقر عليشي» بقصائــده المشرفة على السّهل، وربّما بكثيــر من شعــره الذي يصادق ويؤاخي رعويّات شاعرنا، وقــد ينتميان إلى جيلٍ واحدٍ. كلّما ابتعــد الشاعر عن المجازات والانزياحــات العالية اقترب من درجة الصفر في الكتابة حيث البساطــة الأسلوبيّة المخادعة والسلاسة اللغوية والتدفّق العفوي والكلمة الطازجة المغسولة ببكورتهــا، وعدم إقلاق (كاميرا) الحدس، بل تركها تتجوّل بعدستها كما يحلو لها، لتلتقط ما تناثر من شهيّ الصّور والظّلال دون تدخّل مجازي أو دلالي يذكر.

نصوص «رعويات» تحتفي بهذا النّوع من الكتابة الملتذّة بصفريّة لغتها وعنف بوحها الوحشــيّ، المتباهيــة بعودتها إلى الينبــوع الأول حيث السلاسة والنــداوة واللّا تعقيد المجــازي أو الإشاري، أرجو أن تلاحظــوا معي هذه الصّور التي صاغها الشّاعر بلا أيّ عنــاء أو تكلّف أو مــداورة، قائلاً: (ونحنُ نرتّلُ أغاني العــودة ونكتبُ فوق وجه الغروب وداعنا اليومي... أو أخرج من أصيلي إلى قلبي العجوز المفعم بالحكمة والخشية أسأله: أين كنتَ تحترق طوال القرون المنصرمة). إضافة إلى تناصّها الجميل - والتّناص ليسَ مثلبةً، بل ظاهــرة صحيّة قديماً وحديثاً اعترفتْ بهــا الدّراسات واختلفتْ- الذي أعاد امتصاصــي مقــروءات زوّادة الذاكرة والتجربة الذّاتية ليخلق مشهــده الجديد المغمس بخصوصيّــة التجربة الوسيعة والغنية البهاء. وقد تقاطعت وتحاورتْ مناخاته مع طريقة ســرد ومناخات وأسلوب الشّاعر «سليم بركات» بمخاطبته لكائنات الطبيعة، على الرغم من علوّ مجازات الآخر وثرائها وتحليقها العالي ومع ذلك أراها قد ألقتْ بظلالها الوارفة بين نصوص المجموعة، يقول الشّاعر: (إيهٍ يا أولاد إنّه الرابع. إنّه نيسان الأزرق... إليّ

بأحذيتكنّ الجديدة لأرفعها إلى رابعة النّهار... أو هلمّوا إلى عبق «التلمة» إلى أفراحها... أو مخاطبته للعصفور والزّعتر والثور قائلاً: «أيها السيد الثور ما أبهاكَ وأنت تحمل فوق كتفيك عبء الأرض ما أبهاك وأنت المنذور للأثلام وفتنة البقرة السيدة! أو صباح الخير أيهــا الزعتر الأمير يا حليفنا، لتــزهُ إلى آخر الدنيا فوق كلّ النباتــات ولينتشرّ أريجُك الطّيــب في جميع البيــوت) وكذلك تأثّراته بروح أناشيد العشــق الأسطورية وبالتّحديد نشيد الإنشاد» الذي لم ينجُ من سطوة سحره أحد اطّلع عليه حتى الآن حسب معلوماتي يقــول: (ارقصي يا خصور الصّبايا وزغرد يا كون هــذا يوم الحريّة الأزرق، أين البيض الملوّن المغلي بقشور البصل، هذا يوم «المفاقسة» خبِّئوا بيضكم ليوم الرابع لعيد الزهر والفتوة والرقص لعرس الشمس اليوم في الضّحى سوف تتزوّج الشّمس ونيسان وينفجر الزّهــر كشبق فتى مجنون ينشر الرّغاء والعناقات في جسد الدنيا، فوري كتنانير القرى كاشتهــاءات النّساء يا أقدام الرّاقصيــن، أو غريبة أنت كالموت في النّوم، تارة سنديانة، تارة كومة من تراب، تارة جفنة وأخرى محال، أو عيناك بئران من نور أو عسل عميقتان كالمــوت حلماً، يداك طيران، غيمتــان، كونان...). وحيناً يتصادى مــع الشّاعر «بدوي الجبــل» بقوله: (يا إله البراري أفضْ بركاتك الخضراء على الأرض، أرسل رحمتك ندى فــي جميع الصدور واحم يا كبير الكون زهو الوهاد) وحيناً آخر مع أحد شعراء المهجر بقولــه: (زغردي يا طيور الزّرزور، يا شمس يا أعشاب، ابتهجي يا غيوم وارقصي يا مطر وانكسرّ يا شتاء نحن الرّعاة الصغار نعدّ بيتاً لعروس المراعي).

– من قصيدة الومضة والصّورة إلى قصيدة النثر (الانقطاع والتّجاور):

هبــط الشعر قبل آدم، أرض جنتــه الأولى، فكانت الكلمة، بيفاعتهــا الشّفيفة برنّة كعب جملتهــا المخادعة البسيطة الأشبه بومضــة أو صورة خاطفة، وهي تسير على بلّور إصغائنا: «الأذن تشــمّ الموسيقا». المألوف أنّ الأنف هو المتذوّق للرّوائــح، لكنّ الأذن هنا أزاحته من وظيفته، واحتلّــتّ مكانه مجازيّاً، ما سمح بولادة حالة من الإدهاش، أسهمتّ بخلخلة الصّورة وإكسائها بسمسم الشّعر. الموسيقا حالة إيقاعيّة أو همسيّة نبضيّة فيزيائية تُحس وتُلمس ولا تشــمّ. وجملــة «الأذن تسمع الموسيقا» هي الأصحّ كمعلومة تنقلهــا جملة نثريّة توصل رسالة صحيحة، لكنّ المفارقة التي أحدثتها صورة «شمّ الموسيقا، إضافة إلى تبدّل وظيفة المفردة ضمــن سياقها المجازي اللّغــويّ غير المألوف، نشّط عصارة الشعر فــي نسغ الكلام فانتبه لجمالــه وأحبّه. يقول شاعرنــا: (صباح الخير أيّها السيد الثور، مــا أبهاك وأنت تحمل فوق

كتفيــك عبء الأرض، وأنت المنذور للأثلام، وفتنة البقرة السّيّدة)، «هل لاحظتم عن أيّ سيّد يتحــدّث شاعرنا، وكيف يخاطبه بكلّ إجلال؟! ثمّ انتقلت قصيــدة الصورة إلى قصيدة النثر التــي لا تكتمل صورتها الشعريّــة إلا عبر سياق متكامل من الجمــل المتتابعة الطّويلة، التي تصنــع المشهد المتكامل كما سنرى في مقبوسنــا الشعري الآتي. إذ انطلق شاعرنا خبباً، بل قفــزاً، من جملته البسيطة المخادعة السابقة ومن شبائهها، وجنحَ بنا نحو القصيّ والبعيد والطّقوســي دون إذن. يقــول واصفاً: (بشلالٍ مــن شمسٍ كانت تستحمّ، فــوق صخرةٍ طريّة وجسدها المحنّــى بالعنبر الأسمر يبدو زاهياً لمّاعاً..كرغبــات تشتعل... وأنا أرفع عصاي فــوق رأسها الملقــى بأمان في جرفٍ مظلم صغير) ثمّ يقطع السياق كعادة تأصّلت في جينات القصيدة الحديثة. التي بدأت مع الرومانسيّة ووصلتْ أوجها في السوريالية، إذ يكون خطاب القصيــدة ماضياً في سياقه الطبيعي وفجأة يأتــي سياق آخر ويقطعه بلا مقدّمات. لنرَ هذا الانزياح الجميل الذي ابتدأ به الشاعر قطيعته مع ما سبق أيّ «شحوب اليد» والمألوف عادة، هــو شحوب الوجه.ما أعاد إضرام الشاعرية فــي المقطع السّردي الوصفي من جديد. فبعد توصيفــه لشكل الأفعى القابعة عند بوّابة عش صغير وضعت فيه قبّرة فراخها الصّغار يقول: (شحبــتْ يدي وشعــرتُ بالخدر يُصيب زندي الصّلب) على الرغم مــن أنّ الأفعى المتربّصة لــم تلدغه ولم تره حتى الآن، ثمّ يبــدأ بوصف حالته، وكاميرا عينيه تراقب مترصدةً المشهد المنقطــع التّسلسل. ليصف شدة إعجابه بمنظر الأفعى الملتمــع الجميل المغسول بصلافة المقدرة: (كنتُ كالمشدوه أرقبُ جسدَها الطّويل الملتوي فوق الصّخرة الملساء كعصا خيزران مغمورة بالزّيت والنّــور، وضعتُ رأسي بين كفي والشّغف يأخذني وكدتُ أصيح، ما أجملك!). ثم يحدث القطع ثانيةً، لتبدأ لقطة كاميرا أخرى بتهيئة مشهد مغاير كليّاً لما سبق، مأساوي، لكنّــه متوقّع أيضاً على الرغم من تناقضه مع جماليّات السّرد السابقة ظاهريّاً، يقول: (مرّتْ قبّــرة ثم انسفحتْ كبرق وصعــدتْ كرصاصةٍ مراتٍ عديدةٍ تأتي وتــروح... في طقسٍ غريبٍ وفي حمى طيرانها تبرز اللّهفة من تغريدها الغاضب وضربات أجنحتها المجنونة) ثمّ يختفي حدث حضــور الأفعى حين لمحته وهربت إلى شعابها، قبــل أن يستطيع سحق رأسها. ليبدأ حــدث الفجيعة الأكبر بالتّكشّف فجأة دفعــةً واحدة، وقد طفتْ جثث فراخ القبّرة على سطح المشهد، يقول وعدسة كاميراه تقترب من المشهد/ الجريمة: (اقتربتُ من الجرف يا للمشهد الرهيب، ثلاثة فراخ قتيلة، صغار أنثى القبّر، في الجرف المائي الملوث بالسّم، وجثثُ الطيور البريئــة تطفو، والقبّرة الثكلى تصعــد وتدنو، لكأنّها أُصيبتْ بمســّ، كان الحنق يمزّق قلبي،

فكسرتُ عصاي، وانخرطتُ في شهيقٍ متقطّع مرير!!) الله يا شاعرنا الجميل، أيّ سورياليّة أي فجائعيّة، أيّ إدهاش؟!

زهو الطّفولة، رائحةُ اللّمام والألفة

من منّا لم يلعب تحت قناع الطفولة الأولى أجمل ألعابه وأجرأها، كلعبة العروسين الطفليين؟! مموّهاً رغبته المدفونة بإطار من البراءة الملفّقة المتفق عليه مع قيم الكبار والمجتمع. إذ يُختار فتى وفتاة ليلعبا لعبة العروسين بتواطؤ وجوقة الأطفال. من منّا لم يترك سحر هذه الألعاب الطفولية آثاره المالحة أو الحلوة على صفحة روحه مدى العمر؟ ثمّ كيف تتبدّل العلاقات مع الكبر فيما بعد وتبرز الفوراق الطّبقية والنّفسية والرّوحية والاجتماعيّة، إذ تتعدّد وتتشعّب طرائق ومسارات أطفال الأمس في دروب الغد. ليتجاهل كثيرٌ منهم بعضهم بعضاً كأنّه لا يعرفه. نعم كلّ هذا المشهد يستعيده الشاعر طازجاً بشباب صوره وحيويّتها، كما اختزنته ذاكرة روحه، فتعالوا لنرى ما يقوله هذا الراعي الملتاث بمرض الحبّ: (زغردي يا طيور الزّرزور، ياشمس، يا أعشاب سوف نزفّ الزهرة للنور سنزفّ النجمة للنسر..نحن الرعاة الصغار نعدّ بيتاً صغيراً لعروس المراعي وإكليلاً من غارٍ وعشبٍ، لعريسها الخجول... هاتوا الحجارة يا أولاد وافرشوا البيتَ بساطاً من عشبٍ جافّ من ترابٍ دافئ وناعم، هيئوا للجميلين مخدع الهوى واتركوا باباً صغيراً كي يدخلا السيد والسّيدة ويتعرّيا بأمان فوق العشب الحميم، وأنت يا زهرة الشزريق كوني: طيّبة فاتنة، امنحي جسدك الأبيض المعطّر المحنّى كأرضٍ في ربيع! هلمّوا يا أولاد هيئوا هودجاً للعروس، غنّوا لها أهازيج الأعراس، وأطلقوا نيران مسدساتكم الخشبيّة وفجّروا بأقدامكم الحافية صمت الأرض، إنّها ذاهبة إلى كوخها الحنون، يا للعروس يا لزهرة «اللّمام» يا لحضن «التّربين» اليانع، المزهوّة كشجيرة «آسٍ» في صحوة نيسان... يا للعروس النقيّة مثل جدول، تتوّج الربيع بألوانها الفاتنة... بعد ساعات سنناديك «أيّتها السيدة، بعد سنة ستصيرين أمّاً وبعد سنين سنذكر كيف صار الربيع شاحباً بغيابنا، وبأسى يشبه الاحتضار ستمرّ في خاطرنا رفيقة المرعى» التي خانتنا «لتركبَ العربات الطويلة، وتحتسي شراباً غريباً كأنّه زقوم وسنقول ما أحقر الخيانة!؟ أما الآن... فابهجينا برقصكِ الفاتن، بأغانيكِ... يا حبّة القلب... يا فراشة الروح. يا عروسنا).

روح الشاعر، روح الطبيعة، الرّاعي «حسن»

كلّ قصيـــدة/ لوحة من «رعويـــات» الشاعر يُحبَّر عنها صفحات كثيرة لو شئتَ، لطاقتها المشبعـــة بمزيد مـــن الجمال المتجدّد، لكنّ قصيدة «حسن» تنفـــرد عاليةً لتتوّج النّصوص بإكليـــل غار لا تجـــف رائحة أوراقه أبداً مـــع الزمن، هي أكثر من حالـــة اندغام في جسد وروح الطبيعـــة، أكثر من التحام واحتراق بأديم الأرض وروائح الرّيف البكر النّفّاذة وينابيعه الفـــوّارة، هي روح الأرض الحقيقيّـــة، بشهيق وزفير عشبها المبلول بماء البدء، المنبعث من رئـــات الخفيّ وزفيره، نبض الصلصال في انبثاقه الغامضـــ من جسد الأسطورة، أسطورة الخلـــق، الوليـــد الذي جاء الحياة بهيئة ســـؤالٍ مزهر، هي شموخ الريـــف، هي كلّ شيء لم أستطـــع قوله وتنفستّه مســـام وفراغات الصّمت في هذه القصيـــدة، يقول الشاعر محمود عبد الكريم: (أنا حسن الراعي العجوز، أنا نبتة أو عصا، أنا طائر أو حجر، أنا شيخ الرعاة حارس «التّبورة» الخضراء قبضة من عشب تساوي عندي قبضة من ذهب، بعصاي أشيرُ إلى الصبـــح كي يخرج من خلف الجبل، وللشّمس أن تجفّفَ خدود الأعشاب كي تصحو وتزهو، أنا حسن صديق العصافير وليفَ القبّـــر، حاميَ أعشاش الطيور..أسمّي الأعشاب الأشجار الحجارة الطيور، أدعو الثّور إلى أكمة عامرةٍ بالعشب، والبقرة الأم إلى خليج نابتٍ خضيل، وبيديّ الخشنتين: أنهضـــ نعجةً تعثّرتْ، أحمل وليدها وبأكمامي أمسح لزوجته وأشعل ناراً عاليـــة كي لا يحطمه البرد، أنا حسن خرّوبـــة، جسد في غيمة، أشيرُ إلى الشمس أن تغرب وآمر القطيع: إلى القرية، أحمل في كيسي خصور الزّيزفون، طرابين الزّعتر والفطر البرّي وبقايا البصل، أحمل البرّيّة ونباتات الزّوفا وأترك ظلّي على صدر الصّخور، أنا حسن كبير الرعـــاة شيخ العشب ابن السنديان صديق القبّر رفيق البريـــة الأبديّ، حينما أطبق جفوني إلـــى الأبد: ستهمي قطرات الدمع، من عيون الأغصان وأحداق الطيور، وفوق ثغري سترسم السماء، الطيور، ابتسامة شاسعةً... زرقاااء).

الختام، كوجعٍ لابدّ منه

وأنت تغادر عتبات هذه النصوص المورقة، الممتلئة ماءً، النّضرة عشباً، يصيبك الحزن والفـــراغ، لكن لابدّ من ذلك، فشاعرها قد ورّطكَ وتركك لمصيرك الجميل، وغادرها منذ عقود متهيّباً العودة إليها باعتقادي، كي لا يقع في عشقها، ومن ثمَّ آلام فقدها من جديد. هكـــذا لا مزيد لديك لتقوله، أو لتصمته، ولذلك حاول أن تكتفي بالاستماع لتحذير راعيها

وساردها العتيق «محمود عبد الكريم»، وقد استعاد هيبة الأسطورة والنبوءة. لتخترق كلماته ضبــاب منتصف الثمانينيّات الكثيف، نافذةً بقوّة إلــى عتمتنا الحاليّة، وهو يهتف ملتاعاً، كأيّ وطنيّ غيور على هذا الوطن المنكوب بتوالي هجوم الضباع عليه من كلّ حدب وصوب، صارخــاً في الجموع، لكن دون جدوى، لقد سبق السّيف العــذل: (أصعدُ التلّة وأصرخُ في أذن القريــة: الضّباااع جاؤوا وهم في أسفــل الوادي يا سامعين الصووووووووت) هأنذا، ردّد الصّــدى بأسى، نعم أتى الضباع يا صديقــي وكان أغلبنا نائماً يشخر، غافلاً عن كلّ ما يجري، بل مازال قسم آخر يغفو على حرير أحلامه، مستغرباً حتى الآن أسباب كلّ هذا الضّجيج والفتك!

❀ ❀ ❀

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال

في حضرة باب الجابية



لئن تعذّر علـــى الدارس والباحث والمؤرخ، الوقوف على الأسبقية في حياة الإنسان، هل الأسبقية للرواية التي رافقت وعينا للوجود بوصفها (حدوتة بالمعنى البسيط)، أو للأغاني التي هدهدتنـــا بها أمهاتنا منذ أول صرخة (بصيغتها البكر ومفهومها الشعبي).

فمِنْ غير المختَلَف عليـــه أن كليهما (الرواية والأغنية) قد تجاورتا وتخالطتا وتبادلتا التضامن والتضمين والأماكن والتمكيـــن في حياتنـــا، على غير مجال وصعيـــد ومستوىً، فمـــا أكثر ما نستمع إلى أغـــانٍ تنضح حكايات عشق وحرب وبطولـــة... وغير قليل ما نقرأ مدونات تنطوي على أغنيات بعينها، تلميحاً أو تصريحاً، منقوصة أو كاملة.

أمّا أن يُشَكِّل أحد المطربين بالشراكة مع أحد المعجبين به، الذي يضاهيـــه شبهاً: صوتاً ومزاجـــاً وطالعاً ومصيراً، كالذي حدث في الجزء الأوفر من جسد الرواية (في حضرة بـــاب الجابية) فهذا ما لم يحصل في حدود معرفتنا إلّا مع

الأديب أيمن الحسن في روايته الجديدة: في حضرة باب الجابية (طفل البسطة) الصادرة حديثاً عن الهيئة العامة السوريّة للكتاب لعام (٢٠١٨م).

في حضرة باب الجابية (طفل البسطة):

عمـلٌ روائيٌّ جديد للأديب أيمن الحسن، بعد مجموعاته القصصية (محاولة في رصد ما حدث، العـودة ظافراً، شاي، عصا موسى، زهرة الشغف، ذات شفـق، مسك غزالة وقمر). وروايته السابقة: أبعد من نهار (دفاتر الزفتية).

تقـع الرواية في (٣٤٣) صفحة من القطع الكبير، وتتألف من بابين اثنين هما (سِيَرُهم المأثورة) و(مآل أخير)، يتقدّمهما (الإهداء) و(أوَّل الحَمَام).

يحتوي الباب الأول على العنوانات الآتية:

(تحـت ضوء الشمـس، بلا قلب، مدرسة الحياة، صدَّاح، بديلتـان، أفلاطون الفرنسي، وقت آخر للحَمَام، الخوجا، السيدة، ضبع الليل، جدار الصوت).

وفي الباب الثاني نقرأ ما يأتي:

(الأخرس، صحيفة النذير، المواجهة، غبش الحنين، طوق للحمامات، عن الشوق والفرح، أُنشوطة النار، ترجيع لحنُ حزين، أعشاش ضوء بائد، ختام الحَمَام).

في حضرة باب الجابية...

رواية: مكتوبة بقلم الخبرة والمعاناة...

محبَّرة بتجارب مواطني الطبقات الفقيرة والفارقة حتى القاع في المعاناة والألم...

و(المدونة) على إيقاع الفن والحياة.

سلاماً مواعيد قلبي دمشق

عبـر سيرته الشعرية التي نافت عن نصـف القرن، عالجت قريحة الشاعـر «أيمن أبو الشعر»، ضروب الشعر العربي: العمودي منه... والتفعيلة... والحديث. بيد أن أكثر أشعاره حافظت، بشكل أو بآخر على إيقاعها الخارجي...

للشاعـر أيمن أبو الشعـر إضافة إلى أشعاره بالعربيـة أشعار بالروسيـة ومسرحيات ودراسات وترجمات منها:

- دراسات في تاريخ الثقافة العربية في القرون الوسطى، (ترجمة).
- أنطولوجيا الشعر السوفييتي، المجلد الأول، الشعر الروسي، (إعداد).
- الملل والشاعر، رسائل عشق، محاكمة المواطن (س)، (مسرحيات).

– صندوق الدنيا، الصدى، انتحار الدلفين، الحب في طريق المجرة، (شعر).

ومــن مجموعته التي صدرت مؤخراً عن وزارة الثقافة – الهيئة العامة السوريّة للكتاب في دمشق «سلاماً مواعيد قلبي دمشق» هذا المقطع من القصيدة التي يطابق عنوانها عنوانَ المجموعة:



أنا الياسمين الحواري
وجوريُّ خدّ النهارِ
شميم الندى في ترابكْ
وتهويمة العشب بعد المطرْ
ونارنج داركْ
إذا ما تمرّى بضوء القمرْ
قناديل كبّادك الحلو عند السحرْ
مواعيد خصبك في النبضِ برقٌ
لفجرٍ جديدٍ وشعبٍ سعيدْ
بزندٍ بلا مطرقاتٍ
يدقّ الحديد الرؤى إذ يدقُّ
سلاماً – مواعيد قلبي- دمشقُ.

الإنـتروبيـا والشـعـر

إذا كان الشعــر معروفاً لدينا، أو لنقل إننا نزعم معرفته، فما تراه يكون معنى «الإنتروبيا»؟ هناك مثال بسيط يبسط لنا فهم المطلوب كالآتي:

لنأخذ مروحة تعمل بالكهرباء، يحتاج شحنها بالطاقة كي تعمل، إلى (٢٤) ساعة من الشحن، حتى تشتغل مدّة (٦) ساعات.

الفرق بين الطاقتين: المستهلكة والناتجة، هو «الإنتروبيا».

«الإنتروبيا والشعر»:

هو عنوان كتاب جديد، صدر العام الجاري (٢٠١٨م) عن الهيئة العامة السوريّة للكتاب في دمشق، لمؤلفه المهندس الشاعر «محمود نقشو».

يحتوي الكتاب على دراسة تتفصّل في ثلاثة أبواب:

الأول: جدلية الإنتروبيا والطاقة.

الثاني: تأملات في الإنتروبيا والشعر.



الثالث: الشعر من أجل عالم أفضل.

وكل باب ينطوي على فصول عدّة.

فـــي الفصل الثانـــي من الباب الثاني، نقــرأ تحت عنوان «الشعر في العصر الإنتروبي»:

«نحـــن لا نعرف من نحن فـــي البداية، نحـــن عبارة عن مـــادة خام أو جملة إمكانات واحتمالات افتراضية، وذلك قبل الدخول في معمعة القصيدة، والإبداع هو الذي يساعدنا على استكشاف القارات السحيقة التي تكمن في دواخلنا.

وهكـــذا يقودنـــا الإبداع إلـــى ذواتنـــا، يشعرنـــا بهويتنا الشخصية، يجعلنا نعرف من نحن على هذه الأرض...».

ومما جاء علـــى غلاف كتاب «الإنتروبيا والشعر» الذي لا يخفي تفرّده بغير قليل من المعلومات الفنية والعلمية التي تغني المختصّين والدارسين وتسهم في توسيع ضفاف معارف العامة والذوّاقة:

«تحمـــل كل حالة تجدد وديمومة مرئية في ثناياهـــا إنتروبيا تبددها الخاصة التي تتجلى باندثار ملاييـــن الخلايا في الدقيقة الواحدة داخل الجسم الحـــيّ، وهذا هو الفعل الإنتروبي المتواتر: هدر مؤبّـــد لصيغ البقاء، ونفـــي قاطع لفكرة الخلود، ولن نتوقف محاولات التجـــدّد أبداً ما دامت الحياة قادرة على الاستمرار».

تفاحتي... وقد سرقتُها

علّـــه لم يعـــد من الغرابة في شيء، أنْ نلتقي بين ظهرانينا، بشعـــراء وشاعرات لافتين، من حملة شهادات علمية في الطبّ والهندسة وغيرها، ما ينمّ عن تعالق وتداخل وطيدين ما بين العلوم والآداب، والأمثلة على ذلك متوافرة في الأجيال السالفة من الشعراء والشاعرات، وفي جيلنا الراهن.

فها هي شاعرتنا «رماح بوبو»، التي صدرت لها عن دار «ديار» في تونس مجموعة عنوانها «البحر يبحـــث عن أزرقه»، تتبعها بمجموعة جديـــدة صادرة عن الهيئة العامـــة السوريّة للكتاب في دمشق، بعنوان «تفاحتي... وقد سرقتُها».

«رماح بوبو»:

امـــرأة تشطف درجات روحها بسيجارة... مُحِبّة تستقيـــل من حُبّ بلادٍ لم تورثها سوى العويل... عاشقة تنشر روحها ندبة ندبة على شرفة فنجان معشوقها، ذات غروب...

وشاعرة تتمنّى لو كانت راعية تلملم كما تشاء لحظاتها المستهترات، تعقر ركبة الدرب دون حرج، ولا تهتمّ إن قرصها شوك بريلة ساقها!

من عناوين المجموعة:

(زهــرة هزيلة، صهيل دمك، قصيــدة مهرّية، تلك الحارات، حين رحيــل، المقعد العتيق، امــرأة عصيّة، حريق، حينيــن، حب، شقاوة، غيظ، يباس، وجع، قلــق، ضحكة، شاعر، شهيد، عبث...).



تمتح الشاعرة المهندسة الشابــة «رماح» أفكار قصائدها من آبار بيئتها وأعماق أحاسيسها...

تهرّب مفرداتها من معجم القلب والكروم...

تهندس جملها على مقام الحب والحرية...

تطرّز جدرانها بالأغنيات والحبق...

وتتساءل من على منبر الغلاف الأخير لمجموعتها:

أما من أغنية
تشقُّ بابَ هذا الليل...
ثُمَّ...
تنسلُّ دافئة في فراشي...
تفرك قلبي...
الذي جمَّدَه القلق
تعيرني... حلماً من عصافير
وحبق.

هذيان الفضّة

(سِفْــرُ الريح، كــون مكسور، خطأ كوني، سريــر الشمس... منحوتة حجر، تأتــي، صباح، نجمة، فراشة، نهر، طيف، حرير، حلم، كلمات، الجبل، منحوتة حجر، تعويذة، الحافّة، مرايا).

الكلمــات أعــلاه، هي العناوين التــي أسبغتها «سوســن الحجة» علــى مجموعتها «هذيان الفضّة».

جديــر بالتنويه، أن الشاعرة جعلــت من الحدود الفاصلة بين مساكــب قصائدها، فوارز شعرية تشاغب على المساكب، من تلك الفوارز:

(في مرآة الريح
يتعرّى الجبل
طيراً
طيراً...).
(في غيابك
تلتقي
الاتجاهات
في العدم).
(في فم الطير
لا
يقلق
الطين).

(في داخلي موت
أوراق الشعر
لا تغطّيه).
(البذور
تكثيف الذات
في
الكون).
(تعال
نضحك
البراري).



«هذيان الفضّة» باقــة أشعار، تأليف وتوليف «سوسن الحجة»، صدرت حديثاً عن «دار كعنان» في دمشق.

❀ ❀ ❀

صدى المعرفة

إعداد: ريما محمود

كنوت هامسون يصرخ في وجه هتلر



الكاتب النرويجي كنوت هامسون (١٨٥٩- ١٩٥٢م)، الحاصل على جائزة نوبل عام (١٩٢٠م)، وصاحب رواية «الجوع ١٨٩٠م»، ورواية «أسرار ١٨٩٢م»، و«فيكتوريا» و«بان».

قال توماس مان عنه: «**لم تمنح جائزة نوبل قط لكاتب أكثر جدارة بها من كنوت هامسون**».

يقال عنه أيضاً إنَّه المعبر الأكبر عن الروح القومية النرويجية، وأهم كاتب وأكبر مجدد في تاريخ حركة الأدب الإسكندنافي في نهايات القرن التاسع عشر.

عاش هامسون حياة القلق والتشرد والفاقة، وكتب رواية «الجوع» من وحي ذلك.

تعرض الكاتب الكبير لانتقادات كبيرة من سكان وطنه وفي أوروبا، لأنه رحَّب بالنازية في الحرب العالمية الثانية وهي تجتاح وطنه وتجتاح أوروبا... وبعض نقّاد الأدب التمس له المسوِّغات إلا أن هذا لم يجدِ نفعاً، ومن هذه المسوغات دعوى أنه كان نزقاً في عدائه للإمبريالية البريطانية.

كتب هامسون مقالاً بعنوان «كلنا ألمان» مرحبّاً بهتلر، ولكنه في حينها كان منعزلاً في بيته، لا يشتري الصحف، ولا يستمع للإذاعة لضعف في حاسة السمع لديه. وبصفته سيداً من سادات الكلمة، وجد

نفســه مضطــراً لأن يقابل الحاكم النازي للنرويج من أجل العفو عــن شابّين نرويجيين كانا يقاومان النازية. الحاكم النازي يعرف هامسون؛ لن يجد في الأرض النرويجية من يكتب بقلمه ويؤيد ما يجري أكثــر من هامسون نفسه. ولكن، في حسابات هذا الحاكم، السياسة لا علاقة لها بالأدب، ولذلك قرر إعــدام الشابين بأســرع ما يمكن وهذا ما حدث دون أن يكترث بالتماس هامسون. وكثر الحديث بعد هذا اللقاء عن إلغاء النرويج من الخارطة الجغرافية وجعلها تابعة للنازية الألمانية إلى الأبد.

دفعته الأحداث إلى السفر إلى النمسا لمقابلة هتلر والطلب منه عزل الحاكم النازي في النرويج والتخلص منه، رحَّب هتلر بالكاتب، وبــادره بالسؤال عن طبيعة عمله الأدبــي «واخضرَّت الأرض» وسألــه: كيــف استطاع كتابتها؟ وهل كان وقت الكتابة في الليــل أو النهار؟ إلا أن الكاتب العجوز جاء لمقابلــة هتلر لهدف واحد، بادر بالإجابة قائلاً: «إن الحاكم النــازي يفعل أشياء تثير غضب الشعب النرويجي وعلى هتلر أن يستبدله».

حاول هتلر الهرب من إلحاح هامسون. إلا أن هامسون قال مخاطباً هتلر: «كأنني أخاطب جداراً»، ولم تمر سوى لحظات حتى طرده هتلر، ووجد الروائي العجوز نفسه في حالة يرثى لها من الخوف.

وبعــد هزيمــة هتلر في الحرب العالمية كتــب هامسون مقالاً جاء فيه: «لقــد كان هتلر محارباً عظيماً من أجل الإنسانية».

ومــن غرابة أطوار هامسون أنه شنَّ هجوماً على رمــوز الأدب النرويجي وعلى رأسهم المسرحي الكبير هنريك إبسن وهاجم الكاتب الروسي تولستوي، ولكنه كان شديد التعصب لدوستويفسكي.

سارتر يتحدَّث عن الكتابة والشهرة والنساء

الأديب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر قال رداً على سؤال وجَّهه إليه الصحافي الفرنسي «بيير بينشو» جاء فيه: «إنك اليوم، بلا شك، أشهر فيلسوف في العالم، كيف يمكن أن تعيش بهذه الشهرة؟».



ردَّ سارتــر: «هل تعرف، أنَّ هذه الشهرة تبدو لي كما لو كانت مركَّزة على شخص آخر!... ومن هنا فإنني أقول: إنني أنــا موجود والشخص الآخر أيضاً! هذا الشخص الآخر هو الشهرة، أستخدمــه في بعض مجالات الحياة، في المحاكم مثلاً، لأنَّ المحاكم تعني جيداً أنَّ هذا الذي يقف أمامها هو جان بول سارتر (الشهيــر) ولكنني لا أفكر فيه لأنه أنا، إنه لا يبدو لي شخصاً حقيقياً، إنني أعرف حقيقة الرجل الذي يتكــوَّن من لحم وعظم، وهو «أنــا» الرجل الذي يأكل وينام،

والذي يفكر أحياناً في أشياء غبية، مثل أي شخص آخر، ولكنه لا يفكر في الشخص الآخر الذي يكتب كتباً يقرؤها الناس...».

وفي الحوار نفسه تحدَّث سارتر عن تفضيله الحديث مع النساء أكثر من حديثه مع الرجال لأن الرجال، حسب قوله، يتحدثون في أشياء لا معنى لها كالحديث عن وظائفهم أو السياسة، ليس هناك حرية للحديث مع الرجال.

أما النساء «فيُحسسنَ بأن هناك ضغطاً ما وقع عليهن وأن اهتمامهنَّ بالناس والأشياء ينبع من حقيقة أنهن يحببن الاستمتاع بالحياة أكثر من الرجال... إن لديهن حرية أكثر في إحساسهن بالضغوط الواقعة عليهن ومن ثمَّ لديهن المقدرة على أن يتأملن الطبيعة وجمال الحياة.

ولو أن النساء تحررن فإنهن سيصبحن مثل الرجال ويتكلمن في هذه الأشياء التي لا معنى لها».

قال له الصحافي: «قلت يوماً ومنذ مدة طويلة إن هناك ثلاثة أشياء تحبها أكثر من أي شخص آخر في الحياة، وهي: المناقشة مع النساء... والفلسفة والأدب». ردَّ سارتر: «إنني أرتبها اليوم كالآتي: الكتابة وبعد ذلك المناقشة مع النساء».

أرشيف جورج لوكاش



أصدرت أكاديمية العلوم الهنغارية، مؤخراً، قراراً بإغلاق الأرشيف الذي يحتوي كتب ومخطوطات الفيلسوف والمفكر الماركسي الهنغاري جورج لوكاش. وبهذه المناسبة التقت جريدة «اليونغه فيلت» الألمانية مع رودغه دانمان رئيس مؤسسة جورج لوكاش العالمية، تناول فيها الحدث والتداعيات المترتبة عليه. وفيما يلي بعض ما ورد في الحوار:

هناك مسارات مختلفة لأعمال لوكاش في أعماله المبكرة مثل «نظرية الرواية» و«الروح والجسد»، وبعدها في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي» الذي يعدّونه تأسيساً لـ«الماركسية الغربية» كان لها تأثير قوي في محيط الفيلسوف الألماني «أدورنو».

بعد الحرب العالمية الثانية، اقترب لوكاش من دور «أدورنو الشرق»، حسب توصيف الكاتب والروائي الألماني «فرتس يوأخيم راداتس». ويعدّ أحد واضعي حجر الزاوية في علم الجمال الماركسي. فقد حاول في مؤلفاته المتأخرة مثل «خصوصيات علم الجمال» و«الأنطولوجيا» استنهاض الماركسية.

ولا ينحصر الاهتمام بلوكاش في أوروبا الغربية، بل تعدَّاها إلى بقاع بعيدة جداً من العالم، وأخيراً يقوم بروفسور صيني بتحرير طبعة لأعمال لوكاش تتألف من ثمانية وعشرين مجلداً..

بعد عام (١٩٨٩م)، عام تفكك بلدان المنظمة الاشتراكية في أوروبا الشرقية، تصاعدت حدة العداء للشيوعية ولرموز الفكر الماركسي، ومع ذلك لم تبادر الأكاديمية إلى إغلاق الأرشيف في وقت مبكر. وتعود أسباب ذلك، حسب دانمان إلى ما يلي:

من المعروف أن للوكاش مؤلفات مهمة قبل أن يصبح ماركسياً، ولهذا حظي باهتمام واحترام غير الماركسيين، إضافة إلى تمتعه بسمعة عالمية تجعل من غير المناسب إخفاء آثاره الفكرية. لهذا لجأ خصوم لوكاش إلى إستراتيجية ناعمة تقوم على تجفيف منابع الدعم المالي، وتقليص عدد العاملين في الأرشيف.

في عام (٢٠١٧م)، عقد مؤتمر فكري في بودابست حول لوكاش وكان أيضاً بمنزلة احتجاج على التعامل مع إرثه. وكان الحضور يتألف من ماركسيين وغير ماركسيين. وهذا التوحّد يعكس موقفاً واضحاً من استبداد حكومة اليمين المتطرف بزعامة فيكتور أوربان.

لقد تحول لوكاش إلى قوة جاذبة جامعة للمعارضين في بلد مثل هنغاريا. وكان من الواضح أنه لُجِئ إلى إجراءات تعسفية. أدّت احتجاج عالمي، حال الإعلان عن إغلاق الأرشيف، فالأمر لم يكن سهلاً على الحاكمين. ولهذا استغرق وقتاً طويلاً.

مهمة الأرشيف الأولى تتعلق برعاية تركة الفيلسوف المتوفَّى في عام (١٩٧١م)، بما ذلك رسائله المتبادلة مع معاصريه، والتي لم ينته العمل بها بعد. وهناك ملاحظات دوستويفسكي الشهيرة، والمسودات الفلسفية التي تشير إلى التطور التدريجي في علم الجمال الماركسي. و عمله المهم جداً في شأن التحول الديمقراطي، الذي يتناول فيه العلاقة بين الديمقراطية والاشتراكية في سياق «ربيع براغ» عام (١٩٦٨م)، ويصر على أن الاشتراكية لا يمكن تصورها من دون الديمقراطية، ومن ناحية أخرى، فإن الشكل الغربي للديمقراطية غير كاف تماماً.

هناك كثيرون يسعون إلى إنقاذ الأرشيف، ولكن إمكانات التمويل محدودة. ويعود ذلك إلى ضعف التيار الاشتراكي الماركسي في هنغاريا. ولهذا هناك محاولات في أوساط حزب اليسار الألماني، منها تقديم النائب اليساري ديتر ديم طلباً للحصول على الأرشيف اعتماداً على تجربة الحصول على أرشيف الروائي الألماني المعروف توماس مان، وتلقى هذه المحاولة دعماً من قيادة الحزب، وكتلته البرلمانية.

فان كوخ والفَاقَة

فنسنت فان كوخ أحد أهم الفنانين الانطباعيين، وأحد أكثر الشخصيات تأثيراً وإبداعاً في تاريخ الفن، إذ أثرت أعماله المفعمة بالإحساس وألوانه الخاصة والجريئة تأثيراً كبيراً على الفن في القرن العشرين.



فان كوخ بريشته

إن أحد أهم أسباب نجاح فان كوخ هو مهارته الفذة في انتقاء ألوان لوحاته، ولكن الألوان التي انتقاها فان كوخ ليست تلك التي نراها في لوحاته الآن؛ السبب في ذلك يعود لاستخدام فان كوخ وكثيرٍ من الفنانين في ذلك الوقت صبغات ذات تركيبة غير مستقرة ولا سيّما الصبغة الصفراء، مما أدى إلى تغير اللون إلى درجات قريبة من اللون البني مع مرور الوقت.

ولد فان كوخ في (٣٠ آذار عام ١٨٥٣م) في جروت زندرت في هولندا، سُمي بهذا الاسم تيمناً بأخيه الكبير الذي ولد ميتاً، والذي بدوره سمي بهذا الاسم تيمناً بجده. كان لفنسنت أخٌ آخر يسمى ثيو فان كوخ، وقد سمى وليده الأول فنسنت فان كوخ الرابع تيمناً بأخيه الفنان.

لم تكن بداية مشوار فان كوخ الفني سوى مصادفة، إذ إنه كان يحاول التخفيف عن نفسه من خلال الرسم بعدما طرده والداه من منزلهم بسبب فشله في الحصول على وظيفة، فبدأ مسيرته الفنية في سن السابعة والعشرين، كان فنسنت يرسم كلّ نهار، من الثامنة صباحاً وحتى الخامسة مساءً، أمَّا أمسياته فكان يقضيها في الكتابة لأخيه ثيو؛ فأنتج ما يقارب تسعمئة رسالة لا تقلُّ في بلاغتها عن تلك الرسائل التي تبادلها كبار الأدباء؛ فأرَّخ لحياته بنفسه، ونقل إلينا عبر حروفه هلاوسه ومرضه وأحلام يقظته، كما أنتج خلال تسع سنواتٍ فحسب، هي التي قام فيها بالرسم، نحو ألف وسبعمئة لوحة، وثَّقت انفعالاته، ورحلته في الحياة، من الجنون والكآبة، حتَّى الانتحار في (٢٩ تموز عام ١٨٩٠م). وقام برسم أربع وثلاثين لوحة لنفسه في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات.

من السهل اتهامه بالغرور بسبب حبه لرسم نفسه، ولكن السبب الرئيسي وراء ذلك هو الفقر العاطفي والمادي الذي عانى منه طوال حياته، وعدم وجود أي أصدقاء لديه ليقوم برسمهم، ولا المال الكافي لتأجير العارضات المحترفات التي يأجرهن الفنانون لرسمهن.

لولا جهود جوانا زوجة ثيو فان كوخ لما حظي فنسنت بهذا القدر من الشهرة في مجال الفن. إذ ورثت جوانا بعد وفاة فنسنت وثيو كثيراً من اللوحات التي رسمها فنسنت، وأخذت على عاتقها مهمة نشر أعماله للمتاحف المختلفة حول أوروبا.

كما قامت بنشر الرسائل التي كتبها فنسنت لأخيه ثيو كأعمال أدبية منفصلة بهدف نشر سيرته الذاتية.

بعـد وفاة جوانا، قـام ابنها فنسنت فان كوخ الرابع بتأسيس متحف فـان كوخ في أمستردام عام (١٩٧٣م) ونُقلَتْ جميع أعمال فنسنت إلى متحفه الرسمي.

ظل فقيراً وغير معروف طوال حياته ولم يتمكن من بيع إلا لوحة واحدة، أما اليوم، فإنّ كل لوحة من لوحاته تُقدر بملايين الدولارات.

غرابة أطوار الإمبراطور الروماني «نيرون»

اشتهـر الإمبراطـور الروماني «نيرون» بغرابة الأطـوار، وقد رُوي عن سلوكـه حكايات، بعضها مشكوك فيها. كان نيرون رساماً وممثلاً وموسيقياً، حكم روما وأصبح إمبراطوراً سنة (٦٤م) وهو في سـن الخامسة عشرة. ووجهت إليـه اتهامات، منها: اضطهاد المسيحيين، وإحراق روما، وقتل والدته وزوجته وأخيه ومعلمه.

ويقول الكاتب والصحافي المصري أنيس منصور في كتابه «رقاب العباد»: إن نيرون ورث النزعة الدموية من والدته «أغريبينا» التي قتلت زوجها الإمبراطور كلوديوس ونصَّبت ابنها إمبراطوراً.



وحَوْلَ الخبر الذي نُسب إلى نيرون قيامه بإحراق روما عاصمة إمبراطوريته، يزعمون أنه فعل ذلك، لكـي يستمتع بمنظر المدينة، وهو جالس فـي برج يعزف علـى القيثارة، ويقـرأ أشعـار هوميروس فـي «الإلياذة» إذ يصـف فيها حريق طـروادة. شكك بعضهم في هذه الرواية وبُرِّئَ نيرون من هذه التهمة، ونسبها بعضهم إلى قبائل الغال.

ومـن طرائف مـا رواه المؤرخ الروماني سويتون عن نيرون، أنه عندمـا أصبح إمبراطوراً لروما، كان طموحه الأكبر أن يغنِّي أمام الجمهور، فبعدما أخذ دروساً في الغناء، قام بأول نشاط له في مدينة نابولي، وصادف أن حدثت هزّة أرضية هزّت المسرح، تماماً في الوقت الذي كان فيه نيرون يغنّي، فغادرت أغلبية المشاهديـن المـكان في حين تابع هو الغناء. تعلّم نيرون الدرس. وفي الحفلة التي تلت حفلة نابولي، أمر بسدّ كل منافذ المسرح حتى لا يتمكن أحد من مغادرة القاعة قبل انتهاء مشهده الغنائي.

إروين شو

حب وحرب

ترجمة: أنيس منصور

اختيار وتقديم: ناظم مهنا

رئيس مجلس الإدارة

محمد الأحمد

وزير الثقافة

المدير المسؤول

ثائر زين الدين

رئيس التحرير

ناظم مهنا

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

ريما محمود

التدقيق اللغوي

أماني الذبيان

التنضيد

ابتسام عيسى

الكاتب الأمريكي إروين شو

(١٩١٣- ١٩٨٤م)

ولد في نيويورك عام (١٩١٣م) كاتبٌ إنسانيٌّ كبيرٌ، من أشهر الكتّاب الأمريكيين المعادين للحروب، فهو روائي وقاص ومسرحي وكاتب سيناريو، وله مسرحية ترجمت إلى العربية في سلسلة المسرح العالمي، بعنوان: «ثورة الموتى». عن الحرب العالمية الثانية.

قصة «حب وحرب» التي اخترناها لهذا العدد، قصة واقعية، تجري أحداثها في مدينة نيويورك، في مرحلة الحرب العالمية الأولى، شخصياتها قريبة منا تشبهنا أحياناً، ونكاد نعرفها لشدة واقعيتها. روجر وصديقه نوح، من شبان أمريكا المعاصرين، يتعارفان بالمصادفة، ويسكنان معاً في غرفة مستأجرة واحدة، إلا أنهما يفترقان بسبب التحاق روجر بالجيش في الحرب العالمية الأولى، كلاهما يتحدّثان في الأدب، في الشعر والموسيقا والسينما والسياسة والحب. كما هو معهود في الإنسان الحديث، أينما كان. وشخصية «نوح» بطل هذه القصة صورة ممتلئة بالمعاني والتناقضات، صورة عن الإنسان الحديث، قارئ الأدب، موقفه من الحياة والحب موقف دافئ لكن تشوبه الريبة والسخط والتردد والخجل. «يستبعد نوح أن تقوم في المدينة المزدحمة (نيويورك) أي علاقة إنسانية بين الناس» إذ لم يكن لنوح أصدقاء حقيقيون قبل أن يتعرف على روجر الذي يكبره بأربع سنوات.

ولكن الأحداث تناقض اعتقاده، وتقوم علاقة صداقة رائعة جداً بينه وبين روجر، ثم يدفعه روجر إلى الحب من فتاة فقيرة، اسمها: «هوب بلومان» تعيش في حي بروكلين الفقير، عند خالتها ثم وبعد مخاصمات صغيرة يشتدُّ الحب، الذي تَغْلِبُ عليه العفة والحياء من الطرفين اللذين يكبتان رغباتهما، وينتهي بهما الأمر إلى الزواج.

«روجر، لم يذهب إلى الجامعة، لكنه أحد هؤلاء الذين ولدوا وفيهم ثقة بالنفس، واطمئنان لا يتزعزع، فهو ينظر إلى العالم بجفاف واستخفاف...».

تصوِّر القصة الإنسان في زمن الحرب تصويراً دقيقاً وصادقاً، وتبين لنا هذه الرواية القصيرة نمو الحدث القصصي، وكيف تتطور العلاقات الداخلية داخل القصة كما في الحياة، وهي قصة نموذجية من القصص الواقعية. ترجم هذه القصة الأديب المصري الكبير أنيس منصور، صدرت في كتاب ضمن مختارات قصصية بعنوان: هذه الصغيرة وقصص أخرى.

كان نـــوح مضطرباً. فهـــذه أول حفلة أقامها، وحاول أن يتذكر كل الحفلات التي رآها في السينما التي قرأ عنها في الكتب أو المجلات. وذهب إلى المطبخ مرتين ليتفقّد الآيس كريـــم الذي اشتراه هو وروجر. ثم نظر في ساعته مـــرة بعد أخرى، وهو يتمنى أن يعود روجـــر مـــن بروكلين ومعه فتاته قبـــل أن يجيء الضيوف، لأنه يخشـــى أن يرتكب إحدى الحماقات في اللحظة التي يجب أن يبدو فيها هادئاً وقوراً.

نـــوح و«روجر كانون» يسكنان في غرفة واحـــدة، لا تبعد كثيراً عن جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك. إنها غرفة كبيرة، فيها مدفأة، على الرغم من أنك لا تستطيع أن تشغلها، وفيها حمام إذا نظرت من نافذته وتدلّيت بجسمك كله فإنك تستطيع أن ترى نهر الهدسون.

وبعد وفاة والده، بدأ نوح يجوب البلاد. وكان منتهى أمله أن يرى نيويورك. فليس في الأرض مكان يؤويه غير هذه المدينة، واستطاع أن يجد فيها عملاً بعد إقامته يومين فيها. ثم قابل روجر في المكتبة العامة.

مـــن الصعب عليه الآن أن يصدق أنه مرت به مـــدّة من الوقت لم يكن يعرف فيها روجر، عندما كان يتجوّل في شوارع المدينة أياماً دون أن ينطق بكلمة، فلم يكن له صديق، ولم تنظر إليه امرأة، ولم يشعر بالراحة في أي شارع، وكانت ساعات النهار تمضي سخيفة مملّة.

كان يقف حالماً أمام واجهات المكتبات يُحملِق في هذه الصفوف الكئيبة من الكتب.ثم مـــد يده إلى كتاب، إنه ما زال يذكره، كتاب للشاعر ييتس، واصطدمت يده بأحد الزبائن، وتلفّـــت له يقـــول: «متأسف». ثم بدأ يتحـــدّث إليه، وخرجا إلى الشـــارع والسماء تمطر، ومضيـــا يتحدّثان. وكان هذا الرجل هـــو روجر الذي دعاه إلى المطعم وشربا قدحين من البيرة، واتّفقا أن يتناولا العشاء في مساء اليوم التالي.

ولـــم يكن لنوح أصدقاء حقيقيـــون. وكانت طفولته قلقة، مشردة، فقـــد عاش شهوراً بين غربـــاء لا يهتمـــون به، فأصبح من المستحيل عليه أن يكوّن أيّ صداقة. ثم إن خجله الشديد، وإحساسه أنّه طفل تافه لا يلفت نظر أحد، جعلاه يزداد تباعداً عن الناس. كان روجر أكبر من نوح بأربع أو خمس سنوات، وأكثر طولاً ونحافة، ووجه هزيل، مكفهر يدل على قوة إرادة، وهو

يتحــرك بثقة كانت تثير حقد نوح، فهذه صفات الذين تخرَّجوا في الجامعة. وروجر لم يذهب إلى الجامعة، ولكنه أحد هؤلاء الذين ولدوا وفيهم ثقة بالنفس، واطمئنان لا يتزعزع. فهو ينظر إلى العالم بجفاف واستخفاف، الأمر الذي جعل نوح يحاول الآن أن يقتدي بهذه النظرة.

وقــد أحس نوح أنَّ روجر يحبه، وتساءل نوح عن سر هذا الحب. وقال في نفسه، لعل روجــر يشفق عليه لأنه وحيد في هذه المدينة، في ثيابه الرثّة، وقلة خبرته، وقلقه، وخجله الشديــد. وعلى أي حال بعد أن التقيا مرات كثيرة في المطاعم الإيطالية الرخيصة، تلفت روجر إلى نوح وقال له: «هل تحب هذا المكان الذي تعيش فيه؟».

وأجابــه نوح: «ليس كثيراً»، قالها بإخلاص. لقد كان يقيم في غرفة موحشة، جدرانها رطبة، وبها حشرات، وأنابيب دورات المياه تدوي فوق رأسه.

وقــال له روجر: «عندي غرفة كبيرة فيها سريران. ولا مانع أن تشاركني بها شرط أن تسمح لي أنْ أعزف البيانو مرة في منتصف كل ليلة».

وبــدا الامتنان على وجــه نوح وإن كانت دهشته لم تنته بعــد، فهو يستبعد أي علاقة إنسانية بين الناس في هذه المدينة المزدحمة، ولكنه على الرغم من ذلك انتقل إلى الغرفة الكبيــرة التــي تطل على النهر. وكان روجر يبدو كأنه شبــح صديق. وكان لطيفاً، سهلاً. فهــو لا يطالب أحداً بشيء ويبدو أنه كان يستمتع بتثقيف صديقه الصغير بصورة جافة. فهــو يتحدَّث إليه في كل شيء: في الكتب، والموسيقا، والرسم، والسياسة، والمرأة. وقد سافر إلى فرنسا وإيطاليا، وأسماء المدن القديمة الساحرة تتردد على لسانه كأنه يعرفها جميعــاً. وله نظريات جافة، ساخرة، عن الإمبراطورية البريطانية وعن ديمقراطية الولايات المتحــدة، وعن الشعــر الحديث، وعن الباليه والأفلام والحــرب. وليس له طموح خاص. يعمــل من حين إلى حين في أحدى الشــركات التي تقوم باستفتاء الجمهور بشأن بعض المنتجــات التجارية. ولا يعبأ كثيراً بالمال، وينتقل من فتاة إلى فتاة بدافع الملل والعبث. وهو عموماً بملابسه الأنيقة، وابتسامته العابرة، صورة لشبان أمريكا المعاصرين.

كان هــو ونــوح يتمشيان على شاطئ النهر إلى جــوار الجامعة. وقد عثر روجر على عمل لنوح كمدير لأحد الملاعب على الضفة الشرقية للنهر. وكان نوح يكسب ثمانية عشر جنيهــاً في الأسبوع، وهو أكبر من كل مبلغ كان يكسبه من قبل. وفي أثناء مشيهما على شاطئ النهر، كان نوح مأخوذاً بحديث روجر، ولاسيّما عندما يقول له:

«يوجـد قسيس يشرب الويسكي كل يوم بعد الظهـر، ويجلس في مقهى على التل البعيد، يترجـم شعر بودليـر...» أو عندما يقول له: «إن مشكلة المرأة الأمريكية هي أنها إما أن تكون كابتـن الفريق أو لا داعي للعب. وسبب ذلك أنّها تضخم قيمة العفة. وإذا تظاهرت بالإخلاص لك فإنها تعتقد أنها قد كسبت حق تقييدك ووضعك في المطبخ. فالمرأة الأوروبية أحسن. فكل إنســان هناك يعرف أنه ليس عفيفاً، وهناك نظام معتدل للقيم. فالخيانة هي رصيد الذهب بين الجنسين. وثمة سعر محدد لتغيير العملة، وأنت تعرف ثمن كل شيء عندما تذهب لشرائه، وأنا شخصياً أفضل المرأة المستسلمة. وتقول جميع الفتيات اللاتي عرفتهن إنني أتّبع مع النساء نظامــاً إقطاعياً، وربما يكنّ على حق وأنــا أفضل أن تستسلمَ لي المرأة على أن أستسلم لها أنا، وقد يحدث هذا أو ذاك، فأنا لست مستعجلاً. وسأجد الفتاة التي تناسبني...».

وكان نــوح يشعر وهو يتمشى إلــى جوار روجر، أنّه لا أمل فــي أن تتحسن أحواله الآن... فهو لا يــزال صغيراً، قد تعوَّد شوارع نيويورك، وعمله مريح، ودخله ثمانية عشر جنيهــاً في الأسبوع، وله غرفة مزدحمة بالكتب وتطل على النهر، وله صديقه روجر: أحد أبناء المدن، وعنده أفكار ومعلومات كثيرة. الشيء الوحيد الذي ينقصه هو فتاة، وقد وعده روجر أنْ يعثر له على واحدة. من أجل هذا اعتزاما إقامة حفلة.

وقــد قضى روجر وقتاً طويــلاً يفتّش في دفاتره القديمة عن فتيــات يرشّحهن لنوح. والآن، وهــذه الليلة، ستجيء ست منهن، غير الفتاة التي سيأتي بها روجر لنفسه. وطبعاً سيكــون هناك رجال آخرون، ولكن روجر قد اختــار شباناً يبعثون على الضحك، أو لهم ذكاء عــادي، حتــى لا تكون المنافسة بينهم شديدة. وعندمــا كان نوح يتحرك في الغرفة الدافئــة، المضاءة، حيث زهريات الــورد وصورة مطبوعة لإحدى لوحــات الفنان براك، والأكــواب والزجاجــات تلمع فوق النضد، كانت تدور في رأســه أفكار تؤكد أنه في هذه الليلة سيجد الفتاة التي يريدها.

وابتسم نوح حينما سمع المفتاح يدور في الباب لأنه الآن لن يضطر لأن يصافح أول الضيــوف بنفسه، وهذه محنة بالنسبــة إليه. وانفتح الباب ودخل روجر ومعه فتاة، وتقدَّم نوح ليحمل عنها المعطف، ووضعه على الشماعة دون حوادث، ودون أن يصطدم بشيء، ودون أن يلــوي ذراع الفتــاة، وابتســم لنفسه وهو في المطبخ عندمــا سمع الفتاة تقول لروجر: «ما ألطف هذه الغرفة. يبدو أن امرأة لم تدخلها منذ قرنين من الزمان».

وعاد نوح إلى الغرفة. أما روجر فدخل إلى المطبخ ليحضر بعض «الآيس كريم»، وأما الفتـــاة فقد كانت تتطلع إلـــى اللوحة المعلقة على الحائط وقد استدارت بظهرها إلى نوح. وكان روجر يغني في المطبخ، وصوته يخرج من أنفه، ويردد كلمات الأغنية مرة بعد مرة، أمـــا كلماتها فهي: «أنت تكسب الوقت، وأنت تحب، وأنت تصنع من العسل حلوى. ولكن هل تكسب أي مال، يا حبيبي، هذا ما أريد أن أعرفه؟».

وكانـــت الفتاة ترتـــدي فستاناً مشجَّراً ينعكس عليه الضـــوء بصورة جميلة وقد ظلت واقفة، جادة، مطمئنة، أمام المدفئة. ولها ساقان جميلتان، وخصر نحيل. وشعرها مشدود إلـــى الخلف بعقدة كبيـــرة كأنها مدرِّسة جميلة من اللاتي يظهـــرن في الأفلام. وشكلها، «والآيســـ كريـــم»، وأغنية روجر السخيفة المرحة، جعلت الغرفـــة، والليل، والعالم، رائعاً وفاتناً بالنسبة إلى نوح. واستدارت الفتاة. وكان نوح مشغولاً جداً، مضطرباً، لدرجة أنه لم ينظر إليها عندما دخلت، بل لا يذكر حتى اسمها ونظرته إليها الآن تبدو كأنه ينظر من خلال منظار مقرب إلى شيء غريب.

ولها وجه قاتم، ممدود، وعينان حزينتان. وعندما نظر إليها نوح، أحس كأن شيئاً صلباً قد جذبه فأفقده وعيه. إنه لم يشعر بشيء من هذا من قبل. وقد شعر أنّه مذنب محموم تافه.

وقـــد اكتشف نوح اسمها فيما بعد، فقـــد كان اسمها «هوب بلومان» جاءت من مدينة صغيـــرة في ولاية فرمونـــت منذ سنتين. وعاشت في حي بروكلين مع خالتها. ولها طريقة مباشرة، جادة في الكلام، ولا تضع أي عطر، وتعمل سكرتيرة لصاحب مطبعة. وقد أحسَّ بالاضطـــراب طوال الليل، عندما اكتشف كل هذه الأشيـــاء، وعندما عرف أن التي أثارته هي فتاة عادية جداً، بسيطة التفكير، تعمل سكرتيرة في مكتب لا قيمة له، وتعيش في حي متواضع. وهو كأي شاب خجول، يجمع معلوماته من قصص الأدباء وخيال الشعراء بدأ يرى فيها الصور الجميلة التي رآها في الكتب.

ولكـــن وهو يستقبل الضيوف ويحييهـــم بدأ يقول لنفسه: لـــن أمضي طويلاً في هذا الطريـــق، ثم إنها صديقة روجر، حتى لو تركت روجر واتجهـــت إليه، فإنه لا يستطيع أن يقوم بدور الشاب الذي تحلم به.

وكان الضيوف الآخرون، من الرجال والنساء كأنهم يتحركون في ضباب، فهو لم يكن يراهـــم بوضوح، كأنه كان مشغولاً بالفتاة ينظر إليهـــا بشراهة، وكانت حركاتها الرزينة

تؤلمـــه وتوجعه، ولكنه كان مفتوح العينيـــن والأذنين لكل ما تقوله وتفعله. فهو يشعر كأنه جنـــدي وقـــع أسيراً في معركة يخوضها، أو كأنه ورث مليون جنيه أو كأنه مؤمن طرد من دينه، أو مطرب يغني أوّل مرة في دار الأوبرا، وهو يشعر كأنه رجل وجد نفسه في غرفة في أحد الفنادق مع زوجة أعز أصدقائه، أو كأنه قائد يتقدّم بقواته في مدينة استولى عليها الأعـــداء، أو كالفائزين بجائزة نوبل أو كسابح غرق في منتصف الليل على مسافة ثلاثين ميلاً من الشاطئ في محيط بارد، أو كعالم اكتشف عقاراً لتخليد الجنس البشري...

ثم التفت إليها وقال: «هل لك في شراب يا آنسة؟».

فأجابت: «لا، أشكرك. إنني لا أشرب».

فانتحـــى في أحد الأركان، وجعل يفكر فيما إذا كان هذا صحيحاً أم خطأ، يبعث على الأمل أو اليأس.

ومرت مدّة من الوقت، ثم قال لها: «وهل عرفت روجر منذ وقت طويل؟».

فأجابت: نعم. منذ سنة تقريباً.

– عرفته منذ سنة. لا أمل هناك على الإطلاق.

ثم نظرت إليه نظرة جادة، وبصوت ناعم قالت له: «لقد حدثني عنك كثيراً».

وفي نبرة كسيحة، جائعة، يائسة، قال لها: «وما الذي قاله لك؟».

فأجابت: «إنه يحبك كثيراً...».

وتطلع نوح إلى الفتاة شارداً مرهقاً. وبلا سبب أحسَّ بكراهيتها. في الثامنة من تلك الليلة كان رجلاً سعيداً، مطمئناً، كله أمل، له صديق، وله بيت، وله عمل، وماض نظيف، ومستقبل مشـــرق. وفي التاسعـــة كان دامياً، هارباً، يخوض مستنقعاً لا نهايـــة له. حوله كلاب تنبح، وجرائـــم سوداء لاصقة باسمه. وكانت هي السبـــب، تلك التي تجلس هناك، لها وقار زائف، تتظاهر أنّها لم تفعل شيئاً، ولا تعلم شيئاً، ولا تدري بشيء. هذه الفتاة القروية، وليدة التلال، ولعلها تجلس على ساق رئيسها كل يوم في المصنع، وتنتظر أن يملي عليها رسائله.

وامتـــلأت الغرفة بصـــوت روجر، ودقات أصابعه على البيانـــو، وهو يقول: «تساقطت الجدران وانهار البيت»...

أمـــا نوح فقد حوّل نظراته الزائغة بعيداً عن الفتـــاة. فقد كان هناك ست أخريات في الغرفة نفسها، شابات، شقراوات، لهن شعر من ذهب، وأجسام جميلة، وأصوات رقيقة...

قــد جئــن هنا من أجله ليختار من يشاء وكلهن يبتسمن له، وكلهن رقة وفداء. وقد بدت له الفتيــات وكأنهن عرائس من قماش وضعت في مخزن أحــد محلات الخياطة، أو كأنهن ستة أرقام في صفحة، أو ستة أجراس على باب. هكذا تتردد أفكاره في رأسه، وهذا هو نموذج حياته، جافة، مؤلمة في سخريتها، ولكن في جوارها مأساة.

وقــال لنفسه: سأظل بعيداً عن هذا كله، حتــى لو بقيت طوال حياتي لا أقرب النساء. ولكنه لم يطق أن يكون معها في غرفة واحدة. وذهب إلى الحمام حيث كانت ملابسه معلقة إلــى جوار ملابس روجر، ونزع قبعته. إنــه لا يريد أن يخرج حتى تنتهي الحفلة، ويتفرّق المدعوون، ويسكت صوت البيانو، وتعود الفتاة آمنة مطمئنة إلى خالتها في بروكلين.

كانــت قبعته إلى جوار قبعــة روجر على الرف، وكان ينظر في أسى وحنان إلى قبعته القديمــة البنية اللون. ولحسن حظه، كان كل المدعوين قد التفوا حول البيانو، فاتجه إلى البــاب دون أن يراه أحد. ولكن الفتاة رأته. وكانت تجلس مع إحدى الفتيات، في مواجهة الباب، فارتسمت على وجهها دهشة هادئة عندما نظرت إليه وهو يلقي عليها نظرته الأخيرة اليائسة. فنهضت واتجهت إليه. وكانت خشخشة فستانها كقصف المدافع في أذنيه.

فقالت: «إلى أين أنت ذاهب؟».

فتلعثم، وهو يلعن لسانه العاجز عن الكلام قائلاً: «نحن... نحن... نحن في حاجة إلى بعض زجاجات الصودا... سأذهب لشرائها».

فقالت: «سأرافقك».

وكان يريــد أن يصرخ فيهــا قائلاً: «لا. ابقي حيث أنت. لا تتحركــي». ولكنه ظل صامتاً يراقبهــا وهي تحضر المعطف وقبعتها التــي لا تتناسب مع زيها، وقد امتلأت نفسه بطوفان مــن الشفقة والحنان على شبابها وفقرهــا. وذهبت إلى روجر الذي كان يجلس على البيانو، وانحنت عليه تمسك كتفيه، وتهمي في أذنيه. وهنا أدرك نوح أنها لا بد قد أخبرته، وأن حكايته قــد أصبحت معروفة، وكاد ينطلق في الليل. ولكن روجر التفــت إليه، وابتسم يحييه بإحدى يديه، أما يده الأخرى فكانت تعزف على البيانو. وقطعت الفتاة الغرفة بخطوات هادئة.

وقالت: «قد أخبرت روجر».

أخبــرت روجر؟ ماذا قالت له؟ قالت له احترس مــن الغرباء... قالت له ألا يشفق على أحد، ألا يكون كريماً أبداً، أن ينتزع الحب من قلبه كأنه عشب في حديقة؟

وقالــت له الفتاة: «يحسن بك أن ترتدي المعطف، فقد كانت السماء تمطر عندما جئت إلى هنا».

وفــي برود، وصمت، ذهب نوح وأحضــر المعطف. وانتظرته الفتاة عبد الباب وأقفلاه وراءهمــا. وأصبح الغناء والأصــوات والموسيقا والضحك بعيــداً عنهما يسيران ببطء، متجاورين في الشوارع التي بللها المطر.

وعندما وقفــا عند الباب الخارجي وأقفلاه وراءهما، سألتــه «إلى أين؟» وسألها نوح شارداً: «إلى أين؟ ماذا تقصدين؟ إلى حيث تباع الصودا».

- «آه...» ونظر نوح مشرداً إلى الأرصفة التي تلمع في الظلام.

- «آه. هذا ما لا أعرفه، على كل حال لسنا في حاجة إلى صودا».

- «ولكنك قلت إنك...».

- إنه مجرد عذر. لأنني مللت الحفلة. وأنا متعب جداً. والحفلات تضايقني.

وعندما كان يتحدَّث، كان يستمع إلى صوته ويتظاهر بالتعب والملل من مثل هذا النوع من الحفلات، كأنه أحد أبناء المدن. كان يقول لنفسه: اهدأ، تأدب، تظاهر بالمرح مع هذه الفتاة الصغيرة...

ولكن الفتاة قالت له وهي جادة: لكنني أعتقد أن الحفلة كانت لطيفة جداً.

فردَّ عليها نوح باستخفاف: هل كانت كذلك؟ لم ألاحظ ذلك.

ثــم قال لنفســه: هكذا يكون الكلام، يجــب أن تتظاهر بالابتســام، وهذا هو الهجوم المباشر، أن تكون بعيداً، غامضاً، كأي نبيل إنكليزي بعد حفلة شرب، بارداً في أدب، وكل هــذا له معنيان، وبذلك لا تخون صديقك، ولا بكلمة واحدة... وأحسَّ برعشة عندما تصوَّر أنه يستطيع أن يؤثر على هذه السكرتيرة البسيطة بمواهبه الخاصة.

ثم قال لها: آسف أن أستدرجك هنا إلى الشارع لأعذار وهمية.

والتفتت الفتاة ثم قالت: ولكنها لا تمطر!

ونظــر نوح إلى السمــاء أوَّل مرة وقال: صحيح هذا. ولاحظ نوح أن هناك خطأ نحوياً في العبارة، ولكن المعنى لا يزال صحيحاً، على أي حال.

وسألته: ماذا تفعل؟

فهز كتفيه. وكانت أول مرة يهز كتفيه فيها في حياته: «لا أعرف. سأتمشى. وأنا أفعل ذلك كثيراً عند منتصف الليل فالمشي هادئ، والشوارع مهجورة».

فقالت الفتاة «إننا ما نزال في الساعة الحادية عشرة الآن».

فقال نوح: آه هكذا. وإذا كان في نيتك أن تعودي إلى الحفلة...

وترددت الفتاة. وسمع صوت نفير يشق الضباب على سطح النهر وكان صوتاً منخفضاً مرتجفاً، فارتعد نوح.

وعادت الفتاة تقول: «لن أعود. سأتمشى معك».

وسارا جنباً إلى جنب، دون أن يلمسها. وسارا في الشارع الذي قامت فيه الأشجار على الجانبين. وكان نهر هدسون، ورائحة الربيع والملح التي جاءت من المحيط قد زحفت على الضباب الأسود النائم على الشواطئ. وفي الشمال البعيد كانت الأضواء تنعكس على الجسر فيبدو كأنه قلعة كبيرة. ولم يكن هناك أحد يمشي في الشارع سواهما. وبين الحين والحين تنطلق سيارة وتحتكُّ عجلتها بالطوار، فتُحدِث صوتاً غريباً في الليل.

واستمرا في سيرهما على شاطئ النهر في صمت، وكان لأقدامهما وقع غريب وجريء. وبدأ نوح يفكر وهو ينظر إلى حذائه: أربع دقائق، خمس دقائق... لا كلام. ودب فيه اليأس وكان في صمتها شيء من الإثم يكاد يكون ملموساً في وقع أقدامهما، وفي نفسهما، وفي حرصهما على ألا يلمس أحدهما الآخر إلا عند الكتفين أو الذراعين حتى عندما نزلا من فوق الرصيف الوعر. وأصبح الصمت عدواً خائناً.

ومضت لحظة طويلة لم يتكلم فيها ثم قال بصوت مبحوح كأنه ألقى محاضرة طويلة عن الحب: «لا بد أن مدينة نيويورك رهيبة أو مفزعة لفتاة من الريف مثلك».

فأجابت: «لا، ليست مفزعة».

ومضى يقول يائساً: «حقيقة إنّها مزدحمة بالسكان. إنها مدينة ضخمة ومع ذلك فالإنسان يشعر كأنها صغيرة، وأنه في عزلة».

وقالت الفتاة: «لا أعتقد ذلك».

- «ماذا تقولين؟».

فقالت: «لا أعتقد أنها صغيرة. إنها ليست كبلدنا فرمونت».

وقال ضاحكاً: «بلدكم؟ آه...».

فسألته: «ومن أي بلد أنت؟».

فأجاب: شيكاغو، لوس آنجليس، سان فرنسيسكو... وغيرها».

وأشـــار بيده كأنه يريـــد أن يقول إن هناك بلاداً أخرى لم يشأ أن يذكر أسماءها مثل: باريس، وبودابست، وفيينا... وأنه قد زارها جميعاً.

ثـــم عاد يقول: «يجب أن أقـــول إن نيويورك فيها نساء جميلات، فارغات بعض الشيء ولكنهـــن فاتنات». ثم أحس بشيء من الارتياح عندما نظر إليها، وعندما أحس أنه أصاب الهدف. ثم قال: «طبعاً الأمريكيات أحسن عندما يكن صغيرات... أما بعد ذلك...» وحاول مرة أخرى أن يهز كتفيه. وعاد يقول: «أنا شخصياً أفضل الفتيات ذوات الطابع الأوروبي، أما الأمريكيات فهن يتفوقن على كل النساء في لعبة البريدج». ونظر إليها بعصبية. ولكن الفتاة لم تبد أي تعبير على وجهها وإنما انتزعت زهرة من إحدى الأشجار، وراحت تلعب بهـــا، كمـــا لو كانت تفكِّر فيما قاله نوح لها. واستمر نوح يقـــول: «إن المرأة الأوروبية قد تعلَّمـــت كيف تعامل الرجل...» وبدأ يتخيل الأجنبيات اللاتي يعرفهن، فقد كانت هناك تلك المخمـــورة التي قابلها يوم مات أبوه لعلها كانت بولندية، وبولندا ليست مكاناً رومانتيكياً ولكنها قطعة من أوروبا على أي حال.

وسألته الفتاة: «وكيف تعلمت المرأة الأوروبية معاملة الرجال؟».

فقـــال: «إنها تتعلم كيف تستسلم. والنساء التي أعرفهن يقلن إنني إقطاعي معهن...» آه! أيها الصديق الذي يعزف البيانو الآن، أيها الصديق سامحني في هذه الليلة، وسأعتذر لك عن هذا كله يوماً ما...

ومضى يتحدث في أشياء أخرى فقال: «الفن. ما هو الفن؟ إنني لا أصدق أبداً أن الفن شيء غامض وأن الفنان طفل غير مسؤول».

وقال: «ثم ما هو الزواج؟ ما معنى الزواج؟ إنه موقف يائس من الجنس البشري معناه أن الرجال والنساء لا يعرفون كيف يعيشون معاً في هذا العالم».

وقـــال: «ما هو المسرح الأمريكـــي؟ إنه ليس سوى عبث أطفـــال إذا نحن نظرنا إليه علـــى أنه فنٌ فـــي القرن العشرين...» ثم ضحـــك ساخراً وأضاف: «أنـــا أفضل الصور الكاريكاتيرية لوالت ديزني».

وبعد لحظة التفتا حولهما وأحسا أن السماء قد بدأت تمطر مرة أخرى. واحتمى نوح بالفتـــاة، وأشعل عوداً من الثقاب، ونظـــر إلى الساعة وامتلأ أنفه بعطر من الفتاة ورائحة من النهر، وقرَّر أن يسكت، بعد هذا السيل الطويل من الكلام.

وقال: لقد تأخرنا. من الأفضل أن نعود إلى الحفلة.

لــم يستطع أن يقاوم الإشارة إلى إحدى سيــارات التاكسي التي كانت قريبة منهما. وكانــت أول مرة يركب فيهــا «تاكسي» في نيويورك، فاصطــدم بالمقعد، ولكنه شعر أنه رشيق ورزين ورجل مهذب عندما جلس بعيداً عن الفتاة التي التزمت الهدوء في ركن من السيارة. وأحس نوح أنه قد أثر فيها تأثيراً كبيراً. ثم دفع بقشيشاً كبيراً للسائق.

وللمرة الثانية يقفان أمام بــاب البيت الذي يسكنه. ويتطلعان إلى أعلى. كانت الأنوار مطفأة ولم يسمعا صوتاً لأحد، فلا موسيقا ولا ضحك يتسلل من النوافذ المغلقة.

وقــال وقلبه يــكاد يسقط بين رجليه عندما خطر له أن روجــر سيوقن أنه قد اختطف فتاته: «الحفلة انتهت. ولا يوجد أحد».

وقالت الفتاة: يبدو كذلك.

وأحسَّ نوح بحرج شديد فسألها: ماذا نفعل؟

فأجابت الفتاة: «أعتقد أنك سترافقني إلى البيت».

إلى حــي بروكلين؟... إن هذا شيء شاق. ساعات فــي الذهاب وساعات في الإياب، وروجــر ينتظر وهو يتهمه. كانت حفلة مرحة ولكــن روجر لن يعفيه من ابتسامة ساخرة. بدأت نجوم السماء تلمع كأنها آمال مشرقة.

فتذكــر اللحظة التي كان فيها وحيداً ينتظر الضيوف قبل أن يجيء روجر وتذكر دفء المكان قبل مجيء الضيوف.

وسأل الفتاة في أسى وهو يكره وقوفها هناك جميلة وقد بلل المطر شعرها وملابسها: «ألا تستطيعين أن تعودي وحدك؟».

فقالت وفي صوتها نبرة حادة آمرة: «كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام. إنني لا أستطيع أن أعود وحدي. تعال معي».

فتنهد نوح، وبدا الغضب على الفتاة.

ثم عادت تقول له: لا تتنهد هكذا. كأنك زوج ملول مرهق.

وبدأ نوح يفكِّر، ماذا حدث؟ كيف وصلت به الحال إلى هذه الدرجة. كيف تتحدَّث إليه الفتاة بمثل هذه اللهجة؟

وقالت الفتاة: إنــي ذاهبة... واتجهت نحو ممر القطار الذي تحت الأرض. ونظر إليها نوح حائراً ثم لحق بها.

وجاءت القطارات وكانت تدفع أمامها رائحة المطر التي أتى بها الركاب من الشوارع، وكان الهواء مشبعاً برائحة الحديد التي لا تتغير.

وبـــدأ نوح يفكِّر في الطريق الطويل حيث تسكن الفتاة، إنها تعيش في بروكلين، لا بد أنها تعيش في أطرافها الفقيرة، فالرحلة طويلة إلى هناك. فبروكلين كمدينة البندقية تحيط بها المياه من كل جانب.

ولاحظ نوح أن الفتاة واثقة من نفسها، وإلا فكيف استطاعت أن تسحب وراءها رجلاً لم تقابله إلا مرة واحدة، وتجعله ينطلق في قطار تحت الأرض في ساعة متأخرة من الليل لكي يوصلها إلى منزلها. إنه الحظ الذي دفع في طريقه هذه الفتاة، لتكون من نصيبه، إنه حظـــه. كان يقول هذه العبارة لنفسه وهو ينظـــر إلى الأرصفة في الليل حيت يتمشى بين النصَّابين والمجرمين والبحارة. إنه حظه، مليون امرأة تعيش في هذه المدينة ومع ذلك لا يخرج إلا مع هذه الفتاة التي تسكن في آخر أطراف أكبر مدينة صنعها الإنسان.

وأخيراً وقف بهما القطار عند بروكلين. فقادته الفتاة إلى السلم وصعدا إلى الشارع...

وأول شـــيء قاله لها خلال ساعة: «وأخيـــراً وصلنا. لقد ظننت أننا أمضينا كل فصل الصيف تحت الأرض».

وفي أحد الأركان وقفت الفتاة، ثم قالت ببرود: والآن سنركب (الأوتوبيس).

ثم صرخ نوح قائلاً: «يا إلهي!» ثم بدأ يضحك، وكانت ضحكته مجنونة فارغة.

ثم قالت له: إذا كنت ستستمر في مضايقتي هكذا فأفضل من ذلك أن تتركني؟

وقال نوح جاداً: ما دمت قد وصلت إلى هذا الحد، فسأمضي معك حتى النهاية.

ولـــم يعد يضحك، ووقف إلى جوارها صامتـــاً تحت المصابيح الكهربية وكانت الريح تعصـــف بهما وتلقي عليهما الأمطـــار، إنّها الريح التي عبرت المحيط واكتسحت الموانئ ونصـــف مليون بيت من الطوب الأحمر والغابات وملايين النائمين والأرواح المعذبة الذين لم يجدوا مكاناً آخر يستريحون فيه في رحلتهم عبر الحياة القلقة، سوى هذه المدينة.

ومضى ربع ساعة وجاء (الأوتوبيس) وبدا من بعيد كعين غافية. ولم يكن في (الأوتوبيس) ســـوى ثلاثة ركّاب قد استغرقوا فـــي النوم. أما نوح فجلس إلى جوارها بصورة رسمية، ومن تحته كانت السيارة تحدث أصواتاً غريبة كأن أخشابها تتحطم. فشعر نوح كأنه على ظهر حطام سفينة مع جماعة من الغرباء، أو كأن سفينة غرقت في منطقة باردة.

ونهضت الفتاة. فتبعها إلى الباب مرة أخرى. ووقفت السيارة وانفتح الباب. وهبطا إلى الرصيف المبلل. وانطلقت السيارة. ومشى نوح والفتاة في شوارع متواضعة، وبين الحين والآخر كانت تقابلهما أشجار قد نبتت عليها أوراق خضراء كأنها دليل غريب على أن الربيع قد وصل إلى هذا المكان من نيويورك.

واتجهت الفتاة إلى فناء منزل مارة ببوابة من الإسمنت المسلح. وكان هناك باب من الحديد ووضعت المفتاح في القفل فانفتح الباب.

ثم قالت ببرود: «لقد وصلنا» واتجهت إليه.

وخلع نوح قبعته. وشحب وجه الفتاة في الظلام. ونزعت هي الأخرى قبعتها وتناثر شعرها على وجنتيها الشاحبتين. وأحس نوح برغبة في البكاء كأنه فَقَدَ كل شيء عزيز عليه، عندما وقف قريباً منها في ظل البيت الذي تعيش فيه.

ثم همس في أذنها قائلاً: «أنا... أريد أن أقول... إنني لا أعترض... أريد أن أقول... إنني سعيد لأن أرافقك إلى بيتك».

فقالت الفتاة: «أشكرك» وكانت تهمس.

فقال نوح وهو يلوح بيديه: «إنها عقدة. لو عرفت كم أنا سعيد. إنني سعيد جداً. سعيد حقاً...».

وقد كانت قريبة جداً، تعسة، شابة، هزيلة، شجاعة، وحيدة... ومد يديه وأخذ رأسها برفق ثم قبّلها.

وكانت شفتاهما صارمتين مبللتين بالضباب.

وصفعته على وجهه، وتردد الصوت في هذا الفناء الحجري. وأحس نوح أنّ خده مخدر. كم هي قوية، على الرغم من أنها تبدو هزيلة.

وقالت له ببرود: «ما الذي جعلك تعتقد أنك تستطيع أن تقبّلني؟».

فقال وهو يضع يده على خده، ثم يجذبها بعيداً وهو في خجل من أن يكشف لها ضعفه في هذه اللحظة: «لا أعرف... لا أدري، إنما أردت».

فقالت: «أنت تفعل هذا مع البنات الأخريات. ليس معي».

فأجاب نوح في تعاسة: «لا أفعل هذا مع بنات أخريات».

وقالت هي: «آه. معي فحسب. أنا متأسفة. إنني أبدو سهلة أمامك».

فأجاب نوح في حزن شديد: «لا. لا أعني ذلك» إنه لا يدري كيف يعبِّر لها عن شعوره. إنهـــا الآن تظن أنه أحمق، سافل، يستطيـــع أن يلتقط أي فتاة من الطريق. ثم ابتلع كلامه ولم يقل شيئاً.

وإنما قال لها في أسى شديد. «أنا آسف جداً».

فعادت الفتاة تخاطبه قائلة: لعلك تتوهم أنك جميل، رائع، وأنت لامع، عظيم، لدرجة أن أيَّ فتاة تسقط عند قدميك لتقبِّلها...».

وتراجـــع هو في ألم وكاد يسقط وهو يصعد درجات السلـــم متجهاً إلى الفتاة قائلاً: «يا إلهي!».

قالت الفتاة: «إنني لم أر في حياتي رجلاً مغروراً دعياً مثلك».

وصرخ نوح قائلاً: «اسكتي... إنني لا أستطيع أن أحتمل هذا».

وقالت الفتاة: «سأودعك الآن».

وهمس هو: «لا. ليس الآن. لا تستطيعين».

وأقفلت الباب في وجهه.

وبدأ يتوسل إليها قائلاً: «أرجوك. استمعي إلي...».

فـــردَّت عليه: «مع السلامة» بحركـــة من يدها وأقفلت الباب بالمفتـــاح. ولم تنظر إليه وفتحت الباب الداخلي. أما نوح فكان يحملق فيها ببلاهة ثم اتجه ببطء إلى الشارع.

ومشـــى مسافة قصيرة، وقبعته في يده، دون أن يلاحـــظ أن المطر قد بدأ ينهمر مرة أخـــرى وأن شعـــره قد بدأ يتبلل. ثم وقف، وتلفَّت حوله فـــي قلق، واتجه إلى حيث تسكن الفتاة. وكان هناك ضـــوء من وراء النافذة الحديدية، وكانت النافذة في مستوى الشارع، ومن خلال الستائر كان يرى شيئاً يتحرك.

فاتجه إلى النافذة، وتنفس بعمق، ودق على النافذة. وبعد لحظة، تزحزح الستار ورأى وجههـــا. وجعل وجهه قريباً مـــن النافذة، وأشار إليها أنّه يريـــد أن يتحدَّث إليها. وهزت رأسهـــا مشيـــرة إليه أن يبعد عنها، ولكنـــه ردَّ عليها بصوت مرتفـــع وشفتاه ملتصقتان بالنافذة: «افتحي الباب، لا بد أن أتحدث إليك. إنني تائه. تائه. تائه».

ورآهـــا تنظر إليه مرتابة. ثم زمجرت واختفت. وبعد لحظة سمع الباب الداخلي ينفتح، وكانت واقفة عند الباب. وبحركة لا إرادية تنهد.

وقال: «إنني سعيد لرؤيتك».

وسألته: «ألا تعرف كيف تعود؟».

فأجاب: «إنني تائه، لن يستطيع أحد أن يهتدي إليَّ بعد ذلك».

فأجابت: «إنك أحمق. أبله. ألا ترى ذلك؟».

- «نعم. أبله جداً».

وفي لهجة جادة قالت: «اتجه إلى اليسار، وبعد ذلك اتجه إلى الشارع الأول على اليمين».

وبدأ صوتها يرتل أسماء الشوارع. ولاحظ نوح أنها قد نزعت حذاءها فبدت أصغر من ذي قبل، وأرق، وأجمل.

وسألته: «هل أنت تصغي إلي؟».

فأجاب بصوت مرتفع: «أريد أن أقول لك شيئاً. إنني لست مغروراً ولست متكبِّراً...».

- «اسكت... إن خالتي نائمة».

وهمس قائلاً: «إنني خجول، وليس عندي رأي ولا فلسفة، ولا أدري لماذا قبَّلتك. إنني... إنني لم أستطع أن أقاوم».

- «لا ترفع صوتك، خالتي».

- «إنني حاولت أن أبهرك. إنني لا أعرف أيَّ امرأة أوروبية. لقد تظاهرت أمامك أنني أعرف العالم، وأنني مثقف. خشيت أن أكون طبيعياً معك. فلا ألفت انتباهك. لقد كانت ليلة في غاية الاضطراب».

وهمس قائلاً: «لا أذكر أنني مررت بمثل هذه التجربة القاسية. إنك على حق عندما صفعتني... على حق تماماً». قال ذلك وهو مستند بظهره إلى الباب واضعاً وجهه الذي تجمد من البرد على الحديد، قريباً من وجهها ومضى يقول: «إنه درس ممتاز. إنني... إنني لا أستطيع أن أعبِّر لك عن شعوري في هذه اللحظة... ربما في وقت آخر... ربما».

وسكت ليقول: «هل أنت صديقة روجر؟».

فأجابت: «لست صديقة أحد».

فضحك كالمجنون.

وحذرته الفتاة قائلة: «خالتي».

وهمس قائلاً: «حسناً. إنني أعرف طريقي. تصبحين على خير. شكراً».

ولكنــه لم يتحرك. وراح ينظر كل منهما إلى الآخــر في الظلام وتحت الضوء الخافت المنبعث من المصابيح.

وقال في رقة وقلق شديدين: «يا إلهي. أنت لا تعرفين أبداً. لا تعرفين».

واستمع إلى صوت قفل الباب وهو ينفتح، ثم انفتح الباب، وخطا إلى الداخل، وقبّلها، ولكنها لم تكن كالقبلة الأولى، كان في داخله شيء كالرعد. ثم خطر له أنها ربما تراجعت في منتصف القبلة، وصفعته على وجهه.

وتراجعت فعلاً، ونظرت إليه، وابتسمت وهي تقول: «إياك أن تضل الطريق إلى البيت».

فهمس قائلاً: «أعرف (الأوتوبيس)، أعرف المحطة، و... أحبك... أحبك».

فقالت: «تصبح على خير. أشكرك على أنك رافقتني إلى البيت».

وتراجــع، وأقفل الباب بينهما. وعادت إلى غرفتها. وخلا الشارع من الناس، وسار نوح في اتجاه المحطة. ولم ينتبه إلى أنه في كل سنيه الإحدى والعشرين لم يقل لفتاة «أحبك».

❀❀❀

... كانــت الغرفة مظلمة. ولم يسمع أنفاس روجــر. ونزع ملابسه بسرعة، وفي هدوء تسلــل إلى السرير. ونام يحملق في السقف حائراً بين السرور واللذة والألم عندما يفكّر في قبلتها الأولى وقبلتها الثانية، وما عساه أن يقول لروجر في الصباح.

كان لا يزال غارقاً في النوم عندما سمع من يناديه باسمه:

- «نوح».

- «أهلاً روجر».

- «أنت بخير».

- «نعم».

«صمت».

- «رافقتها إلى البيت؟».

- «نعم».

«صمت في الغرفة المظلمة».

- «خرجنا نحضر بعض الشطائر «السندوتش». لا بد أنك افتقدتنا».

- «نعم».

– «أشعر أنني لابد أن أشرح لك شيئاً. إنني لم أقصد... حقيقة. لقد تصرفت معتمداً على نفسي ثم... لا أذكر بالضبط... هل تسمعني يا روجر؟».

– «نعم».

– «إنها قالت لي شيئاً يا روجر...».

– «ماذا؟».

– «إنها ليست صديقتك».

– «هل قالت ذلك؟».

– «قالـت إنها ليست صديقـة أحد. ولكن إذا كانت صديقتـك أو إذا أردت أن تكون صديقتك... فلن أراها مرة أخرى. أقسم لك يا روجر. هل تسمعني؟».

– «نعـم. إنها ليست صديقتي. لا أنكر ذلك. وهذه الفكرة تراودني من حين إلى حين، ولكن من ذلك المجنون الذي يستطيع أن يرافقها ثلاث مرات في الأسبوع إلى هناك؟».

ومسح نوح العرق من فوق جبينه في الظلام. وقال: «روجر».

– «نعم».

– «أحبك».

– «يحسن بك أن تنام».

«صمت مرة أخرى».

❁❁❁

... وفـي الشهرين التاليين تبادل نوح والفتاة هوب– وهذا هو اسمها– اثنين وأربعين خطابـاً. لقد كان يعمل بالقرب منهـا ويلتقيان يومياً عند الغـداء، وكل ليلة عند العشاء، وكانا يهربان من العمل ليتمشّيا في الظلام عند الميناء ويرقبان السفن التي ترسو والتي تبحـر. وقطع نوح الرحلة إلى حي بروكلين سبعاً وثلاثين مرة في شهرين. ولكن حياتهما الحقيقية كانت تتولاها مصلحة البريد.

ومهمـا كان المكان مظلماً، ومهما كان خالياً من الناس، فإنه يتطلع إليها ويقول: «إنك جميلة» أو: «تعجبني ابتسامتك» أو: «هل تذهبين معي إلى السينما يوم الأحد؟».

ولكـن هذه العبـارات القصيرة كان يكتبها في خطاباته علـى هذا النحو «إن جمالك لا يفارقنـي ليلاً أو نهاراً. وعندما أنظـر في الصباح إلى السماء فهي صافية لأنها تطل عليك، عندما أنظر إلى النهر عند الجسر أعتقد أنه جسر قوي وأقوى من أي جسر لأنكِ

مشيت عليه مرة معي، عندما أنظر إلى وجهي في المرآة أرى أنه أجمل وجه لأنكِ مررت عليه بشفتيك في الليلة الماضية».

أما هي، ذات الملامح القاسية التي حالت بينها وبين التعبير الرقيق عن الحب، فكانت تكتب له قائلة... «إنك لم تكد تترك البيت حتى بدأت أفكر فيك وأنت تمشي في الشارع وقد خــلا من الناس، ثم تنتظر في الظلام مجـــيء (الأوتوبيس) الذي ينقلك إلى البيت. سأبقى معك الليلة وأنت تقوم بجولتك في المدينة. فيا حبيبي، وأنت تنتقل من مكان إلى آخر أبقى أنــا هنا في هذا البيت النائم ومعي مصباح واحــد مضيء أفكّر في كل شيء يتعلق بك. إنني أعتقد أن عينيك جميلتان، وفمك حزين، ويديك رقيقتان جميلتان...».

وعندما يلتقيان يحملق كل منهما في الآخر، في حين ترتجف الكلمات المكتوبة بينهما ويقول: «عندي تذكرتان لحفلة اليوم إن لم يكن لديك شيء آخر، فهل نذهب معاً؟».

فـــي ساعة متأخـــرة من الليل، وبقلـــب سعيد بروعة المرح، وحـــب كل منهما للآخر، وأرق... يقفـــان، ويتعانقان في الفناء البارد في بيتها، وهما عاجزان عن الدخول لأن زوج خالتهـــا له عادات غريبة، وهي أن يجلس في غرفتـــه حتى الصباح يقرأ الكتاب المقدس، فيقبِّل كل منهما الآخر حتى لا يشعر كل منهما بشفتيه. أما تعاسة حياتهما وخطاباتهما فتذوب في هذه القبلات اليائسة.

ويذهـــب كل منهما إلى فراشـــه. وليس لهما في كل هذه المدينـــة الضخمة، التي بها عشـــرة ملايين غرفة، مكان يسميه كل منهما هذا مكاني الخاص أدخله باحترام وكرامة. ثم إن الفتاة لها نزعة دينية متطرفة. وفي كل مرة يعانقها بشدة تنسحب منه مرتعدة قائلة: «فيما بعد، فيما بعد»، أو تقول له: «ليس الآن...».

وفي يوم قال له روجر: «أنت ستنفجر. ستتحطم. هذا غير طبيعي. ما الذي أصاب هذه الفتاة؟ ألا تعرف أنها من بنات ما بعد الحرب؟».

وكان نـــوح يرد عليه: «اسكـــت. لا تتكلم» لقد كان جالساً على مكتبه يكتب خطاباً لها، أمـــا روجر فكان مستلقياً على الأرض لأن الأريكة قد انكسرت منذ خمسة أشهر، ثم إنها غير مريحة لرجل طويل القامة مثله.

ثم بدأ روجر يقوم ببعض التمرينات الرياضية التي تقوّي عضلات البطن، ويرفع رجليه إلى أعلى ويقول: «هذا يكفي. إنني أشعر بصحة جيدة الآن. فالجنس يا عزيزي كالاستحمام.

فإما أن تمضي فيه إلى نهايته أو أن تبقى على الشاطئ. أما إذا بقيت على الشاطئ، تاركاً المـــاء يبلل ثوبك، فإنك ستبرد وتصبح عصبياً. إذا بقيت شهراً آخر مع هذه الفتاة فسوف تذهب إلى أحد الأطباء النفسيين. اكتب لها هذا. وقل لها إن هذا هو رأيي».

وقال نوح: «بلا شك... إنني سأكتبه لها الآن».

وقال روجر: «إذا لم تحترس، فستجد نفسك رجلاً متزوجاً».

فتوقف نوح عن الكتابة. وقد اشترى آلة كاتبة على أقساط عندما وجد نفسه يكتب لها كثيراً.

وقـــال: «لا تخف فلن أتزوج». والحقيقة أنه فكر في هـــذا الموضوع طويلاً، وإنه كتب عن هذا للفتاة.

وقـــال روجر: «على أي حـــال لا بأس بالفتاة. فهي جميلة وستنقـــذك من التجنيد في الجيش».

ثـــم تفادى الاثنان التفكير في التجنيد. ولحسن حظ نوح كان ترتيبه متأخراً جداً. لكن الجيش كسحابة سوداء بعيدة في سماء كل إنسان.

وعـــاد روجر يقول: «لكن أنا عنـــدي اعتراضان على هذه الفتاة. أولاً، أنها تحرمك من النوم. ثانياً، أنت تعرف. ثم إنها قد جعلتك تعيش في عالم طيب».

فنظر إليه نوح بامتنان بالغ.

ثم قال روجر: «ولكن يجب أن تنتقل معك إلى فراشك».

– «اسكت».

– «أريـــد أن أخبرك أننـــي سأسافر في نهاية هذا الأسبوع. وأترك لك البيت تعمل فيه ما تشاء».

وجلس روجر وهو يقول: «أظن أنه ليس هناك فرصة أحسن من هذه».

وقال نوح: «أشكرك. إذ سنحت لي الفرصة فسأعمل بنصيحتك».

– ربما تحدَّثتُ إليها في ذلك بما أنني صديقٌ وأنني أفكر في سلامة زميلي. وسأقول لها، سيدتي العزيزة، لعلك لا تعلمين أن نوح بسبيل أن ينتحر. سأحدثها الآن.

– «سأتولى هذا أنا بنفسي» قالها نوح في شيء كثير من الريبة.

«مـــا رأيك في يوم الأحد القادم؟ فـــي شهر حزيران الجميل، والقمر بدر، والجو دافئ إلخ... إلخ...».

وقال نوح: «إننا سنذهب يوم الأحد القادم إلى حفلة زفاف».
- «زفاف مَنْ؟ زفافك؟».
- «إحدى صديقاتها».
- «احترس. فإن الزفاف ينتقل بالعدوى. وقد قلت كلمتي. وأشعر براحة في الضمير».
وسكت روجر، في حين نوح يكتب على الآلة الكاتبة...
وعاد يقول: «إنه شهر واحد... وبعد ذلك تتمدد على سرير في أحد المستشفيات العقلية».
وضحك نوح، ونهض واقفاً: «وهو كذلك. هيا بنا نشرب بعض البيرة».
- «صديقي العزيز، العذراء نوح».
ضحك الاثنان وخرجا إلى الشارع حيث نسمات الصيف. واتجها إلى المطعم الذي يترددان عليه.

أما حفلة الزفاف في يوم الأحد فقد أقيمت في بيت كبير، له حديقة تفضي إلى شارع على جانبيه الأشجار. والعروس جميلة، وكان القس سريعاً في إجراءاته، وكانت شمبانيا.

وكان دفء وشمس، وكل إنسان يبتسم في رقة، أما الضيوف فقد كانت تنتابهم حالات شهوانية في غير خجل.

وفي أركان البيت الكبير، بعد الحفلة، كان الضيوف الشبان يجلسون اثنين اثنين في أحاديث هامسة.

وكانت الفتاة ترتدي فستاناً أصفر جديداً. كانت بشرتها نحاسية لأنها تعرَّضت للشمس كثيراً هذا الأسبوع. وظل نوح يرقبها في اعتزاز وقلق حينما كانت تتحرك من مكان إلى مكان، كان شعرها أسود منسقاً بشكل جميل. ووقف نوح يحتسي الشمبانيا في خجل. ويتحدَّث بهدوء إلى الضيوف، ويرقب فتاته. وفي نفسه يقول: شعرها، شفتاها، ساقاها في نوع من الحب المختزل.

ومرّ بشفتيه على العروس، وفي عينيه فستانها الأبيض وأحمر شفتيها وفي أنفه عطرها، ولكن عينيه تحوَّلتا عن العروس المشرقة دامعة العينين. واتجه إلى فتاته وهي تقف عبر الغرفة، والحب يختصر الأسماء في رأسه.

فيقول: وخصرها جميل. واقتربت منه فقال لها: هناك شيء أريد أن أعمله. ووضع يديه حول خصرها النحيل. وأحسَّ ببشرتها الشابة. وبدا كأنها فهمت ما يريد أن يقول.

ومالت في رقة وقبّلته. ولم يعبأ أنَّ كثيرين يرقبونه، لأن في حفلات الزفاف يصبح من حق أي إنسان أن يقبّل الآخر ثم إنه أوّل مرة يشرب الشمبانيا في أحد أيام الصيف.

وراحا يرقبان العروسين وهما يستقلان سيارة، والأرز يتناثر فوقهما، والأم تبكي على الباب، والعريس يتعجلها وقد احمرَّ وجهه من الخمر والخجل ونظر نوح إلى الفتاة ونظرت هي إليه، وأدركا أنهما يفكران في الشيء نفسه.

وهمس قائلاً: «ولماذا لا نفعل أيضاً؟».

ووضعت يدها على فمه تقول: «اسكت لقد شربت كثيراً».

ودَّعــا أهل العروسين، وانطلقا يسيران تحت الأشجــار حيث تلمع المياه على أوراق العشب، والنافورات وقوس قزح. ومشيا ببطء ويدها في يده.

وسألها نوح: «إلى أين يذهب العروسان؟».

فأجابت فتاته: «إلى كاليفورنيا، مدّة شهر، فله قريب هناك».

ومشى الاثنان بين النافورات؛ وهما يحلمان بشواطئ المحيط الهادئ وبيوت المكسيك الباهتة تحت أشعة شمس الجنوب. ويفكران في العروسين وهما يدخلان في مقصورتهما في القطار ويقفلان الباب وراءهما.

وقال نوح: «يا إلهي. إنني إرثي لحالهما».

- «لماذا».

- «في ليلة كهذه وأوّل مرة. أدفأ ليلة من ليالي السنة!».

- وجذبت الفتاة يده قائلة: إنك فظيع. ما أوقح وأبشع ما تقول.

- «إنها مجرد نكتة عابرة».

- «إنني أكره مثل هذه النكت».

ولاحــظ أن فتاته تبكــي، وأحاطها بذراعيه على الرغم مــن أن اثنين من الأطفال كانا يرقبانهما. وقال لها: «يا حبيبتي أرجوك».

فهزت كتفيها. وأبعدته عنها قائلة: «ابتعد عني» وابتعدت هي عنه وتبعها يقول: «أرجوك -دعيني أتحدث إليك».

ومــن خلال دموعها قالــت له: «اكتب لي خطابــاً. يبدو أنك تحتفــظ بغرامياتك للآلة الكاتبة».

وسار الاثنان في صمت مضطرب. كان حائراً تائهاً في بحر المرأة اللانهائي. ولم يحاول إنقاذ نفسه، وإنما ترك نفسه في هذه الدوامة تدفعه العاصفة ويعلو به المد ويتمنى ألا تغرق سفينته.

ولكــن الفتاة لا تلين بل ظلت صامدة عنيدة طــوال الوقت وعلى فمها مرارة وإصرار.

وبدأ نوح يقول لنفسه:

«يا إلهي. يا إلهي. إنها ستتخلّى عني».

ولكنها تركته يرافقها إلى البيت حتى فتحت البابين بمفتاحها.

وكان البيــت خالياً. فقد خرجت خالتها وزوجها واصطحبا معهما طفليهما الصغيرين ليقضوا ثلاثة أيام في الريف. وفي البيت هدوء تام.

وسألته: «هل أنت جائع؟» كانت تقف في منتصف حجرة الطعام.

وخطرت لنوح فكرة أن يقبّلها لولا أن رأى على وجهها تعبيراً غريباً.

وقال: «أعتقد أنه يجب أن أعود إلى البيت».

فقالت: «وأن تأكل أيضاً. فقد تركت بعض الطعام في الثلاجة».

وتبعها إلى المطبخ وعاونهــا. وأخرجت من الثلاجة بعض الكتاكيت الباردة ووضعت بعضــ الصلصة وبعضــ اللبن. ووضعت كل شــيء على المائدة ثم قالــت بلهجة جافة «أخرج» كما لو كانت جاويشاً يأمر أحد الجنود.

وحمــل النضد إلى الحديقة التي لها سور عـــال، وكانت هناك أشجار رشيقة، ولخالة الفتاة بعض أصص الورد. وهناك نضد من أغصان الشجر وفوقها مصابيح؛ وفي ضوء المســاء الباهت تلاشى حي بروكلين كضباب أو كإشاعة، وظل الاثنان كأنهما في إحدى حدائق إنكلترا أو فرنسا أو جبال الهند.

وأشعلــت الفتاة الشموع، وجلس الاثنان يأكلان بشهية. لم يتكلما إلا حينما يطلب كل منهما إلى الآخر في أدب الملح أو البن.

ثم قالت: «إننا لسنا بحاجة إلى الشموع، فهل لك أن تطفئها الواحدة بعد الأخرى؟».

فقال نوح: «بكل تأكيد» وانحنى كل منهما يطفئ شمعة. وتقارب رأساهما. وفجأة وفي الظلام قالت له: «سامحني... إنني أحقر امرأة في العالم».

وانتهــى كل شيء. وجلسا ينظران إلــى السماء المظلمة ونجومها اللامعة بعيدين عن (الأوتوبيس)، عن السيارات، عن خالتها، عن زوج خالتها، عن الطفلين، عن باعة الصحف، عن العالم... في حديقة لها سور وفي الليل.

وقالت: «لا. ليس الآن... إنني خائفة... يا حبيبي يا حبيبي». وأحس نوح بالخجل وبالنصر وبالنشــوة. وبعد أن انتهى كل شيء ظــلا نائمين يغمرهما شعور غريب بفداحة الفعل الذي ارتكبــاه. وشعر نوح بالخوف وخشـــي أن تكرهه بعد ذلك، وكل لحظــة صمت كانت تعمّق إحساسه بالألم. وأخيراً قالت له: «لم يكن الجو حاراً. لم يكن الجو حاراً على أي حال».

وبعــد ذلك عندما حان وقت عودته إلى البيت، انتقل إلى الداخل ولم ينظر واحد منهما إلى الآخر. ومال نوح على الراديو ففتحه لأنه يريد أن يفعل أي شيء.

وكان الراديو يذيع موسيقا تشايكوفسكي، وكانت الموسيقا أغنية حزينة، كأنها أُلِّفت خصيصــاً لهما، لطفلين أحب كل منهمــا الآخر أوّل مرة. ثم جاءت الفتاة وقبّلته في عنقه وهــو قريب من الراديو واستدار يقبِّلها، وعندما توقفت الموسيقا، أذاع الراديو هذا النبأ فــي رسالة خاصــة: «من أسوشيتد برســ. الزحف الألماني مستمــر على طول الجبهة الروسية. قوات الفرق المدرعة تزحف على خط يمتد من فنلندا حتى البحر الأسود».

فقالت الفتاة «ماذا؟».

– «الألمان قد دخلوا روسيا... لقد كان باعة الصحف يصرخون طوال اليوم».

– «أطفئ الراديو. الليلة...».

وعانقها، وأحس بقلبها يدق. لقد كان يفكر طوال الوقت أنه في اللحظة التي كان يُعقَد فيها الزفاف، والتي كان يمشي فيها معها في الشوارع، ويجلس معها في الحديقة، كانت المدافــع تدوي والرجال يموتون. من فنلندا إلى البحر الأسود. ولم يعلِّق عقله على شيء. إنه كان يسجل ويفكر كأنه عمود عليه إعلان تقرأه أوتوماتيكياً وأنت تمشي بسرعة.

وجلســ الاثنان علـــى أريكة قديمة في غرفـــة هادئة، والظلام يحتضـــن البيت، وباعة الصحف يصرخون في شوارع بعيدة.

وسألته: «أي يوم هذا؟».

وابتسم: «الأحد يوم العطلة».

– «لا أقصد هذا. أعرف ذلك. أي تاريخ؟».

– فأجاب: «الثاني والعشرون من حزيران».

– «الثانـــي والعشرون من حزيران. لن أنسى هـــذا اليوم. أول يوم... أنت تعرف ماذا فعلنا اليوم...».

❀❀❀

عندما عاد نوح إلى البيت لم يكن روجر قد نام بعد. وقف نوح أمام الباب يعدل ملامح وجهه حتى لا يبدو عليه شيء مما حدث الليلة. واستمع نوح إلى أنغام رقيقة تصدر من البيانو. كانت نغمة جاز حزينة مترددة، وكان روجر يمرن أصابعه على العزف. وظل نوح يستمع دقيقتين أو ثلاثاً قبل أن يفتح الباب ثم دخل، وحياه روجر بيد واحدة دون أن ينظر إليه واستمر يعزف. كان هناك مصباح واحد مضيء في الركن، وبدت الغرفة كبيرة غامضة عندما استرخى نوح في أحد المقاعد الجلدية بالقرب من النافذة أما في الخارج فالمدينة نائمة على جوانب الشوارع المظلمة. وحركت الريح ستائر النافذة المفتوحة. وأغمض عينيه واستسلم للموسيقا وكان لديه شعور غريب، أنه يمسُّ كل عضلة وعظمة في جسمه، إنه حي، مرهق مختل التوازن.

وفي منتصف القطعة الموسيقية توقَّف روجر عن العزف. والتفت إلى نوح قائلاً: «والآن صار البيت لك».

وفتح نوح عينيه قائلاً: «ماذا؟».

ونظر إليه روجر باهتمام وأجاب: «إنني ذاهب غداً».

فسأله نوح وهو ينظر إليه ليتأكد إنْ كان مخموراً. «إلى أين؟ ماذا تقول؟».

– «إلى الجيش. انتهى زمن الحظ والمرح. إنهم يجمعون المدنيين الآن».

وأحس نوح بدوار كأنه لم يفهم كلمات روجر.

– «أعتقد أن هذه الأخبار قد وصلت بروكلين».

– «تقصد الروس؟».

– «أقصد الروس».

– «نعم».

– «سأذهب لمساعدة الروس».

– «هل أنت ذاهب لمساعدة الجيش الروسي؟».

وهنا ضحك روجر ونظر إلى النافذة. ووقف هناك وتطلَّع إلى السماء وقال: «ليس بالضبط. طبعاً جيش الولايات المتحدة».

– «سأذهب معك».

– «شكراً. لا تكن أحمق. انتظر حتى يستدعوك».

- «ولكنهم لم يستدعوك أنت».

- «لـــم يستدعونـــي بعد، لكنني على عجل. إنني أكبر منـــك. انتظر حتى يجيء دورك. سيكون قريباً».

- «إنه لا يبدو عليك هذا. إنك تتحدَّث كما لو كنت في الثمانين من عمرك».

- «سامحنـــي يا ولدي». ثم اتخذ طابع جد وهـــو يقول: «اليوم عندما سمعت النبأ في الراديـــو لم أستطع أن أتجاهل الحقيقة. فمنذ اليوم والطريقة الوحيدة في أنْ تكون لي أي قيمـــة هي أن أحمل البندقية في يدي. من فنلندا إلى البحر الأسود إلى نهر الهدسون إلى روجر كانون.

سأدخل الجيش حالاً... أريد أن أنطلق حالاً... لقد انتظرت هذه الفرصة طوال عمري. إنني عن طريق الجيش سأقفز قفزة عالية. لقد انحدرت من أسرة من العسكريين».

- «هل تعتقد أن هذا يفيدك؟».

- «لا تسألنـــي يا ولدي. لا تسألني عن هذا. إن هذه فرصتي التي ستجعل مني شيئاً الآن. حـــالاً. ولعلـــك لاحظت أنه ليس لي هدف في الحياة. وهـــذا مرض. إنه أول الأمر لا يزيد عن دمل صغير لا تراه العين. ولكن بعد ثلاث سنوات يصبح المريض مشلولاً وربما أعطاني الجيش هدفاً لحياتي... أن أبقى حياً، أو أصبح جندياً، أو أكسب حرباً. هل عندك مانع أن أعزف على البيانو قليلاً؟».

- «بالطبع لا». قالها نوح بغباوة. وبدأ يفكر في أن صديقه هذا سيموت. وظل في رأسه صوت يتردد قائلاً: «روجر سيموت، سيقتلونه».

وجلســـ روجر إلى البيانو مرة أخـــرى. ووضـــع يديه على أصابع البيانو. يفكِّر. وعزف شيئاً لم يسمعه نوح من قبل.

- «علـــى أي حـــال يسرنـــي أن أراك، وأن أعلم أن الفتاة قد ذهبت فـــي الطريق إلى نهايته...».

وسألـــه نـــوح في تردد، وهو يحاول أن يتذكر إن كان قد قـــال له شيئاً دون وعي منه: «ماذا؟ عن أي شيء تتحدث؟».

وأجابه روجر: «إن الأمر واضح على وجهك. واضح جداً».

❀❀❀

وانضـــم روجــر إلى الجيش في اليــوم التالي. ولم يسمح لنــوح أنْ يذهب إلى إدارة التجنيــد. وترك له كل أمتعته، وكتبه، وملابسه على الرغم من أنها كانت أكبر من ملابس نــوح. وترك له الغرفة التي عاش فيها خمس سنوات. وراح نوح يرقبه بشعور يسد حلقه، وفــي ألم. لأنه لن يكون له بعد اليوم صديق. فقــد أمضى مع روجر أسعد أيام الحياة... وافترق الاثنان.

❀❀❀

ومــن حين إلى آخر كان يتلقّــى أنباء عن العسكري «روجر كانون» وعن ترقياته، وعن ملحوظــة في خطاباته تقول له: «ابعد عن الحرب. إنهــا ليست للبشر». ولكن كانت هناك مزيّــة لنوح وعلــى الرغم من أنّه يشعر أمامها بكثير من الذنــب إلا أنه كان يستمتع بها. فهو وفتاته الآن لهما مكان خاص. ولم يصبحا في حالة فزع مستمر، وفي جوع وعطش، ينتظران في البرد زوج خالتها الذي يقرأ الكتاب المقدس حتى ينام. وليسا في حاجة إلى أن يتعانقا تحت عيون الأطفال الحزينة الساخرة في الحدائق العامة.

وبعد شهــور من سفر «روجر» اكتشف نوح جسمه. لقد كان أقوى مما يتصور وكان قــادراً علــى تحمل المتاعب أكثر مما توقع. بل إنــه كان يتطلع إلى نفسه في المرآة وراء الباب، وكانت الفتاة توافقه على رأيه. وبدا له أن جسمه أكثر رشاقة وأكثر فائدة مما كان يبدو له من قبل. وكان ينظر إلى نفسه في المرآة بامتنان شديد. وعندما ينظر إلى صدره العاري يقول: «إنني سعيد. فليس فيه شعر».

أمــا الفتاة، وقد أصبح لها مكان خاص أمين، فقد بدت مستسلمة على غير ما يتوقع. ففي الظلام الدافئ في ليالي الصيف، اختفى تزمتها الريفي وسط سحب الدخان. وراحت تشبع جوعها وجوعه، وتطعم جسمها وجسمه بين مد الحب وجزره، في تلك الغرفة التي أصبحت أعز وأعمق سر في حياتهما أما أصوات الشارع تحت النافذة، وصياح الأطفال في الحدائق، والصرخات في مجلس الشيوخ، والنيران في القارات الأخرى، فقد اختلطت بموسيقــا هامسة وطبول في معسكر آخر لجيش آخر بعيد، وفي حرب أخرى. هي حرب نوح وفتاته.